وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

BAGHDAD NO. 9 2008

- التأسيس الفلسفي لنظرية المعرفة في الفكر العربي المعاصر
- الفكر السياسي عند سلامة موسى
- بناء دولة القانون في العراق
- قراءة في مشروع الشرق الاوسط الكبير

بحوث المؤتمر العلمي الأول لكلية العلوم السياسية
الجامعة المستنصرية المحور الثاني

- الجامعات وألية بناء الدولة العراقية الجديدة
- أليات التعاون الدولي في مكافحة الارهاب
- سياسات بناء الوعي الوطني والتجربة الديمقراطية في العراق
- رؤية حول العلاقة المستقبلية بين العراق والمملكة العربية السعودية في مجال التعاون الامني
- مستقبل العلاقات الأمريكية - العراقية في ضوء مبادئ المالكي - بوش
- العنف الطائفي (لماذا ؟) الأسباب - النتائج - المعالجات

عرض الكتاب
العلاقات الايرانية الاوربية

السنة الثالثة - العدد التاسع - ٢٠٠٨

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسة -الجامعة المستنصرية

السنة الثالثة | العدد التاسع | ٢٠٠٨

ISSN = 1991-8984

المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية



قواعد النشر

ترحب المجلة السياسية والدولية والتي تصدرها كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية بإسهامات الكتاب والمفكرين من الكليات في الجامعات العراقية والعربية والمتخصصة بالقضايا السياسية والعلاقات العربية-العربية والعربية-الدولية، مع الاهتمام بشكل خاص بما يتعلق بالمشروع السياسي والحضاري والنهضوي العربي وتحيطكم علماً بشروط النشر فيها:

١. ان تعالج القضايا باسلوب علمي موثق.
٢. ان يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع باسلوب اكاديمي، يتضمن الكتب والمجلات.
٣. معيار النشر هو الموضوعية والدقة ودرجة التوثيق.
٤. ترسل البحوث بنسختين مع قرص مرن.
٥. ان لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن اربع عشرة صفحة A4.
٦. يشترط ان لا تكون البحوث او الدراسات قد نشرت في مجلات اخرى.
٧. تخضع البحوث او الدراسات المرسلة الى التحكيم العلمي من جانب الهيئة الاستشارية في المجلة.
٨. تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.
٩. لا تدفع المجلة او الكلية أي مكافات مالية عما تقبله من النشر فيها ويعد النشر اسهاماً معنوياً من الكاتب.

أن الآراء الواردة في البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة او الكلية

الاشتراك في المجلة تراجع كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

بغداد- باب المعظم – صندوق بريد ٤٦١٥٩

هاتف ٤١٤٠٨٥١ ، ٤١٤٠٨٥٢ ، ٠٧٩٠١٩٢٣١٥٢

البريد الالكتروني : E-mail : Psc_Mustainsiriyah@yahoo.com

E-mail: politicalcollege@yahoo.com

المحتويات

كلية العلوم السياسية

الجامعة المستنصرية



المجلة السياسية والدولية

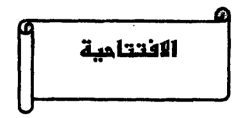


2008

ISSN
1991-8984

المحتويات

اسم المادة	رقم الصفحة



ضم العدد السابق (٨) عدداً من بحوث المحور الاول للمؤتمر العلمي السنوي الاول الذي عقدته الكلية في بداية شهر كانون الثاني-يناير ٢٠٠٨، واستكمالاً لذلك ننشر في هذا العدد المحور الثاني والذي يركز على ظاهرة الارهاب باعتبارها ظاهرة متشابكة الابعاد ولها تأثيراتها التي تعدت نطاقها الاقليمي لتصبح ظاهرة عالمية مقلقة لعملية التقدم والتنمية والامن والاستقرار، وان أية حلول (جذرية) لاجتثاثها لا يمكن ان يكتب لها النجاح الا من خلال تظافر الجهد الدولي وبعيداً عن السياسات الاحادية، والمعايير المزدوجة.

كما يتضمن العدد بحوثاً تناولت مختلف المواضيع التي تثير اهتمام الباحثين والمختصين.

والله الموفق........

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور

عميد كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

التأسيس الفلسفي لنظرية المعرفة في الفكر العربي المعاصر

الدكتور
صباح حمودي نصيف(*)

المقدمة:

نشطت في مطلع ثمانينات القرن العشرين الجهود الدؤوبة لدراسة النتاج الفكري عامة ،والفلسفي خاصة ولاسيما للمفكرين العرب بعد إن نال مفكرونا القدامى قدراً لا بأس به من البحث والدراسة في ضوء ما توفر للدارسين من مؤلفاتهم وبحوثهم ودراساتهم ، ومن مظاهر هذا الاهتمام خصص بعض الباحثين دراساتهم لرصد ومراجعة التيارات الفكرية والاتجاهات الفلسفية في حياتنا المعاصرة ولاسيما التي ظهرت بعد عصر اليقظة وما تلاها من سعي نحو النهضة والتقدم .

إذ يعد موضوع نظرية المعرفة Theory of Knowkdge ومن الموضوعات المهمة كونها علماً فلسفياً خالصاً ، وليست مبحثاً جزئياً مادامت تنصب على دراسة طبيعة المعرفة البشرية وتفسير ماهيتها ، وتعرض لأصولها وأدواتها بعد أن شغلت اهتمامات الفكر الفلسفي طوال هذه الحقبة، إذ لا نجد فيلسوفاً مهماً كانت منظومته الفلسفية التي يؤكدها إلا وتنطوي على نظرية للمعرفة بعدها موضوعاً جوهرياً في مشروعه الفلسفي إن كانت عند القدامى ومثلهم عند الفلاسفة المسلمين بدءاً من الكندي(ت ٢٥٢هـ/٨٦٦م) حتى ابن رشد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) فضلاً عن الدراسات الكلامية والتصوفية الإسلامية ،أما في فلسفة الأديان(اليهودي والمسيحي) فقد حظي هذا الموضوع باهتمام الفلاسفة أمثال القديس أوغسطين (ت ٤٣٠) والقديس انسلم (ت١١٠٩م) فضلاً عن القديس توما الأكويني (ت ١٢٧٤م) ،لأن تاريخ الفلسفة شهد بأن موضوعات نظريات المعرفة عريقة في الفكر الإنساني ترجع إلى ذلك الزمن الذي أخذ فيه أولئك الفلاسفة الانتقال من الموضوع (العالم) إلى الذات (العقل) ومن (الإنسان) إلى (المعرفة) ومن (الطبيعة) إلى (النفس) وأستمر البحث حول هذه المعرفة وطبيعتها وأحكامها في الفلسفة اليونانية والغربية أيضاً بدءاً من الفلاسفة أفلاطون (ت ٣٤٧ ق . م) وأرسطو (ت ٣٢٢ ق. م) والشكاك حتى ديكارت (ت١٦٥٠م) وجون لوك (ت١٧٠٤م) وهيوم (ت١٧٧٦م) فضلاً عن كانت (ت١٨٠٤م)، وصولاً إلى العصر الحديث

(*)استاذ كلية الآداب/الجامعة المستنصرية.

والمعاصر، كل هذا قادنا إلى البحث في أهمية نظرية المعرفة وأبعادها الفلسفية والفكرية والعلمية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

لقد وجد الباحث أن هذه النظرية لا تبحث في وسائل معرفتنا للعالم الخارجي من حس وعقل فحسب، بل هي تبحث في الاتجاهات الشكية والصوفية والحدسية أيضاً، فإذا أراد باحث ما من أن يحدد صورة شمولية لهذه النظرية في (الفكر الفلسفي العربي)، فيتوجب عليه أن يتناولها ليس في كتب الفلاسفة المسلمين فحسب، بل في كتب المتكلمين والأصوليين أيضاً ،وإذا كان الفلاسفة المسلمين قد بحثوها متأثرين بالفلاسفة اليونان ضمن مباحثهم في النفس والميتافيزيقا والمنطق فأن المتكلمين والأصوليين أيضاً قد أفردوا لها مباحث مستقلة تبوأت مكان الصدارة في كتبهم كالقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، وعضد الدين القاضي عبد الرحمن الأيجي (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م) وغيرهم الذين تناولوا موضوع المعرفة وأنواع المعارف ووحدة العلم وإمكان المعرفة، فكانوا بحق سفراً كبيراً بحيث أعطوا صورة عامة عن مواقف مفكري الإسلام من مشكلة المعرفة.

وهكذا بحث مفكرو الإسلام جميع الموضوعات المعروفة في (نظرية المعرفة) مثل إمكان المعرفة والشك والشكاك الذين صار الردّ عليهم باباً ثابتاً في كتب علم الكلام ومصادر المعرفة ، ومن هنا يمكن القول أن نظرية المعرفة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر قد ورثت التراث واستوعبت عامة الاتجاهات والمباحث الرئيسة ولهذا السبب حاول الباحث في هذا البحث أن يحلل في هذا المفهوم الفلسفي ويضعه أمام الدارسين باجتهاد متواضع إذ وقفنا عند رأي الفلاسفة والمفكرين إلى جانب أهل اللغة لتحديد أبعادها فضلاً عن الأصول الفلسفية لهذه المعرفة .

عليه سيعمد كاتب السطور إلى تناول المحاور الآتية (تحديد المفاهيم، الأصول الفلسفية لنظرية المعرفة المتمثلة بأنماط أو أقسام هي: أولاً-مصدر المعرفة، ثانياً-طبيعتها، ثالثاً-أمكانها)، لأن في تحديدها يتشخص منهج البحث ومرجعياته وأصوله .

تحديد المفاهيم :

بدءاً لابد أن نحدد بعض المفاهيم ذات الصلة الرئيسة بموضوعنا حتى نبين مدى أهميتها ومنها (نظرية، معرفة، نظرية معرفة، علم، ابستمولوجيا، حس، عقل، أدراك، تصور، فهم، الحدس، واقعية، مثالية، تجريبية، نقدية، اللأدرية، الشك، اليقين) لأجل أن تكون مدخلاً لها وفهماً لآلياتها ومنظومتها الفلسفية، وهذه المفاهيم هي:

١ـ نظرية Theory :

في أصلها اليوناني تعني فعل النظر إلى العالم أو المشاهدة ، وتدل حالياً على بناء فكري يربط بين أكبر عدد من المظاهر المنظورة ومن القوانين الخاصة ، غير أن النظرية تظل تقريباً خاضعة للمراجعة طالما أن النسق يراد له أن يكون شاملاً ونهائياً .[١]

إذن النظرية لفظ مرادف للنسق، أي أنها تطلق على مجموعة المسلمات والمبرهنات، فهي تقابل المعرفة الساذجة، التي لا تستند إلى مجموعة من التصورات العلمية[٢]، وبوجه عام، فهي فرض علمي يربط عدة قوانين ببعض ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه حتماً أحكاماً وقواعد مثل (نظرية الذرة) [٣] .

٢ـ معرفة Knowledge

هي إدراك الشيء على ما هو عليه ، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم ، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم من دون العارف[٤]، هي ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك أيضاً وتتميز من باقي معطيات الشعور من حيث إنها تقوم في آن واحد على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين[٥]، فهي إدراك الأشياء وتصورها ولها عند القدماء عدة معان : منها إدراك الشيء بأحدى الحواس، ومنها العلم مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً، ومنها إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية أو تصديقاً بأحوالها، ومنها إدراك الجزئي سواء كان مفهوماً جزئياً أو حكماً جزئياً ، ومنها إدراك الجزئي على دليل[٦].

القدماء هنا فرقوا بين المعرفة والعلم ، فقالوا إن المعرفة إدراك الجزئي، والعلم إدراك الكلي، وأن المعرفة تستعمل في التصورات والعلم في التصديقات، ومن أجل ذلك وصف الله تعالى

---

[١] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد الثالث، ط٢، منشورات عويدات، بيروت، ٢٠٠١، ص١٤٥٤، وأيضاً د. خليل أحمد خليل، معجم مفاتيح العلوم الإنسانية، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٩، ص٤٣٧ .

[٢] د. عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة، ط١، دار القلم، بيروت ١٩٧٥، ص٩٥ .

[٣] إبراهيم مدكور : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص٤٥ .

[٤] أبو الحسن علي الجرجاني : التعريفات ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، (ب ـ ت) ص١٢٢ .

[٥] إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، المصدر نفسه، ص١٨٦، وقارن: ندرية لالاند، المصدر نفسه، ص١٢٠١ ـ ١٢٠٤ .

[٦] د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٣٩٢ وقارن : مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، ط٤ ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص٦٩٩ وكذلك : روزنتال ويودين : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، مراجعة د. صادق جلال العظم وجورج طرابيشي ، ط١ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٤ ، ص٤١٠ و ٤٤٣ .

بالعلم لا بالمعرفة، فالمعرفة أقل من العلم، لأن للعلم شروطاً لا تتوافر في كل معرفة، فكل علم معرفة وليس كل معرفة علماً ، أما عند المحدثين ، فأن لفظ المعرفة له أربعة معان أيضاً .

أولاً : الفعل العقلي: الذي يتم به حصول صورة الشيء في الذهن ، وفي هذا المعنى إشارة إلى أن المعرفة تقابل وإيصال بين الذات المدركة والموضوع المدرك .

ثانياً : هو الفعل العقلي الذي يتم به النفوذ إلى جوهر الموضوع لتفهم حقيقته ، بحيث تكون المعرفة الكاملة بالشيء خالية ذاتها من كل غموض والتباس .

ثالثاً : هو مضمون المعرفة بالمعنى الأول.

رابعاً : هو مضمون المعرفة بالمعنى الثاني، وهذه المعاني وحدها كافية للدلالة على أن للمعرفة درجات متفاوتة أدناها المعرفة الحسية المشخصة، وأعلاها المعرفة العقلية المجردة[٧].

٣ـ نظرية المعرفة : ـ Theory of Knowledge

نظرية المعرفة هي البحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها، والبحث عن المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك أو بين العارف والمعروف[٨]، إذن هي مجموعة التنظيرات هدفها تحديد قيمة معارفنا وحدودها[٩].

ومن هنا يقول د. إبراهيم مدكور، أن الفلسفة الإسلامية قد بحثت " نظرية المعرفة بحثاً مستفيضاً ففرقت بين النفس والعقل، والفطري والمكتسب، والصواب والخطأ ، والظن واليقين "[١٠].

٤ـ علم Science :

هو استقصاء العلامات في الأشياء بإعداد المفاهيم وصقلها وترتيبها ومراجعتها بالاعتماد المتكرر على التجربة [١١] ، وهو الإدراك مطلقاً تصوراً كان أم تصديقاً ، يقيناً كان أم غير يقيني ، والعلم مرادف للمعرفة إلا أنه يتميز منها بكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة والأعمام [١٢] ، وقد

---

[٧] د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص٣٩٣ وقارن د. خليل أحمد خليل ، معجم مفاتيح ... ، المصدر السابق ، ص٤٠١ ، وكذلك : مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٦٩٤.

[٨] د. جميل صليبا : المصدر نفسه ، ص٤٧٨ وأيضاً : د. إبراهيم مدكور ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٢٠٣ .

[٩] أندريه لالاند : موسوعة ، المصدر السابق ، ص١٤٥٥ وكذلك : د. عبد الرحمن بدوي ، الموسوعة الفلسفية ،ج٢، ط١ ، الموسوعة العربية للنشر ، بيروت١٩٨٤، ص٣٩١-٣٩٢ .

[١٠] د. إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيق، ج١، ط٢، دار المعارف المصرية، القاهرة ١٩٦٨، ص٢٠.

[١١] يوسف الصدق : المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة ، ط٢ ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٠ ، ص١٩٣ .

[١٢] د. جميل صليبا : ج٢ ، المصدر السابق ، ص٩٩ وأيضاً : د. خليل أحمد خليل ، المصدر السابق ، ص٢٨٩ .

يقال أن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة ، لأن المعرفة العلمية أعلى درجات المعرفة وهي التعقل المحض ، ولهذا نلاحظ أن أفلاطون (ت ٣٤٧ق .م) يعتبر العلم " أعلى مراحل المعرفة ، وهي الفكر الاستدلالي ، والمعرفة الكاملة "[١٣] ، وعند ارسطو (ت ٣٢٢ق . م) " العلم منوط بمعرفة غاية كل موجود ، وهذه الغاية هي غير الموجود لأن الخير هو إحدى العلل ، وهو الإدراك الكلي لأنه لا علم إلا بالكليات "[١٤] أما العلم عند ابن سينا(ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) فـ " موضوعة هو ضروري "[١٥] وعند الغزالي(ت ٥٠٥هـ/١١١١م) " يكون على ضربين : فرض عين ، العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم اعتقاد وفعل وترك "[١٦] أي اعتقاد بالله وفعل بما أمر الله وترك لما نهى عنه، وفرض كفاية ، العلم الذي هو فرض كفاية هو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، فهو ضروري لبقاء البدن ، والحساب ضروري للمعاملات والموازين .[١٧]

٥ـ ابستمولوجيا (*) :

تعني علم المعرفة، وهي فرع من فروع الفلسفة ، تبحث في أصل المعرفة ، وبنيتها ومفاهيمها ومصداقيتها[١٨]، إذن هي مبحث في مبادئ العلوم وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ[١٩]، إذ أن تبلور مبحث الابستمولوجيا في الفلسفة الحديثة اقترن بأسماء مدارسها العقلية والتجريبية والنقدية، واختلفت الآراء في وضع أسس الابستمولوجيا ، فذهب بعضهم إلى أن العصر الذهبي لنظرية المعرفة يبدأ من ديكارت (ت ١٦٥٠م)[٢٠] ويرى آخرون أن جون لوك (ت ١٧٠٤م) هو

---

(١٣) مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٤٦٥ .
(١٤) مراد وهبة ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٦٦ .
(١٦) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، ولمزيد من التفاصيل راجع : عبد السلام بنعبد العالي ، الميتافيزيقيا والعلم والايديولوجيا، دار الطليعة للنشر، بيروت ١٩٨١ ، ص ٤٥ وكذلك : د. حسام الآلوسي ، الفلسفة والعلم تكامل لا تضاد ، ضمن كتاب حول العقل والعقلانية العربية ، ط١، دار الفكر القدس للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٥، ص٣٥ وما بعدها .
(١٧) مراد وهبة : المصدر السابق ، ص٤٦٥ ـ ٤٦٦ .
(*) هناك اختلاف في تحديد وظيفة ودلالة الابستمولوجيا بين المصطلح الفلسفي الفرنسي والمصطلح الإنكليزي ، حول ذلك الخلاف : راجع : د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج١ ، دار الكتاب اللبناني (ب.ت) ، مادة (ابستمولوجيا) .
(١٨) Runs , D.D (Ed) Dictionary of Philosophy , Littlefield , Adams , Co. Totawa New jersey . 1977 . P. 94 .. وقارن : روزنتال ويودين ، الموسوعة المصدر السابق ، ص١٠ ٤ .
(١٩) د. فؤاد زكريا : نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٣٦ وقارن : د. إبراهيم مذكور ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص١ .
(٢٠) د. إبراهيم مذكور : المصدر السابق ، ص٨ وقارن : محمد عزام ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة من السلفية إلى الحداثة ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ٢٠٠٤ ، ص٢١٤ ، وما بعدها .

الواضع الحقيقي لنظرية المعرفة [٢١] ، وتجد من يقول " أن الميلاد الرسمي لنظرية المعرفة كان مع ظهور المشروع الكانتي لنقد العقل " [٢٢] .

على الرغم من هذه الاختلافات يمكن القول أن الجميع على اتفاق في منشأ الابستمولوجيا بصفته مبحثاً متخصصاً في الفلسفة الحديثة ، وأن تحليل المعرفة الإنسانية من نواحيها شتى يوشك أن يكون هو الشغل الشاغل للفلسفة منذ القرن السابع عشر حتى اليوم ، إذ أن موقف الفيلسوف الحديث أو المعاصر ، في نظرية المعرفة أصبح أحد المعايير الرئيسية لتصنيف الاتجاهات الفلسفية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة[٢٣]، وسوف نتطرق إلى هذه الاتجاهات الرئيسة في نظرية المعرفة فيما بعد .

والآن لا بد من الإشارة إلى أن موقف الفيلسوف الابستمولوجي لا ينفصل عن مذهبه العام في الوجود وطبيعته ويقول د. محمد غلاب " يتأسس رأي كل فيلسوف في المعرفة على مذهبه في النفس تأسيساً ذاتياً ، فإذا كان فيلسوفاً مادياً لا يؤمن البتة بما بعد الطبيعة ، وكانت المعرفة الحسية عنده هي المصدر الوحيد للمعرفة" [٢٤] .

٦ـ حس Senes :

عند ارسطو يعتبر الحس هو إحدى قوى النفس ووظيفتها إدراك المحسوسات المشتركة .[٢٥]
أما الكندي فيرى أن المعرفة الحسية تبدأ بإدراك الحواس ومباشرتها لمحسوسها ، فالأشياء الحسية موجودة لأنها مدركة بالحس مباشرة بلا واسطة وهذه المباشرة هي الدليل على الوجود الخارجي ، إذن المعرفة الحسية هي الخطوة الأولى في عملية المعرفة . [٢٦] ، وعند أبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) "فهو انطباع صور الأجسام في النفس عن طريق الآلات المعدة لقبول تلك

---

[٢١] د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، ط ٧ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص٣٤٩ وأيضاً : هنترميد ، الفلسفة أنواعها ، ومشكلاتها ، ترجمة فؤاد زكريا ، ط٢ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٧٥ .

[٢٢] عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت : درس الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة ، ط٢ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٦ ، وقارن : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا ، العلم المعرفة ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ٢٠٠٣ ، ص٢٨٥ وما بعدها .

[٢٣] د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج١ ، المصدر السابق ، ص٣٣ وأيضاً : د. زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص٥ .

[٢٤] د. محمد غلاب : المعرفة عند مفكري المسلمين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٤٠ .

[٢٥] د. زكي نجيب محمود : المصدر نفسه ، ص١٢ : وقارن مراد وهبة ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٢٨٩.

[٢٦] نقلاً عن : د. عبد الرحمن مرحبا : الكندي فلسفته ـ منتجاته ، ط١ ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٤٦ وأيضاً د. علي حسين الجابري ، دراسة تحليلية لمنهج المعرفة ، المصدر السابق ، ص٨٥ ـ ٨٧ .

الصور وتأديتها إلى نفس بمناسبة كل واحد من تلك الآلات ، لما تقبل عنه صورته [٢٧] ، وعند ابن سينا فالحس عنده يدرك الجزيئات الشخصية [٢٨] ، أما الجرجاني (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) فالحس عنده "هو القوة التي ترتسم فيها صور الجزيئات المحسوسة" [٢٩].

ولهذا نلاحظ أنه لا يوجد في العقل شيء لم يوجد من قبل في الحس، وهو شعار الحسيين والتجريبيين الذين ينكرون أن يولد العقل مزوداً بأفكار فطرية أو بسيطة[٣٠]، ويقال الحس الذي به يدرك الإنسان والحيوان الأشياء الخارجية، والحواس الخمس هي: (البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس) وتسمى الحواس الظاهرة فضلاً عن أن الحس منه باطن وحس مشترك وهو القوة التي ترتسم فيها صور الجزيئات المحسوسة[٣١]، التي ليست بعينها مثل الحركة والسكون والعدد والشكل والمقدار، ومن هنـــا نلاحظ أن فلاسفتنا المسلمين يرون أن الإدراك الحسي يتألف من الإحساس الظاهر والإحساس الباطن وصلة الربط بينهما هي (الحس المشترك) الذي يصل الحواس الخمس الظاهرة بالحواس الباطنة ، إذن هو الحد المشترك بين الباطن والظاهر من الحواس ، والحاكم على الحواس الخمس .

٧ـ عقل Mind , Reason , Intellect :

عند أرسطو هناك العقل النظري والعقل العملي: " النظري يختص بإدراك الماهيات ، والعملي يختص بالحكم على الجزيئات ، إذن العقل عنده باعتباره مدركاً للماهيات في أنفسها ويسمى عقلاً نظرياً إذا ما حكم على الجزيئات خيراً أم شراً [٣٢] ، وعند الكندي فالعقل " هو جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها" وعند ابن سينا هو " العقل الفعال من شأنه أن يخرج العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل بإشرافه عليه ، وهو أن تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه ويطالعها ويعقلها بالفعل ويعقل أنه يعقلها بالفعل[٣٣] ، أما العقل المستفاد فهو عند الفارابي (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م) " عقل

[٢٧] د. عبد الأمير الأعسم : رسائل منطقية في الحدود والرسوم للفلاسفة العرب ـ أبي حيان ـ الكندي ـ الخوارزمي ـ ابن سينا ـ الغزالي ، ط١ ، دار المناهل للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٩٣ ، ص٥٦ ولمزيد من التفاصيل راجع : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والأبستمولوجيا، المصدر السابق ، ص ٣٣٣.

[٢٨] الشيخ الرئيس الحسين بن علي ابن سينا : النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية الآلهية ، تقديم د. ماجد فخري ، ط١، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٦٥ .

[٢٩] الجرجاني : التعريفات ، المصدر السابق ، ص٧٢ .

[٣٠] إبراهيم مدكور : المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٧٢ .

[٣١] زكي نجيب محمود : نظرية ، المصدر السابق ، ص١٢ .

[٣٢] أندريه لالاند: موسوعة، المصدر السابق، ص١١٦٤ ـ ١١٦٥ ، وقارن : مراد وهبة ، المصدر السابق ، ص٤٦٢ .

[٣٣] د. الأعسم ، رسائل منطقية ، المصدر السابق ، ص١٧٧.

المعقولات التي هي صور العقل بالفعل من حيث هي معقولة بالفعل[٣٤]، وعند الغزالي العقل الفعال، قوة إدراك الكليات إذ يقول" أن التخيلات المحسوسة ما لم يحصل في الخيال لا يحصل منها المعاني الكلية المجردة[٣٥]، أما عند ابن رشد (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م) فالعقل النظري هو "القوة المشتركة لجميع الأناس[٣٦]. معنى هذا أن للعقل الفعال ينتزع الصورة المعقولة من الصور الخيالية، فالصور الخيالية تستضئ بالعقل الفعال ،ولهذا نلاحظ أن ابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) سمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، وجمعه عقول[٣٧].

أما كانت (ت ١٨٠٤م) فيستعمل العقل بمعنين مختلفين أحدهما واسع ، والآخر ضيق محدود، فالعقل بالمعنى الواسع يشمل الذهن وهو ملكة المعرفة القبلية ويتحقق في وظائف التفكير العقلية وفي التصورات والأحكام ولا سيما في أسس المعرفة ، أما العقل بالمعنى المحدود فهو الملكة العليا للمعرفة وهو الذي يحقق الوحدة العليا للتفكير [٣٨] .

إذن هو جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها ، فهو قوة تجريد تنتزع الصور من المادة وتدرك المعاني الكلية كالجوهر والعرض والعلة والمعلول والغاية والوسيلة والخير والشر . ولهذه القوة عند فلاسفة الإسلام عدة مراتب منها العقل الهيولاني وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات وهو مرادف للعقل بالقوة يشبه الصفحة البيضاء التي لم ينقش عليها شيء بالفعل ، ومرتبة العقل بالملكة وهو العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات ، ومرتبه العقل بالفعل وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة [٣٩]، ويقال أيضاً أن العقل قوة في الإنسان تدرك طوائف من المعارف اللا مادية، إذ يدرك العقل أولاً ماهيات الماديات، أي كنهها لا ظاهرها، ويدرك ثانياً معاني عامة مثل العلة والجوهر ويدرك ثالثاً علاقات أو نسباً كثيرة ويدرك رابعاً المبادئ العامة في كل علم ، وفي العلوم إجمالاً ويدرك خامساً وجود موجودات غير مادية مثل (الله، النفس، العقل

---

[٣٤] مراد وهبة : المصدر السابق ، ص٤٦١ .
[٣٥] المصدر نفسه ، ص٤٦٠ ، وقارن : د. الأعسم ، المصدر نفسه ، ص٤٦٢ .
[٣٦] محمود قاسم : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توما الأكويني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (ب . ت) ، ص ١٩وقارن : مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، المصدر نفسه ، ص٤٨٢ .
[٣٧] أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور : لسان العرب ، م١١ ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م ، ص٤٥٩ و ٤٦١ مادة (عقل) .
[٣٨] نقلاً عن : د. عبد الرحمن بدوي ، المدخل ، المصدر السابق ، ص٧٣ - ٧٤ ، ولمزيد من التفاصيل راجع : د. حسام الآلوسي ، حول العقل والعقلانية ، المصدر السابق ، ص٢٢٣ وما بعدها .
[٣٩] د. جميل صليبا : ج٢ ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٨٤ ، وراجع أيضاً : د. محمد فتحي الشنيطي ، المعرفة ، ط٥ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨١ ، ص١٣٢ وقارن : د. معن خليل عمر ، علم اجتماع المعرفة ، مطبعة جامعة الموصل ، بغداد ١٩٩١ ، ص٤٨ .

نفسه)[٤٠] فالأشاعرة جعلوا العقل المرتبة التالية للشرع، وذلك لأنه حسب اعتقادهم أن معرفة الله تحصل بالعقل وتجب بالسمع.[٤١]

ومن المفيد أن نؤشر حقيقة ثابتة عند الفلاسفة المسلمين (حصراً) وهي رفضهم وجود ما يسمى بـ(العقل الكلي) خارج النفس وتصوراتها، ورفضوا معه وجود ما يسمى بـ(النفس الكلية) خارج تصورات النفس ويستخدمون مصطلح (عقل الكل) تأكيداً لرفضهم وجود ما يسمى بالعقل الكلي.[٤٢]

٨ ـ إدراك : **Perception :**

للإدراك عدة معان منها ، حصول صورة الشيء عند العقل سواء كان ذلك الشيء مجرداً أو مادياً ، جزئياً أو كلياً ، حاضراً أو غائباً ، وأن إدراك الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلة عند المدرك فأما أن تكون تلك الحقيقة ، حقيقة الشيء الخارج عن المدرك نفسها إذا أدرك فتكون حقيقة ما لا وجود له بالفعل وهذا ما قاله ابن سينا[٤٣] ، أما الجرجاني فالحقيقة المتمثلة عن المدرك ليست حقيقة الشيء الخارجي نفسها ، وإنما هي مثال لها مرتسم في ذات المدرك ، فإذا دل الإدراك على تمثل حقيقة الشيء وحدة من غير حكم عليه بنفي أو إثبات سمي تصوراً وإذا دل على تمثل حقيقة الشيء مع الحكم عليه بأحدهما سمي تصديقاً[٤٤]، وعند ديكارت الإدراك الحسي يقال على الإحساس والتخيل وتصور الأشياء العقلية المحضة، والإدراك على أنواع، منها الباطني وهو وقوف الإنسان على إحساساته ومشاعره الداخلية، ومنها حسي، ومنها فطري، وهو مصطلح أطلقه الفيلسوف البراكماتي جون ديوي (ت ١٩٥٢م) على مرحلة البحث التي كان فيها الإنسان يجعل مُدار نظرته إلى الأشياء هي المتعة والمنفعة، والإدراك منه الواعي وهو معلوم بالشعور، وإدراك ضعيف غير

---

(٤٠) روزنتال : الموسوعه الفلسفية ، المصدر السابق ، ص٢٧١ ، وأيضاً : د. محمد فتحي الشنيطي ، المعرفة ، المصدر نفسه ، ص١٣٢ ، وقارن : إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص١٢٠ .

(٤١) د. محمد غلاب : المعرفة عند مفكري ... ، المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٤٢) د. الأعسم : المصطلح الفلسفي عند العرب ، ط١ ، مكتبة الفكر العربي ، بغداد ١٩٨٥ ، ص٢٠٩.

(٤٣) ابن سينا : المصدر السابق ، ص١٣٢ وقارن : د. جميل صليبا ، ج١ ، المصدر السابق ، ص٥٣ ، وايضاً : مراد وهبة ، المصدر السابق ، ص٣٧ ـ ٣٨ .

(٤٤) الجرجاني : التعريفات ، المصدر السابق ، ص١٦ .

واقع في الشعور[٤٥] ويميز الفيلسوف كانت بين الإدراك التجريبي الذي يربط بين الظاهرة والوجدان والإدراك الخالص وهو عين الوجدان الذاتي[٤٦].

٩ـ تصور Impression :

التصورات هي عبارة عن معان أولية ليست مستفادة من التجربة، وهذا هو رأي المذهب العقلي فقط، أما المذهب الحسي فهو على خلاف ذلك، وهنا يقول ارسطو "ما من شأنه أن يحمل على أكثر من واحد"[٤٧] وعند ابن سينا هو "العلم بذوات الأشياء كعلمك بالإنسان والشجرة وغير ذلك ولا يصلح أن يكون موضوعاً للموافقة أو للمخالفة"[٤٨] أما عند الغزالي "هو الماهية المجردة عن المادة الشخصية وعن الأعراض الملازمة للمادة كالمقدار واللون والصوت..." وعند ابن رشد فهو "أن العقل إذا انتزع الصورة من الهيولى وعقل جوهرها على كنهها سواء كانت صوراً جوهرية أو عرضية عرض لها حينئذ في الذهن معنى الكلية"[٤٩]، وعند الجرجاني هو "حصول صورة الشيء في العقل"[٥٠]

١٠ـ الفهم Under Standing :

قوة تلقائية وظيفتها الحكم ، أي الربط بين الظواهر ، وذلك يرد ظاهرة مشروطة إلى ظاهره مشروطة وهكذا دواليك ، والفهم عند أفلاطون نوع من المعرفة يقع بين الظن والحدس وعند ارسطو الفهم وهو النشاط العقلي بعامة [٥١] ، ويقول الجرجاني " أن الفهم صحته الانتقال من الملزومات إلى اللوازم " [٥٢] أما عند الكندي " فهو ما يقتضي الإحاطة بالمقصود إليه " [٥٣] .

١١ـ الحدس Intuition :

الحدس في رأي الفلاسفة القدماء مأخوذ من معنى السرعة في السير ، ويقول ابن سينا " الحدس حركة إلى إصابة الحد الأوسط ، إذا وضع المطلوب ، أو إصابة الحد الأكبر ، إذا أصيب

---

(٤٥) د. جميل صليبا : ج١ ، المعجم الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٥٤ ، وقارن : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٣١٨ وما بعدها .

(٤٦) د. جميل : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤٧) مراد وهبة : المعجم ، المصدر السابق ، ص١٩٩ ، وقارن : د. خليل أحمد خليل ، المصدر السابق ، ص١١٣ .

(٤٨) ابن سينا ، النجاة ، المصدر السابق ، ص٣ .

(٤٩) مراد وهبة : المعجم ، المصدر نفسه ، ص١٩٩ .

(٥٠) الجرجاني : التعريفات ، المصدر نفسه ، ص٤٢ .

(٥١) د. جميل صليبا : ج٢ ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٣٥٠ ، وأيضاً : محمد فتحي الشنيطي ، المعرفة ، المصدر السابق ، ص١٣١ .

(٥٢) الجرجاني : التعريفات ، المصدر السابق ، ص١٣٠ ، وايضاً : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٥١٤ .

(٥٣) د. عبد الأمير الأعسم : رسائل منطقية ... ، المصدر السابق ، ص٦٧ .

الأوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول [٥٤]" ويرى الجرجاني " أن الحدس هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب" [٥٥] .

والحدس عند بعض الاشراقيين هو ارتقاء النفس الإنسانية إلى المبادئ العالية حتى تصبح مرآة مجلوة تحاذي شطر الحق ، فتمتلئ من النور الإلهي الذي يغشاها من دون أن تخل فيه اخلالاً تاماً ، ويسمى هذا الامتلاء من النور الإلهي كشفاً روحياً أو إلهاماً ، وللحدس في الفلسفة الحديثة عدة معان منها الحدس الديكارتي باعتباره الاطلاع العقلي المباشر على الحقائق البديهية . [٥٦]

معنى ذلك أن الحدس عنده عمل عقلي يدرك به الذهن حقيقة من الحقائق يفهمها بتمامها في زمان واحد لا على التعاقب.

وهنا يقول ديكارت إن هناك ثلاثة أنواع يدركها العقل بالحدس وهي: (الطبائع البسيطة، الحقائق الأولية، المبادئ العقلية التي تربط بعض الحقائق ببعض) [٥٧] .

١٣ــ واقعية Reallsim :

كان المذهب الواقعي في فلسفة العصور الوسطى يطلق على مجموعة من المذاهب التي تشترك في عدائها للمثالية ، وأن للأشياء الخارجية وجوداً عينياً مستقلاً عن العقل الذي يقوم بإدراكها، ومعرفة العقل مطابقة لحقائق الأشياء المدركة ، فليس العالم الخارجي كما هو مدرك في عقولنا إلا صورة لهذا العالم كما هو موجود في الواقع والعلاقة التي تقوم بين الأشياء الخارجية وأفكارنا التي تمثلها في عقولنا علاقة مشابهة وتطابق [٥٨] .

فالمعرفة عند الواقعيين هي إدراك عقلي أو حسي مطابق للأعيان في الخارج ، أو هي انعكاس العالم الخارجي على العقل ، ومن خلال هذا يتبين لدينا أن الواقعية هي نقيض المذهب الأفلاطوني الذي يعتبر المثل وحدها هي الموجودات الحقيقية ، وأن الأشياء أو الموجودات المحسوسة ليست إلا مجرد أشباح وظلال للمثل .

---

[٥٤] ابن سينا : النجاة ، المصدر السابق ، ص٧٥ .
[٥٥] الجرجاني : التعريفات ، المصدر نفسه ، ص٥١ .
[٥٦] د. جميل صليبا: المعجم، ج١، المصدر السابق، ص٤٥٢، وقارن: روزنتال، الموسوعة، المصدر السابق، ص١٦١ .
[٥٧] د. جميل صليبا : المعجم ، المصدر نفسه ، ص٤٥٣ وقارن : إبراهيم مدكور ، المعجم ، المصدر السابق ، ١٢٨ ، وأيضاً : يوسف الصديق ، المفاهيم والألفاظ ، المصدر السابق ، ص١٢٨ ، وراجع : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر نفسه ، ص٢٨٣ ، وقارن : خليل أحمد خليل ، معجم مفاتيح ، المصدر السابق ، ص١٦٥ .
[٥٨] د. عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص٦٢٤ ، وأيضاً : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٧٣٠ ـ ٧٣١ ، وراجع : د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٣٢٥ ولمزيد من التفاصيل راجع : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٤١٧ ، وما بعدها .

ولهذا تميزت في الواقعية نظريتان، هي الواقعية المباشرة، والواقعية غير المباشرة، وتقوم النظرية الأولى على أن عملية الإدراك هي وعي مباشر للأشياء، وتقول النظرية الثانية إن الإدراك هو في المحل الأول لإدراك الصور التي تكون في العقل وتمثل موضوعات العالم الخارجي، ولذلك تسمى النظرية الثانية بالواقعية الثنائية لأنها تقول بوجود الأشياء في الواقع ولصورها في الذهن. [٥٩]

١٣ـ مثالية Idealism :

يطلق اسم المثالية عامة ، على النزعة الفلسفية التي تقوم على رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه وهنا تكون مقابلة للواقعية الوجودية التي تقرر أن هناك وجوداً مستقلاً عن الفكر ، ولهذه المثالية صورتان :

أولاهما : تريد أن ترد الوجود إلى الفكر الفردي ، وتسمى بالذاتية أو المثالية الشخصية .

وثانيهما : تريد أن ترد الوجود إلى الفكر عامة فردياً كان أم جماعياً أم كلياً ، وأول من استعمل لفظ المثالية هم فلاسفة القرن السابع عشر ، ولا سيما ليبنتز (ت ١٧١٦م) الذي جعل المثالي مقابلاً للمادي ، ثم اطلقت المثالية بعد ذلك على الأفلاطونية وذلك لقول أفلاطون بالمثل ، وهي نماذج العالم الحسي ، وصوره وأصوله ، ولها وجود مفارق في عالم خاص بها يسمى بعالم المعقولات او عالم المثل ، ثم اطلق لفظ المثالية في القرن الثامن عشر على مذهب جورج بركلي (ت١٧٥٣م) مع أن هذا الفيلسوف يطلق على مذهبه اسم اللا مادية لا اسم المثالية ، ويطلق (كانت) اصطلاح المثالية التجريبية على مذهب من يقول : إن وجود الأشياء في المكان خارج الفكر أمر مشكوك فيه أو أمرَ لا يمكن البرهان عليه وأولى صور هذه المثالية التجريبية في نظر (كانت) مثالية (ديكارت)[٦٠] التي لا تسلم إلا بوجود حقيقة واحدة لا يتطرق إليها الشك وهي (الآنا) إذ ذهب بعض الباحثين إلى أن ديكارت هو مؤسس المثالية لأنه يفصل بين الفكر والوجود ويقول : "من واجبي قبل أن أتأكد من وجود أشياء خارجية ، أن أنظر في أفكاري من حيث هي كذلك وأن أعرف الواضح منها والغامض،

---

[٥٩] عبد المنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ، ط١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة (ب.ت) ، ص٥٢٢ وأيضاً : د. جميل صليبا ، المعجم ، ج٢ ، الصدر السابق ، ص٥٥٢ ـ ٥٥٣ ولمزيد من التفاصيل راجع : د. يحيى هويدي ، المقدمة في الفلسفة العامة ، ط٩، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٢٤٠ وما بعدها ، وأيضاً : د. خليل أحمد خليل ، معجم مفاتيح المصدر السابق ، ص٤٥ ، وكذلك : أندريه لالاند ، موسوعة المصدر السابق ، ص١١٧٥ ـ ١١٧٨ .

[٦٠] د. جميل صليبا : المعجم ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨ وقارن : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٤١١ .

وأن العالم الخارجي لا يدرك إلا بعد إدراك الأفكار ، وأن الحقيقة تسبق الوجود ، وليس في وسعنا أن ندرك العالم الخارجي إدراكاً مباشراً عن طريق الحواس" . (٦١)

إذاً فالمثالي هو المنسوب إلى المثال، وهو وصف لكل ما هو كامل من نوعه ، ويتصف بالسمو الفني أو الأخلاقي أو العقلي وربما سمي بالروحي لما يقتضيه من سعة النظر والتجريد، وقد يطلق المثالي على كل ما ينشئه الذهن أو يتخيله، ويسمى هنا بالخيالي وهو مقابل للحقيقي أو الواقعي.

١٤ـ تجريبية Empiricism :

مفردة يونانية، معناها تجربة، اختبار، وقوام التجريبية بوصفها منهجاً تتبع تعاليم الاختبار من دون أفكار سابقة ولا فرضيات قبلية، أما التجريبية مذهباً ، فهي نظرية تقول إن معارفنا لا تصدر عن مقومات قبلية، بل تصدر من مكتسبات التجربة ونتائجها ومثال ذلك أن تجريبية ديفيد هيوم (ت١٧٧٦م) مبحث في الطبيعة البشرية، دراسات في الإدراك الإنساني وهي التي أيقضت بجذريتها الانتقادية الكانتية في مواجهة نظرية الأفكار الفطرية(٦٢)،ومن هنا نلاحظ أن انتقادية (كانت) كانت بمثابة حل للتناقض بين التجريبية والفكر الغيبي فالأختبار لا يبدو فيها معطى وإنما بناء.

١٥ـ نقدية Criticism :

مذهب يرى أنه من الضروري مناقشة المعلومات كلها ، إذ ليس ثمة معرفة مقبولة إلا بعد بحث وتمحيص ، وتتمثل الصورة النقدية في مذهب (كانت) الذي يقف موقفاً وسطاً بين العقليين والحسيين ، فهو لا يرفض دعاوى الطرفيين ، إذ يرى أن المصدر الأول للمعرفة هو الإحساس ، ولكن هذا الإحساس إنما يرجع إلى الحساسية الصورية باعتبارها القوة الفكرية الأولى من قوى الإدراك ، وذلك لأن ما نقابله في التجربة الحسية ليس سوى تأثيرات حسية متفرقة لا تتخذ صورة الإحساس الكامل إلا بعد تطبيق صورتي الحساسية عليها وهما صيغتا الزمان والمكان ، إذ إن أساس النقد عنده هو الفحص والاختبار (٦٣) .

---

(٦١) د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٣٢١ ـ ٣٣٢ وقارن : د. محمد علي أبو ريان ، الفلسفة ومباحثها ـ ط٣ ، دار الجامعات المصرية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٢٢٣ وما بعدها ، ولمزيد من التفاصيل أرجع : د. عبد الرحمن بدوي ، الموسوعة الفلسفية ، المصدر السابق ، ص٤٣٩ ـ ٤٤١ ، وكذلك : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٦١٣ ـ ٦١٤ ، وأيضاً : د. خليل أحمد خليل ، معجم مفاتيح ، المصدر السابق ، ص٣٧٠ ، وأندرية لالاند ، موسوعة ، المصدر السابق ، ص١١٧٨ .

(٦٢) د. خليل أحمد خليل : معجم مفاتيح ، المصدر السابق ، ص٩٤ وقارن : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابتسمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٣٧١ .

(٦٣) إبراهيم مذكور : معجم ، المصدر السابق ، ص١٨٠ . وقارن : د. عبد الرحمن بدوي ، مدخل جديد إلى الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٢٣ وكذلك : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٧٠٧ ، ولمزيد من التفاصيل راجع : د. محمد علي أبو ريان ، الفلسفة

١٦ـ لا أدرية Agnosticism :

بمعناها العام وجهة النظر التي تنكر إمكان التأكد من وجود الله مع أن تاريخ اللا أدرية بهذا المعنى يرتبط بالشكية، إذ يعد العالم الإنكليزي توماس هكسلي (ت ١٨٩٥م) أول من صاغ اصطلاحها عام (١٨٦٩م) ومعناه إنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

أن للا أدري هو القائل بمحدودية العقل والرافض لإستخدامه في مناقشة مسائل الألوهية والمدرك وذلك لتهافت كل الحجج على وجود الله ، ويترتب على ذلك أن اللا أدري يعلق الحكم على وجود الله فهو لا ينكره ولا يثبته، غير أن طائفة من اللا أدريين وجدوا في محدودية العقل ذريعة لعدم الخوض في مسائل الدين، ولم تكن اللا أدرية عقيدة بقدر ما كانت منهجاً في التفكير ومن هنا ينصح هكسلي بمسايرة العقل مهما كانت النتائج النهائية التي يتوصل إليها ، ولكنه مع ذلك يحذر من الركون نهائياً إلى هذه النتائج[٦٤].

فعند القدماء تعد اللا أدرية فرقة سوفسطائية تقول بالتوقف في وجود كل شيء وعلمه وعند المحدثين تقوم بأنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة أو على القول ببطلان علم ما بعد الطبيعة وتطلق اللا أدرية على المذاهب الفلسفية التي تقول بعجز العقل عن معرفة الحقائق كنسبية سير وليم هاملتون(ت١٨٥٦م) ووضعية أغوست كونت(ت ١٨٥٧م) ونقدية عمانوئيل كانت(ت ١٨٠٤م) وتطورية هربرت سبنسر(ت ١٩٠٣م) وخلاصة القول إن كل فيلسوف ينكر المعرفة أو يقول بوجود حقائق لا سبيل إلى معرفتها هو من اللاأردية . [٦٥]

١٧ـ الشك Doubt :

الشك يراد به التوقف عن إصدار حكم ما استناداً إلى أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة، وأن أدوات المعرفة من عقل أو حواس أو غير ذلك لا تكفل اليقين ، وقد اتخذ الشك صوراً شتى ، وأهم ما في مذهب الشك هو تعليق الحكم ، وهنا اصطبغ الشك بصبغة سلبية خالصة ، فإذا اصطنع الباحث الشك منهجاً للتفكير فافترضه بإرادته لتخليص عقله من معلوماته السابقة، وهنا

ومباحثها ، المصدر السابق ، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣ ، ود. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، ط١، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص١٦٧ وما بعدها .

[٦٤] د. عبد المنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ، المصدر السابق ، ص٣٩٠ .

[٦٥] د. جميل صليبا : المعجم ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص٢٥٨ ، وقارن : إبراهيم مدكور ، المعجم ، المصدر السابق ، ص١٥٨ ، ولمزيد من التفاصيل راجع : د. محمد علي أبو ريان ، الفلسفة ومواحثها ، المصدر السابق ، ص٢١١ ـ ٢١٢ وكذلك : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٥٦٩ وأيضاً : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابتسمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٣٦٤ ـ ٣٦٧ .

كان الشك حالة إيجابية وسمي بالشك المنهجي الذي يفرضه صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته واختيار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات[٦٦]، وديكارت شكه منهجي وليس وجودياً وهو شك العقل وليس شك العقيدة ولهذا فهو أدنى إلى أن يكون صورياً من أن يكون حقيقياً[٦٧]، فهو فعل من أفعال الإرادة وينصب على الأحكام لا على التصورات والأفكار، لأن التصورات في ذاتها من غير حكم لا تسمى صادقة ولا كاذبة[٦٨]، وحسب رأي الجرجاني أن الشك هو ما استوى طرفاه "وهو الوقوف بين الشيئين، لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن"[٦٩]، ويرى ابن سينا الشك "هو الوقوف على حد الطرفين من الظن مع تهمة ذلك "الظن"[٧٠].

١٨ـ اليقين Certainty :

أما عند الكندي " فهو سكون الفهم مع ثبات القضية ببرهان " [٧١] ويرى الغزالي " أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً ، لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين " [٧٢] .

اما عند الجرجاني فاليقين لغةً ، هو العلم الذي لا شك معه ، أما اصطلاحاً ، فهو اعتقاد الشي بأنه كذا مع الاعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا ومطابقاً للواقع وغير ممكن الزوال[٧٣] ، أما عند المتصوفة فاليقين لديهم ثلاثة أقسام وهي علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فعلم اليقين ما يحصل عن الفكر والنظر كعلمنا بوجود الماء في البحر ، وعين اليقين ما يحصل عن مشاهدة وعيان كمن مشى ووقف على ساحل البحر وعاينه، وحق اليقين ما يحصل عن العلم والمشاهدة معاً كمن خاض في البحر واغتسل بمائه[٧٤] .

---

[٦٦] د. توفيق الطويل : أسس ، المصدر السابق ، ص٣٠٠ ، وراجع حاشية : ازفلد كوليه ، المدخل إلى الفلسفة ، ترجمة أبو العلا عفيفي ، ط٥ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٢٨٥ ، وقارن : د. محمد فتحي الشنيطي ، المعرفة ، المصدر السابق ، ص٦٧و٩٥ .

[٦٧] د. كمال يوسف الحاج: رينيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة،(ب .ت)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٤، ص٧٥.

[٦٨] د. زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة ، المصدر السابق ، ص١٠٧ .

[٦٩] الجرجاني : تعريفات ، المصدر السابق ، ص١٠٤ .

[٧٠] د. عبد الأمير الأعسم : رسائل منطقية ... ، المصدر السابق ، ص٧٣ .

[٧١] المصدر نفسه ، ص٦٩ .

[٧٢] المصدر نفسه ، ص١٦٨، وأيضاً: د. عبد الرحمن بدوي ، الموسوعة الفلسفية ، المصدر السابق ، ص٦٤٠ ، ولمزيد من التفاصيل راجع: د. هاني يحيى نصري، المنطق والابستمولوجيا... ، المصدر السابق ، ص٢٩٣ وما بعدها .

[٧٣] الجرجاني : المصدر نفسه ، ص١٤٢ .

[٧٤] د. جميل صليبا : المعجم ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص٥٨٨ ـ ٥٨٩ .

الأصول الفلسفية لنظرية المعرفة :

يستلزم من الباحث تقسيمه على أسس وقواعد اعتمدها الباحثون في نظرية المعرفة ، لكونها علماً فلسفياً خالصاً وليس علماً جزئياً ، إذ أنها تنصب على دراسة مصدر المعرفة ، أصولها وأدواتها وتعرض طبيعة المعرفة البشرية وتفسير ماهيتها ثم تتناول بالبحث إمكان قيامها أو الشك في حدودها وذلك من خلال دراستها إلى أنماط أو أقسام رئيسة هي :

أولاً : مصدر المعرفة، أي من أين يحصل الإنسان على معارفه ، وعلومه ، هل من الحس أم العقل أم غير ذلك.

ثانياً :طبيعة المعرفة، أي هل موضوع المعرفة الذي هو العالم الخارجي، حقيقة أم وهم أم غير ذلك.

ثالثاً : إمكان المعرفة ، أي هل الإنسان يصل إلى المعرفة عن حد معين، أم لا يوجد هناك حد للإنسان في الحصول على المعرفة، وهنا نجد اتجاهين رئيسيين هما:الاتجاه الدوغمائي أو الإيقاني أو الاعتقادي، والاتجاه الشكي الذي ينقسم إلى قسمين أساسيين هما : الشك اللا أدري والشك المنهجي وسوف نفصل ذلك.

أولاً : ــ مصدر المعرفة :

في نظرية المعرفة اختلف الباحثون عبر تاريخ الفلسفة في تحديد (مصدر المعرفة) للعلم والمعرفة عند الإنسان ، وهنا نجد الكثير من الآراء الفلسفية في هذا الموضوع ، إذ اهتمت الفلسفة المعاصرة بالبحث عن مصدر المعرفة (الحقيقية ، اليقين) اهتماماً جدياً ، وانقسمت حول ذلك عَدة اتجاهات فلسفية رئيسة تتفق فيما بينها على جملة من الأسس والبديهيات والقواعد الأساسية لمصدر المعرفة ، وأبرز هذه الاتجاهات الفلسفية هو (الاتجاه العقلي، والاتجاه التجريبي الحسي، والاتجاه النقدي الكانتي ، والاتجاه الحدسي ، فضلاً عن ذلك ظهرت اتجاهات فلسفية معاصرة درست المعرفة ومصدرها ومنها الاتجاه البراكماتي ، والاتجاه الوجودي ، والماركسية) .[٧٥]

١ــ الاتجاه العقلي :

بمعناه الدقيق يمثل حركة تاريخية بلغت قمتها في زمن الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي (ت ٢٥٢هـ/٨٦٦م) والفارابي (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) وابن رشد (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م) فاتفقوا ، عامة ، على فروق فرعية في مذاهبهم على أن العقل الإيجابي هو مجرد

[٧٥] د. حسام الآلوسي: مدخل إلى الفلسفة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ٢٠٠٥ ، ص٢١٣ ـ ١١٦ .

منفصل عن الجسم ، إذ يرى الكندي أن العقل يفيض على العقل الهيولاني الذي هو في النفس الإنسانية عقل بالقوة وينمو ويرتقي إلى عقل بالفعل وهذا الأخير يدعوه الفارابي وابن سينا بالعقل المستفاد أو الفائض عن العقل الفعال المؤثر في العقول البشرية [٧٦]، ومن خلال ذلك نلاحظ أن الاتجاهات المعروفة في نظرية المعرفة يحدث فيها تداخل ولا سيما الاتجاه العقلي والاتجاه الحدسي والصوفي عند فلاسفة الفيض ، إذ أدت نظريتهم في الفيض دوراً كبير الأهمية في توجيه الفلسفة الإسلامية توجيهاً حاسماً نحو نوع من التصوف ذي طابع خاص كل الخصوص ، وهنا يتميز منهم الفيلسوف ابن رشد الذي يمثل الاتجاه العقلي ، على نحو أدق من غيره من الفلاسفة المسلمين ، لأن حله لمشكلة انتقال العقل من حال القوة إلى الفعل لم يكن على أساس القول بوجود عقل فعال خارج النفس عند المعارف ، بل على أساس (الحدس العقلي) [٧٧] .

أما في القرنين السابع والثامن عشر ، فقد أخذ أصحاب هذا الاتجاه يجمعون على أن أكبر قسط من العلم الإنساني صادر عن العقل ذاته ، وخير من يمثل هذا الاتجاه هم الفلاسفة العقليون الغربيون أمثال ديكارت (ت ١٦٥٠م) وليبنتز (ت١٧١٦م) وسبينوزا (ت١٦٧٧م) إذ يرى هؤلاء أن هذا الاتجاه يتفق في مصدر المعرفة على جملة من المبادئ الرئيسة هي أن معرفة الحقيقة إنما يستقل بها العقل وحده ، وهي بطبيعتها أفكاراً وتصورات ، ثم يختلفون فيما بعد ، هل هذه الأفكار هي فطرية في العقل أم هي في مستوى أعلى منه؟[٧٨]، إذ يتفق أصحاب هذا الاتجاه على أن الحواس كثيراً ما تخدع ، فكم مرة تخدع العين ما يظنه الرائي رجلاً وهو ليس برجل ، فإن كانت الحواس مصدر معارفنا ، فهذه المعارف إذن يحتمل فيها الخطأ لاحتمال أن تكون الحواس قد نقلتها إلى صور مالت بصاحبها نحو الخطأ في الحكم عليه ، ويرى هذا الاتجاه ، أن الصورة المثلى للمعرفة هي تلك التي يمثلها البرهان الرياضي ، لأن هذه البراهين تبدأ ببديهيات أو حقائق واضحة بذاتها ، وتتصل عن طريق سلسلة من الاستنباطات المتدرجة إلى نتائج ضرورية لا رجوع عنها [٧٩].

---

[٧٦] محمد غلاب : المعرفة عند مفكري ، المصدر السابق ، ص٢١٩ ، وقارن : دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة د. زكي نجيب محمود وأحمد أمين ، القاهرة (ب.ت) ، ص١٤٧ .

[٧٧] ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، نشرة الهند ١٩٤٧، ص٤٨ وقارن : محمود قاسم ، نظرية المعرفة ، المصدر السابق ، ص٢١ .

[٧٨] ازفلد كولبة : المدخل إلى الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٠٣ ، وأيضاً : د. حسام الآلوسي ، مدخل ... المصدر السابق ، ص٢١٤ ، وكذلك : محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، ط٢ ، دار التعاون للنشر ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٥٩ - ٦٠و٦٨ .

[٧٩] موريس كورنفورد : مدخل إلى المادية الجدلية (نظرية المعرفة) ، ترجمة محمد مستجير مصطفى ، بيروت ١٩٧٩ ، ص١٧٦ .

لكن كيف نصل إلى الحقيقة باعتماد العقل مصدراً للمعرفة ؟ هنا يجيب فيلسوف العقلانية الكبير رينيه ديكارت ، أن ذلك يتم باعتماد المنهج العقلي الذي يبدأ من الشك إلى اليقين على وفق قواعد معروفة هي (قاعدة الشك وقاعدة التحليل وقاعدة التركيب وقاعدة الإحصاء) التي أودعها للوصول إلى الحقيقة[٨٠] ، وهنا لابد من الإشارة إلى أن منهجية الشك وجد امتدادها وتكاملها عند أبي حامد الغزالي[*] الذي يقول موجباً الشك بصفته منهجاً في النظر " فمن لم يشك ، لم ينظر ، ومن لم ينظر ، لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة " [٨١] إذ كان الشك المنهجي من السمات الثابتة والمميزة لمنهج الغزالي ، من حيث كونه منهجاً ينتهي إلى يقين لا يلابسه شك .

أما منهج الشك الديكارتي فهو أساس قائم على الشك في كل معرفة نحصل عليها من الحواس لنصل إلى إثبات وجود النفس والله عن طريق الفكر ، إذ الأفكار عند ديكارت تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي أفكار فطرية فينا ، وأفكار تأتينا من خارج أنفسنا ، وأفكار نخلقها خلقاً ، فالصنف الثاني من الأفكار هو الذي نخطئ حياله ، لأننا مدفوعون بميل طبيعي إلى الظن ، أن أفكارنا التي تأتي من خارج أنفسنا هي صور شبيهة بالأشياء الخارجية التي أحدثت فينا تلك الأفكار[٨٢] .

إذن إن المعرفة العقلية اليقينية عند ديكارت تنصب على الأفكار البسيطة أو الطبائع البسيطة التي تتميز بالجلاء والوضوح مثل : الله ، النفس ، الامتداد ، الوجود ، الزمان ، الوحدة .. وهذه الأفكار ندركها بالحدس ثم يستنبط العقل ما يلزم من النتائج ، فالحدس والاستنباط اسلوبان للمعرفة عند ديكارت . [٨٣]

فضلاً عن ذلك أن معظم العقليين مثل ديكارت وليبنز واسبينوزا قد استخدموا منهج الاستنباط الرياضي في ميدان المعرفة إيماناً منهم بأن الرياضة والمنطق هما المثل الأعلى لليقين .

---

[٨٠] ديكارت : تأملات في الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٤١ وقارن : هنترميد : الفلسفة أنواعها ، المصدر السابق ، ص١٨٨ وأيضاً : مراد وهبة ، المعجم ، المصدر السابق ، ص٣٩٠ .

[*] أن الغزالي عد الشك أول درجة في المعرفة التي تتدرج عبر درجات متصاعدة لتبلغ اليقين ، هذه الدرجات هي : الشك ، الظن، الاعتقاد، اليقين، حول ذلك راجع: الغزالي، أحياء علوم الدين، م١، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (ب.ت)، ص٧٢ ـ ٧٣ .

[٨١] المصدر نفسه ، ص ٧٣ ، وقارن : د. عرفان عبد الحميد : الإمام الغزالي دراسة في المنهج ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٣٢ ، الجزءان (٣-٤) بغداد ١٩٨١ ، ص٥٨٨ ـ ٥٨٩ .

[٨٢] ديكارت : تأملات ... ، المصدر نفسه ، ص٤٣ وقارن : هنترميد : الفلسفة أنواعها ، المصدر نفسه ، ص١٨٩ .

[٨٣] د. كمال يوسف الحاج : رينيه ديكارت ، المصدر السابق ،ص٦٠ ، وأيضاً : د. محمد علي أبو ريان : الفلسفة أنواعها ، المصدر السابق ، ص٢٢٧ وقارن : توفيق الطويل ، أسس ، المصدر السابق ، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧ ولمزيد من التفاصيل راجع : جعفر السبحاني ، نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والآلهيات ، مكتبة التوحيد ١٩٨٣ ، ص١٤١ ، وما بعدها .

٢ـ الاتجاه التجريبي :

إن الخصم المألوف للإتجاه العقلي في مصدر المعرفة هو الاتجاه التجريبي أو الحسي الذي يصرح ان المصدر النهائي لكل معرفة هو الإحساس أو التجربة ، إذ وجه هذا الاتجاه عدة انتقادات رئيسة للإتجاه العقلي حول مصدر المعرفة ، ومن هذه الانتقادات ، أن المبادئ الواضحة التي يصرح بها أصحاب الاتجاه العقلي هي مبادئ مستمدة من التجربة الحسية ، فضلاً عن أن مبدأ العقلية الذي قال به العقلانيون هو أيضاً مبدأ تجريبي تراكمي مستمد من الملاحظات الحسية ، وهنا نلاحظ أن الفلاسفة المسلمين عدوا المعرفة الحسية تشكل واحداً من مصدرين للمعرفة هما (الحس والعقل) ، إذ يقول الكندي " العلم أجمع إنما هو للحس والعقل وما جانسهما"[٨٤] أما الفارابي فيقول : علم الشيء قد يكون بالقوة الناطقة ، وقد يكون بالمتخيلة ، وقد يكون بالإحساس " [٨٥] والمتخيلة هي جزء من الحواس الباطنة ، ومثل هذا نجده عند ابن رشد الذي صنف المدركات إلى صنفين ، صنف مدرك بالحواس وصنف مدرك بالعقل . [٨٦]

إذ أن المعرفة الحسية عندهم تختص بالجزيئات ، أما معرفة الكليات فهي وظيفة العقل ، وهكذا تنقل لنا الحواس معرفة العالم الخارجي[*] ، عالم الجزيئات المحسوسة ، ولكن من جهة أخرى فأن الحسي ضروري ولا غنى عنه لتكامل المعرفة بالعقل إذ تؤكد ذلك عبارة ارسطو ، من فقد حساً فقد علماً ، التي صارت مثلاً مشهوراً عند الفلاسفة المسلمين [٨٧] ويصيغ ابن رشد معنى عبارة ارسطو إذ يرى أننا مضطرون للحصول على المعقولات أن نحس أولاً ثم نتخيل وعندئذ أخذ الكلي ، ولذلك من فاتته حاسة ما من الحواس ، فاته معقول ما [٨٨] .

---

[٨٤] أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق وتقديم د. محمد عبد الهادي ابو ريدة ، ج١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٣٦٩هـ - ١٩٥١م، ص٣٠٢ .

[٨٥] أبو نصر محمد الفارابي:آراء اهل المدينة الفاضلة، تحقيق د. البير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٩، ص٧٣.

[٨٦] أبو الوليد محمد ابن رشد : تهافت التهافت ، تحقيق د. سليمان دنيا ، ط٢ ، ق٢ ، دار المعارف المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٥٥٣ .

[*] هو مجموع الأشياء المادية والظواهر وعلاقتها المتبادلة الموجودة خارج الإنسان ووعيه ، إذا هو مصدر المعرفة ، إذ يحصل الإنسان على المعرفة بواسطة العالم الخارجي (الطبيعة والمجتمع) خلال عملية الحياة الاجتماعية ، فالعالم الخارجي أذن من وجهة نظر المثالية أما من خلق كائن روحي دائم (كالمثالية الموضوعية) أو أنتاج للوعي الفردي (كالمثالية الفردية) لمزيد من التفاصيل راجع : رزونتال ويودين ، الموسوعة الفلسفية ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

[٨٧] ابن رشد : تلخيص الحاس والمحسوس ، ضمن كتاب (في النفس) لأرسطو ، تحقيق ، د. عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٢٠٧ .

[٨٨] المصدر نفسه ، ص٢٠٨ .

ويرى الباحث أن إعطاء هذه المكانة للحواس في المعرفة من الفلاسفة المسلمين إنما يعود في أحد أسبابه إلى تأثرهم بارسطو .

أما من يمثل هذا الاتجاه في الفكر الغربي هم الفلاسفة (جون لوك ، وهيوم ، وباركلي...) ، إذ يصرح زعيم الحسيين جون لوك (ت ١٧٠٤م) أن العقل يولد صفحة بيضاء ، وأن التجربة الحسية التي تخط سطورها على هذه الصفحة البيضاء ، وهذا يعني أن لوك قد رفض الأفكار الفطرية التي قال بها ديكارت .[٨٩]

إن سبب رفض لوك للأفكار الفطرية قائم على رأي ، أنه توجد معان فطرية وقضايا موروثة يتساوى في العلم بها الناس في كل زمان ومكان ، وهذا خلاف ما نشاهده بين الناس ، ولوك ذهب إلى تفسير الفكر تفسيراً آلياً عن طريق تداعي المعاني وترابطها ترابطاً آلياً ميكانيكياً لا يدع مجالاً لفاعلية ذهنية كبيرة .[٩٠]

والتجربة الحسية عند لوك على نوعين ، تجربة تأتي عن طريق الأشياء الخارجية الموجودة في العالم الخارجي وتجربة إدراك تأملي أو تأمل عن طريق العمليات الذهنية ، أما الإدراك الحسي بحسب فهم لوك فهو يقدم لنا الأفكار البسيطة مثل اللون والشكل والحجم والصلابة ، أما التأمل فيقدم لنا الأفكار المركبة التي لا توجد في العالم الخارجي مثل العلاقات القائمة بين الأشياء وفكرة العلية وفكرة الجوهر ، بعدها اهتم لوك بتحليل الأفكار المركبة ليثبت أنها ليست في نهاية الأمر إلا صورة من التجربة الحسية ، ومع ذلك قد ميز لوك بين الصفات الأولية التي هي في الأشياء ، والصفات الثانوية القائمة في الأشياء [٩١].

٣ـ الاتجاه النقدي ـ التوفيقي :

هذا الاتجاه خصه الفيلسوف الألماني كانت (ت١٨٠٤م) في كتابه الشهير (نقد العقل العملي)، الذي جمع فيه بين رأي العقليين في مصدر المعرفة ، ورأي التجريبيين فيها ، وهو بهذا قد

---

[٨٩] د. يحيى هويدي : المقدمة في الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٤٥ ، وقارن : محمد باقر الصدر ، المصدر السابق ، ص ٧١ ومابعدها.

[٩٠] د. يحيى هويدي : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

[٩١] المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، وأيضاً : الشنيطي ، المعرفة ، المصدر السابق ، ص١١٢ وكذلك : هويدي ، مقدمة في الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص١٤٦ . وكذلك : جعفر السبحاني ، نظرية المعرفة المدخل ، المصدر السابق ، ص١٣٧ .

أحدث ثورة في نظرية المعرفة ، شبهها الباحثون بـــ(الثورة الكوبرنيكية)[*] في الفلك ، إذ قرر كانت أن المعرفة لا تتم بالخبرة الحسية وحدها ولا بالعقلية وحدها ، بل بهما معاً . [٩٢]

إذ لا نستطيع أن ننظر إلى موقف كانت من مصدر المعرفة إلا من هذه الزاوية ، باعتباره محاولة ذاتية لتشكيل العالم أو الطبيعة واخضاعه لقوانين العقل ، فهو اتجاه عقلي شارط ، أي أنه يضع الشروط التي تدرك بواسطتها التجربة ، ويهتم أولاً وقبل كل شيء برسم القوالب التي تشكل ما نحصل عليه من العالم من محسوسات ، وهذه القوالب هي (الزمان والمكان) ، وهي صورة المعرفة أو الحساسية أو الأفكار القبلية بحسب تحديد كانت ، أما المحسوسات فهي مادة المعرفة ، وتتميز هذه الأفكار القبلية من أنها ليست مستمدة من التجربة ، وأنها أولية وضرورية ، وهي التي تجعل التجربة ممكنة أو تمثل الشروط الممكنة للتجربة ، فضلاً عن ذلك فقد صرح كانت أن هذه الشروط العقلية باطنه في التجربة وليست مفارقة . [٩٣]

إن آراء كانت هذه بحسب ما يرى الكثير من الفلاسفة المعاصرين هي توفيق بين الآراء المتعارضة لكلا الاتجاهين ، إذ يقول كانت بهذا الصدد " إن التصورات بدون الإدراكات فارغة ، والادراكات بدون التصورات عمياء " [٩٤]

هنا يمكن أن نلخص رأياً لزكي نجيب محمود يقول فيه : أن كانت قد ذهب إلى أننا لا يمكن أن نصل إلى معرفة الأشياء في ذاتها ، لأن لدينا معرفة بالظواهر تتألف منها التجربة ، فالعلم بنظره يتوخى الوصول إلى قوانين كلية ضرورية تتيسر بمقتضاها الظواهر ، وهو بهذا يتفق مع هيوم في أن العالم الذي لدينا معرفة به هو عالم الظواهر فحسب [٩٥] .

---

[*] الثورة الكوبرنيكية : إشارة إلى الانقلاب الذي أدخله كوبر نيكوس(ت١٥٤٣م) في علم الفلك ، بدلاً عن نظرية بطليموس الاسكندري التي شيدها قبله بأكثر من أربعة عشر قرناً ، والقائلة إن الأرض مركز النظام الكوني ، أما كوبر نيكوس فقال : أن الشمس هي مركز النظام ، وأن المشاهد الذي يدور على دوران كوكبة هو الذي يحدد حركات الإجرام الأخرى بالنسبة لحركته الأرضية ، ولمزيد من التفاصيل أنظر : د. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، المصدر السابق ، ص١٧٢ ، وأيضاً : د. حسلم محي الدين الآلوسي ، بحثه ، عالم يتغير - دراسة في فكر النهضة الأوربية وأبعاده الفلسفية والعلمية ، في مجلة الأديب المعاصر،العدد ٣١ ، لسنة ١٩٨٦،ص١١٨-١١٩ .

[٩٢] كانت : نقد العقل العملي ، ترجمة أحمد الشيباني ، (ب.د)، بيروت١٩٦٦، ص٥٤ وقارن :د. زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة ، المصدر السابق ، ص٧٤ .

[٩٣] كانت : المصدر نفسه ، ص ٥٥وقارن : د. يحيى هويدي ، المقدمة ، المصدر السابق ، ص١٤٢ ، وأيضاً : د. محمد عابد الجابري ، مدخل إلى فلسفة العلوم ، المصدر السابق ، ص١٢١ - ١٢٣ .

[٩٤] كانت : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها وأيضاً : هنترميد ، الفلسفة أنواعها ، المصدر السابق ، ص١٩٤ .

[٩٥] د. زكي نجيب محمود، نظرية، المصدر السابق، ص٩٠، وأيضاً : الشنيطي ، المعرفة ، المصدر السابق ، ص١٢٨ .

وخلاصة القول : إذا كان الحسيون يفضلون الحس على العقل ، فليس معنى هذا أن الحسيين ينكرون العقل إنكاراً تاماً ، والعكس صحيح ، إذ لا يوجد مذهب فلسفي يبيح لنفسه أن ينكر العقل تماماً ، لأن الفلسفة كلها تقوم على التأمل العقلي .

فالمسألة إذن ليست إلغاء العقل عند الحسيين وإلغاء الحس عند العقليين[٩٦] ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الحسيين يعترفون بوجود المعرفة العقلية ، لكنهم يؤولونها تأويلاً خاصاً ، باعتبار أنها مجرد صدى لادراكاتنا الحسية والأمر شبيه بذلك عند العقليين فهم يعترفون بوجود المعرفة الحسية لكنهم يؤولونها تأويلاً خاصاً،وهي عند كانت بحاجة إلى أن تشكل تشكيلاً عقلياً وتوضع في قوالب وإطارات ينشرها العقل عليها لينظمها ويردها إلى شيء من الوحدة .

عليه ففلسفة كانت ليست تجريبية على الإطلاق ، وإنما هي نوع من العقلانية ، وقد أسماها كانت نفسه (بالمثالية الترانسنتدنتالية) (*) .

٤ــ الاتجاه الحدسي والصوفي :

مثلما عرفنا أن مصدر المعرفة عند التجريبيين هي الحواس ووسيلتها عند العقليين هي العقل ، فعند النقديين هي الحواس والعقل معاً.

نجد أن الحدسيين ويتفق معهم المتصوفة الذين يرون أن الله أو الحق المطلق لا تكون الوسيلة إلى معرفته لا بالحواس ولا بالعقل ولا كليهما معاً، بل تكون الوسيلة إلى معرفته هي الحدس (intuition) أو العيان المباشر أو البصيرة، وبحسب رأي الكندي أن الله قد اختص من يشاء من عباده ويسميهم (ذوي الدين والألباب) وطريق هؤلاء هو الوحي والإلهام ويسمي الكندي هذه المعرفة، بالمعرفة الإلهية أو العلم الإلهي، إذن فطرق المعرفة ثلاث: حسية وعقلية وإشراقية، الأولى: عرفنا أنها تحصل بالحواس الظاهرة، والثانية: تتم بالاستدلال أوالاستنباط والبرهان والثالثة: بالحدس

---

(٩٦) د. يحيى هويدي : المقدمة ، المصدر نفسه ، ص١٤٤ ، وأيضاً : جان فال ، طريق الفيلسوف ، ترجمة أحمد حمدي محمد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٢٧ .

(*) وهو المذهب الذي يقول إن جميع المظاهر لا ينبغي أن ينظر إليها إلا على أساس أنها تمثلات أولية وعلى أساس أنها أشياء في ذاتها كون إن (المكان والزمان) ليسا إلا صور حسية للحدس ، أما مصطلح (الترانسنتدنتالي) بحسب رأي كانت فقد جاء بعدة معاني منها : وصف للمعرفة التي يتألف منها علم الأمور الأولية أو نظرية الأوليات ، إذن فالمعرفة الترانسنتدنتالية بهذا المعنى هي معرفة لا للموضوعات فحسب ، بل لطبيعة وشروط معرفتنا الأولية لتلك الموضوعات ، اي أن المعرفة الأولية لا يجب أن يقال عنها أنها ترانسنتدنتالية لمجرد كونها أولية وإنما تنصب صفة الترانسنتدنتالية على المعرفة التي تؤلف نظرية الأوليات أو علم الأوليات ، لمزيد من التفاصيل راجع : كانت ، نقد العقل العملي ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

والإلهام، ولكل من هذه الطرق وسائله وأدواته، إذن فالمعرفة الحدسية هي امتزاج الشخص العارف بالشيء المعروف حتى لا تكون هناك تفرقة بين الذات من جهة والموضوع من جهة أخرى. [٩٧]

ويقدم الحدسيون والمتصوفة دليلاً على قولهم هذا، "أن الإنسان لا يعرف أنه موجود لا بعينه ولا بأذنه ، لأنك لو اغلقت هذه الأبواب كلها التي تطل بها على العالم، فستعرف أنك موجود، بهذا أن الإنسان لا يعرف نفسه بمقدمات برهانية، بل بالادراك العياني المباشر، وهذا الادراك العياني المباشر يطلق عليه اصطلاحاً فلسفياً (الحدس) " [٩٨].

ويتفق الحدسيون فيما بينهم على قاعدة معرفية أساسية هي أن الحقيقة التي يدركها الإنسان بحدسة ليست مما يمكن التعبير عنها بكلمات ، لأن الإنسان في هذه الحالة يندمج في موضوع إدراكه اندماجاً يجعله شيئاً واحداً ، فضلاً عن ذلك يتفق الحدسيون على أن ظواهر الكون ليستْ هي حقيقة ، بل حقيقتها كانت وراء تلك الظواهر وتختلف عنها ، إذ أن الحقيقة المطلقة الكامنة وراء الظواهر هي واحدة لا تكثر فيها ولا تتعدد [٩٩] .

أن من أبرز الفلاسفة الذين يمثلون هذا الاتجاه في الفلسفة الغربية المعاصرة، الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (ت ١٩٤١م) صاحب فلسفة (التطور الخالق) ، فلفلسفته جانبان ، أحدهما سلبي يتجه نحو نقد أصحاب النزعة العلمية التجريبية ، والآخر إيجابي يتجلى فيه الجديد الذي يتقدم به ، أي المنهج الحدسي ، إذ يصرح برغسون أن أبسط إدراك للعالم يظهر لنا على أنه حركة مستمرة دائبة في كل متماسك عن طريق الحدس .. فيه نتحرر من كل نزعة إلى التحليل وإلى فك المركبات وارجاعها إلى عناصرها ، والمعرفة الحدسية تكمن في المتحرك وتحتضن حياة الأشياء ذاتها فتصل بها إلى المطلق ، فالحدس البرغسوني هو حدس ذو رؤية وجدانية بخلاف حدس ديكارت فهو ذو رؤية عقلية مباشرة [١٠٠] ، أما موقف برغسون من العقل ، فأنه يرى أنه ليس غريزة مصقولة مستكملة ، وأن الطبيعة شاءت أن تجعل الإنسان كائناً مبتكراً مبدعاً ، فزودته بعقل قادر على كل شيء ، صالح لكل شيء ، إلا أن الإنسان كثيراً ما يتعثر في مجالات التجربة ، وكثيراً ما يقع في الخطأ [١٠١] ، ولهذا رفض برغسون أن يكون العقل قادراً على المعرفة ، بل هو عاجز تماماً عن تزويدنا بكل المعرفة ، لأنه إذا كان يستطيع أن يصول ويجول في ميدان المادة ... فأنه لا

---

[٩٧] الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، المصدر السابق ، ص٤٦ وقارن : زكي نجيب محمود ، نظرية ، المصدر السابق ، ص٩٤ ، وأيضاً : د. عبد الرحمن مرحبا ، الكندي فلسفة ، المصدر السابق ، ص٤٦ .
[٩٨] د.زكي نجيب : المصدر نفسه ، ص٩٥ .
[٩٩] هنترميد : الفلسفة أنواعها ، المصدر السابق ، ص١٨٤ .
[١٠٠] د. الشنيطي : المعرفة ، المصدر السابق ، ص١٩٣ .
[١٠١] هنترميد ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

يستطيع ذلك في ميدان النفس أو ميدان الحس الباطني ، لأن الحس الباطني له زمان خاص به ، مختلف عن الزمان المادي المرتبط بالمكان ، وهنا العقل لا يستطيع أن ينفذ إلى هذه المنطقة الخاصة بالحس أو الزمان الباطني ، ولا يستطيع أن يخضعها لمعقولاته ، فكان لابد أن نبحث عن ملكة بحيث تستطيع وحدها أن تختص بالحس الباطني وبالزمان الشعوري وهذه الملكة هي (الحدس) [١٠٢] .

فضلاً عما تقدم نلاحظ، أن برغسون يوجه عدة انتقادات إلى الاتجاه العقلي في المعرفة منها:

أ. المعرفة العقلية لا تستطيع أن تلمس الشيء موضوع المعرفة إلا لمساً سطحياً تتناوله من الخارج فقط .

ب. المعرفة العقلية ، معرفة نسبية أي أنها لا تبدأ ولا تتم إلا من وجهة نظري أنا وتبعاً لا تجاهي العقلي .

ج. المعرفة العقلية معرفة مجردة وكمية للشيء .

د. المعرفة العقلية، معرفة ميتة ، لا تستطيع أن تنقل إلينا إلا حالة واحدة للشيء ، وهي حالته الثابتة .

ه. المعرفة العقلية تلجأ إلى تحليل الشيء موضوع المعرفة إلى أجزاء ، ثم تقوم بتركيبها فيما بعد . [١٠٣] .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الحدس عند برغسون مختلف عن الحدس الأفلاطوني الذي يعتبره " هو الخطوة التالية لعملية الاستدلال العقلي " وكذلك عن الحدس الكانتي الذي يعتمد عليه إنشاء تجربتنا وتنظيمها في صورتي (الزمان والمكان) [١٠٤] .

٥ـ الاتجاه البراكماتي :

هذا الاتجاه هو الآخر ثورة على الفلسفة الكلاسيكية في (نظرية المعرفة) كما طرحها العقلانيون والتجريبيون معاً في العصر المعاصر ، إذ يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الطريق الموصل إلى المعرفة ليس العقل وإنما هو السلوك أو الفعل . [١٠٥]

وأبرز من يمثل هذا الاتجاه في المعرفة هم الفلاسفة تشارلس بيرس (ت١٩١٤م) ووليم جيمس (ت ١٩١٠م) ، إذ ذهب هذا الأخير بقوله " إذا أردنا أن نحصل على فكرة واضحة لموضوع ما ، فليس علينا إلا أن ننظر إلى الآثار العملية التي يظن أنه قادر على أن يؤدي إليها والنتائج التي

---

[١٠٢] د. يحيى هويدي : مقدمة ، المصدر السابق ، ص١٥١ .
[١٠٣] المصدر نفسه ، ص١٥٤ .
[١٠٤] جان فال : طريق الفيلسوف ، المصدر السابق ، ص٢٨٣ .
[١٠٥] د. يحيى هويدي : مقدمة ، المصدر السابق ، ص١٥٦ .

ننتظرها منه ورد الفعل الضار الذي قد ينجم عنه ، وإذا كانت الصورة العقلية التي لدينا عن هذا الموضوع ليس حقاً صورة جوفاء ، فأنها ستنحل في نهاية الأمر إلى مجموعة من الآثار العملية التي نتوقعها منه سواء القريبة منها أم البعيدة " . (١٠٦)

أن هذا الموقف البراكماتي إنما هو مهاجمة للموقف العقلي من المعرفة ، لأن البراكماتية ترى أن الماهيات العقلية لا وجود لها ، بل الموجود هو الآثار السلوكية التي تحقق فيها الفكرة ، إذن أن موقفهم هذا هو ضد مفهوم الماهية العقلية ، فهم على اتفاق مع الفلاسفة الحسيين ، إذ أن التجربة الحسية عندهم تقع في دائرتين ، دائرة الآثار الحسية ، ودائرة الأفعال أو السلوك ، وكلاهما يقع في الخارج وله صبغة حسية . (١٠٧)

وخلاصة الكلام : يرى الباحث أن الاتجاه البراكماتي ، قد ربط الحقيقة بالفعل أو السلوك العملي ، وبالرغم من أن الاتجاه الواقعي الذي سارت عليه البراكماتية فهناك ، بعض المآخذ عليها ، منها أن البراكماتية لا تقدم لنا بحثاً إيجابياً عن الحقيقة ، لأنها في صميمها ليست إلا منهجاً لاكتشاف الخطأ والأفكار الخاطئة ، معنى ذلك أنها بحث سلبي عن الحقيقة وليست بحثاً إيجابياً.

إذن أن كل فيلسوف براكماتي طريقته الخاصة هي تحليل نظرية المعرفة وشرحها ، إلا أنهم اتفقوا جميعاً مع (بيرس) على جعل الفائدة والنجاح والنتائج العملية هي المعايير الوحيدة للحقيقة والأصول الأساسية لها (١٠٨) .

٦ــ الاتجاه الوجودي :

هذا الاتجاه وهو الآخر ثورة في (نظرية المعرفة) على المفهوم العقلي الديكارتي لها، وأبرز شخصية ممثلة له هي سورين كيركجارد (ت ١٨٥٥م)، الذي رد على المفهوم الديكارتي (أنا أفكر إذن،أنا موجود)، يقول كير كجورد "كلما أزددت تفكيراً قل وجودي" أو "أنا أفكر فأنا لست موجوداً"(١٠٩).

وهو بهذا يقلل من قيمة العقل مصدراً للمعرفة الوجودية ، ويعلي في الوقت نفسه من قدر التجربة الوجودية الحية، إذ إن الفلاسفة الوجوديين يبدعون في الوجود الإنساني بأكمله باعتباره حقيقة واقعية كلية لا تتجزأ، بحيث يجعل الوجوديون محور تفكيرهم منصباً على وجود الإنسان في العالم والتحامه معه التحاماً مباشراً، وهذا هو مايقصدونه حين يتحدثون عن الوجود البشري في العالم.(١١٠)

---

(١٠٦) وليم جيمس : بعض مشكلات الفلسفة ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧، ص ٢٦وقارن :د. يحيى هويدي ، المصدر نفسه ، ص١٥٧ .

(١٠٧) جان فال : طريق ، المصدر السابق ، ص٢٨٧ .

(١٠٨) د. قيس هادي أحمد: دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية، ط١، مكتبة المنصور العلمية، بغداد، ٢٠٠٠، ص٨٤ .

(١٠٩) نقلاً عن : د. يحيى هويدي ، مقدمة ، المصدر السابق ، ص١٦٥ .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص١٦٦ ، وقارن : جان فال ، طريق الفيلسوف ، المصدر نفسه ، ص١٩٣ .

إذن أن العقليين يتحدثون عن العقل الإنساني باعتباره يمثل جميع البشر على السواء ، لأن البشر جميعهم نسخة واحدة ، لكن الوجوديين لا يؤمنون بهذا ويعتقدون بأن كل فرد أو كل كائن بشري يكون في حد ذاته قلعة من الفردانية [١١١] .

وفضلاً عن كيركجارد فهناك فلاسفة آخرون ، مثل مارتن هيدجر(ت١٩٧٧م) ، جان بول سارتر (ت ١٩٨٠م) وهؤلاء ذهبوا إلى الرأي ذاته الذي قال به كيركجارد .

وخلاصة القول : أن الوجوديين يعتقدون بأن لكل منا عالمه الخاص ، وله تجاربه الخاصة التي يحياها بنفسه ، ولا يستطيع غيره من الناس أن يجتازها كما يجتازها هو ، ويعانيها كمعاناته لها، ويصبر عنها كما يصبر هو عنها ، ومن أجل هذا حرص الوجوديون في مسرحياتهم التي قدموها لنا على أن يعطوا أبطالهم صوراً مختلفة متناقضة ليبينوا لنا أن البشر ليسوا نسخة واحدة كما ظن العقليون ، وهكذا فأن الفيلسوف الوجودي يلجأ إلى الفردانية التي تظهر له من خلال عالمه الخاص ، لكون التجربة الوجودية وسيلة مباشرة للالتحام بالحياة في مواقف خاصة يشعر فيها الفرد بمعاناته الذاتية لتجربة خاصة تظهر له من خلالها حريته المقيدة وفردانيته المهمومة . [١١٢]

ويرى الباحث أنه إذا نظرنا إلى الفلسفات الوجودية من ناحية (طبيعة المعرفة) وجدنا على الرغم من جهودها إلا إنها تقف في منتصف الطريق بين المثالية والواقعية ، أي أن الوجودي يهرب من الواقع عن طريق المخيلة ويحيل هذا الواقع إلى واقعه هو ، فضلاً عن ذلك : فأن المثالية تكتفي بأن ترى هذا الواقع من خلال الذات العارفة ، وتعلق وجود الأشياء الخارجية على هذه الذات وتربط وجودها بعجلة التفكير ومقولاته وقوانينه ، بحيث تنظر إلى (التفكير) في نهاية الأمر على أنه هو الذي يخلق لنا وجود الأشياء ، ومن هنا جاءت الوجودية وعارضت هذه المثالية العقلية المتطرفة ، وقالت إن العقل لا يمكن أن يخلق وجوداً لهذه الأشياء .

٧ــ الاتجاه المادي الجدلي :

يأخذ هذا الاتجاه ثروة التجارب التي جمعتها البشرية ومنجزات العلم ، واستناداً إلى هذا ، فأن المعرفة عنده تعتبر الانعكاس الهادف والفعال للعالم الموضوعي وقوانينه في ذهن الإنسان ، لأن مصدر المعرفة هو العالم الخارجي المحيط بالإنسان والذي يؤثر فيه ويثير لديه إحساسات وأفكار ومفاهيم مناسبة ، ولهذا نلاحظ أن نظرية المعرفة تقوم على أساس الإقرار بأن العالم الموضوعي ، أشياءه وظواهره هي المصدر الوحيد للمعرفة البشرية ، وعلى العكس من ذلك المثاليون الذين لا

---

[١١١] د. يحيى هويدي : مقدمة ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، وبخصوص (الفردانية) ، راجع : هنترميد ، الفلسفة أنواعها، المصدر السابق ، ص٢٣٢ .

[١١٢] يحيى هويدي :المصدر نفسه ، ص١٦٧ وأيضا : جان فال ، المصدر السابق ، والصفحة نفسها .

يعتبرون الحقيقة الموضوعية مصدر معارفتنا ، لأنها الباعث الوحيد للمعرفة ، فهي أما أن تكون (وعي) أو إحساس الإنسان الفرد "الذات" وإما نوعاً من (وعي غامض) يفترض وجوده خارج الإنسان . ولهذا فأن كارل ماركس (ت١٨٨٣م) وفردريك أنجلز (ت١٨٩٥م) ، قد تخطيا الحدود التي أقامها الفلاسفة السابقون في فهم عملية المعرفة وأوجدوا نظرية جديدة في المعرفة هي نظرية المادية الديالكتيكية في المعرفة .[١١٣]

وهنا نلاحظ أن الإنسان لا يمارس تأثيراً فعالاً في العالم فردا ، بل التعاون مع الناس الآخرين ومع المجتمع كله ، معنى هذا ، إذا كان العالم المادي هو موضوع المعرفة ومصدرها ، فأن المجتمع البشري هو ذاتها ووعاؤها ، إذن المعرفة من وجهة النظر المادية الديالكتيكية هي عملية لا نهائية لها تقول بتقريب الفكر من الشيء المدرك ، وحركة الفكر من الجهل إلى المعرفة ، إذ أن التطبيق يعتبر نقطة الانطلاق والأساس في عملية المعرفة، لأن التطبيق هو العمل النشيط الذي يمارسه الناس في تحويل الطبيعة والمجتمع[١١٤]من هنا يعتبر التطبيق هوالمنطلق والأساس للمعرفة.

إن تطور المعرفة يتمثل في حركتها من الإدراك الحسي الحي المباشر إلى الفكر المجرد ، فالمعرفة الحسية هنا تبدأ دائماً بدراستها للأشياء في العالم الخارجي وبمساعدة الحواس ، كون الإدراك الحسي المباشر يمثل مرحلة البدء والخطوة الأولى في طريق المعرفة لأن الانتقال من الحسي إلى المجرد ويعد طفرة ديالكتيكية في عملية المعرفة وفي حركتها من الأدنى إلى الأعلى ، لأن عقل الإنسان يقوم بالانتقال من إدراك الظاهرة إلى الكشف عن جوهرها وطبيعتها الداخلية وهذه الطفرة تتم من خلال التطبيق .[١١٥]

وخلاصة القول : أن هذا الاتجاه في نظرية المعرفة يقوم على المقدمات الآتية :

أ. ينظر إلى الفكر على أنه انعكاس لما يقع خارجه في العالم المادي الطبيعي والاجتماعي وهذا يعتبر نتيجة طبيعية لاعتقاده باستقلال المادة وأسبقيتها في الوجود على الفكر .

ب. ويرى هذا الاتجاه أن الوعي أو الفكر ليس إلا أحد النواتج العليا للمادة ، أي أنه لا يصدر عن جوهر روحي في الإنسان ، بل يمثل تطوراً كيفياً ، وعلينا هنا أن لا ننسى أنه نتيجة لتراكمات كمية تبعاً لـــ (قانون التحول الكمي إلى كيفي).

ج. يترتب على هذا الاعتقاد بوجود العالم وجوداً موضوعياً واقعياً أمام الإنسان .

---

[١١٣] ف أفاناسييت : الفلسفة الماركسية ، ترجمة عزيز سباهي ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، (ب. ت) ، ص١٦٧ .

[١١٤] روجيه غارودي : النظرية المادية في المعرفة ، تعريب إبراهيم قريط ، ط٢ ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دمشق ، (ب.ت) ، ص٣٥٨ .

[١١٥] المصدر نفسه ، ص٣٥٩ وقارن : موريس كورنفورد ، مدخل ، المصدر السابق ، ص١٧٦ .

د. أن نظرية المعرفة ليست ولا يمكن أن تكون منفصلة عن الوجود أو الانطولوجيا ، لأنها تمثل جزءاً منها ، وهذه نتيجة طبيعية لنظرتها إلى الإنسان على أنه كائن ولا يمثل ذاتاً واعية مقفلة على نفسها .

ه. المعرفة عند أصحاب هذا الاتجاه ، ليست مجرد تأمل ، بل أصبحت أداة ووسيلة للتغيير ، تغير وجه العالم والمجتمع . (١١٦)

ثانياً : ــ طبيعة المعرفة :

إن دراسة طبيعة المعرفة عند الفلاسفة ، إنما تتعلق بكيفية إدراك العالم الخارجي ، هل هو موجود وجوداً مستقلاً عن الذات العارفة ، أم أن العالم هو من إدراكي وتمثيلاتي .

هنا الفلاسفة انقسموا إلى فريقين كبيرين ، يضم كل فريق مجموعة من الفلسفات في داخله ، الفريق الأول هو الواقعي (Realism) والثاني هو المثالي (Idealism) وسنحاول أن نعرض الحجج لكل فريق أو اتجاهه ونتائجه التي يعتمدها قدر الإمكان :

١ــ الاتجاه الواقعي :

يضم هذا الاتجاه في منظومته ما يسمى بالواقعية الساذجة ، والواقعية النقدية الفلسفية ، والواقعية الجديدة .

إذ أن الواقعية ، على نحو عام ، هي تلك الفلسفة التي لا تريد أن تضحي بوجود الطبيعة والأشياء في سبيل الذات ، فهي أصلاً تعبر عن رأي الرجل العادي الذي يعجز عن التمييز بين ظاهر الشيء وحقيقته ، معنى هذا أن النزعة الواقعية قد سبقت التفكير المثالي ، لكن هذه النزعة لم تصبح مذهباً فلسفياً متماسكاً إلا بعد ظهور الفلسفات المثالية ، لأن الواقعية الفلسفية قد قامت بمحاربة المثالية ومحاولة القضاء عليها، ومن هنا فهي كانت نقيض المذهب الأفلاطوني الذي يعتبر المثل وحدها هي الموجودات الحقيقية وأن الأشياء أو الموجودات المحسوسة ليست إلا مجرد أشباح وظلال للمثل.(١١٧)

وأهم فروع هذا الاتجاه : ــ

أ ــ الواقعية الساذجة : ــ هي تلك الواقعية التي تتفق مع ما يراه عامة الناس في القول أن أفكارنا صورة مطابقة للأشياء في الخارج ، وأن العالم الخارجي يبدو لنا في صور كثيرة من الموجودات والكائنات ، تقوم بينها روابط وعلاقات ، فالعالم متعدد متكثر ولا يمكن رده إلى وحده كما ظن المثاليون ، أما لماذا سمي هذا الاتجاه بالساذج ، فلأنه يمثل مرحلة سابقة

---

(١١٦) المصدر نفسه ، ص٣٥٩ وأيضاً : موريس المصدر السابق ، ص١٧٨ .

(١١٧) د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٣٢٤ .

على مرحلة التفكير العلمي والفلسفي ، ولا يخضع للتفكير النقدي ، ويثق في مدركات الحس ثقة لا حد لها . [١١٨]

ومن هنا نصل إلى ما نريد قوله بصدد العالم ، إذ يقول أصحاب هذا الاتجاه " إن العالم الخارجي قائم موجود بالفعل حتى عندما يكون بعيداً عن متناول إدراكنا الحسي ، وهو موجود على الحال نفسها التي يوجد عليها عندما يقع عليه إدراكنا " . [١١٩]

ومن هنا فأن العالم الخارجي كما هو مدرك في عقولنا ليس إلا صورة للعالم الموجود في الواقع [١٢٠] ، إذن الإدراك في الواقعية الساذجة يتصف بأنه إدراك فوتوغرافي لأنه ينقل الواقع المحسوس بأمانة من دون تصرف [١٢١] ، معنى ذلك أن الواقعية الساذجة لا تثير الجدل في قدرة الإنسان على معرفة حقيقة شيء موجود مستقلاً عنا لأنها ترى المشكلة غير ذات موضوع .

ب ـــ الواقعية النقدية : ـــ تتميز هذه الواقعية عن الساذجة بأنها ترفض التسليم بالوجود الحقيقي لمدركات الحس بغير اختبار نقدي، أي أنها تحاول أن تثبت الحقيقة بمناقشة الحجج المضادة وابطالها، وهذه الواقعية تنكر على الذات قدرتها على خلق الأشياء أو إيجادها[١٢٢]، فهي ترى أن الحس يدرك حقائق الأشياء الخارجية ، لكن هذه الحقائق تخضع للفحص في ضوء قوانين العلوم الطبيعية، فإدراكي مثلاً اللون الأصفر في البرتقالة، يعني أن في البرتقالة خاصية تثير العين تحت ضوء ملائم فتجعل العين تحس اللون الأصفر، فلا معنى للصفرة إذن من دون وجود العين التي تراها، فالمعرفة عند الواقعية النقدية ليست إدراك صورة مطابقة للأشياء الخارجية، بل إدراك صورة معدلة بفعل العقل الذي يمكن له أيضاً أن يتجاوز الجزيئات والمحسوسات إلى الكليات، إذن فالواقعية النقدية تبحث في إمكان معرفة الإنسان للموضوعات الخارجية وتحدد الشروط العلمية لهذه المعرفة[١٢٣]، على نحو ما هو معروف لدى الفيلسوف جون لوك، الذي يرفض الحقائق الفطرية المسلمة والمبادئ الأولية للعقل ، لأن الواقعية النقدية تعرض للمشكلة وتناقش الحجج التي تنكر إمكان المعرفة وتنتهي من مناقشتها إلى إقرار المعرفة إقراراً قاطعاً . [١٢٤]

---

[١١٨] د. توفيق الطويل: المصدر السابق، ص٣٢٥ ـ ٣٢٦، وأيضاً: زكي نجيب محمود، نظرية، المصدر السابق، ص١٣.
[١١٩] د. توفيق : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، وأيضاً : أزفلد كوليه ، المدخل ، المصدر السابق ، ص٢٩٨ .
[١٢٠] د. يحيى هويدي : مقدمة ، المصدر السابق ، ص٢٣١ .
[١٢١] د. توفيق الطويل : المصدر نفسه ، ص٣٢٦ ، وأيضاً : د. يحيى هويدي ، المصدر نفسه ، ص٢٤٣ .
[١٢٢] د. توفيق الطويل :المصدر نفسه ، ص٣٢٨ ، وأيضاً : المصدر نفسه ، ص٢٤٠ .
[١٢٣] د. يحيى هويدي : المصدر نفسه ، ص٢٤٢ .
[١٢٤] الطويل : المصدر السابق ، والصفحة نفسها .

ومن خلال ذلك نلاحظ أن الواقعية النقدية الفلسفية قد تطورت بعد لوك إلى عدة اتجاهات فلسفية ، ضمنها الواقعية البراكماتية التي تهتم بالواقع بقدر ما يفيده ليكون متمشياً مع مصالحة الشخصية وحاجاته الفردية [١٢٥] . فالواقعية النقدية إذن قد أضافت إلى العقل فاعلية خاصة بحيث لم تصبح المعرفة صورة مطابقة للأشياء المدركة كما هو الحال في الواقعية الساذجة[١٢٦] وللواقعية صور أخرى نجدها عند كل من الفريد نورث وايتهد (ت١٩٤٧م) ، وبرندراند رسل (ت١٩٧٠م) ، وغيرهم[١٢٧] ، فضلاً عن ذلك ، الواقعية عند أصحاب الوضعية المنطقية ، يطلق عليها الواقعية التحليلية ، إذ يعتقد الفيلسوف رسل بأن وجود الأشياء ليس رهناً بمعرفتها ، أي أن وجود الشيء مستقلاً عن معرفتي له ويتعدى أو يفوق هذه المعرفة ، وأن كانت واقعية رسل هي تحليلية ، فأن الوجود الحقيقي عند أصحاب المدرسة التحليلية ليس هو الوجود (الشيء) أو وجود الموضوعات الشيئية ، بل وجود المعاني والماهيات الرياضية أو المنطقية التي يقوم الفيلسوف بتحليلها [١٢٨] .

ج ــ الواقعية الجديدة : ــ هذا الاتجاه ممثل عند الفيلسوف صموئيل الكسندر(ت١٩٣٨م) إذ كان مدار فلسفته هو نظرية المعرفة وفهم العلاقة التي تقوم بين الذات العارفة وموضوع معرفتها ، من غير تميز بين الذات العارف والمعروف [١٢٩] ، فضلاً عن ذلك فأنها قامت بتحليل العلاقة التي تربط بين الذات العارفة وموضوعها ، ورفضت التسليم بما رأته الواقعية النقدية من وجود وسيط بين الشيء المدرك والذات العارفة ، لأن الادراك في نظر الواقعية الجديدة يقع على نحو مباشر وبغير وسيط ، وهذا يجعل معرفتنا للشيء الخارجي صورة مطابقة لحقيقته في الخارج [١٣٠] .

إذ أن حضور العقل في عملية الإدراك أو المعرفة لا يؤثر في الشيء المدرك أو المعروف لأنه يؤدي في النهاية إلى وجود الشيء داخل العقل أو في باطنه، ويرى، أصحاب الواقعية الجديدة أن العقل يستطيع أن يدرك الموجودات المادية ويتصل بها من دون أن يؤثر فيها، أقصد دون أن يغير من وجودها الواقعي[١٣١]، لذلك فإن أصحاب هذا الاتجاه يصرحون بأن وجود الشيء مستقلاً عن الذات هو ما يسميه الواقعيون تفوق الموضوع ، وأن معرفتنا بالشيء لا تعتمد على العقل وحده.[١٣٢]

---

[١٢٥] د. زكي نجيب محمود : نظرية ، المصدر السابق ، ص٣٢ .
[١٢٦] د. توفيق : المصدر نفسه ، ص٣٢٨ .
[١٢٧] د. هويدي : المصدر نفسه ، ص٢٣٢ .
[١٢٨] المصدر نفسه ، ص٢٣٣.
[١٢٩] د. يحيى هويدي : المقدمة ، المصدر السابق ، ص٢٥٦ ، وقارن د. أحمد عبد الحليم عطية ، الفلسفة العامة نظرة جديدة ، ط١ ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص١٠٨ .
[١٣٠] د. توفيق الطويل : أسس ، المصدر نفسه ، ص٣٢٩ .
[١٣١] د. يحيى هويدي : المصدر نفسه ، ص٢٥٧ ، وقارن : د. أحمد عبد الحليم ، المصدر السابق ، ص١٠٩ .
[١٣٢] المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

٢ـ الاتجاه المثالي :

إن الاتجاه المثالي هو عبارة عن علاقة الذات بالموضوع ولا يعترف بوجود شيء خارج العقل ، إذ لا وجود إلا لما يدركه العقل ، وما لا يدركه العقل يستحيل أن يكون موجوداً ، إذن معرفة الشيء ووجوده جانبان لحقيقة واحدة ، وهنا يقول أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف عنواناتهم . لا فرق بين الشيء باعتباره كائناً من كائنات العالم ، وبين اعتباره مدركاً من مدركات العقل . (١٣٣) .

هنا لا بد من الإشارة إلى موضوع مهم ، هو ماذا يقول المثاليون عن وجود أي شيء إذا تركته ورائي في الغرفة لا أراه ولا ألمسه ولا أحسه بأية حاسة ، أينعدم وجوده لغيابي-، هنا يجيب المثاليون أن الشيء الذي لا تدركه أنت قد يدركه غيرك من الناس ، وإذا لم يكن يدركها إنسان فهناك العقل الإلهي يدركه مع سائر الكائنات.(١٣٤)

وهنا ذهب بعض الباحثين إلى أن ديكارت حاول أن يفصل بين الفكر والوجود فيقول : من واجبي قبل أن أتأكد وجود أشياء خارجية أن أنظر في أفكاري من حيث هي كذلك ، وأن أعرف الواضح والغامض منها ، وأن الحقيقة تسبق الوجود(١٣٥) ومن هنا نلاحظ أن المثالية(*) أنواع منها المثالية الموضوعية عند أفلاطون ، والمثالية العقلية عند ديكارت الذي يعد المؤسس الحقيقي للمثالية الحديثة (١٣٦)، وهناك :

أ ـ المثالية الذاتية : مؤسسها الفيلسوف جورج باركلي (ت ١٧٥٣م) ، إذ ذهب هذا الفيلسوف إلى القول أن الوجود هو الإدراك ، والمدرك معنى ، وغير المدرك لا وجود له ، والمادة لا تدرك في ذاتها باعتراف القائلين بالمادة ، إنها معنى مجرد لا يمكن تصوره بعيداً عن كيفياته، وهذه اللا مادية لا تنكر وجود المحسوسات بدليل أننا ندركها ، فهي لا تحول الأشياء إلى معانٍ، بل أنها تحول المعاني إلى أشياء ، ولهذا يقول باركلي " أن وجود الشيء هو إدراكه، وأن الشيء ليس له وجود مادي مستقل عن إدراكي له (١٣٧) .

---

(١٣٣) د. زكي نجيب محمود : نظرية ، المصدر السابق ، ص٢٢ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ص٢٣ وأيضاً : أزفلد كوليه ، المدخل ، المصدر السابق ، ص٢٩٠ .

(١٣٥) د. كمال يوسف الحاج : ديكارت أبو الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٥٨ .

(*) يطلق المذهب المثالي على المذهب الروحي في علم ما بعد الطبيعة ، وهو الذي يفسر الوجود تفسيراً روحياً أو عقلياً خالصاً ، ويطلق المذهب المثالي أيضاً في مجال الأخلاق ويراد به مذهب المدرسة التي ترى أن الأخلاقية غاية في ذاتها . فليست غاية الأخلاق تحقيق سعادة الفرد كما ذهب قدماء الأخلاقيين من اليونانيين ، ولا منفعة أكبر عدد من الناس كما قال أتباع مذهب المنفعة العامة من المحدثين ، بل أن السلوك الخلقي عند اتباع المذهب المثالي هو كمال الجنس البشري وسمي المذهب بالمثالية الأخلاقية لأن اتباعه يلتمسون غاية السلوك الخلقي في المثل العليا وليس في الواقع الذي يعبر عما هو كائن . لمزيد من التفاصيل أرجع : د. توفيق الطويل ، المصدر السابق ، (الحاشية) ، ص٣٣١.

(١٣٦) د. كمال يوسف الحاج : ديكارت، المصدر السابق ، ص ٦٠، وأيضاً : د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٣٣٢ .

(١٣٧) د. يحيى هويدي : المقدمة ، المصدر السابق ، ص٢٢٦ ، وأيضاً : د. توفيق الطويل ، المصدر نفسه ، ص٣٣٣ ، وقارن : محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، المصدر السابق ، ص١١١ ومابعدها .

إذن علينا أن نتخلص منه ونلغي وجوده، ومن أجل هذا سمي باركلي مذهبه باللا مادية، أي المذهب الذي يلغي وجود المادة أو الجوهر المادي ويلغي الصفات المادية باعتبارها قائمة خارج عقولنا.

ب ــ المثالية النقدية الشارطة : ــ مؤسسها الفيلسوف عمانوئيل كانت (ت ١٨٠٤م) والغريب هنا، أن كانت نقد باركلي وعارض مثاليته التي بدت له أنها نموذج المثالية اليقينية ، وقدم لنا في مقابل هذه المثالية النقدية أو الشارطة التي تهتم بوضع الشروط التي تجعل التجربة ممكنة ولكن هذا النقد الذي وجهه كانت إلى باركلي وفرق على أساسه بين مثاليته ومثالية باركلي[١٣٨]، لأن نظرة كانت إلى المعرفة كانت أعم وأشمل، لأنه حاول الجمع بين مذهب التجريبيين ومذهب العقليين ، كما أسلفنا من قبل .

فهذه المثالية لها صفتان رئيستان ، إنها نقدية وإنها شارطة ترانسندنتالية، هي نقدية لأنها تهتم بوضع الحدود التي يجب أن لا يتعداها العقل، ذلك لأن كانت قد رأى أن العقل الإنساني يخول لنفسه الخوض في موضوعات كثيرة تتدى طاقته البشرية، وتلتقي به، وهذه الموضوعات ميتافيزيقية تتعلق بالبحث مثل (الله، الحرية، النفس وخلودها)[١٣٩].

لقد بدأ كانت مثاليته بالتفكير في طبيعة المكان والزمان، فوجد أن المكان عبارة عن إطار لمواضع الأشياء وأن الزمان إطار لتواريخها ثم وجه نظرة بعد ذلك إلى الطريقة التي يعرف بها المكان والزمان فرأى أننا لا نعرفهما عن طريق التجربة الحسية، بمعنى ندرك محتوياتها عن طريق الحس، ولكن المكان ندركه عن طريق العقل وهذا دليل على أن المكان فكرة عقلية وليست مشتقة من الحس.[١٤٠]

وقد ميز كانت في كتابه (نقد العقل العملي) التميز الدقيق بين الظواهر العقلية السابقة على كل تجربة Apriori والظواهر التي تكتسب بالتجربة Aposteriori ، إذ تعد الأولى ضرورية لإدراك الأشياء أو معرفتها ، ويرى هنا أن المعرفة لا تستقي من المدركات الحسية وحدها ولا من العقل وحده ، لأن مرجعها إلى الحس الذي ينقل للعقل صور المحسوسات ، فيضيف هذا إليها علاقات زمنية أو مكانية ثم إلى المعاني الأولية في العقل وهي سابقة على كل تجربة . [١٤١]

---

[١٣٨] د. كمال يوسف الحاج : المصدر نفسه ، ص ٦٢ وقارن ، د. يحيى هويدي ، المصدر نفسه ، ص٢٢٥ .

[١٣٩] كانت : نقد العقل العملي ، المصدر السابق ، ص٦٢ وأيضاً : د. يحيى هويدي ، المصدر السابق ، ص٢٢٨ وقارن : د. توفيق الطويل ، أسس... ، المصدر السابق ، ص٣٣٥ .

[١٤٠] د. يحيى هويدي : المصدر نفسه ، ص٢٢٨ ، وقارن : د. كمال يوسف الحاج ، ديكارت أبو الفلسفة ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .

[١٤١] كانت : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها وقارن : د. توفيق الطويل ، المصدر نفسه ، ص٣٣٤ .

يرى كانت أن نقد المعرفة وظيفته أن يكشف عما يجئ من الخارج وما يضيفه الفكر من عنده، فهو الذي يجعل التجربة ممكنة، وأن الحقيقة لا توجد إلا بالتجربة، وأن الأشياء هي الظواهر، وتمثل عنده ما يبدو لنا من الأشياء موضوع المعرفة، وهذا توكيد للإتجاه الذي سار فيه كانت في مثاليته النقدية.

ج ــ المثالية المطلقة الهيجلية : ــ والتي قال بها الفيلسوف الألماني هيجل (ت١٨٣١م) ، إذ وقف هيجل من ذلك موقفاً وسطاً بين الطبيعيين الذين يقولون بوجود الطبيعة مستقلة استقلالاً تاماً عن الذوات المدركة ، وبين المثاليين الذاتيين الذين قيدوا الطبيعة بالذات ، شبه هيجل منهجه هذا ، بأنه عبارة عن تأليف بين موضوع الطبيعة وموضوع الذات ، وفي هذا التأليف نؤلف بين جميع العناصر الحسية بين مذهب المثالية الذاتية ومذهب الطبيعيين . [١٤٢]

إذن ذهبت المثالية المطلقة إلى وجود عقل مطلق أو إلهي في الطبيعة ، وأن هذا العقل الإلهي باطن في الطبيعة لأن الطبيعة خاضعة في حركتها وتطورها لهذا المطلق الذي تختلط حركته بحركتها وصيرورته بصيرورتها إلى حد تصبح فيه حركته مصدر الحركة في الطبيعة نفسها . [١٤٣]

والمطلق عند هيجل هو الوجود الواقعي كله إذ أنه نظر إلى الفكر والطبيعة باعتبارهما مظهرين لهذا المطلق ، فالمطلق إذن بهذا الاعتبار حاضر في الطبيعة ، باطن لها ، وليس منفصلاً عنها .

٣ــ الاتجاه الفينومينولوجي [*] (الظواهري) :

صاحب هذه الفلسفة ، هو الفيلسوف الألماني أدموند هوسيرل (ت ١٩٣٨م) ، إذ يعتبر من أهم فلاسفة هذا العصر الذين قادوا الانقلاب لا على فلسفة هيجل فحسب ، بل على الفلسفات التجريبية والبركماتية ، التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ومن الصعب أن نصف مذهبه تحت اسم محدد ، وأن كان هو في الواقع قد ارتضى لفلسفته أن تصنف مذهباً (وضعياً) ، إذن ، فالفلسفة

---

[١٤٢] نقلاً عن : د. يحيى هويدي ، المقدمة ، المصدر السابق ، ص٢٣١ .

[١٤٣] المصدر نفسه ، ص١٣٢ .

[*] تزعم (هوسيرل) مدرسة حديثة في ألمانيا تقول بفلسفة الظواهر، إذ اعجبته دقة الرياضيات واتفاق العقول على نتائجها، ورغم لختلاف العقول على نظريات الفلسفة ومناهج بحثها ، فأراد أن يقيم الفلسفة على أسس متين بحيث تصبح علماً برهانياً، إذن فالفينومينولوجيا: هي كلمة تعني بـ(علم الظواهر) ، وعندما نحاول أن نحدد كلمة الظواهر نجد صعوبة في ذلك وهنا يجب علينا أن نستبعد التصور الكانتي للظواهر والتي تعرف بـ(الشيء في ذاته) ، فعند كانت أن لفظ (ظاهرة) فيه انتقاص من الوجود، لأن الوجود في ذاته لا يعرف وإنما ينبئ عن ذاته ...،أما عند هوسيرل فالعكس من ذلك، إذ أن لفظ ظاهرة يكون معنى إيجابياً، وهو ما يظهر بذاته ، لمزيد من التفاصيل أنظر: د. توفيق الطويل، أسس، المصدر السابق، ص٣٣٦ وما بعدها وكذلك: د. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، المصدر السابق ، ص٢١٠.

الفينومنولوجية وضعية ، بمعنى أنها بحث يريد أن يقوم على ما هو أصيل ومباشر ومن ثم حقيقي أو واقعي ، وهوسيرل في الواقع كان يحلم بفلسفة علمية [١٤٤] ، حتى تصبح علماً دقيقاً كالرياضيات .

ولهذا أراد أن يبدأ من المباشر ، لكن هذا المباشر ليس هو العالم المحسوس ، كما يذهب إليه التجريبيون والحسيون لأن التجربة الحسية لا توصلنا إلى اليقين ، ولأن العالم ليس عالماً موجود بيقين [١٤٥] ، فهو أراد أن يؤسس فلسفته بين بين (لا هي مثالية ولا هي واقعية) وقد عرفها هوسيرل أنها منهج للبحث عن الحقيقة وهذا ما بينه في كتابه (الفلسفة كعلم دقيق) ، ومن هنا فهو يرفض الواقعية الساذجة ، ويرفض أن نبدأ كذلك بالذات كما يذهب اتباع المذاهب الذاتية ، ولهذا فإن فلسفته تقوم على عملية رد العالم الخارجي في صورته العادية إلى الذات ، وعملية الرد هذه تشتمل على نوعين من الرد : الرد التصوري ــ الذي يجعل الفيلسوف يتعلق بالماهيات والتصورات ويسقط من حسابه الوقائع الجزئية ، والرد الشارطي ــ الذي يتميز بوضع جميع الأشياء المادية بين قوسين أي لكل عالم يبرهن علماً بطريقة يقينية ، ويتعلق الحكم عليها أو بالأحرى على وجودها الواقعي ، إذ أن هذا المنهج هو الذي يأخذ به هوسيرل ليجعل العالم مجرد ظاهرة . [١٤٦]

ومن هنا يلاحظ الباحث أن فلسفة هوسيرل تميل إلى الواقعية ، ولهذا نادى في فلسفته بالرجوع إلى الأشياء الظاهرة في الشعور ظهوراً بيناً أمام البداهة ، بداهة التجربة الحسية ، إذ أن مناداة هوسيرل بالتجربة الحسية ، مناداة بالاستماع إلى التجربة ، وهي تجربة تقوم على الاتصال المباشر بين الذات ، وبين الأشياء .

ثالثاً : ــ إمكان المعرفة :

يقصد بإمكان المعرفة ، حدودها ، وما هو المدى الذي يستطيع الإنسان أن يبلغه بعلمه لو مكنته ظروف التحصيل ؟

من هنا نجد فريقين يقفان على طرفي نقيض من هذا الموضوع ، ومن هذا التساؤل الذي طرحناه ، الفريق الأول يطلق عليه اصطلاحاً ــ الايقانيون أو الاعتقاديون أو الدغمائيون وهؤلاء يرون أن المعرفة الإنسانية لا حد لها تقف عنده .

---

(١٤٤) د. محمد ثابت الفندي ، مقدمة ، المصدر السابق ، ص٢٠٩ ، وقارن د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا ، المصدر السابق ، ص٤٢٠ .

(١٤٥) د. عبد الرحمن بدوي : مدخل ، المصدر السابق ، ص١٣٢ .

(١٤٦) نقلاً عن : د. يحيى هويدي ، المقدمة في الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٢٣٦ .

والاعتقاديون (*) بصفة عامة هم أصحاب المذهبين العقلي والتجريبي على السواء . لكن العقليين والتجريبيين لم يطرأ ببالهم أن هذا المصدر أو ذاك مما اتخذه كل منهم أساساً للمعرفة ، وهو في ذاته بحاجة إلى التحليل ، والاعتقاديون كلمة تطلق لتعني هذا الموقف كائناً من كان ، وهو الموقف الذي يتخذ فيه الإنسان لعلمه نقطة ابتداء ، وعلى هذا الاعتبار يكون (العلماء) من الاعتقاديين، لأن العالم في علمه يفرض نقطة ابتداء يبني عليها بناءه العلمي (١٤٧)، أما الفريق الثاني فيطلق عليه (الشكاك)(**) الذين يرون أن ليس للجهل الإنساني بحقائق العالم حد يقف عنده(١٤٨) .

فضلاً عن ذلك نلاحظ إن الشك ينقسم إلى قسمين أساسين هما الشك المطلق أو اللاأدري ، والشك المنهجي .

فالشك المطلق أو اللا أدري هو الذي يبدأ صاحبه شاكاً وينتهي شاكاً ، فهو حالة ريب متكامل ، كونه يزاول لذاته وبغير إرادة من صاحبه ، فضلاً عن ذلك فهو غاية وليس وسيلة إلى غاية أخرى يهدف إلى تحقيقها ــ كاليقين أو المعرفة الصادقة ، أنه نتيجة ووجدان معاً ، فهو يعبر عن تجربة نعيشها ، ويسمي الفلاسفة العرب هذا النوع من الشكاك باللا أدريين ، ولن نستطيع الرد على هؤلاء الشكاك ، فهم يعلقون الحكم ويتوقفون عن إصداره (١٤٩) ، إذن فهؤلاء الشكاك يزعمون أنهم لا يعرفون شيئاً على الإطلاق ويشكون في إدراكنا الحسي والعقلي ، إذ يرون أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، ولهذا فقد ظهرت صورتان للا أدرية أولها ــ اللا أدرية الكاملة وهؤلاء يقطعون بعدم معرفة أي شيء ، أما الصورة الثانية فهي اللا أدرية غير الكاملة وهذه ترى تعارض الحقائق

(*) الاعتقاد أو الإيقان أو الدوغماتي : هي كلمة أصلها يوناني ، وكانت تطلق قديماً على كل فلسفة تؤكد حقائق ما ، ومن ثم فهي (اعتقادية) ، ثم استعملها كانت بمعنى أكثر دقة ليدل بها على الموقف الذي يؤكد رأياً أو مذهباً ، ولكن من دون أن يعطي مسوغات عقلية لرأيه ، وبصفة أعم يعرفها بأنها " موقف الاعتقاد (دقماطي) الذي يتخذه العقل الخالص في مقدرته قبل أن يفحص مقدرته فحصاً نقدياً " وفي ضوء ذلك اعتبر كانت كل الفلسفات السابقة عليه غير نقدية ، ومن ثم فهي اعتقادية أي قاطعة ببراءة ، فيما تذهب إليه من آراء ميتافيزيقية دون تعبد بطبيعة استعمال قوانا العارفة بينما خص فلسفته باسم المذهب النقدي لأنها تبدأ من فحص القوى العارفة ، لمزيد من التفاصيل أنظر : د. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، المصدر السابق ص١٤٨ وما بعدها وقارن : د. هاني يحيى نصري ، المنطق والابستمولوجيا المصدر السابق ، ص٣٧٧ ، وأيضاً : كانت ، نقد العقل العملي ، المصدر السابق ، ص٥١ .

(١٤٧) د. توفيق الطويل : أسس ، المصدر السابق ، ص٣٢٠ .

(**) ظهرت نزعة الشك في الفلسفة القديمة ، وفي الفلسفة الحديثة أيضاً ، ونستطيع أن نميز في الفلسفة القديمة مدرستين للشك: المدرسة الفورونية ونسبة إلى فرون ، ومدرسة الأكاديمية الجديدة ، ومن تبعها من الشكاك الجدد ، والفارق بين المدرستين ، أن اتباع المدرسة الأولى قد علقوا الحكم على الأشياء وتوقفوا عن إصدار رأيهم في وجودها ، وهذا هو ما يسمى في الفلسفة بالتوقف عن الحكم ، أما اتباع الأكاديمية الجديدة فأنهم يقرون أن المعرفة اليقينية لا يمكن اكتسابها وبذلك شكوا في نتائج العلم . ولمزيد من التفاصيل أنظر : د. توفيق الطويل ، أسس ، المصدر نفسه ، ص٣٠٢ و٣١٠ .

(١٤٨) د. زكي نجيب محمود : نظرية ، المصدر السابق ، ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

(١٤٩) د. توفيق الطويل: أسس، المصدر السابق، ص٣١٢ وكذلك: محمد باقر الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٤١ ـ ١٥٠ .

العليا مع ما نعهده من الأشياء ، وعلى أية حال فأن الموقف الشكي بمختلف صوره أنما يقف في مواجهة مذهب اليقين المطلق . (١٥٠)

أما الشك المنهجي فهو منهج يفرضه صاحبه بإرادته رغبة في امتحان معلوماته واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل ، و خير طريقة لاتقاء هذه الأخطاء ، أنه خطوة تسلم إلى اليقين أو تؤدي إلى المعرفة الصادقة ، لأنه وسيلة وليس غاية في ذاته ، وكان لديكارت الفضل في إرساء هذا الشك على أسس سليمة ، إذ قال : " أننا لكي نبحث عن الحقيقة أن نشك في كل ما يصادفنا من أشياء ولو مرة واحدة في حياتنا " . (١٥١)

إذن فلسفته كلها ليست إلا منهجاً يعلمنا توضيح أفكارنا ، فهو لا يرمي إلى هدم إمكانية المعرفة كما هو الحال في الشك المطلق ، بل هو على العكس من ذلك يرمي الوصول إلى المعرفة اليقينية وإقامتها على أسس ناجحة ، فضلاً عن ذلك فهناك فارق كبير ين الفيلسوف الشاك والفيلسوف الذي يستخدم الشك منهجاً ، ومن أجل ذلك فالشك المنهجي أفضل بكثير من الشك المطلق ، وليس هذا فحسب ، بل أنه أفضل من النزعة اليقينية الدوغمائية ، لأن هذه النزعة تؤدي إلى عقم الفكر وعدم تفتحه ، ولهذا نلاحظ إن الشك المنهجي يفتح أمام التفكير آفاقاً كثيرة متعددة .

أما كانت فإنه يقف موقفاً نقدياً من إمكان المعرفة ، إذ يجعل للمعرفة الإنسانية الممكنة حدوداً تقف عندها ، وحدودها هي الخبرة الحسية ، فالخبرة الحسية هي المضمون الذي ينصب في مقولات العقل فتتكون بذلك معارفنا عن العالم الخارجي وبغير هذه الخبرة الحسية تظل مقولات العقل فارغة جوفاء بغير موضوع(١٥٢) .

---

(١٥٠) د. يحيى هويدي : المقدمة ، المصدر السابق ، ص٢١٢ .

(١٥١) ديكارت : تأملات في الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٦٧ وقارن : د. توفيق الطويل ، المصدر نفسه ، ص٣١٤ ، وكذلك : د. زكي نجيب محمود ، نظرية ، المصدر السابق ، ص١٠٨ .

(١٥٢) د. يحيى هويدي : المقدمة ، المصدر السابق ، ص١٢٧ .

وخلاصة القول :

أن إمكان المعرفة الإنسانية وحدودها هي أن العقليين والتجريبيين يرون إمكانها إلى غير حد تقف عنده ، أما الشكاك فهم يرون استحالتها ، وأما النقديون وفضلاً عن الوضعيين فيرون إمكانها بشرط أن تقف عند حدود الخبرة الإنسانية .

من خلال سير البحث توصلنا إلى جملة من النتائج الرئيسة والتي تعد بمثابة خاتمة لهذا البحث وهي :

١. وجد الباحث أن (نظرية المعرفة) بصفتها مبحثاً فلسفياً متخصصاً وتحت هذا المصطلح لم تعالج إلا في الفلسفة الحديثة ، مع أن موضوعاتها ومباحثها واتجاهاتها الرئيسة العامة قد بحثت من قبل الفلاسفة في العصور اليونانية والوسيطة تحت عناوين (النفس ، والميتافيزيقا ،والمنطق) كما هو الحال عند الفيلسوف أفلاطون (ت ٣٤٧ ق. م) وأرسطو (ت ٣٢٢ق . م) وغيرهما في الفلسفة اليونانية ، أما في الفلسفة العربية الإسلامية فتمثلت بالفيلسوف الكندي(ت ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) الذي ارتبطت نظرية المعرفة لديه بمفاهيم العلوم الذي قسمها إلى العلم الإنساني والعلم الديني (الوحي) إلى جانب آراء الرازي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وصولاً إلى ابن خلدون .

٢. لاحظ الباحث أن (العقل الإنساني) يستطيع الوصول إلى أسمى درجات المعرفة ، وأن يدرك أغمض أنواع الحقائق من دون عجز أو قصور أو تردد ، إذ لا نجد فيلسوفاً مهما كانت منظومته الفلسفية ، إلا واحتلت (نظرية المعرفة) لديه مكانة مرموقة وهو أمر أوجب على الباحث أن يقف عند ما يقارب عن ثمانية عشر مصطلحاً أو مفهوماً شكلت لاحقاً (في الفلسفة الحديثة) صلب موضوع (نظرية المعرفة) لما يبين لنا مدى أهمية هذه المفاهيم ليشهد على ذلك تكرارها في البحث .

٣. لقد أختلف الباحثون عبر تاريخ الفلسفة في تحديد (مصدر المعرفة) ، وانقسمت حول ذلك الأجوبة الفلسفية إلى اتجاهات متنوعة تشترك في جملة من الأسس والبديهيات والقواعد

الأساسية من أبرزها الاتجاه (العقلي ، والتجريبي ،والحدسي ـ الصوفي ، والبراكماتي ، والوجودي، فضلاً عن الماركسي).

٤.وجد الباحث ضرورة دراسة النتاج الفلسفي لنظرية المعرفة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر (حصراً) مع ذلك أستقصينا كل ما كتب عن نظرية المعرفة في الفكر الفلسفي الغربي المنقول إلى العربية، لأنها لا تدخل ضمن نطاق بحثنا ،إلا بقدر تعلق الأمر في مرجعيات المدروسين وأنتمائهم المنهجي والأيديولوجي والفلسفي .

٥.من خلال سير البحث وجد الباحث أمامه طريقان للمعرفة: الأول ـ يمثله المثاليون أو العقليون من الذين يرون إنه لابد من أصول ومقولات موجودة في فطرة العقل يمكن على أساسها استنباط دقائق المعرفة ، والثاني ـ يقوده التجريبيون ممن يرى إنه لا توجد معرفة ما لم نبدأ بتحصيل معطيات حسية تأتينا عن طريق الحواس سواء كانت مرئيات أو مسموعات أو ملموسات .

الفكر السياسي عند سلامة موسى ١٨٨٧-١٩٥٨

الدكتور
ليث احمد علي

حياته ونشأته ومكوناته الفكرية:

ولدَ سلامة موسى في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٧، في قرية قرب مدينة الزقازيق في مصر، كان والده موظفاً حكومياً من طائفة الأقباط الآرثوذكس، انتقل إلى القاهرة عام ١٩٠٣[١]، خلال وجوده في القاهرة تأثر بكتابات يعقوب صروف رئيس تحرير مجلة "المقتطف" التي كرسها لنشر العلوم الطبيعية والاجتماعية الحديثة بين عامة الشعب، فضلاً عن فرح انطون رئيس تحرير مجلة "الجامعة" الذي اقتبس الأفكار الفرنسية لاسيما الأفكار السياسية لمفكري القرن الثامن عشر[٢]، وبالتحديد فولتير (Voltaire) الذي دعا للحرية والتسامح، روسو (Rousseau) الذي أكد أن الطبيعة الإنسانية في أساسها جيدة ولايفسدها سوى ظلم المجتمعات والحكومات، وكذلك ديدرو (Diderot) الذي بيّن ضرورة توظيف العلم لخدمة المجتمع وتطوره[٣]، فضلاً عن أهمية أفكار شبلي شميل في الدعوة إلى حرية الفكر بشجاعة وجرأة وتفكيره وأسلوبه السديد[٤].

علاوة على تأثره بطروحات أحمد لطفي السيد رئيس حزب الأمة ورئيس تحرير جريدة "الجريدة" الذي دعا إلى مبدأ مصر للمصريين وعارض تبعيتها للدولة العثمانية ودعوته

---

[١] محمود الشرقاوي، سلامة موسى المفكر والإنسان، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٢٠٨، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٨.

[2] Nadav Safran, Egypt in Search of Political Community, Harvard University Press, Massachusetts, 1961, P.58.

[٣] سلامة موسى، كتاب الثورات، دار المستقبل- القاهرة ومكتبة المعارف- بيروت، القاهرة، د.ت، ص٦٩-٧٢.

[٤] ـــ تربية سلامة موسى، دار المستقبل- القاهرة- ومكتبة المعارف- بيروت، القاهرة، د.ت، ص٢٤٠-٢٤١.

لاستخدام اللغة العامية المصرية بديلاً عن اللغة العربية[٥]، وأيضاً دعوة ولكوكس (Wilcoks) المستشرق البريطاني لاعتماد اللغة العامية المصرية عوضاً عن اللغة العربية[٦].

سافر إلى فرنسا عام ١٩٠٨ وسجل انطباعاته عن وجوده فيها قائلاً "فلما وجدت المجتمع الفرنسي واصطدمت به، ورأيت المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها، شعرت أن أفقاً جديداً يتفتح أمامي... رأيت شعوباً حرة فيها الكلمة العليا التي تتضح في الانتخابات البرلمانية... لقد فتحت لي فرنسا الآفاق الأوروبية التي لاتزال تنشط حياتي بعكس حياتي قبل سفري"[٧]، عاد إلى مصر عام ١٩٠٩ ثم توجه إلى بريطانيا في نفس العام، وخلال وجوده في لندن انضم للجمعية الفابية[٨] وتبنى آراءها الاشتراكية، وتوثقت علاقته الشخصية مع اثنين من أبرز زعمائها الأول برنارد شو (Bernard Show) الذي تعلم منه قوله "ان الرجل الفاضل هو ذلك الذي يعطي للدنيا أكثر مما أخذ منها، بحيث تزيد ثروة أو علماً أو حكمة يوم وفاته على ماكانت يوم ميلاده"[٩]، إضافة إلى أن سلامة موسى رأى أن أدبه هو أدب الكفاح لتحسين أوضاع المجتمع وانه ناضل طيلة حياته لتحقيق الاشتراكية وسعى من خلال كافة مؤلفاته إلى تبسيط هذه النظرية وشرحها بأسلوب سلس، والآخر هـ.ج. ويلز (H.G. Wells) الذي تلخص جهاده في الدعوة إلى استخدام العلم كعامل حاسم

---

[٥] سلامة موسى، مختارات سلامة موسى، سلسلة المقالات العصرية (١)، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٢٦، ص٢٧٩-٢٨٠.

[٦] أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت، ص٥٦٨.

[٧] السيد أمين شلبي، الغرب في كتابات المفكرين المصريين، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٥٩٠، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٦٣-٦٤.

[٨] تأسست في لندن في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٤، آمنت بالوسائل التدريجية والديمقراطية والدستورية السلمية لتحقيق الاشتراكية ووجهت دعوتها لكافة طبقات المجتمع، دعت أعضاءها إلى الانضمام إلى الأحزاب السياسية الاشتراكية والمجالس المحلية والاقليمية والمركزية لتحقيق أهدافها وطالبت بامتلاك الأمة لكافة أشكال الريع الاقتصادي الناتج عن استخدام الأرض ورأس المال من خلال الجهاز الحكومي البريطاني الكفوء الذي بالإمكان الاستفادة منه للوصول لهذه الغاية، ينظر، م.بير، تاريخ الاشتراكية البريطانية، ج٢، ترجمة فؤاد اندراوس، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت، ص٢٦٢-٢٧٢.

[٩] سلامة موسى، طريق المجد للشباب، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٠٨.

في تنظيم شؤون الحياة الإنسانية[١٠]، كما ساهمت آراء ماركس (Marx) الفيلسوف الألماني في صياغة رؤيته الفكرية إلا أن أثرها كان محدوداً في تلك المرحلة عليه[١١].

عاد إلى مصر عام ١٩١٣، ساهم في تشكيل الحزب الاشتراكي في القاهرة عام ١٩٢٠، إلا انه تم فصله منه عام ١٩٢٢ لرفضه تبني الحزب الأيديولوجية الشيوعية وانضمامه للدولية الثالثة (الكومنترن)[١٢]،[١٣] أصدر مجلة "المجلة الجديدة" الشهرية عام ١٩٢٩ وأسس مع يعقوب صروف (المجمع المصري للثقافة العلمية) عام ١٩٣٠، هدف منهما إلى اعتماد المنهج العلمي وجعل الثقافة حاجة أساسية للشعب وذلك من خلال بحث كافة اختصاصات المعرفة البشرية كالأدب والفلسفة والتاريخ والعلم بأسلوب بسيط وواضح ونشرها[١٤]، فضلاً عن إصداره مجلة "المصري" الأسبوعية عام ١٩٣٠ أيضاً التي انتقد فيها إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء (١٩٣٠-١٩٣٣) لقيامه بإلغاء دستور ١٩٢٣ وإعداد دستور آخر انتقص فيه من الحريات الديمقراطية للشعب[١٥]، كما أسس جمعية (المصري للمصري) في نفس العام أيضاً والتي حثت المصريين على شراء منتجات بلادهم وبالتالي التقت من ناحية الهدف مع الدعوة التي أطلقها حزب الوفد في مقاطعة البضائع البريطانية[١٦]،

---

(١٠) ـــــ حياتنا بعد الخمسين، دار المستقبل العربي-القاهرة ومكتبة المعارف- بيروت، القاهرة، د.ت، ص١٤٢-١٥١.

(11) **Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939, Oxford University Press, Second Edition, London, 1967, P.339.**

(١٢) عقد المؤتمر التاسيسي الأول لهذه المنظمة في موسكو في آذار (مارس) ١٩١٩، حضره إلى جانب الحزب الشيوعي السوفيتي تسعة عشر ممثلاً لأجنحة يسارية لأحزاب اشتراكية من مختلف دول العالم، فأصبحت اتحاد للتنظيمات الشيوعية في العالم، دعا المؤتمر إلى ثورة عالمية للطبقة العاملة لخوض الصراع النهائي ضد الرأسمالية، ينظر:

Sidney Harcave, Russia a history, J.B. Lippincott Company, Third Edition, Chicago, 1956, P.494.

(١٣) ماريوس كامل ديب، السياسة الحزبية في مصر: الوفد وخصومه ١٩١٩-١٩٣٩، مؤسسة الأبحاث العربية-بيروت- ودار البيادر-القاهرة، ١٩٨٧، ص٧٠، هامش رقم (٣٩٥)، ص٨٨.

(١٤) غالي شكري، سلامة موسى وأزمة الضمير العربي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٧.

(١٥) سلامة موسى، الصحافة حرفة ورسالة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٨، ص٦٥-٦٧.

(١٦) ماريوس كامل ديب، المصدر السابق، ص١٧٩.

كما إنها نجحت في حمل بنك مصر على افتتاح محل لبيع المصنوعات المصرية في شارع فؤاد الذي لم يكن فيه متجر مصري واحد[١٧]، وقد استلهم من إنشائها تجربة غاندي زعيم الحركة الوطنية في الهند[١٨].

إلا أن إسماعيل صدقي باشا استغل تركيبة المجمع العلمي للثقافة العلمية التي تشكلت في معظمها من الموظفين، فضغط على بعضهم فاتخذوا قراراً بطرد سلامة موسى منه[١٩]، كما سحب رخصة إصدار "المجلة الجديدة" كما حصل نفس الأمر لمجلة "المصري" بسبب نشرها صور ستة ملوك جرى خلعهم مما عُد انتقاداً للملك أحمد فؤاد (١٩١٧-١٩٣٦)[٢٠]، سمح عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء (١٩٣٣-١٩٣٤) له بإعادة إصدار "المجلة الجديدة" عام ١٩٣٤[٢١]، بعد أن تم أخذ تعهد منه بعدم الدعوة للاشتراكية، إلا أنه ما أن عاود إصدارها حتى كتب مقالاً عن التفسير الماركسي للتاريخ[٢٢]، واستمر في إصدارها إلى عام ١٩٤٢ إذ صدر أمر عسكري بتعطيل صدورها[٢٣]، تم اعتقاله عام ١٩٤٦ بتهمة الدعوة للنظام الجمهوري والاشتراكية، كما اعتقل مجدداً عام ١٩٤٧ بتهمة إلقاء قنبلة في إحدى الدور السينمائية في القاهرة رغم انه كان قد بلغ من العمر ستين عاماً[٢٤]، عندما قامت ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ عبّر عن تأييده لها إذ عدّها استكمالاً لما قامت به ثورة أحمد عرابي عام ١٨٨٢ من جهة سعيها لتحقيق لستقلال مصر والسودان[٢٥]، توفي إثر ارتفاع ضغط الدم في ٤ آب (أغسطس) ١٩٥٨ في القاهرة[٢٦].

---

(١٧) سلامة موسى، الصحافة...، المصدر السابق، ص٦٨.
(١٨) غالي شكري، المصدر السابق، ص٥٩.
(١٩) سلامة موسى، تربية...، المصدر السابق، ص١٣٥.
(٢٠) سلامة موسى، انتصارات إنسان، مؤسسة الخانجي-القاهرة ومكتبة المثنى-بغداد، القاهرة، ١٩٦٠، ص٣٤.
(٢١) محمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص٤٠.
(٢٢) غالي شكري، المصدر السابق، ص٧٤.
(٢٣) محمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص٤٠.
(٢٤) سلامة موسى، تربية...، ص٣٢٩، ٢٩٢.
(٢٥) ـــ كتاب الثورات، المصدر السابق، ص١٨٨.
(٢٦) منتديات ستوب، (سلامة موسى)، http://stop55.com/vb/67818.html-134K.

موقف سلامة موسى من المسألة الدينية:

عرف سلامة موسى "الدين بأنه عبارة عن الاعتقاد بقوة خارقة لنواميس الطبيعة يحترمها الإنسان ويعبدها... فالدين ضروري لكل أمة ولكل فرد، ولايمكن أن يعيش إنسان بلا دين، لأنه مادام قد شرع يفكر في الكون زماناً ومكاناً فقد شرع يفكر في الدين"[٢٧]، وأنه من اللازم أن يكون الدين دعامة أساسية للإنسان في الحياة إذ أنه يرتقي به ويكسبه الكرامة الإنسانية التي هو بحاجة لها كلما عانى من صعوبات الحياة[٢٨].

استخلص مما تقدم ذكره أن سلامة موسى اتخذ موقفاً إيجابياً من الأديان، مستلهماً أهميتها البالغة في الحياة الإنسانية بما تشكله من مجموعة قيم ومبادئ أخلاقية وروحية تخرج بالإنسان من إطار النظرة البشرية المحدودة إلى آفاق واسعة تسمو بروحه وسلوكه ومنهجه في الحياة بصيغ تتفاعل مع مفردات الحياة اليومية فتجدد عزيمته وإصراره وثباته في مواجهة كافة متطلباتها وتعقيداتها.

فضلاً عن أنه بيّن أن "من أغرب الظواهر الاجتماعية في تاريخ البشر أن الأديان جميعها دعت إلى الخير والبر والإخاء والحب ولكن البشر لم يعرفوا مع ذلك من الحقد والغضب ومن القتال والانتقام مثلما عرفوا من الفوارق الدينية، فإن تاريخ أوربا حافل بالحروب الدينية التي فتكت بالرجال والنساء والأطفال ودمرت البيوت وحطمت الدول. وكذلك الحال في الشرق. حتى ليقف القارئ لتاريخ هذه الحروب والخلافات المذهبية الدموية متسائلاً: كيف انقلبت دعوة الحب التي تدعوها جميع الأديان إلى دعوة الحقد"[٢٩]، وعلل سبب ذلك بسوء فهم العديد من الناس للأديان، واستشهد بما قاله محيي الدين بن عربي المتصوف الأندلسي في بعض أبياته الشعرية إذ قال[٣٠]:

---

(٢٧) سلامة موسى، اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص٦٥، ٢٥.
(٢٨) ـــ حياتنا...، المصدر السابق، ص٨٩.
(٢٩) ـــ طريق المجد...، المصدر السابق، ص٨٠.
(٣٠) سلامة موسى، طريق المجد...، ص٨٠-٨١.

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائفٍ	والواح توراة ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب، أنى توجهت	ركائبه، فالحب ديني وإيماني

اعتقد أن سلامة موسى استوعب بإدراكه ووعيه المتميز إنسانية الأديان وعالميتها وعظمة مادعت اليه وتأكيدها على القيم الإنسانية الرفيعة التي تزيد من ارتباط البشر ضمن المجتمع الإنساني بمعناه الأوسع، ومآآل إليه حال البشر جراء نقص الإدراك للمعاني السامية لها الذي أدى بالتالي إلى الكثير من البؤس والشقاء للبشر لأنهم لم يتمثلوا هذه المعاني منهجاً وسلوكاً تطبيقياً في الحياة، فضلاً عن إن استشهاده بآراء بن عربي المتصوف الأندلسي في الدعوة إلى حب للبشر ونبذ التعصب بين الأديان مثل سعة في الرؤية لديه وخروجه من إطار الإنتماء القبطي المحدود إلى المعاني الروحية الإنسانية الشاملة.

كما أكد أن سكان بلاد الشام ومصر في القرن السابع الميلادي عانوا من تفشي الخلافات المذهبية وسوء القوى الحاكمة فما أن جاءت جيوش العرب المسلمين حتى استقبلوها وأن المسلمين اقتصروا على أخذ الجزية وتركوا لهم إدارة شؤونهم الداخلية كما ان قواتهم عسكرت خارج المدن بعيداً عن السكان فكان ذلك عاملاً إضافياً في تفضيل هؤلاء السكان لهم على الروم وغيرهم، كما أشار إلى أن الإسلام تميز عن كافة الأديان الأخرى بعدم وجود طبقة من الكهنة سوى الخليفة[٣١].

علاوةً على أنه أشار إلى أن "الخليفة والبابا كلاهما كان له شأن في حرية الفكر، الأول في الشرق والثاني في الغرب. وكلاهما كان قد اعتمد على سلطة إلهية ليس للبشر سلطان عليها... والخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع الأمم الإسلامية. وهو من حيث الانتخاب يشبه البابا. فكلاهما ينتخب. والبيعة هي الشكل الذي عرفه المسلمون لتقرير الانتخاب ويقابلها عند البابا القرعة. فالبابا كان ولايزال ينتخبه الكرادلة أي كبار الكهنة

(٣١) سلامة موسى، حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٧، ص٦١.

بالقرعة. أما الخليفة فكان مدة الخلفاء الراشدين ينتخب بالبيعة العلنية تنتخبهُ الأمة بأجمعها. ولكن في حين أن البابا لايزال ينتخب للآن فإن الخلفاء منذ ابتداء الدولة الأموية إلى آخر الدولة العباسية والعثمانية كانوا يتوارثون الخلافة. وقد كانت الخلافة مدة الخلفاء الراشدين ابي بكر وعمر وعثمان وعلي يغلب على خلفائها الزهد والورع"[٣٢]، وأشار سافران (Safran) الباحث الأمريكي إلى أن وظيفة الخليفة كما بيّنها للفقهاء المسلمين حماية الدين الإسلامي، إدارة شؤون الدولة، المحافظة على النظام العام، نشر الدين الإسلامي، ضمن تطبيق الشريعة الإسلامية، إضافة إلى أن الخليفة هو نائب عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أن سلطته لم تكن مطلقة وبلا حدود بالمعنى الحديث للمصطلح، كما أنه ليس لديه سلطة تشريعية بل أنه يجب أن يلتزم بأحكام الشريعة مثل أي مسلم آخر، وأن طريقة توليه السلطة هي من خلال البيعة التي هي عبارة عن تعاقد اجتماعي بينه وبين ممثلي المجتمع يلتزم هو فيه بتطبيق الشريعة، بينما يلتزمون هم بإطاعته طالما انه أوفى بهذا الالتزام[٣٣].

اتفق مع سافران في تحليله لمفهوم وواجبات الخليفة في إطار النظام السياسي للإسلام، ولا أجد مبرراً لسلامة موسى في نظرته للخليفة والبابا ضمن سياق واحد، فالخليفة مقيد بالالتزام بالشريعة الإسلامية، وهو ليس بمستوى أعلى من باقي المسلمين، بينما البابا استند فعلياً إلى مبدأ السلطة الإلهية التي جعلت منه صاحب القول الفصل في المسائل الدينية وحتى السياسية في بعض المراحل التاريخية لاسيما القرون الوسطى التي برز فيها الأثر السياسي الفعّال لهذه المؤسسة الدينية التي أصبحت لها إقطاعيات في مختلف أنحاء أوربا، كما انه من غير الملائم المقارنة بين انتخاب الخليفة من خلال البيعة العلنية العامة وبين انتخاب البابا الذي كان مقصوراً على مجموعة محدودة من رجال الدين من درجة الكاردينال، أما انتقال الخلافة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة فهو لايعبر عن أسس ومبادئ الإسلام الحنيف.

---

[٣٢] المصدر نفسه، ص٦٤.

[33] Nadav Safran, Op.Cit, P.18-19.

وعدّ المسيحية ديانة دعت للأعمال الصالحة وعدم التعصب ومسامحة الآخرين إن اخطأوا، لذلك كانت منهجاً للطبقات المحرومة لأن هذه الطبقات تقدر هذه الفضائل الرفيعة بشكل كبير جداً، فضلاً عن ان هذه الطبقات شكلت ٩٠% من سكان الامبراطورية الرومانية لذلك لاقت لديهم قبولاً كبيراً، إلا انه ميّز بين الدين المسيحي ورجال الدين وبين المسيحية والكنيسة، وفسّر ظهور المذهب البروتستانتي بتجاوزات البابوية وطمعها حتى كان رجال الدين يبيعون صكوك الغفران للناس عن آثامهم، علاوةً على سأمهم من الأعمال الظالمة التي قامت بها محاكم التفتيش[٣٤].

امتدح سلامة موسى جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعدهما من المجددين في الدين الإسلامي والسياسة، إذ أن الأول سعى إلى النهوض بالأمم الإسلامية من خلال التوفيق بين الدين والعلم، أما الآخر فإنه سعى إلى التوفيق بين الدين والعلم أيضاً إضافة إلى دعوته لسن دستور في مصر[٣٥].

وآمن بالعلمانية التي عدّها نزعة أوربية فصلت نظام التعليم في المدارس وسياسات الحكومات عن الدين[٣٦]، إلا انه أكد انه ليست هناك نهضة إنسانية كثورة على الاستبداد أو نشر المبادئ التجديدية أو الدعوة إلى الإخاء والمساواة بين البشر وتوفير الحرية دون تأثير ديني فيها، ولذلك اتحد الأقباط مع المسلمين خلال ثورة ١٩١٩ وفشلت كافة محاولات التفرقة، كذلك رفض الأقباط اقتراح توفيق دوس باشا في لجنة إعداد الدستور عام ١٩٢٢ لضمان حقوق الأقباط في مجلس النواب بتعيين العدد الذي يمثلهم إذا لم يتحقق ذلك عن طريق الانتخابات، إذ طالبوا بالاقتصار على الانتخاب، ومثل ذلك أحد النتائج البارزة لثورة ١٩١٩[٣٧]، وعندما صدر دستور ١٩٢٣ ونص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة أوضح سلامة موسى موقفه منهُ بأنه كمصري من الواجب عليه الدفاع عن الإسلام لأنه دين

---

[٣٤] غالي شكري، المصدر السابق، ص٢١٧-٢١٩.
[٣٥] سلامة موسى، مختارات...، المصدر السابق، ص٢٧٨-٢٧٩.
[٣٦] ـــ اليوم...، المصدر السابق، ص١٢.
[٣٧] ينظر: ـــ تربية...، المصدر السابق، ص١٦٠، ١٦٢، ٢٦٨.

وطنه[٣٨]، فضلاً عن انه ساهم بفاعلية كعضو في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة التي لم تقتصر في عضويتها على الأقباط بل ضمت ٣٠٠-٤٠٠ عضو مسلم، وألقى فيها العديد من المحاضرات لمعالجة مشاكل الشباب وتثقيفهم وفق منهج علمي حضاري[٣٩]، ورغم دعوته للأقباط في عام ١٩٤٧ إلى إنشاء وكالة خاصة لتوظيف شبابهم[٤٠]، إلا انه أرجع مشاكل الأقباط السياسية إلى أزمة الديمقراطية التي عانت منها مصر طوال تاريخها[٤١]، وأثر قيام حرب ١٩٤٨ وتعالي دعوات الجهاد التي أطلقها رجال الدين المسلمين، دعا كافة المصريين ومن بينهم الأقباط إلى أداء واجبهم وأدان الخطط الصهيونية في فلسطين[٤٢].

يمكن القول أن سلامة موسى عبّر عن فهم خاص للعلمانية الأوربية فهو لم يتقيد بدعوتها إلى فصل الدين عن الدولة بشكل حاسم ونهائي، بل أكد على أهمية الدين في الجانب السياسي كعامل مؤثر في كل حركات الإصلاح السياسي ومواجهة قوى الاستبداد لأن الدين في أصله وجوهره دعوة لمواجهة الظلم، وهذا الفهم الديني العالي لديه دَفعه إلى أن يكون إيجابياً في التعاطي مع الشأن الديني في مصر لاسيما في أحد أهم مفاصله ألا وهو العلاقة بين المسلمين والأقباط، فعمل على ترسيخها بشكل عملي وتطبيقي.

موقف سلامة موسى من الاشتراكية:

أول موقف عبّر فيه سلامة موسى عن رؤيته للاشتراكية تمثل في مقالته (برنارد شو ورواياته) الذي نشره في مجلة "المقتطف" في القاهرة في ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩ انتقد فيه إيمان برنارد شو بالفوضوية[٤٣] مع إيمانه بالاشتراكية لأنه رأى أنهما متناقضتان

---

(38) **B.L. Carter, The Copts in Egyptian Politics 1918-1952, The American University in Cairo Press, Cairo, 1988, P.131.**

(٣٩) سلامة موسى، تربية...، المصدر السابق، ص٢١٠-٢١٤.

(40) **B.L. Carter, Op.Cit, P.49.**

(٤١) غالي شكري، المصدر السابق، ص٦٥.

(42) **B.L. Carter, Op.Cit, P.109.**

(٤٣) **استندت مبادئها إلى عدم الحاجة للدولة كونها تمثل أداة استبداد ضد الشعب، إلغاء الملكية الخاصة لأنها عامل إفساد للمجتمع إذ تولد الروح الأنانية عند البشر، رغم انها أقرت بأهمية النظام في المجتمع إلا أنه يتحقق عن طريق الفعل الإرادي والطوعي وليس عن طريق الشرطة والتخويف من السجون، أما ان حصلت جريمة أو مشكلة فإن المجتمع الفوضوي يتحرك فوراً لحلها أو التعامل مع المسيء أو المجرم وليس هناك**

بشكل واضح فهدف الاشتراكية وضع قيود على الحرية التجارية وإيقاف المنافسة الاقتصادية في حين أن الفوضوية تدعو إلى الفوضى في النظام الاجتماعي بقيمه وثوابته الأخلاقية الراسخة[٤٤].

نستنتج مما تقدم أن سلامة موسى استمر في منهجه الفكري السياسي المستقل، فبالرغم من علاقته الوطيدة مع برنارد شو أحد أبرز منظري الاشتراكية الفابية في بريطانيا، إلا أن ذلك لم يكن عائقاً أمامه في تسجيل اختلافه معه.

ونشر أول كتاب له بعنوان (مقدمة السبرمان) في عام ١٩١٠ عرف فيه الاشتراكية بأنها امتلاك الدولة لكافة المعامل والأراضي وأن يصبح كافة أفراد الشعب عمالاً لديها فتدفع لكلٍ منهم حسب مستوى كفاءته، كما انها لاتعني المساواة بين الناس بل المساواة في الفرص الممنوحة لهم لكي يظهروا قدراتهم ومن خلال ذلك يتم تعيين كل فرد في العمل الملائم له، وان القضاء والبريد والسكك الحديدية والشرطة وغيرها من الخدمات التي قدمتها الحكومة المصرية لمنفعة الشعب هي من الاشتراكية[٤٥]، ونشر أول كتاب عن الاشتراكية في مصر بعنوان (الاشتراكية) عام ١٩١٣ جاء فيه أن "للنظام الاشتراكي يقتضي إلغاء الملكية الفردية، بمعنى أنه لايجوز للفرد أن يمتلك ارضاً أو معملاً أو منجماً أو أي ثروة تحتاج في استغلالها إلى عامل أو عمال، وعليه يجوز للفرد أن يمتلك أدوات بيته وملابسه وأمواله طالما كان لايستغلها بواسطة عمال. بل ربما سمح له بامتلاك مسكنه أيضاً لأن هذا الملك لايضر الآخرين"[٤٦].

أما كيفية تحقيق الاشتراكية في مصر فقد رأى انها "تكون بتربية الجمهور على الحكم النيابي الديمقراطي أولاً ثم نشر المبادئ الاشتراكية وادخال بعضها بالتدريج في جسم الحكومة حتى تتشرب بها الأمة... فبدلاً من أن يحكم القرية عمدة ليس لأهل القرية رأي في

مبرر لإقامة نظام دائمي لأداء هذه الواجبات، ينظر، فايز صالح أبو جابر، الفكر السياسي الحديث، عمان، ١٩٨٥، ص٢٥١.

(٤٤) ينظر، سلامة موسى، (برنارد شو ورواياته)، "المقتطف" (مجلة)، القاهرة، ج٦، المجلد الخامس والثلاثون، ١ كانون الأول (ديسمبر)، ١٩٠٩، ص١١٧٩.

(٤٥) ينظر، سلامة موسى، مقدمة السبرمان، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩١٠، ص١٩-٢٠.

(٤٦) ـــ الاشتراكية، دار سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٩.

تعيينه، يحكمها مجلس منتخب من سكان القرية الراشدين ذكوراً أو إناثاً"(٤٧)، أما هدف الاشتراكي المصري وغايته "ان تتدرج حكومتنا من امتلاك السكك الحديدية والمعامل والمناجم، وتديرها، كما تدير هذه السكك الآن. يطلب الاشتراكيون ذلك من سبيل التدريج الوئيد لا الطفرة السريعة. وكل خطوة نخطوها نحو الإصلاح الاشتراكي تكون مصحوبة دائماً، بل ومتوقفة، على درجة التنور السارية في الأمة"(٤٨).

يتضح لي مما ورد آنفاً ملامح الاشتراكية الفابية وانعكاساتها على الفكر السياسي لسلامة موسى، والاشتراكية الفابية البريطانية نشأت ضمن ظروف وخصائص معينة إذ أنها نشأت في بلد امتاز بعراقة مؤسساته الدستورية الديمقراطية وبلد الثورة الصناعية ومؤسساتها، وازدهار الفكر وتقدم العلوم والمعارف، أما في مصر فمن المعروف أنها كانت ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني، إضافة إلى هيمنة النظام السياسي غير الديمقراطي على شؤون البلاد، فضلاً عن تدهور النظام التعليمي وازدياد نسبة الأمية بشكل كبير جداً، وكل هذه العوامل تعيق تحقيق التحول الاشتراكي الديمقراطي الذي نادى به سلامة موسى، كما انه أغفل أهمية دور الطبقة العاملة فهدفه تحقيق الإصلاح للمجتمع ككل، فتحقيق هذه التحولات كان يستلزم لتجاهاً ثورياً يعمل على إحداث تغيير جذري في مفردات الواقع السياسي المصري وليس من خلال وسائل سياسية تستلزم وقتاً وجهداً فقط وقد لاتصل في نهاية المطاف إلى تحقيق الهدف المنشود لعدم توفر البيئة الملائمة لها.

ساهم سلامة موسى بشكل أساسي في تشكيل الحزب الاشتراكي المصري عام ١٩٢٠، إلا ان هذا الحزب ضم تيارات اشتراكية أخرى وتحديداً اشتراكية الدولية الثانية ممثلة في محمد عبد الله عنان، الماركسية ممثلة في محمود حسني العرابي، الفوضوية ممثلة بجوزيف روزنتال (Joseph Rosenthal)، وكان سلامة موسى معارضاً للبلشفية الروسية التي عدّها فشلت بشكل كامل ونشرت الخراب والدمار، كما أن من أسباب اعتراضه على البلشفية أنها سعت لتحقيق أهدافها عن طريق الثورة، في حين أن تحقيق الاشتراكية يجب أن يكون من خلال وسائل تدريجية، فضلاً عن قناعته بضرورة اتباع الحزب لمبادئ برنارد شو

(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٠.
(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٢.

وويلز أكثر من اتباع مبادئ ماركس وانجلز (Engels)، وان يكون شعار الحــزب التطــور والنشوء لا الثورة والانقلاب، واتهم الحكم الشيوعي في روسيا بــالظلم كمــا كــان الحكــم القيصري قبله، واستدل على ذلك بقرار إحدى المحاكم البلشفية بمــصادرة كتــب تولــستوي الروائي الروسي وإحراقها على الرغم من انه كان نصيراً للعمال في كافة كتاباته[٤٩].

خلال عام ١٩٢٥ انكب سلامة موسى على دراسة الاشتراكية العلمية أي الماركسية، ورأى أنها ذات أهمية كبيرة في تحليل السياسة الدولية، وفهم التطورات التاريخية، وعــدّ ان ماركس صاحب الفضل في جعل الاقتصاد علم[٥٠].

بإمكاني القول أن الماركسية قدمت أهمية كبيرة لعلم السياسة والتاريخ مــن خــلال تأكيدها على العوامل الاقتصادية التي عدّت انها المحرك لتطور التاريخ الإنــساني بمراحلــه المختلفة، إلا أنها أغفلت من جانب آخر أهمية العوامل الدينية والاجتماعية والبيئية، أما كــون ماركس هو من أوجد قواعد علم الاقتصاد فلا أتفق مع هذا الطرح لأن أسس علم الاقتــصاد بمفهومه الحديث ظهرت منذ القرن السابع عشر في بريطانيا من خلال كتابات اندرو يارنتون (Andrew Yarranton)، آدم ســمث (Adam Smith)، مــالثوس (Malthus) وديفيــد ريكاردو (David Ricardo)،[٥١] إلا أنه في المحصلة النهائية فإن موقف سلامة موسى من الماركسية مثل نقطة تحول بارزة في رؤيته الفكرية.

وذكر أن "الاشتراكي المصري يجد نفسه في صف واحد مع الوفد. لأن الوفدية هــي في صميمها الدعوة إلى الاستقلال. ولايمكن اشتراكياً ان يفكر في أي برنامج اشتراكي، ما لم يكن الاستقلال محققاً ناجزاً.... والاشتراكية والاستعمار ضدان، لا مصالحة بينهما. فــالأولى تعاون ومساواة وعدل، والثاني استغلال وامتيــاز واحتكــار"[٥٢]، والاســتعمار والرجعيــة

[٤٩] رفعت السعيد، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠-١٩٢٥، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٠، ص٧٦-٧٩.
[٥٠] سلامة موسى، تربية...، المصدر السابق، ص١٢٦.
[٥١] للمزيد من التفاصيل، ينظر،
John Somerville (and others), Encyclopedia Americana, Vol.9, Americana Corporation, 1979 Edition, Chicago, 1979, p.605-607.
[٥٢] سلامة موسى، تربية...، المصدر السابق، ص٢٠٣-٢٠٤.

المصرية هما أعداء الإصلاح والتطور في مصر، والإصلاح يعني تكوين صناعة حديثة وتبني ثقافة علمية(٥٣).

اتخذ سلامة موسى موقفاً إيجابياً من حزب الوفد ينسجم مع تأثير هذا الحزب الأساسي والحيوي في واقع الحياة السياسية المصرية كرمز قيادي للحركة الوطنية، وكونه الحزب الوحيد الذي حاز على دعم الأغلبية والذي ترجم بشكل واقعي من خلال فوزه في كافة الانتخابات النيابية ماعدا الحالات التي لجأت فيها السلطات الحاكمة إلى تغيير نتائج الانتخابات بشكل غير قانوني، إضافة إلى إقصائه عدة مرات عن الحكومة، كما تجدر ملاحظة أن سلامة موسى حدد بوضوح أعداء النهوض الوطني في مصر لاسيما الاستعمار البريطاني والقوى الرجعية المصرية المتحالفة معه.

وشجب في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ منح امتيازات استخراج النفط في منطقة رأس غارب على البحر الأحمر ومنطقة رأس مطامر في شبه جزيرة سيناء لشركات بريطانية وطالب بإلغاء هذه الامتيازات لأن هذا النفط هو ملك الشعب المصري، ودعا مجلس النواب المصري إلى سن قانون لمنع منح امتيازات أخرى للشركات البريطانية والأمريكية لاستخراج النفط أو أي معدن آخر(٥٤).

وبعد قيام ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ أكد أن اتجاهه الاشتراكي هو امتداد لما ذكره عن الاشتراكية في كتابه الأول (مقدمة السبرمان) عندما كان عضواً في الجمعية الفابية الاشتراكية البريطانية(٥٥).

وامتدح موقف الاتحاد السوفيتي المؤيد لمصر خلال العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦، وأيضاً الاتفاقية المصرية-السوفيتية لإقامة المصانع في مصر عام ١٩٥٧(٥٦).

اعتقد أن التبدل في موقف سلامة موسى من الاتحاد السوفيتي سببه تحقق العديد من النجاحات في تجربته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبروزه كقوة دولية مؤثرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ كقطب دولي رئيسي في السياسة العالمية، ودعمه

---

(53) **Albert Hourani, Op.Cit, P.339.**

(٥٤) سلامة موسى، انتصارات...، المصدر السابق، ص٧٤-٧٧.

(٥٥) سلامة موسى، تربية...، المصدر السابق، ص٣٣٩.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٣١١-٣١٣.

بناء دولة القانون في العراق

المدرس المساعد
عبير سهام مهدي(*)

المقدمة

(لا مجتمع الا وبه قانون) مقوله اطلقها فقيه روما القديمة (شيشرون) فالقانون ليس وليد اليوم وانما منذ بدء الخليقة بدأت حاجة الانسان الى قواعد سلوكيه ينظم بها حياته ويرى بها حدود حريته بحيث لاتتجاوز هذه الحرية الى حدود حرية الاخرين.

فعندما ظهرت المجتمعات البشرية كمجتمعات احتاجت الى تغيير هذه القواعد السلوكية ضمن اطر ولوائح تحدد ماهو المباح وماهو المحرم فتعاقب على حماية المحرم وتبيح ممارسة الفعل المباح، وظهور القوانين بمعناه الواضح ظهرت مع ظهور الدولة فأخذت تسن القوانين المنظمة للحالات الاجتماعية التي ظهرت نتيجة الممارسات التي يقوم بها المجتمع فظهرت مختلف انواع القوانين ومن ثم تطورت هذه القوانين وتفرعت الى مسميات اخرى نتيجة لتطور المجتمع فكان ظهور القانون المدني وقانون الأحوال الشخصية وظهور قوانين اخرى دوليه نتيجة تعقد العلاقات الدولية وظهور الخلافات الدولية في حدود البر الى حدود البحر وما الى ذلك. فكان القصد من ظهور القانون هو تحقيق الامن الاجتماعي داخل الدولة.

واذا كانت المؤسسية ودولة القانون من اهم معايير الانتماء الى العصر الحديث يأت الخطاب الرسمي العراقي على ذكر تعبير (دولة القانون والمؤسسات) بعدها سمة العصر التي تنشد الشعوب تحقيقها في القرن الحادي والعشرين.

ومن هنا جاءت فرضية بحثنا الموسوم بـ(بناء دولة القانون في العراق) بان سيادة القانون يشكل شرطا اساسيا من شروط بناء المجتمع الحديث.

وللبرهنة على فرضية البحث نطرح التساؤلات الاتية:

(*) كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.

١- كيف نفهم دولة القانون ، وماهي العناصر التي تقوم عليها الدولة القانونية ؟ .
٢- ماهيه الشروط الواجب توفرها في الدولة الديمقراطية لكي تكون دولة قانون؟
٣- كيف يتم بناء ثقافة دولة القانون في العراق ؟
٤- ماهي اهم المعوقات التي تواجه بناء دولة القانون في العراق ؟ .

وفي ضوء التساؤلات التي تم طرحها في فرضية البحث فقد تم تقسيم الموضوع الى مبحثين اساسيين فضلا عن المقدمة والخاتمة .

تناول المبحث الاول ماهية دولة القانون في مطلبين : تناول المطلب الاول مفهوم الدولة وكرس الثاني لمناقشة العناصر التي تقوم عليها الدولة القانونية .

اما المبحث الثاني والاخير فقد ناقش كيفية بناء دولة القانون في العراق .

المبحث الاول

ماهيه دولة القانون

لم تكن الدولة في السابق مقيده بالقانون لسببين الاول الاعتقاد السائد بان الحاكم منصب من الله والثاني اختزال الدولة بشخص الحاكم لذا لاعجب من اطلاق الملوك لمقولاتهم الشهيرة والتي تضع الدولة فوق القانون كقول احدهم (الدولة انا) وقول اخر (ان القانون في فمي وسره غالبا مايكون كامنا في صدري)[١].

وبفعل تنامي الوعي الديمقراطي لدى الشعوب وايمانها الراسخ بضرورة تقييد سلطات الملوك اخذ الوضع يتغير تدريجيا لصالحها وبدا الفقه القانوني يشيد نظرياته الخاصه بهذا الشان[٢].

ولاجل الوقوف على المعالم الاساسيه لدولة القانون يقتضي الامر المرور على مفهوم الدولة بوجه عام في مطلب اول والعناصر التي تقوم عليها الدولة القانونية في مطلب ثان .

---

[1] نقلا عن : محمد عصفور ، استقلال السلطة القضائية ، لامط ، القاهرة ، د.ت ، ص٥٠ .
[2] عدنان عاجل عبيد ، (اثر استقلال القضاء عن الحكومة في دولة القانون) ، اطروحة دكتوراه (غير منشوره) ، مقدمه الى كليه الحقوق / جامعة النهرين ، ٢٠٠٧،ص٥ .

اولا: مفهوم الدولة

اختلفت وجهات النظر حول ماهيه الدولة ،فالدولة من وجهة نظر (ارسطو) انها : (جامع لافراد مختلفين) وبذلك يعارض (ارسطو) وجهة نظر (افلاطون) الذي يرى في الدولة واحدا وليس كثره ، وكذلك يعارض (ارسطو) المشاركة بالا ملاك في الدولة بينما يراها – اي المشاركة في الملكية – طبيعيه في العائله ، وبهذا يستبق (ارسطو) بحس سليم وفطري استحالة الملكية المشتركة غير القائمه على بنيه اجتماعيه عضويه[3] .

عمليا ، لايدعي (ارسطو) ان (الاشتراكيه) منافيه لطبيعة البشر، وانما يدعي انها منافيه لوضع يحتاج فيه البشر الى دوله وهو وضع الانفصال والتعددية ،اما نظريا فانه يعد (الاشتراكية) او المشاركه في الملكيه مخالفه لطبيعة البشر ، لانه يعد الدولة ايضا معطيا طبيعيا مثل العائله ، والتعددية فيها معطى طبيعي كوحدة الترابط في العائله[4] .

ويرى علماء السياسه الدولة بانها : (مجموعه متجانسة من الافراد تعيش على وجه الدوام في اقليم معين وتخضع لسلطه عامه منظمه)[5].

ويعرفها الفقه الفرنسي بانها : (كل تنظيم سياسي للجماعة ايا كانت صورته)[6].

وفي الفقه الانكليزي تعرف بانها : (مؤسسه سياسيه يرتبط بها الافراد من خلال تنظيمات متطورة)[7].

اما (ريموند كايتل) فانه يعرف الدولة بانها : (مجتمع من الافراد يقيمون بأستمرار في اقليم معين ، مستقلين من الناحية القانونية عن كل تسلط اجنبي ، ولهم حكومة منظمه تشرع وتطبق القانون على جميع الافراد داخل حدود سلطتها)[8].

(فكايتل) يجعل اركان الدولة اربعه هي :

أ- مجموعه من الافراد .

---

[3] منى حسين عبيد و خلود محمد خميس ، علاقة الدولة بمؤسسات المجتمع المدني ، مجلة دراسات دوليه ، ع (٢٧) ، نيسان ، بغداد ، ٢٠٠٥، ص٩٦ .

[4] عزمي بشاره ، المجتمع المدني : دراسه نقديه ، مركز دراسات الوحدة العربيه ، بيروت ، ٢٠٠٠، ص٤٠ .

[5] كمال الغالي ، مبادئ القانون الدستوري والنظم السياسيه ، مطبعة الداودي ، دمشق ، ١٩٨٥، ص١٢ .

[6] شمس مرغني علي ، القانون الدستوري ، مطبعة دار التأليف ، القاهره ، د.ت ، ص١٢١ .

[7] نعمان احمد الخطيب ، الوسيط في النظم السياسيه والقانون الدستوري ، دار الثقافه للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٤، ص١٤ .

[8] نقلا عن : لؤي بحري ، دراسات في علم السياسه ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص٦٥ .

ب- الاقليم .

ت- السياده.

ث- الحكومة .

من التعاريف المقدمه نجد انها تجمع على وجود اربعة مظاهر للدوله :

١- التجمع البشري .

٢- الرقعه الجغرافيه .

٣- التنظيم السياسي .

٤- الاعتراف للدوله بالشخصيه القانونية والتي تؤهلها لاكتساب الحقوق وتحمل الالتزامات شأنها في ذلك شأن الافراد الطبيعيين المكونيين لها وان ظلت مستقلة عنهم[٩].

ويترتب على الاعتراف للدولة بالشخصية القانونية فضلا عن القدرة على التمتع بالحقوق وتحمل الالتزامات ، استقلالها عن شخص من يمارسها[١٠] .

وهذا يقودنا الى حقيقه مفادها بان الدولة التي تتمتع بالشخصية القانونية والتي اهلتها لنيل الاستقلالية فهذا يعني ان الدولة تتمتع بالسيادة ومعنى تمتعها بهذه الصفة ان تكون هي صاحبة الكلمه العليا لا يعلوها سلطه او هيئه اخرى وبالتالي فهي تعلو على جميع الافراد والجماعات والهيئات الموجودة وبالتالي تكون صاحبة القرار النهائي في جميع الشؤون الداخلية دون مشاركة سلطه اخرى لها في هذه السيادة[١١] .

اما مفهوم دولة القانون فقد تبلور تدريجيا في اوربا كتصور بديل عن الدولة الامبراطورية دولة الحكم المطلق والسلطات المطلقة التي يحظى فيها الملك والامبراطور بحق منح الحياة وزرع الموت تجاه (رعاياه).

اتخذ المفهوم في البدايه سمة مثال سياسي يهفى اليه وكشعار سياسي يتجه نحو تطبيقه.

[9] ثروت بدوي ، النظم السياسيه ، دار النهضه العربيه ، القاهره ، ١٩٧٥، ص٥٢ .
[10] المصدر نفسه ، ص٥٣ .
[11] المصدر نفسه ، ص٥٤ .

اتسم مفهوم دولة الحق والقانون منذ البدايه بكونـه مفهومـا مقارنـا صـراحه اوضمنا لان الحديث عن دولة القانون يتضمن الاحاله على نقيضها :

الدولة الامبراطورية التقليديـة مطلقـة السلطات او الدولـة العـصرية المستبدة الشمولية[١٢]. دولة القانون بهذا المعنى هي دوله مجرده ، دوله المؤسسات بالقياس الى الدولة التقليدية التي هي مشخصنه دولة الامير او السلطان[١٣] .

فاذا كانت السلطة في الدولة التقليدية متمركزه كليا وبشكل مطلق في شخص واحد ، وهو بمثابه الواهب للخيرات او الحارم منها ، مثلما هو السيد المطلق واهب الحياة والمـوت فان دولة القانون اي الدولة العصرية الديمقراطية هي دوله يتم فيها توزيع السلطة واقتسامها لا على افراد بل على مؤسسات : مؤسـسات تـشريعيه ، مؤسـسات تنفيذيـه ، مؤسـسات قضائية[١٤] .

توزع هذه المؤسسات هذه السلطة بل تشكل -في الصيغة المثاليـة لهـذا التـصور بالنسبة لبعضها سلطات مضادة وظيفة كل منها هو الحد من سلطة الاخرى .

وما يوحد ويربط بين هذه السلطات الموزعه هو وحدة الفضاء القانوني الذي يرسم لكل سلطة مجالها واختصاصاتها وحدودها فالمعيار والمرجع والحكم في دوله القـانون هـو القانون سواء تعلق الامر بالقانون الاساسي الذي هو الدستور او بالقوانين الفرعيه[١٥].

وتقوم الدولة الحديثه على احلال العلاقات القانونية محل العلاقات الوجدانية والقرابيه (العائلية)، والعرقية، والمهنية، والمالية، والاخلاقية، والدينية وغيرها ، فسلطة القانون هنـا هي السلطه المرجعية الاعلى التي تستمد منها كل الهيئات والقطاعات والممارسات والتيارات مرجعيتها الرسمية[١٦].

الفرد في الدولة التقليدية هو مجرد مرعي تمنح فيه الجماعـة او الدولـة بعـض الحقوق وبعض الامتيازات احيانا، لبعض الافراد وبعض الفئات، في حين ان الفرد في دوله

---

12 عدنان عاجل عبيد ، مصدر سبق ذكره ، ص١٣ .

13 ينظر : علي دريول محمد ، بناء الدولة العراقيه بين المؤسساتيه والشخصانيه ، مجلة العلوم السياسيه ، ع (٣٤) ، ك٢ – حزيران ، ٢٠٠٧، ص١٤١ .

14 شمخي جبر ، معوقات بناء دولة المؤسسات في العراق : . www . alsabaah . com

15 محمد سبيلا ، دولة القانون بين الواقع والمثال : . www . alwan . com

16 المصدر نفسه.

القانون هو بالاساس مواطن صاحب حقوق طبيعيه راسخه لاتقبل السلب حقوق يضمنها ويحميها القانون[١٧] .

تقوم الدولة التقليدية على اساس التمايز والامتياز العرقي او العقدي او الانتمائي (مثلا الشرفاء مقابل العوام)، اما في دولة القانون كدوله تجسد الحداثه فهي دوله المساواة الصوريه المطلقه ، الناس فيها لايتمايزون من حيث طبيعتهم وكينونتهم الانسانيه، بل من حيث مايملكون ومايستحصلون ومن حيث مواقعهم ودرجة فاعليتهم فهي تحقق (تساوي الشروط) و(تساوي الحظوظ) وتعتبر المساواة الفعليه او الاقتصاديه امرا خارج دائرة اختصاصاتها[١٨] .

ان دولة القانون هي الصيغة التنظيمية السياسية التي تنقلب فيها العلاقه بين الفرد والدولة ، بين الحاكم والمحكوم رأسا على عقب .فاذا كانت الدولة التقليدية تعتبر (الحقوق) هبات تتكرم بها على رعاياها مميزه بينهم تمييزا استثنائيا ، في حين ان دولة القانون والحق ترى نفسها تعبيرا عن المواطن وتجسيدا مؤسسيا ضامنا لحقوقه.

الفرد في هذا المنظور هو المواطن الذي يهب الدولة مشروعيتها عبر الاليات الديمقراطية والدولة هي مجموع المؤسسات الممثلة والضامنة للحق العام وللحقوق الفرديه[١٩].

ومن هنا اقترنت الدولة الحديثة بالديمقراطية، إذ لايمكن ان تقوم دولة القانون الا في اطار ديمقراطي، بل لعل دولة القانون هي من مقتضيات الديمقراطية (الفعليه) ومستلزماتها[٢٠].

يؤخذ عاده على هذا التصور لدولة القانون والحق انه تصور ذو نزعه تشريعيه وقانونيه واضحة ، وانه تصور مثالي اقرب ما يكون الى تصور عصري لمدينه فاضلة قوامها القانون ، مثلما يؤخذ عليه من طرف الاتجاهات الاجتماعية بانه يتضمن اضفاء صبغه

---

17 عبد الغني بسيوني عبد الله ، الوسيط في النظم السياسيه والقانون الدستوري ، مطابع السعدني ، القاهره ، ٢٠٠٤، ص١٦٠ .

18 محمد سبيلا ، مصدر سبق ذكره .

19 عبد الغني بسيوني عبد الله ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٠ .

20 مجموعة باحثين ،الخليج العربي والديمقراطيه نحو رؤيه مستقبليه لتعزيز المساعي الديمقراطيه ، مركز دراسات الوحده العربيه ، بيروت ، ٢٠٠٢، ص٢٩ .

مثاليه على القانون ، الذي هو تقنين للتفاوت وترسيم لعلاقات القـوه والتغلـب القائمـه فـي المجتمع[٢١] .

رغم ما لهذه الانتقادات والمأخذ من صدقيه ووجاهة، الا ان فكرة دولة القانون مـن حيث هي الحد الادنى للدوله في وظيفتها السياسية لا تحمل اية مزاعم اجتماعيه او اخلاقيـه في العداله الاجتماعية ، بل هي مجرد تنظيم لمسألة السلطه بهدف تـوفير الـشروط الـدنيا لانطلاق عملية التنافس الاجتماعية ، ومن ثم فان مصدر قوتها يتمثل في تحقيـقَ التـساوي القانوني بين الناس اي تساوي شروط وظروف حدوث وجريان مختلف العمليات الاجتماعيـة بما فيها السيروره السياسيه ذاتها[٢٢] .

من خلال ماتقدم نجد ان هناك ثمة اوصافا متباينه للدوله القانونية لعل اهمها :

- بانها الدولة التي يخضع نشاطها التشريعي والتنفيذي والقضائي للقانون[٢٣] .
- وهناك من يعرفها بدلالة الاحاله الى نقيضها اي اذا فَقـدت دولـة القـانون وصفها هذا تحولت الى دوله بوليسيه[٢٤] .

غير ان اقرب التوصيفات التي تتفق عليها اغلب التعريفات لدولة القانون بانها الدولة التي يخضع فيها الحكام والمحكومين لاحكام القانون ، بعباره اخرى ، انها الدولة التي تـنظم فيها العلاقه بين الحكام والمحكومين وهذا التنظيم يتم من خلال ايجاد علاقـه متوازنـه بـين طرفي العلاقه فالحاكم كأحد طرفي العلاقه وممارس للـسلطه يرغـب بتغليـب ضـرورات ممارسة السلطه ، والمحكومين باعتبارهم الطرف الاخر لهـذه العلاقـه يرغبـون بتغليـب ضمانات الحقوق والحريات العامه ، وعليه فان دولة القانون هي الدولة التي تقيم التوازن بين ضرورات السلطه وضمانات الحقوق والحريات العامه ، لان تغليب ضرورات السلطه يؤدي الى الاستبداد ، وتغليب ضمانات الحقوق والحريات العامه يؤدي الى الفوضى[٢٥] .

---

21 محمد سبيلا ، مصدر سبق ذكره .
22 المصدر نفسه.
23 عبد الغني بسيوني عبد الله ، مصدر سبق ذكره ، ص١٥٧ .
24 منذر الشاوي ، القانون الدستوري: نظرية الدستور ، منشورات مركز البحوث القانونيه ، بغداد ، ١٩٨١، ص١٦٦ .
25 حسان محمد شفيق العاني ، افاق الدولة القانونيه في العراق ، مجلة العلوم السياسيه ، ع (٢٩) ، ت١ ، ٢٠٠٤، ص٥٥

ثانيا : عناصر دولة القانون

يراد بعناصر دولة القانون بهذا الصدد ما تتوقف عليه دولة القانون ويدخل في ماهيتها ، بحيث يؤدي تخلف احد هذه العناصر الى انتفاء هذا الوصف عنها وتتحول الى دوله بوليسيه تنتهك فيها الحقوق وتستباح الحريات ويسيس فيها القانون.

واهم هذه العناصر:

١- **وجود دستور**: ترتبط دولة القانون وجودا وعدما بوجود دستور يتضمن القواعد المحدده لنظام الحكم في الدولة والسلطات العامه واختصاصاتها والنصوص الكفيله بحماية الحقوق والحريات الاساسيه المقرره للافراد . فالدستور يقوم على دعامتين الاولى السلطه والثانيه الحريه ويسعى جاهدا الى ايجاد قدر من التوازن والتصالح بينهما[٢٦].

ويعرف الدستور بانه القواعد القانونية التي تسنها السلطه التشريعه (البرلمان ، المجلس الوطني ، مجلس الامه ، ... الخ) والذي يعد القانون الرئيس الذي يجب ان لاتتعارض معه القوانين الفرعيه الاخرى ، بمعنى اخر ، الدستور هو الوثيقه التي تنص على القواعد العامه والمبادى الاساسيه التي تحدد شكل النظام السياسي ، وتحدد الحقوق والحريات العامه للمواطن وتتعرض الى واجبات رئيس الدولة وتكوين السلطات الثلاث ، فانها ايضا ترسم وتحدد العلاقات بين الدولة والمجتمع وبين مؤسسات الدولة[٢٧] .

وهو قمة النظام القانوني في اي دوله ولايتصور وجود قاعده قانونيه تسمو على الدستو وانما العكس ، بمعنى سمو الدستور على كل القواعد القانونية الاخرى .

والدستور يختص بتنظيم الدولة باعتبارها المؤسسه الام لكل مؤسسات الدولة من حيث كيفيه تكوينها واختصاصاتها وكيفية مباشرتها لهذه الاختصاصات وحدود وضوابط هذه الاختصاصات، كذلك علاقة السلطه داخل الدولة مع بعضها البعض وعلاقتها بالمواطنين، اضافه الى عنايته بحقوق المواطنين في مواجهة السلطات العامه وكيفية حماية هذه الحقوق[٢٨].

---

[26] عدنان عاجل عبيد ، مصدر سبق نكره ، ص٢١ .

[27] ينظر:
- احمد جويد ،الدولة الدستوريه وسلطة القضاء ، جريدة الاتحاد ، ع (١٧٣١) ، ١٧ /١٢/ ٢٠٠٧ ,ص٩ .
- منذر الشاوي, مصدر سبق نكره , ص١٣٨ .

[28] اسماعيل الغزال ، الدساتير والمؤسسات السياسيه ، مؤسسة عز الدين للطباعه والنشر ، لبنان ، ١٩٩٦,ص٥ .

وعليه فالدستور يشكل اذا قيدا قانونيا لسلطات الدولة حيث يبين حدود واختصاص كل سلطه بالشكل الذي يمنع من تجاوز السلطه على السلطه الاخرى والا تكن قد خالفت احكام الدستور وفقدت السند الشرعي لتصرفها . كما ان احكام الدستور تقع في قمة هرم النظام القانوني ويسمو على ماعداها من قواعد قانونيه[٢٩] .

٢- **الفصل بين السلطات :** يعتبر مبدأ الفصل بين السلطات احد اهم المبادى الدستوريه في الدول الديمقراطية المعاصره ، ويعني وجوب الفصل بين السلطات الدستوريه الاساسيه : التشريعيه والتنفيذيه والقضائيه .

ويقصد بالفصل بين هذه السلطات، الفصل الشكلي او العضوي: اي توجد هيئه او سلطه تتولى وظيفة التشريع وهيئه او سلطه تتولى وظيفة التنفيذ وهيئه او سلطه تتولى وظيفة القضاء[٣٠].

ومن الجدير بالذكر ان هذا المبدأ قد ارتبط باسم المفكر الفرنسي (مونتسكيو) على الرغم من انه ليس هو اول القائلين به[٣١] .

من خلال بحثه عن المثاليه السياسيه عن طريق ايجاد سلطه معتدله وقد برر (مونتسكيو) هذا الفصل بين السلطات باسباب فلسفيه وتاريخيه وبشريه يمكن تلخيصها بما قاله : (ان الحريه السياسيه لايمكن ان تتواجد الا في ظل الحكومات المعتدله)[٣٢]، غير انها لاتوجد دائما اذ انها لاتتحقق الا عند عدم اساءة استعمال السلطه ، ولكن التجربه الابديه اثبتت ان كل انسان يتمتع بسلطه لابد ان يسيئ استعمالها الى ان يجد الحدود التي توقفه (فالفضيله في حد ذاتها في حاجه الى حدود ، ولكي لايمكن اساءة استعمال السلطه فانه يجب ان يكون النظام قائما على اساس ان السلطه تحد من السلطه)[٣٣].

---

[29] **ينظر:**
- **المصدر نفسه ,ص٣٣ .**
- **منذر الشاوي ,مصدر سبق ذكره ,ص١٦٢ .**

[30] **دينيس لويد ، فكرة القانون ، تعريب (سليم الصويص) ، عالم المعرفه ، ع(٤٧) ، المجلس الوطني للثقافه والفنون والاداب ، الكويت ، ١٩٨١, ص٢٣٥ .**

[31] **المصدر نفسه , الصفحه نفسها .**

[32] **بطرس غالي ، مبادى العلوم السياسيه ، مكتبة الانكلو مصريه ، القاهره ، ١٩٦٣,ص٤٨٧ .**

[33] **ابراهيم الصغير ابراهيم ، مبدأ الفصل بين السلطات من النظريه والتطبيق ، مجلة ادارة قضايا الحكومه ، ع (٢) ، نيسان ، القاهره ، ١٩٨٠,ص٨ . للاستفاضه حول اهم الافكار التي نادى بها مونتسكيو ينظر :عبد الرضا حسين الطعان، تارخ الفكر السياسي الحديث ، دار الحكمه للطباعه والنشر ، بغداد ، ١٩٩٢,ص ص٣٦٩-٣٨٦ .**

لذلك تعتبر من اهم مزايا مبدأ الفصل بين السلطات صيانة الحريه ومنـع الاسـتبداد والمساهمه في انشاء او بناء دولة القانون ٠

٣- **مبدأ سيادة القانون :** ويعد اهم عنصر من عناصر دولة القانون والـذي يهـيمن علـى اعمال السلطات الثلاث التنفيذيه والتشريعيه والقضائيه ٠

ويقصد بمبدأ سيادة القانون : ان القاعده القانونية تات فوق ارادات الافـراد جميعـا حاكمين او محكومين وتلزمهم جميعا بأتباع احكامها ، فان لم يلتزموا – خاصـه الحكـام – بالقاعده القانونية انقلب تصرفهم المخالف للقانون الى تصرف باطل وغير قانوني[٣٤] ٠

وتكمن اهمية سيادة القانون فيما يلي[٣٥]:

١- الستورية الدولة وسيادة القانون اهميه اجتماعيه وانسانيه ملحه لان الدولة الحديثـه والديمقراطية تتدخل في تنظيم تفاصيل الحياة اليوميه لصالح مواطنيها والتي تتمثل بالخدمات بكافة اشكالها وصورها بحكم دورها في تسيير شؤون الدولة والمجتمـع طبقا للقوانين والسياسات التي تعهدت بها الاحزاب المشكله للـسلطه سـواء فـي البرلمان او الحكومة وفي حال تخلي الدولة عن مسؤولياتها فـي تنظـيم الحيـاة الاقتصاديه والخدميه للمجتمع فستحل الفوضى محل النظام وبذلك تـضيع حقـوق الافراد وبخاصه الضعفاء منهم ٠ وهو الحال الذي يعاني منه المجتمع في الـدول ذات النظم الاستبداديه والتي لاتحترم القوانين والانظمه ولاتراعي مبدأ الفصل بين السلطات ، اذ تجعل السلطه التنفيذيه او الحاكمه هي اعلى سلطه في المجتمع ٠

٢- كما انها ضروره عصريه وحضاريه لانها تحمي مصالح المجتمع بصوره دائمـه والمصالح لايمكن المحافظه عليها وتنميتها الا اذا ساد القانون واستقل القضاء ٠

٣- في دولة القانون تنتفي حاجة المواطن لصاحب النفوذ او السياسي او المسؤول في الحكومة لانه سوف يحصل على حقه سواء كان على علاقه بأحد المـسؤولين او المتنفذين في دوائر الدولة ومؤسساتها ام لا ، كون الجميع سواسـيه امـام سـلطة

---

[34] للاستفاضه ينظر :
حسان محمد شفيق العاني ، الانظمه السياسيه والدستوريه المقارنه ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٦ ,ص ص٦٧-٦٩ ٠

[35] احمد جويد, مصدر سبق ذكره ,ص٩ ٠

القانون ، وهذا مانشاهده في الدول المستقره دستوريا وقانونيا والتي تحترم مجريات القانون والعداله ولاتتدخل في شؤون القضاء وبذلك يصبح السياسي هو صاحب الحاجه لافراد المجتمع في عرض خدماته عليهم من اجل جني اصواتهم التي تصل به الى اهدافه السياسيه دون حاجة المواطن اليه باعتبار ان حق المواطن مكفول دستوريا وقانونيا٠

٤- **رقابة القضاء :** تلعب الرقابه القضائيه دورا مزدوجا في دولة القانون فهي عنصر داخل في تكوينها من جهه ، وضمانه فاعله لسيادة القانون ومنع انتهاكه من جهه اخرى ٠

فالقضاء وبوصفه الجهه المحايده من بين السلطات الثلاث لعدم تأثره باي اعتبار سياسي وعدم استجابته لاي تأثير شخصي ينبغي ان يبسط رقابته على عمل السلطتيين الاخريين فله ان يبسط رقابته على اعمال السلطه التشريعيه للتأكد من مدى موافقة التشريعات الصادره عنها لمضمون الدستور فاذا خالفت احكامه جاز له ان يلغيها او يمتنع عن تطبيقها وبذلك يكون الحامي الامين للدستور شكلا وموضوعا[٣٦].

كذلك السلطه التنفيذيه او الاداره يجب ان تخضع فيما يصدر عنها من تصرفات قانونيه او ماديه لاحكام القانون ، فالاداره يجب ان تخضع (لمبدأ المشروعيه)[٣٧] فيما تصوره من قرارات تحت طائلة الغاء مايخالف هذا المبدأ عن طريق دعوى الالغاء كذلك يمكن للقضاء الحكم بالتعويض على الاداره عما تسببه من اضرار لاصحاب الشأن[٣٨] ٠

كذلك فان السلطه التنفيذيه تكون خاضعه في تصرفاتها لاحكام الدستور طبقا لفكرة تدرج القواعد القانونية حيث تشكل احكام الدستور القواعد الاسمى التي تأت في قمة هرم القواعد القانونية ، فالسلطه التنفيذيه يجب ان تتفق اعمالها وتصرفاتها كسلطه اداريه ليس مع احكام

---

[36] عدنان عاجل عبيد , مصدر سبق ذكره ، ص٢٧ ٠

[37] ينصرف مبدأ المشروعيه الى مدى مطابقه تصرفات الاداره لاحكام القانون , فالمشروعيه صفه تلحق بالعمل الاداري وعما اذا كان متوافقا مع القانون ام لا وعليه ينصرف معنى المشروعيه الى ان تكون اعمال الاداره غير مخالفه لقاعده قانونيه ويتسق هذا التصور لها مع ضرورة منح الاداره جزءا من الحريه في التصرف دون تكبيلها بنصوص قانونيه بحيث لايقف الامر عند تطبيق الادارة لنصوص قانونيه سبق وضعها او ان تكون اعمالا مستنده لقاعدة قانونيه٠
ينظر: علي خطار شطناوي ، موسوعة القضاء الاداري ، ج١ ، دار الثقافه للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٤ , ص٢٥ ٠

[38] هوزان المرعي ، ضمانات قيام دولة القانون : www . we late me . net

الدستور فقط ، بل مع احكام القواعد القانونية الاخرى النافذه من قوانين عاديه ولوائح تنظيميه[٣٩].

استقلال القضاء : ان وجود قضاء مستقل يشكل احد اهم العناصر الاساسيه لقيام دولة القانون .

وعلى استقلال القضاء يتوقف الوجود الفعلي لبقية مقومات او عناصر دولة القانون فلا قيمه للدستور ، ولا لمبدأ الفصل بين السلطات الا بوجود رقابه قضائيه تضمن احترام احكام الدستور وبقية القواعد القانونية . وتضمن ممارسة كل سلطه لوظائفها في حدود مبدا الفصل بين السلطات وتضمن حمايه للحقوق والحريات الفرديه ، ولاقيمه لهذه الرقابه القضائيه الا اذا كان القضاء المستقل يمارسها[٤٠].

واستقلال القضاء (العدلي او الاداري او الدستوري) الذي يعتبر امرا لابد منه لقيام دولة القانون يجب ان يتأمن على مستويين : الاستقلال الشخصي للقضاة والاستقلال الوظيفي لهم .

فالاستقلال الشخصي للقضاة يتأمن على اكثر من صعيد : كيفية اختيار القضاة ، والحصانه وخاصه عدم قابلية العزل ، والنظام المالي والاداري الخاص بالترقيه والنقل والتأديب وقواعد الحياد في مواجهة الخصوم .

اما الاستقلال الوظيفي للقضاة فيتأمن من خلال : عدم تحصين اي عمل من اعمال سلطة الدولة من رقابة القضاء ، وعدم تدخل كل من السلطتين التشريعيه والتنفيذيه في عمل القضاء وضمان احترام حجية الاحكام وتنفيذها[٤١] .

يضاف الى هذه العناصر الاساسيه لدولة القانون العديد من العناصر وخاصه تلك المتعلقه بالامن القانوني وعلى رأسها عدم رجعية القواعد القانونية[٤٢] .

---

39 المصدر نفسه.
40 دينيس لويد ، مصدر سبق ذكره ، ص٢٣٦ .
41 المصدر نفسه ، ص ص ٢٣٦ -٢٣٧
42 هوزان المرعي ، مصدر سبق ذكره .

المبحث الثاني

بناء دولة القانون في العراق

من اولى التحديات التي تقف امام الجميع في التطلع لبناء العراق الجديد هو القدره على اقامة دوله القانون والذي يثير الكثير من الاشكاليات والمصاعب التي عمت البنى الفوقيه والتحتيه للعراق بما في ذلك امكانية تأهيل الاجيال الناشئه التي عانت ارهاصات مرحلة ماقبل الاحتلال وامتدادها تأهيلا نفسيا واجتماعيا عبر مناهج تربويه وثقافيه ومناخات اقتصاديه تستطيع ملئ الفراغات الحضاريه التي احدثها عصر العولمه وقشوره الطارئه على المجتمع العراقي ٠

ان نقطة البدء في بناء المجتمع تعتمد على قبول الاخر واخذ رايه ومراعاة خصوصيته في الاعتبار وذلك على اساس ثقافة التسامح والانفتاح وبث الثقه بين الافراد والجماعات والمكونات لمعالجة المشكلات ، وان تسبقه اشاعة القناعه لدى افراد المجتمع على انهم مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات شركاء في الوطن ولهذا فان عمليه بناء المجتمع ينبغي ان تمر بمسارين :

اولهما : اعادة بناء الدولة وضبط سلطتها وتطهيرها من الموروثات الاستبداديه٠

وثانيهما : اجراء عمليه تثقيفيه شامله تقوم على التنشئه السياسيه والاجتماعية لتعبئة المجتمع وتأهيله بما ينسجم مع متطلبات الوضع الجديد وتأهيله عبر الادوات والقنوات التربويه والتعليميه والاعلاميه[٤٣] ٠

فاذا ما انتعش التعليم وتقدم المجتمع خطوات على طريق العلم والمعرفه فان ذلك سيقود الى رفع مستوى الوعي الاجتماعي الذي سوف يساهم مساهمه فعاله في مراقبة مؤسسات الدولة التي سيرتبط وجودها ووجود العاملين فيها بمدى الاخلاص في اعمالهم والمجتمع سيمارس بوعيه المتنامي ايصال ممثليه الى مراكز المسؤوليه كل ذلك يجري ضمن قوانين تكفل تنظيم علاقات المؤسسات وتشد بعضها الى بعض ضمن روابط لا تقبل الانفصام ٠

---

[43] رعد حافظ سالم ، هل يمكن اقامة ديمقراطيه في العراق : دراسه اجتماعيه سياسيه تحليليه مقارنه ، حوليات الاداب والعلوم الاجتماعيه ، ع (٢٧) ، ديسمبر ، الكويت ، ٢٠٠٦، ص٧٥ ٠

واذا ما حصل فعلا مثل هذا الانفصال فسيكون ذلك نذيرا بوجود خطأ مايتطلـب الامـر معالجته فعمل المؤسسات سياسيه كانت ام اعلاميه ،تشريعيه ام تنفيذيـه ام قـضائيه ومـدى تطور عملها سيعكس النهج الذي يتبناه المجتمع ودرجة المعاصره التي يبلغها[44] .

قد يستغرق بعض الوقت انشاء ثقافة دولة القانون في العراق هذا اذا اريد لهـا ان تبنـى على اسس سليمه وقد تواجه صعوبات جمه فهنالك شروط اساسـيه فـي اي مجتمـع مـن المجتمعات للقيام بعملية التحول وخاصه من ثقافة دولة الحزب الواحد والدكتاتوريه الى ذلك الضرب من الثقافه .

لابد هنا من توفر وعي جماعي لاجل بناء هذه الدولة والقبول بالواقع الجديد الذي ستوفره هذه الدولة نأيا عن ثقافة التسلط والفرديه والشموليه واحتكار التحكم بمفاصل الدولـة وبعيـدا عن القوانين الموظفه لخدمة الحاكم ونزواته الذاتيه .

وحينما نتحدث عن دولة القانون والديمقراطية والحريات وحقوق الانسان فـي العـراق والشرق الاوسط على العموم ، لابد ان نركن الى وجود دستور حقيقي مبني على اسس علميه وتتفق عليه جميع مكونات المجتمع العراقي بما يوفره لهم من حمايه ومساواة في المواطنـه ويكرس سيادة القانون ، ويشيع مساواة الاطياف الاجتماعية عرقيه وطائفيه ومناطقيه ويرسي اسس مساواة المرأه والرجل ويبني الاليات لتنظيمات المجتمع المدني ويتبنى ويكرس مشايعة الثقافه ويشيع حرية الصحافه ويسمح بالتعبير والنقد علـى المـستويات الثلاثـه الـسلطوي والتشريعي والتنفيذي والاهم من كل ذلك فصل السلطات الذي يصب في اسـتقلالية القـضاء ونزاهته الذي عانينا ونعاني منه كثيرا[45] .

لقد استغرق بناء دولة القانون في مجتمعات الدول الغربيه عقودا وربما قرونا لذا نرى ان تلك الدول ضمنت الثبات وصعب فيها احتمال الانهيار في حالة تغير الحكومات كما يحـدث حتى اليوم وكل ذلك متأت من بناء اساس راسخ لثقافة القانون ، وعلى العكس من ذلك نجـد

---

[44] صادق اطيمش ، الدولة التي نريد دولة القانون والديمقراطيه : www . alrai . com

[45] ينظر: حسنين توفيق ابراهيم و عبد الجبار احمد عبد الله ، التحولات الديمقراطيه في العراق : القيود والفرص ، مركز الخليج ، الامارات العربيه المتحده ، ٢٠٠٥, ص١٨ .

من السهل ان تنهار الدول التي تبنى على اسس اخرى غير تلك الثقافه كما هو الحال في دول الشرق الاوسط واوربا الشرقيه والاتحاد السوفيتي .

وهنا جديران نميز بين تلك الثقافه وسواها حينما تعتمد الانتماء للـوطن دون انتمـاءات تشرذميه لقوميه او طائفه او جهه وتتميز بالنزاهه وتلتزم اسلوب التأهيل والكفاءه وكل ذلـك يعزز دور المثقف كعنصر فاعل ومتحمل لمسؤولياته في مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني منطلقين من كفاءته واعتداده بذاته[٤٦].

وجدير بنا طرق الدور المناط بالدين كجزء جوهري في الثقافه الوطنيـه وكحـل للعقـد الاجتماعي وكفكر معاضد للتوجهات الحضاريه ومكرس لمكارم الاخلاق ،ناهيك عن كونـه مجال للروح والغيب لمن امن به وكرسه في حياته وهو غايه بحد ذاتها ، والاهم انـه ثابـت ثقافي لابد من احترامه وتشذيب مالحق به من هزال خلال قرون الدعه ، ويمكث هذا الامـر على المحك في دولة القانون والتي يؤدي غيابها الى استفحال ظاهرة رَجال الدين المـستغلين لاسمه وصفته والمسؤولين لتعاليمه بما يتماشى مع مأربهم وتتحـول تلـك الطبقـه مـستغله ومسيسه لمفهوم الدين ثم تتحول بشكل متراتب وحتمي الى الصراع بين اقطابها على اسـاس الدفاع عن امتيازات عراض بما يتداعى الى تمزيق النسيج الاجتماعي طائفيا وانحلال العقـد الاجتماعي الرابط ، اذ نلمس كل يوم من هولاء ممن يجد له مبررمستندا الى الدين وهو براء منه[٤٧] .

لاشك ان دولة المؤسسات التي تعني دولة القانون تعمل لاجل الحفـاظ علـى مـصلحة المواطن وبدون تمييز والدفاع عنه ضد كل تعسف تسلطي وطغياني وتعمـل علـى تطبيـق القوانين التي تحمي المواطن وتقوم بتوفير الوسائل اللازمه لتطبيق تلك القوانين وصـيانتها[٤٨] والغاء المحاصصه القوميه والطائفيه وهنا سيظهر دور ومصلحة المثقف فـي صـيانة هـذه الثقافه اي ثقافة دولة القانون بعدما يأخذ حقه ودوره فيها ، وحينها ستبرز الكثير من الطاقات

[46] محمد عباس الطائي ، الشروط الحديثه لدولة القانون : www . alsabaah . com

[47] ينظر:

- حسنين توفيق ابراهيم وعبدالجبار احمد عبدالله ,مصدر سبق ذكره ,ص ص٢٧-٣٠ .
- محمد عباس الطائي ,مصدر سبق ذكره .

[48] امل هندي الخزعلي ، جدلية العلاقه بين الديمقراطيه والمواطنه والمجتمع المدني : العراق نموذجا ، مجلة العلوم السياسيه ، ع (٣٢) شباط ، ٢٠٠٦ ,ص ١٣٩ .

التي بأمكانها تحقيق اصلاح جذري للوضع الحالي في مؤسسات الدولة وفي بناء هذه الدولة تثقفت وهذبت بثقافة القانون والامر محض اكتساب لتجارب سابقه ومواءمتها مع الخصوصيه العراقيه . لذا فان طبقات الوعي العراقي مدعوه ان تؤمن بقدرتها على انشاء دولة ثقافة القانون والدفاع عنها وصيانتها بما يصب بمصلحتها في الموازنه بين الحقوق والواجبات وان تعمل لاجل تكريس الحريات وحقوق الانسان وهو النصاب الواقعي والتوازن الذي يضمن سلامة وديمومة العقد بين الدولة والمجتمع ويعيد الثقه بينهما التي فقدها منذ قرون خلت وتطبع على غيابها لكنه تواق لها بسجاياه وكل ذلك مضمون بموجب تشريعات الدستور الذي يجب ان يكون ممثلا وحاميا لجميع العراقيين بدون استثناء كونه نابع من اراده جماعيه وبذلك تتكافأ المعادله ويعم الصواب في نصاب دور الدولة في خدمةالشعب ، والشعب في خدمة الدولة بما يكرس سلام وامن ورخاء الانسان العراقي ومعاملته ككائن مقدس وقبر دون رجعه معاناته الطويله مع الانكسارات والاحتلالات والطغيان والاستبداد[٤٩] .

وانطلاقا من كون الديمقراطية شرط مسبق ولازم لبناء دولة القانون اذا لابد من العمل على ارساء وخلق الثقافه الديمقراطية في مجتمعنا ، فدولة القانون هي دولة الديمقراطية التي يضمن فيها كل مواطن او مقيم على ارضها ان يحصل على حقه ويعبر عن رايه ويخاصم كائنا من كان بلا خوف ولا وجل .

وفي هذا الصدد يؤكد (روبرت دال) بضرورة توفر شروط معينه في دوله ما لتكون ديمقراطيه وهذه الشروط هي[٥٠]:

١- انتخاب ممثلي الشعب الذين يقبضون على السلطه باسم الشعب .

٢- انتخابات حره ومحايده .

٣- حق التصويت العام .

٤- حق كل مواطن ان يرشح نفسه في الانتخابات .

٥- حرية الراي والتعبير .

---

[49] محمد عباس الطائي ، مصدر سبق ذكره

[50] يونس خالد ، لن تنجح الديمقراطيه في العراق بمعزل عن دولة القانون والسلم الاهلي : www . ge my akurda . net .

٦- بدائل لمصادر المعلومات ،

٧- حرية التنظيم وتشكيل المنظمات ،

لكن توفر هذه الشروط وممارستها ليست الاصوره للديمقراطيه ويجب ان لانفهم الديمقراطية بهذا الشكل الصوري بمعزل عن دولة القانون اي حكم القانون وليس حكم الفرد او الحزب او الدين او القوميه او الطائفيه ولابد من الاشاره هنا الى ضرورة عدم تضاد النظام السياسي مع دولة القانون او بعباره ادق ضرورة توافق النظام السياسي في دولة القانون مع دستور الدولة لان الدستور في كل دوله ديمقراطيه هي مجموعة مبادئ تنظم السلطه وتبين كيفية استخدام او عدم استخدام السلطه الرسميه بدون تغيير الجوانب الهامشيه من الدستور ولايمكن ان يكون الدستور فاعلا ليحمي الحقوق والحريات الا اذا كانت السلطه الحاكمه سلطة القانون وليست سلطة الفرد او الدين او القبيله[٥١] ،

ولكي تكون الدولة الديمقراطية دولة قانون لابد من توفر الشروط التاليه[٥٢]:

١- يجب ان يتمتع مواطنو الدولة بالحقوق الاساسيه والحريات العامه وان يكونوا متساوين امام القانون ،

٢- يجب ممارسة السلطه الرسميه بشكل يتوفر شرط ضمان تطبيق القانون وحكم القانون ،

٣- يجب ان تنظم السلطه طبقا لمبدأ تقسيم السلطات والفصل بينهما ومشاركة قوى الشعب فيها ،

ومن اجل ان نحقق ونعزز الدولة الديمقراطية في العراق لابد من العمل على اشاعة وخلق الثقافه الديمقراطية اولا التي لاتعني (نشرا للافكار الديمقراطية فقط ، او مجموعه من برامج التربيه والبث التلفزيوني او المطبوعات الموجهه الى الجمهور الواسع ، ان ثقافة الديمقراطية هي تصور الكائن البشري الذي يبدي المقاومه الاشد صلابه في وجه اية محاوله

---

[51] المصدر نفسه.

[52] ينظر:

- خالد عليوي جياد ، متطلبات التحول الديمقراطي في العراق : . www. fcdrc @ rcdrs. com

- خميس البدري ، تداول السلطه رؤيه للممارسات السياسيه في عراق الغد ، مجلة اوراق عراقيه ، ع (٢) ، نيسان ، بغداد ، ٢٠٠٥,ص ص٧-١١ ،

للحكم المطلق حتى المثبت شرعيا عن طريق الانتخابات ويبدي في الوقت نفسه عزيمه على خلق الشروط القانونية للحريه الشخصيه والحفاظ عليها)[٥٣] .

ولكي توجد هذه الثقافه الديمقراطية في العراق هناك بعض المبادى التي يجب ان تحظى بأهتمام الجميع في العراق[٥٤]:

- ان الانسان بغض النظر عن انتمائه العرقي او الطائفي او الديني يجب ان يحظى بالاحترام والتقدير والحريه وهو ليس اداة يتلاعب بها السياسيون .
- ان المواطنه مبدأ اساسي في اي دوله ديمقراطيه ، لذا يجب اعتمادها في التعامل مع الانسان العراقي وترك الانتماءات الضيقه التي تقود الى المحاصصه .
- ان الاختلاف في القيم بين ابناء الوطن الواحد حقيقه ازليه وسنه الهيه ينبغي عدم انكارها بل لابد من قبولها والتحاور على اساسها .
- يجب التخلي عن الفكر المطلق الذي يصاحبه على حق دوما والاخر على باطل دوما فمثل هذا الفكر هو الذي يفتح الباب للاستبداد والمستبدين .

ومن اجل المساهمه الفعاله في بناء وارساء ثقافة دولة القانون في العراق لابد من :

١- تقديم رؤيه واضحة لمشروع مجتمع يفي بتطلعات الناس الى الديمقراطية والازدهار الاقتصادي .
٢- توحيد جميع الاطراف بالتركيز على المواضيع التي تجمع الشعب لا على ما يفرقه .
٣- تأمين حلول بعيدة المدى ، فليس المهم تفادي انتشار العنف فقط لابل انشاء دولة القانون وتأمين الامن والاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي على المدى البعيد .
٤- ابعاد الفئويه السياسيه .
٥- صياغة ثقافه لاتقوم على العنف بل تقوم على اساس احترام الحياة .
٦- صياغة ثقافه تقوم على الحوار واقامة نظام اقتصادي عادل-
٧- صياغة ثقافه تنهض على التسامح وعلى احترام الحقيقه .

---

[53] ضياء الشكرجي ، الديمقراطيه في العراق واقعها وافاقها : www . dsh 1944 @ yahoo . com
[54] عبد الغفار شكر و محمد مورو ، المجتمع الاهلي ودوره في بناء الديمقراطيه ، دار الفكر ، سوريا ، ٢٠٠٣,ص١٥ .

٨- صياغة ثقافه تقوم على اساس الحقوق المتساوية لكافة المواطنين بغض النظر عن الجنس والعقيدة والدين ٠

٩- صياغة ثقافة تقوم على اساس المشاركة بين الرجال والنساء ٠

غير ان الدعوة الى اقامة دولة القانون في العراق يعترضة العديد من المعوقات لعل اهمها :

أ- **الاحتلال** : على الرغم من ان احتلال العراق قد انتهى رسميا بصدور قرار مجلس الامن رقم ١٥٤٦ في ٢٠٠٤/٦/٨ وما تلى ذلك من نقل للسلطة للحكومة العراقية الا ان هذا الاحتلال لا يزال مستمرا من الناحية الفعلية في نظر الكثير من العراقيين وذلك في ظل وجود اكثر من مائة وثلاثين الف جندي امريكي ضمن القوة متعددة الجنسيات على ارض العراق ، فضلا عن الدور الكبير التي تقوم بة السفارة الامريكية في بغداد ،خصوصا انها اكبر سفارة امريكية في الخارج[٥٥].

وعلية يعد الاحتلال عاملا اساسيا في هدم دولة القانون والمؤسسات اذ ان الاحتلال هو انهاء للسلطة والمؤسسات القائمة بكل اشكالها واقامة مؤسسات حكم جديدة تتناسب ورغبات المحتل للدولة ولهذا لا يمكن الحديث عن دولة القانون في ظل وجود الاحتلال كسلطة عليا والعراق اليوم اوضح مثال على ذلك ٠

ب- **الولاءات الدينية والسياسية** : لابد من التمييز بين الولاء الديني والذي يأخذ شكل الطاعة المطلقة لزعيم ديني او رمز ديني ، وبين الولاء السياسي الذي يتجسد في مجموعة من المبادى والافكار والقيم التي يمكن ان تساهم في اقامة دولة القانون ، ولابد من الاشارة الى ان تباين الولاء بين الاتجاهيين وبما يمكن ان يمتد الى حد التعارض الواضح هو اساس هدم لدولة القانون ، اذ قد لا تتطابق الرؤى والافكار بين الاتجاهيين وتبرز الخلافات الواضحة بينهما وبما يشكل تهديدا جديا لوحدة واستقرار الدولة بأكملها ٠

[55] ٠حسنين توفيق ابراهيم وعبدالجبار احمد عبد الله ,مصدر سبق ذكره ص١٥ ٠

ج- عدم الانسجام بين القوى السياسية وخصوصا الفاعلة منها على الساحة العراقية فتصاب الجهود بالتبعثر والتشتت وهي نتجة لبناء الدولة[٥٦] .

د- تسييد النزعة الفئوية وظهور بل تضخم الهويات الفرعية (الطائفية ، والدينية ، والقومية) على حساب الهوية الوطنية التي تعد الاساس المتين لبناء اية دولة فاتجاة رؤى هذة المكونات المتسمة بالضيق الفئوي والنازعه نحو المصالح الضيقة ادى الى الصدام وليس الانسجام والقبول وتبادل الاعتراف[٥٧] .

ي- المليشيات المسلحة والتي تشكل بديل عن الدولة فتطبق قوانينها الخاصة ، فمنطق المليشيات يتناقض مع منطق الدولة باعتبارها هي التي تحتكر بحكم التعريف حق الاستخدام الشرعي للعنف ، كما يتناقض مع منطق الديمقراطية التي من بين اركانها تسوية الخلافات بالطرق السلمية وعبر القنوات المؤسسية وبعيدا عن استخدام العنف او التهديد بأستخدامة[٥٨] .

و- هناك من يعتقد بأن لدول الجوار وما تسعى الية من فرض اجندتها السياسية في اقامة دولة على غرار دولها يشكل عائقا امام بناء دولة القانون[٥٩].

كل هذا ادى الى ان شكلت هذة المعوقات حجر عثرة امام اي توجة لبناء دولة الموسسات .

وختاما لابد من التأكيد هنا بان الكلام عن دولهِ القانون لن يحدث بين يوم وليله ولكنه يتطلب عملا متواصلا من كل القوى الوطنيه ويتطلب اراده واصرار للوصول اليه ولايمكن لاي جماعه او جماعَات او احزاب او نخب ان تتعاون وتوحد جهودها الا اذا اتفقت على هدف اساسي والا اذا كان ذلك الهدف واضحا وضوح الشمس وكلما كان الهدف يخدم مصالح اغلبية الشعب كلما كان اكثر حظا من الاجماع .

ان العمل من اجل تحقيق ذلك الهدف ،هو الضمان الفعلي لان يعيش المواطن العراقي انسانا كريما حرا عزيزا في وطنه .وهوالضمان لتحقيق العدل الاجتماعي بين افراد الشعب . وهو الضمان لازدهار الافكار والارء وللدخول بكل المجتمع نحو مرحلة النهوض والارتقاء انه

56 المصدر نفسه , ص ص ٣٠-٣١.
57 شمخي جبر ، مصدر سبق ذكره .
58 حسنين توفيق ابراهيم وعبدالجبار احمد عبدالله ,مصدر سبق ذكره , ص ٢٣ .
59 شمخي جبر, مصدر سبق ذكره .

هدف كبير ويستحق ان نجتهد جميعا من اجل اثرائه بالحوار والافكار والانتوقف او نتردد في حشد كل القدرات والامكانات سعيا نحو الوصول اليه او الاقتراب منه .
وهكذا ستغدو دولة القانون القاسم المشترك الذي يسعى الى تحقيقه العراقيون فعلينا جميعا احزابا وشخصيات وتجمعات وجمعيات ان نساهم في ذلك .

الخاتمة

اذا كان هناك مايطلق عليه سمة العصر التي تنشد الشعوب تحقيقها في القرن الحادي والعشرين فان ذلك سيكون بالتأكيد دولة القانون .

اذ ان اقامة دولة القانون تتمخض عنها المؤسسات التي تحتاجها الدولة . فلا تتم ادارة شؤون الناس عن طريق مركزي قد يتطور الى دكتاتوري فردي بل عن طريق هيئات متخصصه تتمتع بصلاحيات ومؤسسات تستطيع من خلالها توجيه العمل ذاتيا دون ان يكون للمركز تدخل في ذلك . والدولة القانونية هي الدولة التي تتوفر فيها العناصر التاليه :

- وجود دستور
- مبدأ الفصل بين السلطات
- مبدأ سيادة القانون
- رقابة القضاء
- استقلال القضاء

وانطلاقا من ان دولة القانون لايمكن ان تكون غير الدولة الديمقراطية فنحن بحاجه الى ارساء وخلق الثقافه الديمقراطية في العراق فهي – اي الديمقراطية – التي تتيح السير ضمن ركب التطور الجاري في القرن الحادي والعشرين مثلما اتاحت لبلدان كثيره الرقي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعلمي فهي تضمن القضاء العادل المستقل وتضييق الخناق على التلاعب بشؤون المجتمع من قبل افراد او جماعات وذلك من خلال مؤسسات الرقابه على كل مفاصل الدولة .

غير ان هناك عدة عوامل تؤثر وبشكل سلبي على اقامة دولة القانون في العراق لعل اهمها :

الاحتلال وسياسته المتخبطه ، فكيف يمكن بناء مؤسسات وطنيه او مؤسسات دولـــه مستقلة عن اثار الاحتلال وتدخله ، والعامل الاخر البنيه السياسيه للاحزاب الفاعله في الساحه وشكلها الطائفي والذي يشكل عاملا ضاغطا امام بناء الدولة القانونية ، والعامل الثالـــث هـــو التدخل الخارجي الذي يسعى الى فرض اجندته السياسيه مما يشكل عائقا امـــام بنـــاء دولـــة القانون .

قراءة سياسية في مشروع الشرق الاوسط الكبير والمحاولات المطروحة لاصلاح النظام الاقليمي العربي

المدرس المساعد
حسين مصطفى احمد(*)

المقدمة

في إطار التحول الذي طرأ على النظام الدولي في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي، وبروز قوة القطب الواحد، واتجاه الولايات المتحدة إلى الهيمنة على العلاقات الدولية، طرحت الإدارة الأمريكية مؤخراً لمشروع الشرق الأوسط الكبير **(The Great Middle East)** الذي حددت نطاقه من باكستان إلى المغرب، بدعوى إدخال إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية في هذه المنطقة، بناءاً على مارصده تقريري التنمية الإنسانية العربية لعامي ٢٠٠٢/٢٠٠٣، الصادرين عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي الذي وضعه عدد من المثقفين والخبراء العرب كأساس لتحليل أوضاع النظام الإقليمي العربي وكمنطلق لتحديد المناهج والحلول، وذلك في محاولة لإضفاء الشرعية والمصداقية على حتمية التغيير، تلبية لحاجات داخلية في تلك الدول.

وعلى الرغم من أن المشروع ماينطوي عليه من أبعاد سياسية واقتصادية وثقافية وتعليمية، إلا انه ينطلق من استراتيجية أمنية كانت تعتمد على مبدأ الاستباقية **(Pre-emption)** الذي تحول إلى مبدأ الوقائية **(Prevention)**، وهو ما يتطلب رداً أوربياً–عربياً مبنياً على أساس تفكير منهجي في شكل مبادرات أو مقترحات وذلك وفق استراتيجيات فكرية وأمنية، الأمر الذي يدعو الباحثين بالإلحاح لتكثيف الجهود في مثل هذه البحوث التي تتناول هذا الأمر.

(*) كلية العلوم السياسية-جامعة النهرين.

فرضية البحث:

ينطلق البحث من عدة فرضيات هي:

- هل إن مشروع الشرق الأوسط الكبير هو نسخة معدّلة من المشروع الذي انطلق في أوائل التسعينيات.
- ما المبادرة الأوربية تجاه هذا المشروع والتي كانت معارضة له في صيغته الأولى.
- ما المبادرات العربية، وماهية ردود الأفعال وبالتحديد النظام الإقليمي العربي المتمثل في جامعة الدول العربية.

منهجية البحث:

يستعين البحث بالمنهج النظمي (Approach Systemic) والمنهج التاريخي (Approach Historic) لطبيعة الموضوع الذي يجمع بين السياسة والتاريخ، مع الاستعانة بالمنهج المقارن لمقتضيات الضرورة في الموضوع المبحوث عنه، وفي ضوء هذه المنهجية تحددت هيكلية البحث.

المبحث الأول: مشروع الشرق الأوسط الكبير وتفاصيله

لقد تطرق الكثير من علماء السياسة إلى مشروع الشرق الأوسط الكبيرعند حديثهم في أدبيات العلاقات الدولية، كما فعل علماء الاقتصاد والقانون والتاريخ كل حسب مدخله الخاص ومن زاوية تعلق الأمر بعلمه وتخصصه.

ولطبيعة الوقوف حول هذا الموضوع ينبغي معرفة ماهية المشروع وكيف كان وأصبح عبر التاريخ، وإطاره الفكري، وأدوات تمويله، وآليات تطبيقه، وأهدافه، ومقومات ديمومته وكوابحه.

أولاً- لمحات من تاريخ المشروع:

يعد هذا المشروع بمثابة الموجة الثالثة من المشروعات الشرق أوسطية التي طرحتها الدول الكبرى، وكان أولهما حلف بغداد عام ١٩٥٥[١]، إذ أخفق في تحقيق أهدافه بسبب تنامي تيار القومية العربية على مستوى الشعوب والنخب الحاكمة، وقد ناصب هذا التيار

[١] للمزيد من الإطلاع عن حلف بغداد ١٩٥٥ ينظر: كمال حماد، من حلف بغداد إلى الشرق الأوسط الكبير، مجلة شؤون الأوسط العدد (١١٥)، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية للبحوث والتوثيق، ٢٠٠٤.

العداء لهذا الحلف مما أدى إلى تحوله في عام ١٩٥٨ بما يعرف بالحلف المركزي (السنتو)، وتولي عبد الكريم قاسم السلطة في العراق، وثانيهما مايمكن تسميته بشرق أوسطية أوسلو الذي قدمه شمعون بيريز في كتابه الشرق الأوسط الجديد(٢)، الذي يهدف إلى تدمير النسق الإقليمي العربي وإبطال فاعلية مؤسساته وتهميشها(٣).

وقد قاد ذلك إلى نشوء عدة مظاهر أبرزها(٤):

١- تراجع التوجه القومي، وترسيخ القطرية فكراً ومفهوماً وسلوكاً.
٢- تفكيك وحدات النظام العربي.
٣- تراكم الأزمات العربية البينية.
٤- ضياع القدرة الجماعية على الاستجابة والتغيير.

ولكن هذا المشروع لم يرَ النور، نظراً لافتقاده للحلول الجدية واقتصاره على تحقيق المصالح الأمريكية والإسرائيلية، علاوةً على عدم توافق منطلقات هذا المشروع، وتوجهات اليمين المتطرف الإسرائيلي في أعقاب وصول بنيامين نتنياهو إلى الحكم في إسرائيل، وهو ماعبر عنه في زيارته إلى آسيا (علينا أن ننسى الشرق الأوسط الجديد)(٥).

وثالثهما بما يسمى الشرق الأوسط الكبير الذي ارتبط مفهومه برؤية أمريكية خاصة لمستقبل هذه المنطقة وبلدانها للمصالح الأمريكية فيها(٦)، فهو مصطلح مضلل ومريح تعود جذوره إلى مهندسوا إدارة بوش من أدبيات الحرب الباردة في النسق المعروف بنظرية الدومينو في حقبة الستينيات أبان الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، والخوف الأمريكي من وقوع عدد كبير من الدول تحت الحكم الشيوعي ولاسيما في آسيا،

(٢) للمزيد من الاطلاع عن الشرق الأوسط الجديد ينظر: شمعون بيريز، الشرق الأوسط الجديد، ترجمة: محمد حلمي عبد الحافظ ط١، عمان، الأهالي للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

(٣) ثامر كامل محمد وياسر علي المشهداني، العولمة وفجوة الأمن في الوطن العربي، عمان، دار مجدلاوي للنشر، ٢٠٠٤، ص١٣٨. وللتفصيل ينظر:
P. Clowsen and W.S. Rosen, The Economic Consequences for Peace for Israel, The Palestinian Jordan, Washington, P.C. (N.Pb), 1991, PP.3-5.

(٤) هيثم الكيلاني، الأمن القومي العربي في إطار العلاقات العربية الإقليمية، مجلة شؤون عربية، العدد (٨٠)، القاهرة، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٩٤، ص١٢٧.

(٥) أحمد سليم البرصان، مبادرة الشرق الأوسط الكبير- الأبعاد السياسية والاستراتيجية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥٨، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤،ص٤٣-٤٤.

(٦) مهدي النجار، قراءة ثقافية في مشروع الشرق الأوسط الكبير، صحيفة الصباح، العدد (٣٦٢)، بغداد في ٢٠٠٤/٩/١٦.

(وتحديداً فيتنام) وامتداده إلى الدول المجاورة بما في ذلك الهند، مما أدى إلى خوض حرب خاسرة في فيتنام[٧]، وقد استصحب ذلك في الحالة العراقية، إذ تصورت إدارة بوش أن إزالة نظام صدام حسين عن السلطة باستخدام القوة العسكرية وإقامة نظام ديمقراطي في العراق، يكفي فقط بإحداث تغييرات في دول الجوار، فتتهاوى باقي الأنظمة الواحدة تلو الأخرى كما تسقط أحجار الدومينو، انطلاقاً من ان إقامة عراق حر في قلب الشرق الأوسط ماهو إلا حدثاً مفصلياً في الثورة الديمقراطية العالمية[٨]. والواقع إن النموذج العراقي قد أثار هلعاً في نفوس الأنظمة العربية كافة [٩]، التي أدركت أن المخطط لم يعد مقصوراً على العراق فحسب، بل إنه بات قاب قوسين أو أدنى منها.

إن إعادة ترتيب المنطقة حسب المصالح الأمريكية لايعني إلا هيمنة مطلقة على نفط العرب جميعه وتطويقاً كاملاً له، وهيمنة مطلقة لإسرائيل على مقدرات كامل المنطقة وتحويل الشرق الأوسط إلى قاعدة لانطلاق مشروعات الهيمنة الأمريكية[١٠]، لذا فهو نسخة معدّلة من مشروع بيريز الذي انطلق في أوائل التسعينيات، إذ أن من أسباب تدمير العراق والعدوان عليه هو تحقيق هذا الهدف بالذات، لتصبح إسرائيل هي الدولة المهيمنة والمسيطرة على مقدرات المنطقة كونها رأس الجسر للمشروع الغربي الاستعماري منذ إقامتها في عام ١٩٤٨.

ثانياً- الخطوط العريضة للمشروع:

يلفت النظر أن مدلول هذا المشروع ينصرف إلى دائرة جغرافية تتسع تارةً وتضيق تارةً أخرى، ولكنها في كل الأحيان تقع ضمن دائرة العمران الحضاري العربي والإسلامي.

وقد جرى استخدام لفظه في الدراسات الأمريكية ليتجاوز منطقة الوطن العربي إلى أجزاء من دائرة العالم الإسلامي وثيقة الارتباط بالدائرة العربية.

---

[7] Painter, J. Politics, Geography Political Geography, Arnold, London, 1995, P.146.

[٨] عدنان أبو ناصر، رؤية نرانعية للهيمنة على منطقة الشرق الأوسط الكبير، مجلة الوحدة الإسلامية، العدد (٢٥)، لبنان، رابطة هيئة علماء المسلمين، ٢٠٠٣، ص٢-٣.

[٩] ساندرا مكي، الملفات السرية للحكام العرب، عرض وتحليل وتقديم: هشلم خضر، ط١، القاهرة، مكتبة النافذة، ٢٠٠٤، ص١٧٠.

[١٠] نادر فرجاني، احتلال العراق بين ادعاءات التحرير ومطامع الاستعمار، مجلة المستقبل العربي، العدد (٢٩٣)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ص١٢.

وعلى أية حال، يشمل الشرق الأوسط الكبير في الفكر الأمريكي المعاصر الحيز الجغرافي الذي يمتد من باكستان إلى المغرب[١١]، مروراً بتركيا وإيران وإسرائيل.

وقد طرح المشروع لأول مرة، بدءاً بالرئيس جورج بوش ونائبه ديك تشيني، مروراً بوزير الخارجية كولن باول ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، وانتهاءاً بكبار المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية ومراكز صنع القرار الأخرى[١٢].

ويعتمد المشروع بالدرجة الرئيسة على عدد من الأمور التي ينبغي تحقيقها، ولعل في مقدمتها الديمقراطية والحكم الصالح الذي يتضمن حكماً ديمقراطياً فعّالاً، والذي تكمن معاييره في المشاركة وحكم القانون والشفافية وحسن الاستجابة والتوافق والمساواة والفعالية والمحاسبة والرؤية الاستراتيجية[١٣]، وهما بمثابة الإطار الذي تتحقق بداخله التنمية، فضلاً عن تطوير التعليم وتحسينه، ويخلص المشروع بأن الحرية والديمقراطية من خلال آليات الانتخابات واستقلالية وسائل الإعلام، وتنمية المجتمع المدني وتفعيل دور المرأة هما ضرورتان لازدهار المبادرة الفردية[١٤].

ويرى المشروع ان كل هذه الأمور مفتقدة إلى حد بعيد في كل أرجاء هذه المنطقة، الذي يمر بحالة من الركود الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فيما عدا إسرائيل، الأمر الذي أفرز ظاهرة الإرهاب لدى شعوب المنطقة، وقد استند المشروع إلى تقريري التنمية البشرية نعامي ٢٠٠٢/٢٠٠٣، وهو ماعبر عنه سفير الولايات المتحدة السابق لدى مصر ديفيد وولش عبر وسائل الإعلام[١٥]، على الرغم من وقائع الأحداث التي تبين أن هذا المشروع جاء نتيجة الفشل الأمريكي في (الشرق الأوسط الصغير) المتمثل في أفغانستان والعراق، فضلاً عن تعثر تطبيق خارطة طريق السلام الفلسطيني-الإسرائيلي.

---

(١١) سعيد اللاوندي، الشرق الأوسط الكبير- مؤامرة أمريكية ضد العرب، ط١، القاهرة، الدار العامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص٥.

(١٢) سيد محمد الداعور، مشروع أمريكي يرسم خريطة جديدة للمنطقة- الشرق الأوسط (الكبير) أم (الجديد)، صحيفة الجزيرة، العدد (٧٢)، قطر في ٢٠٠٤/٣/١٦.

(١٣) حسن كريم، مفهوم الحكم الصالح، مجلة المستقبل العربي، العدد (٣٠٩)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ص٤٧.

(١٤) للتفصيل ينظر: صحيفة الحياة اللندنية، مشروع المبادرة الأمريكية للشرق الأوسط الكبير في ٢٠٠٤/٢/١٣.

(١٥) مقابلة بالقناة الأولى بالتلفزيون المصري مع السفير الأمريكي بمصر، ديفيد وولش، برنامج وراء الأحداث في ٢٠٠٤/٢/٢٨.

ثالثاً- الإطار الفكري للمشروع:

بدأ مشروع الشرق الأوسط الكبير سرياً كرد فعل لليمين الأمريكي المتطرف على الهزيمة في فيتنام مستهدفاً فرض هيمنة أمريكية مطلقة على العالم[١٦].

وعليه فإن المتأمل في مدى إخلاص المشروع الأمريكي للإصلاح في النظام الإقليمي العربي لسرعان مايدرك ان هذا المشروع لايعدو كونه تعبيراً واضحاً (شكلاً وموضوعاً) عن أيديولوجية الائتلاف اليميني الحاكم في الولايات المتحدة المتمثل في التيار المحافظ الجديد الجمهوري (Neo-Conservation) والمعروف اصطلاحاً (NewChristian Right) المشهور بتطرفه ونظرته الأيديولوجية للقضايا المختلفة[١٧]. والذي يهتم بالمصالح الاقتصادية العالمية التي تتناقض مع العناصر اليمينية الأمريكية التي تروج للميل للحروب وعسكرة السياسة الخارجية[١٨]، وهذا ناتج بحقيقته من التقارب بين اليمين الديني واليمين المسيحي، إذ كلاهما تجمعهما رؤية واحدة لأمريكا والعالم، فأمريكا في قناعتهم وطن استثنائي تاريخي لابد أن يسود ويهيمن[١٩].

إن هذا المشروع يتلاقى مع الميول الأخلاقية لكثير من الأمريكيين، بما فيهم اليمين التقليدي الذي يهمه الاقتصاد الحر والحريات الفردية والقيم الديمقراطية بشكل يلبي حاجتهم للشعور بأنهم يؤدون رسالة للعالم مفادها ان الشعب الأمريكي هو الشعب المختار الجديد الذي عاهد الرب على بسط سلطته على العالم[٢٠].

ومن هذا المنطلق فقد اختار اليمين الأمريكي الصهيوني أسلوب هجومه المضاد من خلال قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان في هذه المنطقة لأنها من أضعف جوانب الحياة العربية وأكثرها انكشافاً أمام الضغط والتشهير، التي تكون الحجة الرئيسة التي يوظفها اليمين الأمريكي والأوربي لتبرير التدخل العسكري، على عكس ماتمليه اعتبارات القانون الدولي

---

(١٦) نادر فرجاني، المصدر السابق، ص١١.

(١٧) للتفصيل ينظر: حازم حمد موسى، العلاقات العربية الأمريكية- دراسة في الأبعاد الاستراتيجية لمشروع الشرق الأوسط الكبير، رسالة غير منشورة، جامعة النهرين، كلية العلوم السياسية، ٢٠٠٦، ص١٦٩، وكذلك: التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٢-٢٠٠٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ص١٣٥.

(١٨) محمد السيد سعيد، الأزمة العامة للخطاب العربي، صحيفة الأهرام المصرية في ٢٠٠٤/٣/٨.

(١٩) حازم حمد موسى، المصدر السابق، ص١٦٩.

(٢٠) رضا هلال، المسيح واليهودية ونهاية العالم، المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا، كوالالمبور، مكتبة الشروق، ٢٠٠٤، ص١٥٨.

بحجة إن التطرف يهدد الأمن العالمي، وبالتالي يؤسس اليمين الأمريكي تحالفاً عالمياً لفرض الإصلاحات الديمقراطية على العالم العربي، ومن ثم فإن الساسة الأمريكان عازمين على تطبيق الديمقراطية في هذه المنطقة الحساسة من العالم، وانها ستكون بداية لإرساء السلام، لأن الدول الديمقراطية لاتتحارب فيما بينها، وهو ما تدحضه الوقائع والتاريخ معاً، ولعل التاريخ القريب كان شاهداً فيما حصل للاتحاد اليوغسلافي.

رابعاً- أدوات تمويل المشروع:

ان استقراء الأحداث والمواقف وتصريحات المسؤولين الأمريكيين تدلل التهرب من الإجابة المباشرة حول مصادر تمويل مشروع الشرق الأوسط الكبير، فعندما سئل ديفيد ولش عن كيفية تمويل هذا المشروع أجاب بالقول ليس المهم التركيز على التمويل، بل يجب التركيز على أدوات الإصلاح وآلياته(٢١).

ولكن هذا التغيير يحتاج إلى تمويل وتكلفة باهضة، ليس في وسع الولايات المتحدة أن تتحملها، في الوقت الذي لم تقدم الولايات المتحدة سوى ١٥٠ مليون دولار(٢٢)، وأغلبها لاتزال في المصارف.

ويعلق الخبير الأمريكي في شؤون الشرق الأوسط مارك وولترز انه من الصعب توفير التمويل الذي يغطي هذا المشروع(٢٣)، وقد تكون إشارة بوش وعزمه على عرض هذا المشروع على قمة الدول الصناعية الكبرى في عام ٢٠٠٤ تهدف إلى تحقيق هذا الغرض. على الرغم من القلق الأوربي من أن تجعل الولايات المتحدة (المؤسسات الأوربية) هدفاً لتقديم رؤيتها الجيوبولتيكية في منطقة الشرق الأوسط، وتطلب تمويل خططها التكتيكية(٢٤).

ولكن بعد احتلال العراق وإسقاط نظام حكومته على مرأى ومسمع العالم كله في ٢٠٠٣/٤/٩ والهيمنة على نفطه وبقية نفوط المنطقة، فليس من عوائق مالية تحوؤل دون

---

(٢١) مقابلة بالقناة الأولى بالتلفزيون المصري مع السفير الأمريكي بمصر، ديفيد وولش، برنامج وراء الأحداث في ٢٠٠٤/٤/٢٨.

(٢٢) ناظم عبد الواحد الجاسور، الشرق أوسطية والشراكة المتوسطية. التطابق والتقاطع والآفاق المستقبلية لموقع العراق في هاتين الدائرتين، المجلة السياسية الدولية، العدد (١)، الجامعة المستنصرية، كلية العلوم السياسية، ٢٠٠٥، ص١٦.

(٢٣) سيد محمد الداعور، المصدر السابق.

(٢٤) ناظم عبد الواحد الجاسور، المصدر السابق، ص١٧.

تطبيق هذا المشروع، طالما هناك من يمول المشروع وتحديداً العراق بحجة غطاء إعادة إعماره، ومن الصندوق العراقي الذي وعدت به الدول المساهمة فيه، وهي نفس الدول التي رفضت تمويل (الشرق أوسطية) عندما طرح في أوائل التسعينيات، إذ سيتم جمع أموال هذا الصندوق من خلال تعهدات على شكل مساعدات وقروض حتى أصبح العراق الباب الأوسع إلى تغيير حاسم وأعمق في خارطة المنطقة وتوزيع جديد لثرواتها البترولية وتركيباتها الاجتماعية، وقد يظهر ذلك جلياً بعد إعادة رسم خريطة كيانية جديدة للعراق لاتقوم فيه دولة مركزية[٢٥]. وتفصيلها على مقياس أهلي عصبوي يمنع قيام نظام سياسي قوي على مقربة من آبار النفط وإسرائيل، ولعل ماأكده كلاند برستويتز من اننا معتمدون على نفط الشرق الأوسط[٢٦]، دليلاً على ذلك.

خامساً- آليات تطبيق المشروع:

وتقسم إلى أربعة أصناف هي:

أ- آليات سياسية واجتماعية:

١- إجراء انتخابات حرة ونزيهة.

٢- دعم مؤسسات المجتمع المدني عبر شيوع الثقافة الديمقراطية على مستوى المجتمع والسلطة، وتوفير فضاء من الحرية على الصعيد السياسي والاجتماعي، وهذا يتطلب وجود قوانين ضامنة لهذه الحريات وضوابط لها، فضلاً عن توافر مبدأ احترام حقوق كل الجماعات الإثنية والقومية من قبل المجتمع[٢٧].

٣- إرساء معايير الشفافية ومكافحة الفساد.

٤- تفعيل دور المرأة من خلال تمتعها بحقوقها الأصلية، وتخصيص حصة لها في المجالس النيابية، لكسب ثقة المرأة العربية حتى كان واحداً من مستدعيات إطلاق المشروع[٢٨].

---

[٢٥] عبد الإله بلقزيز، المشروع الممتنع في الغزوة الكولونيالية، مجلة المستقبل العربي، العدد (٢٩١)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ص٥٢-٥٣.

[26] Rogar Diwon, America's Dependence on Foreign, Oil dxed prostwitzon GNBS Business Center, 9/9/2003, PP.1-2.

[٢٧] عبد العظيم جبر حافظ، الديمقراطية والمجتمع المدني- جدلية العلاقة، مجلة المواطنة والتعايش، العدد (٥)، بغداد، مركز وطن للدراسات، ٢٠٠٧، ص٣٦.

[٢٨] عبد الله الأشعل، مشروع الشرق الأوسط الكبير- مشروع قديم في ردائه الجديد، صحيفة المنار للإعلام، القاهرة في ٢٠٠٤/٢/٢٣.

ب- آليات اقتصادية:

١- منطقة التجارة الحرة الأمريكية الشرق أوسطية لإدخال شعوبها في دائرة متسعة من الفرص وبمدة زمنية قدرها عشرة سنوات، في محاولة لادماج اقتصاد إسرائيل مع الاقتصاديات العربية في تكتل اقتصادي ينطوي على تعامل تفضيلي بين الدول الداخلة فيه[٢٩].

٢- المناطق الصناعية المؤهلة (Qualified Industrial Zones) بموجب قانون تنفيذ منطقة التجارة الحرة الأمريكية الشرق أوسطية والأمر الرئاسي (٦٩٥٥) الذي ينص على:

- انها منطقة تضم أجزاء من الأراضي المصرية الأردنية والإسرائيلية.
- انها منطقة استقلال ذاتي لها قوانينها الخاصة دون خضوعها لسلطات الدول الثلاث.
- تدار المنطقة من قبل شركة دولية على نمط شركة الصناعات الدولية الأردنية التي تتولى إدارة المنطقة الصناعية المؤهلة بين إسرائيل والأردن (منطقة الحلبات).
- إعفاء المنطقة المذكورة ضريبياً وكمركياً[٣٠].

جـ-آليات ثقافية وإعلامية:

وتتمثل بالآتي:

١- إذاعة سوا[٣١]: وتبث من ضواحي واشنطن عبر الأقمار الصناعية، إذ تروج لمشروع الشرق الأوسط الكبير من خلال تقديم تحليلات سياسية تبرر حتمية هذا المشروع، ومايؤكد حقيقة ذلك الحوار الذي أجرته مع سعد الدين إبراهيم الذي روج فيه للمشروع بشكل واضح.

٢- قناة الحرة الأمريكية [٣٢]، التي تبث برامجها منذ عام ٢٠٠٣، وتهدف إلى نشر القيم الثقافية الأمريكية.

٣- الصحف والمجلات والنشرات: وأمثلتها صحيفة الواشنطن بوست التي كانت أول من أفصحَ عن هذا المشروع، حينما ذكرت أن إدارة الرئيس جورج بوش تعمل

---

[٢٩] احمد السيد النجار، نكبة العراق: الآثار السياسية والاقتصادية، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ص٢٤٠.

[30] www.federalregisteronline.org,28/2/2004, Vol.69, No.18, P.240.

[٣١] حامد عبد الحميد النعيمي، مشروع الشرق الأوسط الكبير الأمريكي-المخطط والأهداف، أوراق سياسية، العدد (٤)، الجامعة المستنصرية، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي، ٢٠٠٤، ص٤.

[٣٢] المصدر نفسه، ص٤.

على صياغة مشروع في الشرق الأوسط وذلك بإعادة تكييف وتعديل نموذج استعمل من قبل في الضغط من أجل نشر الحريات في الاتحاد السوفيتي السابق وأوربا الشرقية، ومجلة هاي الأمريكية الصادرة في عام ٢٠٠٣ لنشر القيم الثقافية الأمريكية، ونشرة واشنطن تحت رعاية مكتب الإعلام الخارجي في وزارة الخارجية الأمريكية(٣٣).

د- آليات تعليمية وحضارية:

وتتمثل بالآتي:

١- إصلاح التعليم من خلال تغيير المناهج وإفراغها من محتواها الثقافي، لتغريب التعليم عن العالمين العربي والإسلامي على أن لاتفرض النموذج الجيفرسوني نسبةً إلى أحد مؤسسي الجمهورية الأمريكية المعروف بكتاباته الفلسفية حول الحرية والديمقراطية).

٢- مبادرة تدريس إدارة الأعمال، لإعداد كوادر بشرية تعمل وفقاً للفلسفة العالمية التي تخدم المصالح الأمريكية والغربية.

٣- ربط التعليم بالشبكة الدولية (الانترنيت) وضرورة إيصالها إلى أكثر مايمكن من المدارس ومكاتب البريد(٣٤).

٤- مبادرة مدارس الاكتشاف، وظهر ذلك جلياً في مقترحات (G8) وتهدف إلى استخدام التكنولوجيا المتقدمة ومناهج التعليم الحديث(٣٥).

سادساً- الأهداف السرية والعلنية للمشروع:

وتتمثل بالآتي(٣٦):

١- تغيير جميع أنظمة الحكم القائمة، كما حدث في العراق وأفغانستان، مع ضرورة إحلال قادة جدد يتبنون الايديولوجية الأمريكية في المنطقة، وقد فسر البعض أن

---

(٣٣) للتفصيل ينظر: سيد محمد الداعور، المصدر السابق، وكذلك قناة الحرة الأمريكية في ٢٠٠٣/١٢/١٧.

(٣٤) صحيفة الحياة اللندنية في ٢٠٠٤/٢/١٣

(٣٥) محمد السيد أحمد، حول الشرق الأوسط الكبير، صحيفة الأهرام الأسبوعية، العدد (٦٧٩)، القاهرة في ٢٠٠٤/٢/٢٦.

(٣٦) ساندرا مكي، المصدر السابق، ص١٧١-١٧٢.

مصطلح الشرق الأوسط الكبير هو إدماج إسرائيل إلى المنطقة رغم أنف الأنظمة العربية وشعوبها.

٢- إرغام الدول العربية على توطيد أواصر السلام مع إسرائيل دون أية تنازلات منها نظير هذا التقارب.

٣- ضمان أمن إسرائيل من خلال التخلص من جماعات حماس والجهاد وكل القوى الفلسطينية المناوئة لإسرائيل والرافضة للتنازلات مع الكيان الصهيوني، والقضاء على حزب الله في لبنان لتوفير الأمن الإسرائيلي.

٤- محاصرة إيران ومحاولة خنقها عن طريق العراق وسوريا لإنهاء النظام الديني في طهران.

٥- تفتيت وتمزيق الدول العربية إلى عدة دويلات، وقد بدأت بالفعل في السودان، وتحاول تفعيلها في العراق ثم بعد ذلك سوريا ليمتد طريقها إلى السعودية ومصر عبر فصل شمالها عن جنوبها لتأسيس دولة قبطية في صعيد مصر على غرار النموذج السوداني.

٦- تأمين منابع البترول حتى لايتكرر ماحدث في حرب أكتوبر ١٩٧٣ بشأن الأزمة النفطية، بعد أن توحدت الدول العربية في قطع البترول عن الغرب.

٧- تدمير العرب والمسلمين من خلال إحلال نظام علماني في جميع الدول الإسلامية كبديل له على غرار النموذج التركي الذي لا هم له سوى الاستخفاف بالإسلام وتعاليمه.

٨- فرض الثقافة الغربية بما تحمله من شرور وآثام وعادات وسلوكيات وقيم تتنافى تماماً مع القيم الإسلامية.

٩- ضرب القواعد العسكرية والتخلص من كل الأسلحة الهجومية المنتشرة في جميع أنحاء النظام العربي، والتي تمثل تهديد مباشر وغير مباشر لإسرائيل ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة.

١٠- إذكاء الخلافات والمشاكل بين الأقليات في الوطن العربي كما هو حادث في مصر وسوريا والسودان... الخ.

١١- رفع شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان بهدف زعزعة الاستقرار في جميع أنظمة الحكم العربية.

١٢- مواجهة القومية العربية والتوجهات الوحدوية وأبعادها عن أي دور لها في الدول العربية.

١٣- تصفية القضية الفلسطينية، والعمل على إبقاء حالة التشتت في الدول العربية الإسلامية، وعرقلة أي تقارب بينهما الذي من شأنه الوقوف بوجه التهديدات الأمريكية.

سابعاً- مقومات ديمومة المشروع وكوابحه:

تصنف مقومات ديمومة مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى ثلاثة أصناف وهي[٣٧]:

أ- مقومات عالمية:

١- منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية التابعة لها.

٢- حلف شمال الأطلسي (الناتو).

٣- الدول الصناعية الثمان (G8).

ب- مقومات إقليمية:

١- إسرائيل.

٢- تركيا.

٣- إيران.

٤- دول الجوار الأفريقي (كينيا، تشاد، أوغندا، النيجر، مالي، السنغال، الكونغو الديمقراطية، أفريقيا الوسطى، إثيوبيا، أرتيريا)[٣٨].

جـ- مقومات محلية[٣٩]:

١- بروز التيارات الديمقراطية (الليبرالية).

٢- تعدد النماذج المعبرة عن التغيير المأمول، إذ نجد الميل العربي نحو التغييرات بات شيئاً مرغوباً، وهو بمثابة حافز للولايات المتحدة لبناء المقومات المحلية وأمثلتها العراق، إذ أن خطوة الحرب على العراق بمثابة خطوة أولى لرؤية تحول كامل في الشرق الأوسط.

[٣٧] للتفصيل ينظر: حازم حمد موسى، المصدر السابق، ص٢٣٢-٢٣٥.

[٣٨] حميد السعدون، فوضوية النظام العالمي الجديد وآثاره على النظام الإقليمي العربي، عمان، دار الطليعة للنشر، ٢٠٠١، ص١٤١-١٥٤.

[٣٩] حازم حمد موسى، المصدر السابق، ص٢٣٨-٢٤٢.

أما كوابح المشروع فهي كالآتي(٤٠):

١- النظرة الأمريكية للنظم العربية.
٢- تنامي تأثير التيار الإسلامي الجهادي.
٣- ارتباك مدركات النخب العربية الحاكمة.
٤- انتشار أسلحة الدمار الشامل.
٥- تنامي الإرهاب السياسي المنظم.

عموماً يمكن القول أن اختزال الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذه المظاهر التي أشار إليها مشروع الشرق الأوسط الكبير يفتقر إلى الأمانة العلمية وقواعد الإنصاف، فالعالم العربي والإسلامي لايحتكر وحده هذه المشاكل، وان كان نصيبه منها اليوم أكبر من المألوف في مجتمعات أخرى، إلا أن الإنصاف في التعامل ينبغي تحليلها تحليلاً تاريخياً أميناً ودقيقاً، حتى يمكن وضع المشكلات في مواضعها الصحيحة، ولعل العالم لم يكن مستعداً للتوقف طويلاً لمشكلات المنطقة، كما ان اللغة التبريرية والاعتذارية ليست مفيدة في السياسة الإعلامية.

المبحث الثاني: النظام الإقليمي العربي والمحاولات المطروحة لإصلاحه

إن الحديث عن الإصلاح الديمقراطي العربي إنما يعني إعادة النظر في النظام الإقليمي برمته، ومن ثم إصلاحه وفق أسس جديدة تستجيب للمتغيرات الإقليمية والدولية لما بعد مرحلة الحرب الباردة(٤١).

ولكن مع كل ذلك فقد طرحت عدة مبادرات أو مقترحات لإصلاحه، وكالآتي:

أولاً- المبادرة الأوربية:

وضعت فرنسا وألمانيا مشروعاً مشتركاً للإصلاح في الشرق الأوسط يحدد بالتفصيل الرؤية الأوربية المشتركة لما يسمى (شراكة استراتيجية لمستقبل مشترك في الشرق الأوسط).

تحدد المبادرة الآليات والهياكل، وهي بمثابة الركائز الضرورية لتنفيذ هذه الشراكة، وكالآتي(٤٢):

---

(٤٠) المصدر نفسه، ص٢٤٢-٢٤٧.

(٤١) مهيوب غالب أحمد، الإصلاح الديمقراطي العربي بين برامج الداخل ومشاريع الخارج، مجلة المستقبل العربي، العدد (٣١٤)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ص١٥٦.

أ. الأهداف:

أ- يقضي التحدي الحقيقي بتعديل الوضع القائم على أساس شراكة صادقة وتعاون ورؤية مشتركة والحكومات مثلها مثل المجتمع المدني.

ب- عمل الاتحاد الأوربي خلال الاجتماع الاوربي- المتوسطي (يوروميد) في نابولي والقمة الأوربية في بروكسل في ٢٠٠٣ على تحديد استراتيجية تخدم هذه المنطقة.

جـ-يتطلع الاتحاد الأوربي إلى شراكة عبر الأطلسي بالتعاون مع المبادرة الأمريكية لتحقيق إصلاح الشرق الأوسط، إذ يحدد مقاربة مميزة تكمل مقاربة الولايات المتحدة بالاستناد إلى مؤسسات الاتحاد الأوربي الخاصة وأدواته.

ب. قاعدة العمل[٤٣]:

١- احترام جميع المواثيق الدولية.

٢- قيام دولة القانون والديمقراطية.

٣- احترام حقوق الإنسان.

٤- احترام التعددية والتسامح الديني والعرقي.

٥- تبادل المعلومات المتعلقة بحقوق الإنسان.

٦- المساواة في السيادة وتنفيذ الالتزامات الدولية.

٧- عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول وفض المنازعات بالطرق السلمية.

٨- مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة والمخدرات.

٩- منع انتشار أسلحة الدمار الشامل.

١٠- تنمية علاقات حسن الجوار.

١١- تطوير وتبني ميثاق أوربي متوسطي لبسط السلام والأمن.

١٢- النطاق الجغرافي لهذه الشراكة مفتوح لكل دول الشرق الأوسط بين الغرب المسيحي والشرق المسلم[٤٤].

---

[٤٢] سعود اللاوندي، المصدر السابق، ص٢١٣ ومابعدها، وقارن مع محمد عبد الشفيع عيسى ، اختطاف أوربا على جناح الاطلسي، مجلة المستقبل العربي، العدد(٣١٩)، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٥ ،ص١٣٠.

[٤٣] مصطفى عبد الله خشيم، التحديات السياسية الأمنية التي يواجهها النظام الإقليمي العربي في إطار عملية برشلونة، مجلة المستقبل العربي، العدد (٢٧٥)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ص٨٣-٨٤.

١٣- ان قاعدة العمل تتضمن مشاركة كل المنظمات الإقليمية والدولية في مناقشة مثل هـذا المشروع، كالأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومجلس التعاون الخليجي... الخ.

إن أبرز مايسجله المشروع المشترك الفرنسي- الألماني هو الحيلولـة دون تحويـل الأحادية الأمريكية التي يعبر عنها مشروع الشرق الأوسط إلى خيار وحيد بالنسبة لقمة الدول الثمان والقمم الأخرى اللاحقة، وهي مسألة في غاية الخطورة في مرحلة ما بعـد الاحـتلال الأمريكي للعراق.

واستناداً لما سبق فالمشروع الفرنسي الألماني على نقيض المشروع الأمريكـي، إذ يكمن في ربط المبادرة الأوربية لقضايا الإصلاح في مـسألة تـسوية الـصراع الفلـسطيني الإسرائيلي، وإقامة حكومة مستقرة في العراق، ومعارضة فرض نموذج من الخـارج علـى دول الشرق الأوسط.

وفي غياب مثل هذه الحلول لن تكون هناك أي فرصة لتسوية المشاكل في المنطقـة، وهو ماأكده مشروع الشراكة الأوربية المتوسطية[٤٥]، ذلك أن الماضي الاسـتعماري للـدول الأوربية قد أكسبها فهماً وإدراكاً لطبيعة شعوب المنطقة، وهو الأمر الذي لم تتفهمـه الإدارة الأمريكية التي أصبحت في السنوات الأخيرة بعد احتلالها أفغانستان والعراق دولة استعمارية.

ومن قراءة ردود الأفعال الدولية والإقليمية لهذا المشروع الأمريكي، يتـضح بأنهـا أكثر الردود انتقاداً جاءت من الضفة الأخرى من الأطلسي، كانتقاد الرئيس الفرنسي الـسابق جاك شيراك عند استقباله الرئيس المصري حسني مبارك لأية محاولة لفرض نمط أو نموذج للإصلاح من الخارج[٤٦]. ذلك أن مشروع الشرق الأوسط الكبير في المنظور الأوربي هـو في حقيقته مخطط كبير لتحويل الحديقة الخلفية الأوربية إلى حديقة عسكرية أمريكية محاصرة ومحاطة من كل جانب، عبر السيطرة على الشرق الأوسط الذي يحكم القبـضة علـى قـارة أوراسيا برمتها، وهذا بالطبع في إطار لعبة الشطرنج التي تحدث عنها بريجنسكي مستـشار

---

[٤٤] للتفصيل ينظر: صحيفة الغد البغدادية، مشروع الشرق الأوسط الكبير في ٢٠٠٤/٦/٢٣.
[٤٥] للتفصيل ينظر: محمد عبد الشفيع عيسى، المصدر السابق، ص١٢٧-١٣٤.
[٤٦] ريـاض ملحـم، الـشرق الأوسـط الكبيـر والمـشاريع القابلـة لـه، مـن علـى موقـع الانترنيـت: http://www.aljazeera.net.4-7-2004.

الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، ذلك أن هدف أمريكا هو أن تظل أوربا بعيدة عن ملف الشرق الأوسط الكبير الذي تعده واشنطن ملفاً خاصاً بها.

ومن هنا يتبين لنا أن أوربا تميل بالفعل إلى عدم الاندماج التام في مبادرة الشرق الأوسط الكبير، على الرغم من التلاقي في مواجهة الإرهاب الناتج عن ظاهرة الحكم الشمولي والسلطوي في المنطقة من وجهة النظر الغربية، وذلك لاعتبارات ذاتية تتعلق بالتميز والاستقلالية وهو ماعبرت عنه الورقة الفرنسية-الألمانية التي عرضت على القمة الأوربية الخامسة والعشرين في عام ٢٠٠٤.

ثانياً- مشروع تطوير جامعة الدول العربية:

تعبيراً عن واقع النظام الإقليمي العربي بعد غزو العراق، قدم عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية مشروعه بعد دراسة مستفيضة لكل المبادرات العربية، فضلاً عن اقتراحات وتوصيات بعض الدول العربية، ويتضمن المشروع تسعة مقترحات رئيسة تتعلق بإقامة مجلس عربي للشورى أو برلمان عربي ومحكمة عدل عربية ومجلساً للأمن العربي لحل النزاعات وخطة للعمل الاقتصادي العربي التكاملي المشترك، واقتراح بإقامة مصرف عربي للاستثمار والتنمية، كما يتضمن المشروع مقترحاً محدداً لضبط عملية التصويت تلتزم بها جامعة الدول العربية بتنفيذ مايصدر من قرارات وإجراءات إسوةً بما هو معمول في كل المنظمات الدولية والإقليمية، ومجلساً أعلى للثقافة العربية والعلوم، واتحاداً كمركياً في أجَل أقصاه عام ٢٠١٥[٤٧].

ويتسم هذا المشروع بأنهَ يحصر التغيير في إطار المنطقة العربية في محاولة للحفاظ على المصالح الاستراتيجية لدول المنطقة أمام المشروع الأمريكي المسمى الشرق الأوسط الكبير.

وقد هاجم الأمين العام لجامعة الدول العربية (عمرو موسى) ماوصفه بالمبادرات الناقصة غير المتوازنة والمثيرة للشكوك لتغيير خريطة الشرق الأوسط مستطرداً بأن السماء تمطر مبادرات، وأمر المبادرة عاجل ويفترض اتخاذ قرار أو موقف[٤٨]، وأما نائبه (نور الدين حشاد) فقد عبّر عن

---

[٤٧] للتفصيل ينظر: صحيفة الوفد المصرية، صحوة المبادرات لإصلاح الوضع العربي في ٢٠٠٤/٣/١٠.

[٤٨] نسيم الخوري، مشروع الشرق الأوسط الكبير أو المبادرة المستحيلة، مقال منشور على موقع الجيش اللبناني في ٢٠٠٤/١١/٢١.

تحفظات الجامعة أزاء المشروع الأمريكي معلقاً أن المغزى من المخطط يتمثل في فرض رقابة خارجية على المنطقة، الذي كان من المفروض أن ينطلق من الداخل(٤٩).

وفي النهاية فإن الاجتماع الأول لمجلس اتحاد البرلمانيين العرب المنعقد في دمشق من المدة ٢٠٠٦/٢/٢٨ إلى المدة ٢٠٠٦/٣/١ قد أصدر بياناً رفض فيه هذا المشروع لأنه يمهد لهيمنة أمريكية على بلدان المنطقة.

ثالثاً- رؤية الأطراف العربية ومبادراتها:

أ- وثيقة الإصلاح الثلاثية (مصر- السعودية- سوريا):

وهي وثيقة مقدمة من مصر والسعودية وسوريا سلمها سعود الفيصل للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وهي أقرب إلى ورقة عمل، إذ تطالب بالعمل على تحقيق السلام والاستقرار في المنطقة بناءاً على مقررات الشرعية الدولية، وتعزيز الروابط العربية، وتحقيق الاتحاد العربي، وتوسيع المشاركة السياسية وإنجاز الإصلاحات الضرورية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية(٥٠).

وترى الوثيقة بأن مبادرة السلام العربية التي أقرت في قمة بيروت ٢٠٠٢، بمثابة التجسيد المعبر للعمل العربي المشترك والتحرك لإقامة السلام العادل والشامل المرتكز على قرارات الأمم المتحدة ومبادئ الشرعية الدولية(٥١).

ومن هذا المنطلق فإن تمسك الدول الثلاث في قمة بيروت بات أمراً ملحاً وضرورياً لأنها تمثل البديل عن مشروع الشرق الأوسط الكبير.

ب- المبادرة المصرية للإصلاح:

ركزت المبادرة المصرية على ضرورة الحاجة إلى مبادرة كبرى تجمع بين الجانبين السياسي والقانوني، إذ طالبت بضرورة الإسراع إلى تطوير النظام الإقليمي العربي وجامعة الدول العربية من خلال عدة محاور هي(٥٢):

---

(٤٩) محمد شريف، تحفظات الجامعة العربية بعد قمة الثمان من على موقع الانترنيت:
http://www.swissinfo.org/swissinfo.htm.2-6-2004.

(٥٠) للتفصيل ينظر: صحيفة الوفد المصرية في ٢٠٠٤/٣/١٠.

(٥١) محمد ظروف، سوريا ستواجه أي محاولة لتعديل مبادرة السلام، من على موقع الانترنيت:
http://www.alwatancom.24-2-2004

(٥٢) للتفصيل ينظر: صحيفة الوفد المصرية في ٢٠٠٤/٣/١٠.

١- التكامل الاقتصادي العربي، بدعوى خروج النظام العربي من أزمته الراهنة.
٢- احتواء المنازعات العربية-العربية عبر إقامة محكمة عدل عربية لحسم هذه المنازعات.
٣- تشكيل برلمان عربي، لتوسيع دائرة المشاركة الشعبية ودعم الاستقرار السياسي.
٤- اعتماد أسلوب الدبلوماسية الجماعية.
٥- تعديل نظام التصويت في أجهزة الجامعة.
٦- دعم المنظمات العربية المتخصصة.
٧- إقامة نظام للأمن القومي العربي من خلال بديلين هما إنشاء مجلس أمن عربي، وإقامة منتدى للأمن القومي العربي.
٨- تنقية الأجواء العربية بهدف الحفاظ على السلامة الإقليمية لأعضائه، ورفض مبدأ استخدام القوة في العلاقات العربية-العربية، واضطلاع الجامعة العربية بدورها كأداة رئيسة للعمل العربي المشترك عبر تجديد آليات الجامعة وتحقيق القدر اللازم من التنسيق بين هيئات ومؤسسات العمل العربي المشترك، واعتماد الجامعة الأداة الرئيسة للعمل العربي المشترك.

وثيقة الاسكندرية ٢٠٠٤:

حددت الوثيقة آليات تفعيل الإصلاح في الدول العربية، وكالآتي[٥٣]:

- تأسيس منتدى الإصلاح العربي في الاسكندرية ليكون فضاءً مفتوحاً للمبادرات والحوارات الفكرية والمشاريع العربية سواء فيما يتعلق بالإصلاح، أو الحوار والتعاون مع مؤسسات المجتمع عبر عقد ندوات وحوارات مشتركة عربية وعالمية حول موضوعات التنمية.
- تأسيس مرصد اجتماعي عربي لمتابعة نشاط المجتمع المدني العربي، وتقويم مشاريع الإصلاح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- عقد مؤتمرات عربية داخل كل بلد لمناقشة الفكر الإصلاحي.
- تشكيل لجنة متابعة تجتمع كل ستة أشهر لدعم منتدى الحوار بعد تأسيسه.

وتدعو الوثيقة إلى جملة من الإصلاحات الآتية[٥٤]:

[٥٣] للتفصيل ينظر: صحيفة الحياة اللندنية- وثيقة الاسكندرية للإصلاح في ٢٠٠٤/٣/١٥.

١- الإصلاح السياسي:

- إصلاح المؤسسات والهياكل السياسية العربية.
- إلغاء القوانين الاستثنائية بما فيها قوانين الطوارئ.
- إطلاق تشكيل الأحزاب السياسية.
- تحرير الصحف ووسائل الإعلام من التأثيرات والهيمنة الحكومية.
- تشكيل مؤسسات المجتمع المدني.
- المصادقة على منظومة المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.

٢- الإصلاح الاقتصادي: ويقوم على إعلان الدول العربية خططاً واضحة، وبرامج زمنية للإصلاح الهيكلي والمؤسسي مع تحليل دقيق لدور الدولة، مما يجعلها محفزة للنشاط الاقتصادي.

٣- الإصلاح الثقافي والاجتماعي:

- ضرورة تطوير نمط العلاقات الأسرية بما يخدم الفرد والمجتمع.
- ضرورة ترسيخ أسس التفكير العقلاني والعمل عبر دعم مؤسسات البحث العلمي وتوفير التمويل اللازم لها.

ومن قراءة ردود الأفعال، يتضح بأن أكثر الردود انتقاداً جاءت من الرئيس حسني مبارك في قوله نرفض أي نمط أو نموذج للإصلاح من النماذج[٥٥]، وأكد على قدرة العرب على إصلاح أمورهم بأنفسهم وبمشاركة الآخرين، وذلك باحترام الهوية العربية الإسلامية، أما وزير خارجيته السابق (أحمد ماهر) فقد صرح بأننا لا ننتظر التوجيهات من الخارج، كما استنكر مفتي مصر الضغوط الأمريكية، ورفض مشروع الشرق الأوسط الكبير التي تسعى أمريكا فرضه على النظام الإقليمي العربي مستطرداً رفضه للنموذج التركي العلماني في المنطقة[٥٦]، فضلاً عن إصدار فتوى تحرم مشاهدة قناة الحرة الأمريكية والمشاركة في برامجها أو الكتابة فيها، لأنها مفسدة تهدف إلى محاربة الإسلام وأمركة العالم، وتعبر الفتوى عن رد الفعل العربي والإسلامي على مشروع الشرق الأوسط الكبير.

---

[٥٤] المصدر نفسه.

[55] http://www.middle.east.online/egypt.24-5-2004.

[٥٦] للتفصيل ينظر: صحيفة الحياة اللندنية، ٢٠٠٤/٣/١٦.

جـ- المبادرة السعودية:

وتقوم على ضرورة تبني ميثاق عربي جديد يحقق السلم والأمن الدوليين للشعب العربي، بما يقوي ويعزز العلاقات البينية ويهيئ الظروف الضرورية لتمكين العرب من أداء دورهم في الاقتصاد العالمي، وينجز الإصلاحات الداخلية في مختلف المجالات[٥٧].

وأستناداً لما سبق قدمت السعودية تطيمنات للتغيير في الممارسة السياسية، بدءاً من إجراء أول انتخابات بلدية وصولاً إلى الحديث عن إمكانية الانتقال بنظام الحكم إلى وضعية الملكية الدستورية، بناءً على مقولة بوش يجب على الدول بما في ذلك السعودية العمل على معانقة الديمقراطية[٥٨].

د- المقترحات القطرية:

من أبرز المقترحات القطرية التأكيد على ضرورة التعاون الاقتصادي، والعمل على إقامة السوق العربية المشتركة على غرار تجربة الاتحاد الأوربي، وتشجيع الحوار بين أطراف النظام العربي، وتماشياً مع ذلك دعمت الولايات المتحدة الإنقلاب داخل الأسرة الحاكمة في قطر، والعمل على إجراء استفتاء على دستور جديد للبلاد (٢٠٠٣)، بما يضمن حريات التعبير والدين وحقوق المرأة.

هـ- المبادرة اليمنية:

وتركز على احترام سيادة كل دولة، وقيام نظام أمن عربي وتحقيق التنمية المستدامة في العالم العربي، وتنسيق الجهود بين الدول العربية والعمل على تغيير اسم الجامعة لتكون الاتحاد العربي، وانسجاماً مع هذا التوجه كانت صنعاء تحتضن مؤتمرات وموائد مستديرة للبحث عن الديمقراطية والعلاقة مع الآخر.

و- المقترحات الليبية:

وتدعو إلى تأسيس مجلس وزراء للاتحاد العربي يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الاتحاد على ان يكون للاتحاد أمانة عامة دائمة مقرها القاهرة، فضلاً عن الاتفاق مع اليمن لتغيير

---

(٥٧) للتفصيل ينظر: صحيفة الوفد المصرية في ٢٠٠٤/٣/١٠.

(٥٨) عاطف الغمري، الشرق الأوسط الكبير، القاهرة، دار الحرية للطباعة، ٢٠٠٤، ص٥٢-٥٣.

اسم الجامعة ليكون الاتحاد العربي، وتماشياً مع ذلك فقد تحولت ليبيا بين ليلة وضحاها إلى حليف للولايات المتحدة حتى لاتمانع في عودة القواعد العسكرية الأمريكية إلى أراضيها.

ز- **المبادرة السودانية:**

وشددت على ضرورة العمل الجماعي العربي وتعظيم الدور العربي على المستوى الدولي، ودعم كل أشكال المقاومة لاسترداد الأراضي العربية المحتلة، واستكمال هيكلة الجامعة، وبعث الحيوية في المشروعات القومية الكبرى مثل مجلس الوحدة الاقتصادية، السوق العربية المشتركة، والاهتمام بالجاليات العربية والإسلامية في الخارج ووضعهم في اتحاد وجمعيات للدفاع عن مصالح أوطانهم الأصلية[٥٩].

وتماشياً مع ذلك فقد أبدت السودان تعاوناً مع الادار ة الامريكية في مجال مكافحة الارهاب ولاسيما بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ حتى رفعت العقوبات الدبلوماسية عن السودان في ٢٠٠٢/٩/١٧ ، فضلاً عن تفعيل قانون سلام السودان الذي يبدو في ظاهره دعوة للسلام واعادة الاعمار والتنمية والديمقراطية ، لكنه في جوهره يعزز الاتجاه نحو فصل الجنوب عنه، وهذا الهدف يخدم المشروع الامريكي[٦٠].

والجدير بالملاحظة هناك تياران بين الأنظمة العربية يناديان بالإصلاح، الأول يؤيد دعوة الإصلاح التي يقترحها الخارج مع إجراء تعديلات عليها (الأردن، العراق، الكويت، قطر) والثاني يرى أن الإصلاح يجب أن يتم من الداخل (سوريا، لبنان، السعودية، مصر، السودان، الإمارات)[٦١].

وكنا نأمل أن يكون الرد العربي على هذا المشروع مبنياً على أساس تفكير منهجي، يكون حصيلة دراسات متعمقة مستفيدين في ذلك من الأبحاث الرصينة التي قام بها عدد من مراكز الأبحاث السياسية في العقود الماضية.

وحتى لا يكون الحديث على سبيل التجريد، علينا أن ننظر في مضمون هذه المبادرات، وعندئذٍ سنجد أنها تتسم بالعمومية الشديدة، وكذلك آليات تطبيقها، ومن ثم تفتقد

---

[٥٩] صحيفة الوفد المصرية في ٢٠٠٤/٣/١٠.

[٦٠] عبده مختار موسى، مستقبل العلاقات السودانية الأمريكية بعد اتفاقية السلام، مجلة المستقبل العربي ، العدد(٣١٩)، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ص٦٩-٧١.

[٦١] مهيوب غالب أحمد، المصدر السابق، ص١٥٩.

إلى التنسيق المطلوب والضروري، وعلى سبيل المثال فكرة اقتراح مجلس الأمن العربي على غرار مجلس الأمن الدولي، فهي فكرة بالغة الأهمية ولكنها تتطلب دراسة متعمقة يقوم بها مجموعة منتقاة من الخبراء والسياسيين العرب، وينطبق الأمر نفسه على اقتراح إنشاء برلمان عربي وغيرها من الاقتراحات.

الخاتمة:

لقد تبين من خلال البحث أن مشروع الشرق الأوسط الكبير بأبعاده ودلالته ومنطلقاته الفكرية بمثابة غلاف برّاق لأيديولوجية الائتلاف اليميني الحاكم في الولايات المتحدة الذي يستهدف في نهاية الأمر عقلية الشعوب الأخرى الذي يعدها الغرب أدنى من العقلية الغربية وأقل قدرة على التفكير والابداع، وهذا يفسر حقيقة أن هذا المشروع يخدم الأهداف التوسعية الإسرائيلية في المنطقة.

وعلى الرغم من مواقف القبول والرفض العربية لهذا المشروع، ومواقفها من الإصلاحات السياسية القادمة من الخارج، يجعلنا نقف إلى حقيقة ثابتة هي ان الولايات المتحدة هدفها إجراء إصلاحات سياسية حقيقية في النظام الإقليمي العربي بما يلائم توجهاتها وأهدافها في المنطقة.

وحين نتأمل المحاولات العربية للإصلاح ندرك أن الارتجال هو سمتها الرئيسة، وهذا الارتجال في عرض مقترحات ثورية بدون دراسة كافية، وبدون قياس رد الفعل المحتمل من قبل الدّول العربية المختلفة، وبالتالي نجد الحكومات العربية قامت بتنازلات من أجل الحفاظ على بقائها، وهو مالاحظناه من خلال قيام الرئيس الليبي معمر القذافي بتسليم أسلحة الدمار الشامل للولايات المتحدة، والتعديل الدستوري للرئيس المصري حسني مبارك من خلال مشاركة أكثر من مرشح للرئاسة، فضلاً عن الانسحاب السوري من لبنان خوفاً من أن تتعرض إلى نفس ماجرى في العراق.

وفي النهاية فأن هذا المشروع ما هو إلا غطاءً أمريكياً للانخراط في شؤون المنطقة بيسر بما يغفر لها خطيئة العراق، ويمحو من خطيئة التحيز الكامل لأسرائيل، ويحسن صورتها لدى الشعوب العربية.

الجامعات وآلية بناء الدولة العراقية الجديدة

الدكتور
عبد الامير محسن جبار(*)

المقدمة:

الجامعة حرم آمن ومركز حضاري فكري وعلمي وتقني في المجتمع يزدهر في رحابها العقل وتعلو فيه قدرة الإبداع والابتكار وتتبلور فيه إمارة النبوغ لتسهم في بناء الأجيال وتقع على عاتقها رفع المستوى العلمي والتقني والثقافي والاجتماعي والإنساني بما يتلاءم وحاجات البلاد الراهنة والمستقبلية بإعداد البحوث والدراسات في شتى جوانب المعرفة العلمية والإنسانية لتواكب التطور العلمي والتقني بما يؤدي إلى تقليص الفجوة بين مجتمعنا ومجتمعات الدول المتقدمة.

وإذا كان المنطق يؤكد انه لايمكن للهيمنة الاستعمارية أن تستمر إلى الأبد فهذا أمر مستحيل لأنه ضد منطق وحركة التاريخ، فان الذي يعزز المواجهة لكل التحديات الجامعات لكونها الطليعة التي تجعل العلم أداة في معركة المصير التي تواجهها الأمم والشعوب، فهي التي تمتلك زمام العلم وقيادته وتحولهما إلى قوة يمكنها من الصمود في وجه التحديات والثقافات الأخرى.

أن آلية الجامعات في البحث والحياة هي الحوار والمحاورة أو المفاهمة وتبادل الرأي وهذا يعني الإقرار بوجود طرف أخر غير الطرف المتكلم لوحده أو الخطيب الأوحد الذي يملي أو يحاضر ويذهب دون أن يعنيه ماهي نتائج أقواله، ثم أن تكون محاورا لا خطيب يعني بالذات أن من وأجبك أن تستمع لأخر سيأتي بدوره ليدلو بدلوه في الموضوع الذي تحدثت به، إن هذا الانتظار أو التوقع وما يصحبه من ضرورة تعلم فضيلة الاستماع يعني بالضرورة الاعتراف والإقرار بوجود رأي أخر يختلف عن رأيك وقولك.

(*) استاذ العلوم السياسية/الجامعة المستنصرية.

أن الاختلاف بالرأي بل وحتى بالممارسة والعمل لايعني بالضرورة الإقرار بحصول التضاد، فإذا كان صحيحا أن كل ضدين مختلفين فان الصحيح أيضا بان كل مختلفين ليس بالضرورة ضدين. فأين الدولة من استشارة الجامعات وحوار أساتذتها واخذ الرأي والمشورة منهم وهذا منطق القرآن الكريم وسياسته "وأمرهم شورى بينهم"[1] و"شاورهم في الأمر"[2] أن مجالس الشورى هي مصادر اتخاذ القرار وإدارة شؤون البلاد، وكذلك قوله تعالى "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"[3].

ولاشك أن ما يعزز هذا العمل هو الإقتداء والأتباع لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا مظاهرة أوثق من المشاورة".

ولابد أن نقف بإجلال إمام رائد مدرسة الحوار في العهد ألراشدي وهو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي يقول في تعليماته المكتوبة إلى مالك الاشتر حين ولاه على مصر بقوله "الناس صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق".وقوله عليه السلام "قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء وعرف مواقع الخطأ" وقوله عليه السلام في وصيته إلى ابنه محمد بن الحنفية أي بني "اضمم أراء الرجال بعضها إلى بعض ثم اختر قربها إلى الصواب وأبعدها عن الارتياب".

وقوله عليه السلام في مكان أخر "اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب"، وقول رائد الجامعات العلمية الإمام الصادق (عليه السلام) "لن يهلك امرؤ عن مشورة".

ولنا أيضا عبر عن صاحب الحوارية المجددة للثقافة الراشدة وهو الإمام الشافعي (رضي الله عنه) الذي قال "رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

لكل فرد منظومة حريات قد يكتسبها كلها أو جلها، وقد تتحدد عنده مراتبها حسب ظهورها أو استعمالها كالحرية الشخصية أو المدنية، والأستاذ الجامعي هو بالذات الحائز لكل هذه الحريات إذ ينفرد بالحرية الأكاديمية والفرق بين الحرية الأكاديمية والمهنية أن الثانية جزء من الأولى، فالحرية المهنية التي يختص بها أي مهني، تعني حرية التصرف الوظيفي

---

[1] سورة الشورى ، الآية ٣٨.
[2] سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
[3] سورة البقرة ، الآية ٢٥١.

في ممارسة العمل اليومي، والأستاذ الجامعي كذلك مهني له حق تقديم الخبرة في تخصصه ولكنه في مجال حريته الأكاديمية ينفرد في نتاج الفكر والمعرفة[4].

وتأسيسا على ذلك فان الدولة المتميزة هي التي تستشير وتسمع لان في تكامل الآراء ازدهار الأمة وتحقيقا لحريتها المنشودة، وكما يقول غاندي "ينبغي أن يكون الناس أحرارا في البحث عن الحقيقة، وعندئذ تجعل الحقيقة الناس أحرارا"[5].

لاشك أن هنالك علاقة تفاعلية بين الجامعة والمجتمع والدولة، فالجامعة تمنحنهما الكوادر العلمية والتخصصات الفنية وتصقل القيم وتطور الشخصية، وترفع من مستوى التربية والتعليم، في حين ترفد الدولة الجامعة بالكثير من المستلزمات والمعطيات التي تحتاجها الجامعة في المهام التي تقوم بها وتؤديها للمجتمع.

أن المجتمع يمنح الجامعة الملاكات البشرية والمقومات المادية وغير المادية التي وصل إليها المجتمع والذي يجسد ما تستطيع الجامعة الاستفادة منه في تقديم الخدمات للمجتمع. أي أن المجتمع لا يأخذ من الجامعة بل يعطي لها وعملية الأخذ والعطاء هما العلاقة التفاعلية بينهما بحيث تصبح الجامعة امتدادا للمجتمع ويصبح المجتمع امتدادا للجامعة.

ووفقا لذلك فان آلية العمل التي تحقق التفاعل بين الجامعة والمجتمع المحيط بها ومن خلال دور المجتمع في تنمية الجامعة هنالك ثلاث جوانب للتفاعل.

١. دور المجتمع في رفد الجامعة بشرياً.
٢. دور الدولة في رفد الجامعة مادياً.
٣. دور المجتمع في رفد الجامعة حضارياً.

١.دور المجتمع في رفد الجامعة بشرياً.

فيما يتعلق بتلك النقطة نعني بشريا تلك الموارد البشرية التي تضم الملاكات التدريسية والإدارية والفنية والمهارات التي تهتم بأمور الجامعة والإشراف على شؤونها الخاصة والعامة[6].

---

[4] عباس عبد الهادي، حقوق الإنسان ،ج١، دار الفاضل، دمشق، ١٩٩٥، ص٢١.
[5] نقلا عن مجموعة مؤلفين "الديمقراطية والتربية في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١، ص١٣٦.
[6] محمد حربي حسن وخليل محمد الشجاع، علم المنظمة ، جامعة الموصل، مديرية دار الكتب، ١٩٨٩، ص٢٥٢.

ويتحدد دور المجتمع بخصوص تلك الكوادر بأنه هو الذي اولدها ومكنها من دخول الجامعة والعمل فيها، كما انه يحمل دور أخر في الإعداد والتنشئة الاجتماعية لتلك الكوادر من خلال الحلقات التي مرت بها تلك الكوادر ابتدءا من الأسرة ثم المدرسة فالجامعة[7].

والموارد البشرية التي يقوم المجتمع بتغذيتها إلى الجامعة هي أنواع مختلفة منها ماهو متخصص ونادر ومنها ماهو مهني ومتدرب. ومنها ماهو غير متخصص وغير متدرب. وذلك لاختلاف عملية النضج التي تميز مجتمع عن آخر .

فالمجتمعات المتقدمة توفر الاختصاصات النادرة من الملاكات العلمية وتلك تعد حالة فريدة أن تتوافد عليها المجتمعات النامية أو المتخلفة. إلا إذا أقدمت على الانفتاح والاستعانة بالجامعات في الدول المتقدمة للوصول إلى الإعداد العلمي والتقني المتقدم لكوادرها البشرية.

من هنا يتضح إذا دور المجتمع في رفد الجامعة بالموارد البشرية المطلوبة، فإذا كان المجتمع متقدما ومتطوراً حضارياً وعلمياً وتقنياً فانه يكون قادرا على تزويد الجامعة بالملاكات البشرية والكوادر العلمية والعكس صحيح[8].

والواقع أن عملية إعداد وصقل ورعاية المواهب العلمية تتطلب اهتمام واستيعاب لدى البلدان النامية، إذ تعاني اغلب البلدان النامية من ظاهرة هجرة العقول أو الأدمغة بسبب عدم وجود المقومات المطلوبة او المتاحة لعملهم أما بسبب ضعف الاهتمام بهم وعدم توفر المستلزمات العلمية المناسبة لظروفهم الفكرية آو ضعف المستوى ألمعاشي لهم مقارنة بنظرائهم في الدول المتقدمة آو بسبب تدهور الوضع الأمني في البلد، لذلك تكمن الإشكالية هنا في تخوف حكومات البلدان النامية من إرسال أفرادها للخارج لأسباب تتعلق بالتكلفة المادية واحتمالية بقائهم هناك لمقارنتهم بين ظروفهم في بلدهم الام مع البلد الدارسين فيه[9].

٢.دور الدولة في رفد الجامعة مادياً

مهما كانت صلة العلاقة بين الجامعة والدولة سواء كانت أهلية أم حكومية فأنها تحتاج إلى أموال كبيرة للأنفاق على الأبنية التي تضمها والمختبرات والوسائل العلمية والأبحاث

[7] معروف عبد الله الصائغ، النمو الحضري وإثره على الجامعة، جامعة الكويت، ١٩٩٠، ص٩٦.
[8] رجاء صبحي الملاح، تأملات في هموم المجتمع، دمشق،دار اللواء،١٩٩٦، ص٣٦.
[9] ندوة الهجرة العربية عامة والمغاربية خاصة، مجلة شؤون الأوسط لبنان، العدد ٤٩، شباط ١٩٩٦.

والأثاث وأجور الأساتذة والعاملين، وحتى إن كانت الجامعة وهو الغالب لدى البلدان النامية بارتباطها بالحكومة أي حكومية وتمول من الحكومة بعكس الغالب لدى الدول الأوربية بتمويلها من قبل القطاع الخاص فأنها تحتاج للموارد المادية. لذلك تضطلع مختلف الجامعات في الوقت الحاضر في مجال الاستثمار من اجل تلبية حاجاتها المادية ومواكبة التقدم العلمي مع روح العصر، فهنالك مؤسسات اقتصادية واجتماعية وتقنية وطبية وغيرها بدأت تستثمر في الجامعات، وهذه الاستثمارات المالية إنما هي وسائل يستطيع من خلالها المجتمع جني ثمار اقتصادية وبنى حضارية للمجتمع سواء في القريب الأجل أم العاجل[10].

ان المجتمع يتحمل مسؤولية أخلاقية إذ كانت الجامعات تعاني من نقص سواء في الأبنية أو الموارد المالية والعلمية التي يفترض أن تمتلكها، لذلك تسعى دول العالم المتطور وعلى الدول النامية الحذو حذوها للارتقاء بموارد الجامعات المادية باعتبارها تخرج وتؤهل النخب المهمة في عملية التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن أهم المنابع التي تعتمد الجامعة عليها في توفير مستلزماتها المادية هي:

١. ناتج أو حاصل الخدمة الذي توفره المؤسسات الإنتاجية داخل الجامعة، كورش الصناعة أو النجارة أو الهندسة أو الكهرباء أو الزراعة أو التصليح والصيانة.
٢. الخبرة والاستشارة عبر مكاتب الخبرة والاستشارة العلمية.
٣. أجور الدراسة وخاصة للجامعات التي تدار من قبل القطاع الخاص، وأجور التعليم المستمر لدى الجامعات المرتبطة بالحكومة، إذ تمثل تلك العوائد المالية زخما لتدوير عملية التطور والبناء في الجامعة سواء على صعد الكوادر العلمية أم البنايات والمختبرات العلمية.
٤. التخصيصات المالية التي تخصصها الحكومات للجامعات سواء كانت حكومية أم أهلية.

[10] إحسان محمد الحسن، مظاهر التنمية والتقدم في المجتمع الغربي، مجلة دراسات عربية، العدد٥، ١٩٨٨، ص٦-٧.

٥. الإرباح التي تحصل عليها الجامعات نتيجة براءات الاختراع للشركات الصناعية الكبرى أو الاستكشافات العلمية الجديدة سواء في الميادين الصناعية المدنية أو العسكرية.
٦. الشركات الكبرى ووكالات الدعاية ومؤسسات الأعلام ودور النشر الكبرى والإغراءات والمعونات التي ترفد بها الجامعات للترويج لمنتجاتها ووسائلها.
٧. مردودات أخرى عبر تعليم اللغات أو تبادل الخبرات بين الجامعات في البلد الواحد أو بين البلدان الأخرى.

٣.دور المجتمع في رفد الجامعة حضارياً

التراث الحضاري بمفهومه العلمي هو كل ما يرثه الأبناء من الإباء والأجداد ، إذا التراث يكمن بالحلقة التي تربط الماضي ويسهل منها للحاضر والمستقبل. ولكل مجتمع مهما كان نوعه تراث حضاري يعتز به ويتمسك به، عبارة عن الموروث الثقافي والقيمي. وهذا الموروث يختلف من مجتمع لأخر لذلك هناك مجتمعات قروية وأخرى متحضرة. القروية قد تكون إقطاعية والمتحضرة رأسمالية أو اشتراكية[11].

علما أن العناصر التراثية الحضارية للمجتمع تنعكس في القيم والعادات والتقاليد والمثل والمقاييس والمبادئ وكل ما ورثه الأبناء من الأحفاد والأسلاف من معالم تراثية حضارية قد تكون روحية أو اجتماعية أو مادية.

والجامعة تستوعب تلك الخصوصيات لأنها تتأثر بالبيئة المحيطة لها والبيئة هي المستوعب لكل العادات والقيم والتقاليد والموروث الثقافي للمجتمع، ومن هنا تتميز الجامعات بسبب هذا المدخل فتبدو حضارية بموروثها الذي تكتسبه من تراثها الحضاري. إذن للجامعة ينبغي أن يكون لها لون وخصائص ومعطيات حضارية لغة، دين، تاريخ، مستوى علمي، وتقني معين وتلك خصائص تكسبها شخصية مميزة عن الجامعات الأخرى.

أما إذا توافرت جامعة بدون خصائص فأنها لايمكن أن تكون منبر علمي يعبر عن هوية حضارية وتاريخ يعتد به.

---

[11] إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع: دراسة نظامية، بغداد، مطبعة الجامعة، ١٩٧٦، ص٢٧٩.

وقد بدأت في الآونة الأخيرة وبسبب قوى العولمة استهداف القيم الحضارية والتراثية للجامعات لدى البلدان النامية، مما تطلب من الجامعات في تلك البلدان التأكيد على هويتها الحضارية عبر المؤلفات العلمية التراثية والتأكيد على التراث الحضاري واستلهامه في عملية مواكبة التطور العلمي والاستفادة من ايجابيات العولمة في مجالاتها كافة.

وهنا تبرز شخصية الجامعة الحضارية في الاصالة والابتكار بعيدا على التقليد والانجذاب لقوى محلية أو إقليمية أو دولية.

*** الأستاذ الجامعي ومشروع المصالحة الوطنية**

كل مصالحة تفترض طرفين أو أكثر متخاصمين سرا أو علانية، ولكل منهما أهدافه وغاياته التي يسعى إلى تحقيقها من خلال صراعه أو خصامه مع الطرف الأخر، وتمثل المصالحة المسعى السلمي لتحقيق التقارب والاتفاق بين الطرفين ضمن آليات وشروط معينة، فهل ينطبق هذا الوضع على حال الأساتذة الجامعيون مع الدولة.

أن الدولة العراقية بعد نيسان ٢٠٠٣ أقصت الأساتذة الجامعيين واستعانت بغيرهم، ولعل الأمر لم يكن بتدبير مسبق، بل ربما كان مجرد (هفوة) نجمت عن التعجيل في بلورة آليات مؤقتة من جهة، وجهل قوات الاحتلال يومها بما يجب فعله، ومن ينبغي الاعتماد عليه في إعادة تشكيل هيكلية الدولة التي (فككت) تماما من جهة أخرى، إذ (حضرت القسمة) كل فئات المجتمع العراقي وشرائحه وغاب أو غيب الأساتذة الجامعيون لادور يذكر لهم في مجلس الحكم وما انبثق عنه من تشكيلات حكومية، ولادور يذكر في الجمعية الوطنية والتشكيلات الحكومية التي انبثقت عن الحكومة الانتقالية، ولادور يذكر في مجلس النواب وفي حكومة الوحدة الوطنية القائمة اليوم، ولكي أكون أكثر مصداقية ووضوحا، فان في مجلس النواب اليوم ما يقل عن عدد أصابع اليد الواحدة من الأساتذة الجامعيين وهؤلاء لم تأت بهم الجامعة، بل جاءت بهم السياسة من بوابات الأحزاب والتحالفات التي انضووا تحتها، لست هنا لاقلل من شأن احد، فنحن نكن كل الاحترام للوطنيين من أعضاء مجلس النواب- وما أكثرهم- لكننا في الوقت نفسه نؤشر خللا مستقبليا يلوح كضوء احمر ينذر بكارثة أن

دولة لا تعتد بعلمائها لهي اقرب إلى ألامية والبداوة منها إلى الدولة العصرية، وحاشا العراق أن يكون كذلك.

والحقيقة أن الدولة اليوم حاولت جاهدة أن تنصف الجميع، وألا تفوتها فائتة تخص شريحة من شرائح المجتمع العراقي واثنياته، سواء في النص التشريعي الأول (الدستور) أم في مؤسسات الدولة التشريعية والتنفيذية، وفي الأخير نلحظ أن الدولة رأت أن خيار الحوار مع (المسلحين) قد يكون أوفق من محاربتهم والقضاء عليهم، فهم في النهاية أبناء العراق وان كانوا (ضالين) ، ولكنها لسبب غير واضح تتجاهل على نحو منهجي شريحة الأساتذة الذين يشكلون استثمارا وطنيا مهما للدولة في حال التعامل معهم على نحو رشيد، أو يشكلون عبئا على كاهل الدولة والمجتمع، ولغما لا يدري احد متى سينفجر إذا استمر إبعادهم وتهميشهم كما هو الحال اليوم.

على الدولة أن تتصالح مع علمائها ليس فقط لأنهم جزء مهم وحيوي في المجتمع العراقي، ولا لأنهم من سيؤسسون لثقافة الحوار والتعايش السلمي والديمقراطية والتعددية وغيرها. من المفاهيم التي يسعى الواقع السياسي الجديد لإشاعتها وتكريسها ليس كل ذلك فقط، بل لان إقصائهم يعني إقصاء مفصل محوري من جسد المشروع السياسي للدولة العراقية الجديدة، مما يعني بالضرورة أن أي مشروع سياسي عراقي راهن أو مستقبلي لا يكون الأساتذة في الصميم من حركته سيكون مشروعا أعرج ومثل هذا الحكم ينطبق على أي مشروع سياسي يستعين بوجودهم (لإكمال النصاب القانوني أو نصاب الوجاهة أو أي نصاب أخر) أن وجودا غير فاعل وغير أساسي للأساتذة في أي مشروع يمكن أن نسميه (بطالة سياسية مقنعة) وهو ما نرفضه تماما.

على الدولة أن تعتد بعلمائها بوصفهم الشريحة التي تقع على عاتقها مسؤولية بناء الدولة ونشر الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي ورأب الصدوع والشروخ التي أحدثها النظام السابق وما تبعه من احتلال وإرهاب في بنية المجتمع العراقي، ويجري النص على هذا الدور في الدستور، لان إنتاجهم العلمي والإنساني أشبه بالمضاد الحيوي الذي يقي

المجتمع كل الإمراض والأوبئة الاجتماعية، ويرتقي بالذوق العام وبعمق الشعور بالمسؤولية الوطنية ويهدف إلى التآخي والشراكة بين مكونات المجتمع العراقي.

نقترح على الدولة أن تتبنى في سياق هذه المصالحة الاهتمام بالعلماء لنيلهم حقوقهم التي أهمها وعلى رأسها حقوقهم في المشاركة الحقيقية مع سائر إخوانهم العراقيين في بناء وطنهم الجديد وممارسة دورهم الفاعل في النهوض والتقدم.

وعلى الدولة أن لا تطلب مساندتهم فقط، بل أن تشركهم في البناء ويجب استبعاد فكرة (أكياس الدراهم، الهبات، العطايا) من الذهنية عند تفكيرهم في دعم العلماء، لان من شأن هذه الطريقة أن تكرس بطانة حقيقية ونزاعات حول الامتيازات، وقد ثبت بالتجربة السابقة أن جدواها العلمية غير واضحة أن لم تقل غير موجودة، ويمكن هنا استثناء حالات خاصة كغير القادرين على العمل أو المصابين بعاهات دائمة، وغيرهم ممن يجري تقدير حالاتهم الاستثنائية.

يؤسفني القول أن صورة الشاعر والأديب والمثقف والعالم المعاصر ما تزال في ذهن السياسي المعاصر تشبه إلى حد بعيد الصورة التقليدية في التراث لأديب يقف على باب أمير بانتظار أن يسمح له الحجاب بالدخول وإلقاء قصيدته في مدح الأمير مقابل كيس من الدراهم أو الدنانير لان هذه القصيدة قد نافقت الأمير ونفخت أوداجه.

لاشك انه مشهد ظل يتوالد على امتداد تاريخ الأمة التي ظلت بدورها تتراجع بسبب انغماسها في تالية حكامها على هذا النحو المفزع، بئس الأمراء من هذا النوع ولنْ نكتسب على أبوابهم آبدا وقد سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من هم اشر الناس قال (صلى الله عليه وسلم) (العلماء إذا فسدوا.........).

وتمسكا بصرخة المرجع الديني الكبير الشهيد الأول محمد باقر الصدر (قدس الله سره) الذي قال فيها :

إذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فقل نعم الملوك ونعم العلماء

وإذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فقل بئس العلماء وبئس الملوك

هذه مقاومة سلمية أعلنها الشهيد الأول ضد دولة القمع التي كان شعارها يقول (القلم والبندقية فوهة واحدة) لقد ساوت دولة القمع بين (القلم والبندقية) وتوأمتهما بهذا الشعار وجعلت فعل القلم بمنزلة فعل البندقية في حساباتها. أي من يقترب من السلطات يجزى بالمال والامتيازات والمناصب في حيث تركت للبندقية الموت المجاني وفرق الإعدامات والسجون ،أن دولتنا الجديدة اختارت الحوار مع فوهة البندقية التي قتلت العلماء ومن اجل إشراكهم في البنية السياسية ولا يمكننا أن نلومها على ذلك، ولكنها لم تحاور أساتذة الجامعات وتشركهم في بناء الدولة وربما لكون الأساتذة (مسالمين) ولذلك فان إرجاء مشاركتهم إلى عقود مقبلة لن يضر شيئا، وان عليهم أن يتحملوا بضع سنوات أخرى زيادة على ما تحملوه في العقود السابقة.

أن دولتنا الجديدة تدرك تماما أن الأستاذ الجامعي كان على رأس قائمة الممنوعين من السفر، مما انعكس سلبا على تدني المستوى العلمي للأستاذ والطالب، لانعدام الاتصال بالخارج سواء ميدانيا، أم بالتردد من المراجع الجديدة ولذلك فنحن نقترح على الدولة الجديدة ضرورة ترشيح ذوي المؤهلات العلمية والوظيفية للعمل في السفارات والملحقيات والقنصليات الثقافية والإعلامية في دول العالم لان ذلك يتيح جملة أمور:

١. أداء وظيفته على نحو إبداعي فاعل بحكم اختصاصه.
٢. اتصاله بالثقافة العالمية في مجال تخصصه الإبداعي.
٣. تعلم لغة أجنبية بالنسبة لمن سيخدمون في دول أجنبية.
٤. أن تكون الخدمة محددة بسنتين قابلة للتمديد لسنة واحدة من اجل فسح المجال لأكبر عدد ممكن من الأساتذة.

على الدولة أن تعمل جاهدة باستثناء مناصب وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (الوزير-وكلائه-المدراء العامين-رؤساء الجامعاء-العمداء...) من المحاصصة السيئة الصيت، بل يتم اختيارهم من ذوي المؤهلات العلمية والوظيفية والمشهود لهم بالوطنية وليس على أسس حزبية أو مذهبية أو محسوبية... لان أساتذة الجامعات ظلوا فوق كل تلك الاعتبارات، وبذلك كانت الجامعات وأساتذتها هدفا للاحتلال وقوى الظلام الأخرى.

وعلى الدولة أيضا توفير فرص العمل من ضمن مجال الاختصاصات لكل الأكاديميين في الوزارات والدوائر والمؤسسات بما يكفل لكل منهم عيشاً كريماً، لا نشوية منه، وان توفر لهم مساكن ويا حبذا ان تكون داخل او قرب الحرم الجامعي. وعليها الاهتمام الاستثنائي بالكفاءات والموهوبين آذ يروى أن الملك فيصل الأول (ملك العراق) (١٩٢١-١٩٣٣) رأى في احد الأيام ابن بستاني القصر يخطط بأصابعه على تراب حديقة القصر رسوما وتخطيطات بارعة فأعجب بها، وقرر إرسال هذا الصبي لدراسة الفن في باريس، وفعلا ذهب الصبي ودرس وتعلم وعاد... المهم في نهاية الرواية أن نعلم هذا الصبي هو الفنان العراقي والعالمي الكبير فائق حسن، أن معظم موهوبي الأربعينيات والخمسينيات كانت الدولة العراقية الملكية (بإمكاناتها البسيطة آنذاك) قد أوفدتهم للدراسة في الخارج، فعادوا وأسسوا المعاهد والكليات والمؤسسات العلمية، فعلى الدولة اليوم أن تعطي لموهوبيها أهمية استثنائية، وعلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي أن تراعي ذلك وان يضعوا العراق هو الأساس، إذ لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نصدق أن الدولة ذات العقال والزى البدوي في ثلاثينيات القرن الماضي تقدر كفاءاتها وتعي الحاجة الماسة أليهم، ولا تعيها الدولة العصرية بلباسها الحديث وحساباتها ونفطها، ونحن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

أن علماء العراق لم يكونوا في يوم من الأيام جزءا من مشاكل العراق بل فيهم الحل الحقيقي، وأي بلد لا يبنى ألا بعلمائه وان حركة المجتمع لا تدور إلا بهم، وإذا كانت المصالحة وطنية حقا يجب إسهام العلماء (أساتذة الجامعات في العملية السياسية وعدم أشعاره بالغبن والتهميش والإقصاء عنها) لان إشراكهم له أثارا ايجابية سريعة على الشارع العراقي، وبالتالي على المواطن العراقي المنهك بالحروب والقمع والمجاعات منذ أربعين عاما، وقياداتهم ستبزغ فجر السلام والأمن والأعمار على العراق وسيسهم في اختزال الكثير من الوقت والجهد لردم الهوة الكبيرة التي تفصلنا عن العالم لأنهم فوق الاعتبارات القومية والدينية والمذهبية والحزبية والشخصية.

وأخيرا لابد من التذكير بان علماء العراق ثروة وطنية كبيرة ينبغي على الدولة الحفاظ عليها، لا بالوعود والآمال بل بتحقيقها من ألان، وان ذلك ليس بصعب المنال، فالعراق هو الذي أغدق على العلم والعلماء من أقدم الحضارات، وهو الذي سخر لها كل الامكانات، فكان بلاد العلم والعلماء بفضل الرعاية والاهتمام، وكان محط أنظار العماء من عرب ومسلمين وغرباء من مختلف الأوطان.

ولعلنا لا نعدو جانب الحقيقة إذا قلنا أن جزءا من ملامح الوطنية الحقة تكمن في الكفاءات العراقية التي مازالت ثابتة مستقرة في العراق مضحية بكل شيء من اجل إعادة بناء الدولة العراقية الجديدة، وفي سبيل الأداء الأفضل وفاءً للعراق وخدمةً لأبنائه، على الرغم من التهديد والتهجير والخطف والقتل التي يعترضوا يوميا لها، هذه المجموعة الكبيرة جدا هي الجديرة بالرعاية والاهتمام وعلى الدولة رعايتها رعاية تامة بل واستثنائية، إذا أرادت حقا بناء عراق جديد، لان ذلك لا يتحقق إلا باستمرار تلك الشريحة لعطائها العلمي والإنساني.

آليات التعاون الدولي في مكافحة الإرهاب

الدكتور
اسامة مرتضى(*)

المقدمة

بدء موضوع الارهاب وسبل مكافحته يشغل حيزا مهما في العلاقات الدولية في الوقت الراهن خاصة بعد احداث ١١/ايلول/٢٠٠١، بيد ان ذلك لا يلغي ان الموضوع لم يكن مثار اهتمام من قبل الدول والمنظمات الحكومية وغير الحكومية. لذا فان المجتمع الدولي دأب على صياغة مجموعة من اليات التعاون والتنسيق لاجل مواجهة التحدي المتمثل بخطر الارهاب ،والذي لم يعد يهدد دولة بعينها دون اخرى بل اخذ يعرف اليوم بالارهاب العابر للقارات والارهاب المتعدد الجنسيات . ومن هنا تكمن اهمية دراسة الموضوع في التعرف على اليات التعاون الدولي لمكافحة الارهاب.

ويسعى البحث الى اثبات فرضية مفادها ان التحول الذي شهده الاهاب على صعيد العالم ككل قابله تحول دولي مماثل في مواجهته عبر المؤسسات الدولية والاقليمية وعلى وجه التحديد منظمة الامم المتحدة، ولاثبات تلك الفرضية فان البحث تضمن مايلي:

اولا:الارهاب خلفية تاريخية .

ثانياً:مفهوم الارهاب .

ثالثا:مفهوم مكافحة الارهاب.

رابعا:اليات مكافحة الارهاب.

خامسا:الأتفاقيات الدولية.

سادسا:الولايات المتحدة ومكافحة الارهاب.

(*)كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية.

ولما كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الموجه لسير نمط العلاقات الدولية فلابد من ابراز دورها في صياغة الاليات الدولية اللازمة في مواجهة الاهاب في العالم اجمع عبر القرارات الدولية واللجان التابعة للامم المتحدة المنشئة لهذا الغرض.

خلاصة القول فانه يمكن القول ان الارهاب وبكافه مخرجاته يشكل قطبا دوليا مهما ومؤثر في سير العلاقات الدولية ومما يعيق النمو والتطور والاستقرار الاقتصادي من جهة ووصم حركات التحرر الوطني والمقاومة بالارهاب.

اولا:الارهاب خلفية تاريخية :

إن الإرهاب مدرج على جدول الأعمال الدولي منذ عام ١٩٣٤، عندما اتخذت عصبة الأمم أول خطوة كبرى نحو تجريم هذا البلاء بمناقشتها مشروع اتفاقية لمنع الإرهاب والمعاقبة عليه. وعلى الرغم من أن الاتفاقية قد اعتمدت في نهاية المطاف عام ١٩٣٧، فإنها لم تدخل حيز النفاذ قط.

ومنذ عام ١٩٦٣، وضع المجتمع الدولي ١٣ صكاً قانونياً عالمياً لمنع الأعمال الإرهابية. وتلك الصكوك أُعدت تحت إشراف الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة والوكالة الدولية للطاقة الذرية وباب الاشتراك فيها مفتوح أمام جميع الدول الأعضاء. وفي عام ٢٠٠٥ أدخل المجتمع الدولي أيضاً تغييرات جوهرية على ثلاثة من هذه الصكوك العالمية للمحاسبة تحديداً على التهديد الذي يمثله الإرهاب؛ وفي ٨ تموز/يوليه من ذلك العام اعتمدت الدول تعديلات لاتفاقية الحماية المادية للمواد النووية، وفي ١٤ تشرين الأول/أكتوبر وافقت على كل من بروتوكول عام ٢٠٠٥ الملحق باتفاقية قمع الأعمال غير المشروعة ضد سلامة الملاحة البحرية وبروتوكول عام ٢٠٠٥ الملحق ببروتوكول قمع الأعمال غير المشروعة ضد سلامة المنصات الثابتة الموجودة على الجرف القاري.

وتتفاوض الدول الأعضاء حالياً على معاهدة دولية رابعة عشرة، هي مشروع اتفاقية شاملة بشأن الإرهاب الدولي. وهذه الاتفاقية من شأنها أن تكمل الإطار القائم الذي تمثله

الصكوك الدولية المناهضة للإرهاب ومن شأنها أن تستفيد من المبادئ التوجيهية الأساسية الموجودة فعلاً في الاتفاقيات التي أُبرمت مؤخراً بشأن مكافحة الإرهاب، وهذه المبادئ هي: أهمية تجريم الجرائم الإرهابية، وجعلها خاضعة للعقاب بموجب القانون، والدعوة إلى مقاضاة المرتكبين أو تسليمهم؛ والحاجة إلى إزالة التشريعات التي تنص على استثناءات من هذا التجريم استناداً إلى أسس سياسية أو فلسفية أو عقائدية أو عرقية أو إثنية أو دينية أو استناداً إلى أسس مماثلة؛ ودعوة قوية لاتخاذ الدول الأعضاء تدابير منع الأعمال الإرهابية؛ والتشديد على ضرورة تعاون الدول الأعضاء وتبادلها المعلومات وتزويد كل منها الدول الأخرى بأقصى قدر من المساعدة فيما يتعلق بمنع الأعمال الإرهابية والتحقيق فيها وملاحقتها قضائياً[1].

ثانياً:مفهوم الارهاب:

ان عمليات ١١/ ايلول تعد تطوراً في العمليات (الارهابية) التي سميت بـ (الارهاب الجديد) الذي يمثل الجيل الثالث في تطور (الارهاب) بوصفه حقيقة ثابتة على مر العصر الحديث، فالجيل الاول كان عبارة عن موجات ذات طابع قومي متطرف ، اجتاحت اوربا منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، وكان القائمون (بالارهاب) في الاغلب من المواطنين المتشددين ،الذين يعتمدون على اسلحة خفيفة ، اما الجيل الثاني فهو عبارة عن موجات ذات طابع ايديولوجي في أثناء الحرب الباردة ،وكانت في جوهرها أداة من ادوات ادارة الصراع بين الشرق والغرب' إذ نشأت الحركات اليسارية والألوية الحمراء في ايطاليا واليابان، ومارست شكلاً من العنف الايدولوجي ضد مجتمعاتها، أما الجيل الثالث من اعمال العنف او (الارهاب) فهو يتسم بخصائص متميزة ومختلفة عن العقود السابقة من حيث التنظيم والتسليح والاهداف ، فمن حيث التنظيم تتسم بطابع النمط العابر للجنسيات، إذ يضم أفراداً ينتمون الى جنسيات مختلفة ، وتجمعهم ايدولوجية دينية او سياسية محددة كما تنتقل هذه الجماعات من مكان الى اخر،حتى يكون من الصعب متابعتها او

[1] أحمد ابراهيم: "ظاهرة الصراع الدولي في عالم ما بعد الحرب الباردة "، مجلة السياسة الدولية ،القاهرة ،مركز الأهرام للدراسات والبحوث الأستراتيجية،العدد(١٠٩)،١٩٩٢،ص،ص ٤٥-٤٦ .

تعقبها او استهدافها ، اما من حيث الاهداف نجد أن تلك الجماعات تجمعها قضايا قومية موحدة، على الرغم من الاختلاف في الجنسيات، ومن ثم توقع بالطرف المعني خسائر مادية وبشرية ، وتمتلك منظومات مسلحة متطورة نوعاً ما ولها القدرة على التاقلم مع تطور التكنولوجيا الحديثة بأشكالها المتنوعة؛ لان ذلك معناه الدقة في تنفيذ العمليات وتحقيق الهدف وصعوبة استهدافهم من ناحية اخرى.

بل ان البعض يصف (الارهاب الجديد) بالقطب الدولي الجديد لانه لم يعد مجرد احداث او عمليات اقليمية او هامشية او عرضية ، بل انه اضحى حقيقة مركزية في النظام الدولي. إلا ان هذاالقطب الجديد خصائصه تختلف عن خصائص القطب التقليدي في عدم امتلاكه لاقليم جغرافي[٢].

ثالثا:مفهوم مكافحة الارهاب:

إن مفهوم مكافحة الإرهاب، يتضمن مجموعة من النشاطات تتجاوز ذات هذا المفهوم، وتشمل الاستخدام الفعال للدبلوماسية، وتطبيق القانون، ووسائل المراقبة المالية، والقوة العسكرية، وجمع الاستخبارات، كما يقول بول آر. بيلار، ضابط الاستخبارات القومية للشرق الأدنى وجنوب آسيا في المجلس القومي للاستخبارات. ويضيف" ان كل أداة من أدوات مكافحة الإرهاب هي صعبة الاستعمال. ومن الصعب أكثر استخدام جميع هذه الأدوات معاً بشكل جيد. إلاّ أن استخدام جميعها في الحرب ضد الإرهاب يبقى أمراً حاسماً ".

لكل أداة تستخدم في الحرب ضد الإرهاب ما تساهم به. ولها أيضا حدود مهمة لما يمكنها إنجازه. وهكذا، تتطلب الحرب ضد الإرهاب استعمال جميع الأدوات المتوفرة، لأن ما

[2] محمد سيد : "هل تغير العالم حقاً" ، ملفات الاهرام ،القاهرة ، مركز الاهرام للدراسات والبحوث والاستراتيجية ، ٢٠٠٢.

من واحدة منها تستطيع بمفردها القيام بالعمل. وبما ان الإرهاب بالذات متعدد الأوجه، فعلى الحملة ضده أن تكون متعددة الأوجه أيضا[3].

تشمل الحرب ضد الإرهاب نشاطات أكثر بكثير مما يطلق عليه "مكافحة الإرهاب"، حتى قبل ان تجعل هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ من هذا الموضوع قضية اهتمام شامل، على ما يبدو بالنسبة للولايات المتحدة. إن تعبير "مكافحة الإرهاب"، يشمل جهود العديد من الدوائر والوكالات الحكومية المختلفة. فالحرب ضد الإرهاب تتضمن العمل الدبلوماسي الهادف إلى تنسيق جهود الحكومات الأجنبية حول الموضوع، وتعني أعمال التحقيق من قبل مختلف الهيئات المعنية بتطبيق القانون، وما يتعلق بها من إجراءات قانونية لمحاكمة الجرائم الإرهابية. وتشمل أيضا إجراءات الهيئات المالية لمنع تمويل الإرهابيين، وكما نرى من بدء العمليات العسكرية الحليفة في أفغانستان في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، فإن الحرب ضد الإرهاب تعني أحياناً اللجوء إلى القوة المسلحة .يشكل جمع المعلومات من قبل وكالات الاستخبارات جزءاً مهماً آخر من الحرب ضد الإرهاب. ان جميع هذه الأعمال الهادفة إلى مواجهة العمليات الإرهابية تكمل الإجراءات الدفاعية العديدة التي اتخذها القطاع الخاص، كما الدوائر الحكومية على مختلف المستويات، والمصممة للحماية ضد الهجمات الإرهابية[4].

رابعا:اليات مكافحة الارهاب[5]:

١- الدبلوماسية :

ان الدبلوماسية أداة حاسمة في محاربة الإرهاب الدولي الحديث الذي لا يَعرف، من نواح عديدة، أي حدود. تنشر المجموعات الإرهابية سطوتها بصورة متزايدة حول الكرة

---

[3] فوزي البشتي:الإرهاب الأمريكي في التاريخ: (طرابلس:المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٧) ص ص ١٨٧ ـ ١٩١.

[4] محمود محمد: "الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر تحولات في الفكر والسياسة" ، مجلة السياسة الدولية ، القاهرة ، مركز الاهرام للدراسات والبحوث الاستراتيجية ،العدد (١٤٧)،٢٠٠٢ . ص ٦٠.

[5] بول آر. بيلار:" أدوات مكافحة الإرهاب"، اجندة السياسة الخارجية الامريكية،مجلة الكترونية تصدر عن وزارة الخارجية الامريكي، حزيران،٢٠٠١.

الأرضية. تتطلب محاربة شبكة إرهابية كتنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن جهوداً وتعاونا من قبل دول عديدة لأن الشبكة تعمل في العديد من الدول. تُعتبر الدبلوماسية الفعالة المضادة للإرهاب بمثابة اللحمة المطلوبة لتماسك جميع هذه الجهود بشكل موحد بدلاً من أن تُشكل أجزاءاً غير مترابطة. ان بناء تحالف ضد الإرهاب اثر هجمات ١١ أيلول/سبتمبر يُمثل فقط أحدث وأبرز تعبير عن حاجة الولايات المتحدة إلى مساعدة شركاء أجانب في مقاومة حتى تلك التهديدات الموجهة تحديداً ضد الولايات المتحدة.

٢- القانون الجنائي:

كانت مقاضاة الإرهابيين الفرديين في المحاكم الجنائية إحدى أهم الأدوات التي تم الاعتماد عليها بدرجة اكبر ضد الإرهابيين. شددت الولايات المتحدة بشكل خاص على ذلك علاوة على سوق الإرهابيين للعدالة لمحاكمتهم على جرائمهم وهذا مبدأ معتمد منذ فترة طويلة في السياسة الأميركية المضادة للإرهاب. لعبت المحاكم غير الأميركية أيضا أدواراً مهمة، واستعملت محكمة اسكتلندية عقدت جلساتها في هولندا لمحاكمة متهمين بتفجير طائرة بان ام في رحلتها رقم ١٠٣ عام ١٩٨٨.

٣- وسائل المراقبة المالية:

ان التمويل الذي مكّن بالتأكيد مرتكبي هجمات أيلول/سبتمبر من التدريب لعمليتهم، ركز الأضواء على جهود منع وصول الأموال للإرهابيين. وتستخدم الولايات المتحدة نوعين من وسائل المراقبة المالية لمحاربة الإرهاب: تجميد الأرصدة العائدة للإرهابيين كأفراد، وكمجموعات إرهابية، وللدول الراعية لهم، ومنع تزويد الدعم المادي للإرهابيين. كما ان المال هو أيضاً موضوع أحدث معاهدة متعددة الأطراف حول الإرهاب: أي معاهدة منع التمويل للإرهاب التي طُرحت للمصادقة عليها في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠.

يواجه قطع التمويل عن الإرهابيين تحديين رئيسيين. أحدهما هو انه رغم أهمية الدعم المالي لخاطفي الطائرات التي ارتكبت هجمات أيلول/سبتمبر، فإن معظم النشاطات الإرهابية لا تتطلب تمويلا واسعاً. فهي تحتاج إلى مال أقل مما يستعمل في عمليات الاتجار بالمخدرات أو الاتجار المحظور بالأسلحة، وبعض النشاطات الإجرامية الأخرى التي تنفذ عبر الحدود الدولية. والتحدي الآخر هو ان من الصعب جدا تتبع أثر تدفق أموال الإرهاب. فاستخدام حسابات بأسماء مزورة، واستعمال وسطاء ماليين، والمزج بين الأموال المخصصة لأغراض مشروعة وغير مشروعة هو الأسلوب المتبع. وتنتقل كميات كبيرة من الأموال عبر ترتيبات غير رسمية خارج أي نظام مصرفي رسمي.

٤- القوة العسكرية:

جعلت الأسلحة الحديثة التي توجه بدقة من القوة العسكرية أداة أقل إيذاء وأكثر فائدة ضد الإرهاب، لكن استخدامها على نحو ملائم لا يزال نادراً .استعملت عدة دول القوة العسكرية بدرجات مختلفة من النجاح خلال العقود الثلاثة الماضية لإنقاذ الرهائن. ومن فترة وجيزة استُعملت القوة العسكرية للرد على هجمات الإرهابيين حين استعملت الولايات المتحدة قواتها العسكرية للرد على الهجمات الإرهابية التي نفذتها ليبيا عام ١٩٨٦ والعراق عام ١٩٩٣، وأسامة بن لادن عام1998 .

ان ضربة عسكرية هي أكثر الإجراءات الممكنة شدة ضد الإرهابيين ولذلك فهي تعتبر أكثر مظاهر التصميم دراماتيكية على دحر الإرهابيين. ولكن التقييد الرئيسي على استعمال القوة العسكرية فهو ان المرافق والتجهيزات الإرهابية، مقارنة بالمرافق والتجهيزات العسكرية التقليدية منها، لا تشكل أهدافاً كبيرة أو ثابتة يمكن تدميرها فوراً. وحيث أن التهديد الإرهابي الآن يصدر عن مجموعات أكثر منه عن دول، فإن أعداد الأهداف الممكن ضربها أصبحت أقل، سواء لتدمير قدرات الإرهابيين أو لردع الأعمال الإرهابية في المستقبل.

إن العمليات العسكرية الأميركية والبريطانية التي بدأت في أفغانستان في تشرين الأول/أكتوبر تجاوزت أي استعمال سابق للقوة العسكرية ضد الإرهاب، لكونها لا تشكل ردا مؤثراً فحسب، بل جهداً للقضاء على المصدر الأساسي والملاذ الآمن لشبكة إرهابية. إن هدف ومدى هذه العمليات يوفران لها إمكانية إيقاع أثر أكبر بكثير على الإرهاب من أي استخدام سابق للقوة العسكرية. سوف يعتمد النجاح في أفغانستان على التطورات السياسية إضافة إلى العسكرية من تاريخ ذلك البلد الذي سوف يكتب. وحتى عند تحقيق النجاح في أفغانستان فإن العمليات العسكرية هناك لا تصيب مباشرة فصائل شبكة القاعدة القائمة خارج أفغانستان، وبالتالي يجب ان تشكل هذه العمليات العسكرية جزءاً من جهد أوسع ضد الإرهاب يوجه ضد هذه الفصائل.

٥-الاستخبارات:

يُعتبر جمع وتحليل الاستخبارات أقل العمليات ظهوراً، لكنه من بعض الأوجه أهم الأدوات ضد الإرهاب. ويعتقد عن حق بأنه "خط الدفاع الأول" ضد الإرهاب .ولكن لهذه الأداة أيضا حدودا خاصة بها أهمها شحة توفر الاستخبارات التكتيكية المتخصصة جداً المطلوبة لإفشال مؤامرات الإرهابيين. فمن الصعب جمع هذا النوع من المعلومات التي تبرر القيام برد حيث أن ذلك يتطلب اختراق مجموعات صغيرة تكون كثيرة الشك بمن هم خارجها وحريصة جداً على سلامة عملياتها.

ان معظم الاستخبارات حول المجموعات الإرهابية مجزأة وغامضة وغالباً ما يكون مشكوك في مصداقيتها. لذلك فان تحليلها يشكل تحدياً يماثل تقريباً تحدي جمعها. ان مساهمة الاستخبارات لا تنحصر بتزويد صور متكاملة للعمليات الإرهابية المتوقعة، بل بالأحرى بتزويد إحساس استراتيجي اكثر حول التهديدات الأعظم التي تطرحها المجموعات، وحول الأوقات والمناطق التي تمثل أعظم الأخطار، وحول أنواع الأهداف والأساليب التكتيكية المحتمل جداً ان تستعمل.

تعني للقيود على استخدام الاستخبارات ضد الإرهاب انه يجب عدم الاعتماد عليها كمؤشر مضمون حول وجود أو عدم وجود تهديدات، لكن التوجيه الذي تزوده هذه الاستخبارات في نطاق مواجهة أخطار الإرهاب لا يقدر بثمن، بدءاً من اتخاذ قرارات حول سلامة المواقع إلى سياسات اشمل حول تخصيص موارد ضد الإرهاب، وكما أن الاستخبارات أمر أساسي لعمل جميع الأدوات الأخرى المستخدمة ضد الإرهاب.

عموما من المفترض ان يتم بشكل جيد تنسيق عمل جميع الأدوات التي تمّ بحثها هنا . فإذا استعملت سوية بحكمة فإنها ستولد بكليتها أعظم من مجموع أجزائها. وإذا لم تكن جيدة التنسيق يمكن ان تولد أهدافاً متناقضة. من المحتمل ان يُعيق تطبيق القانون الجنائي عملية جمع الاستخبارات. فمثلاً، من المحتمل ان يعطل العمل العسكري أما عملية تطبيق القانون أو عملية جمع الاستخبارات.

وقد شددت الدول الأعضاء، في استراتيجية الأمم المتحدة العالمية لمكافحة الإرهاب، التي اعتمدتها الجمعية العامة في ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، على أهمية الصكوك الدولية القائمة لمكافحة الإرهاب وذلك بتعهدها بالنظر في أن تصبح أطرافاً فيها دون تأخير وبتنفيذها أحكامها.

خامسا:الأتفاقيات الدولية :

فيما يلي موجز للاتفاقيات والبروتوكولات الرئيسية الثلاثة عشر التي تتناول الإرهاب (وللاطلاع على النص الكامل لأي اتفاقية انظر: مجموعة معاهدات الأمم المتحدة، الاتفاقيات المتعلقة بالإرهاب)[٦]:

[6] لمزيد من التفصيل :انظر الصكوك الدولية لمكافحة الارهاب: صفحة مكافحة الارهاب. www.UN.org.

١. اتفاقية عام ١٩٦٣ الخاصة بالجرائم وبعض الأفعال الأخرى المرتكبة على متن الطائرات "اتفاقية طوكيو" — بشأن أمن الطيران

- تنطبق على الأعمال التي تهدّد أمن الطيران؛
- تأذن لقائد الطائرة بفرض تدابير معقولة لحماية أمن الطائرة، منها تقييد حركة أيّ شخص يرى قائد الطائرة أنه ارتكب أو بصدد ارتكاب عمل يهدّد ذلك الأمن؛
- تقضي بأن تقبض الدول المتعاقدة على المجرمين وأن تعيد إلى قائد الطائرة الشرعي سيطرته عليها.

٢. اتفاقية سنة ١٩٧٠ لمكافحة الاستيلاء غير المشروع على الطائرات* ("اتفاقية لاهاي") بشأن اختطاف الطائرات:

- تجرّم قيام أيّ شخص على متن رحلة جوية بـ"الاستيلاء غير المشروع على تلك الطائرة بواسطة العنف أو التهديد باستخدام العنف أو أيّ شكل آخر من أشكال التخويف، والسيطرة عليها"، أو محاولة ارتكاب تلك الأعمال؛
- تقضي بأن تجعل الدول الأطراف اختطاف الطائرات جريمة يعاقب القانون عليها بـ "عقوبات قاسية"؛
- تقضي بأن تقبض الدول المتعاقدة على المجرمين وأن تسلمهم أو تقدمهم إلى القضاء؛
- تقضي بأن تساعد الدول بعضها البعض في سياق سير القضايا الجنائية المقدمة في إطار الاتفاقية.

٣. اتفاقية سنة ١٩٧١ لقمع الأعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني* ("اتفاقية مونتريال") — بشأن أعمال التخريب الموجهة ضد الطيران، مثل الهجمات بالقنابل خلال الرحلات الجوية

- تجرّم قيام أيّ شخص بقصد وبشكل غير مشروع بفعل عنيف ضد شخص آخر على متن طائرة في الجو، إذا كان من المرجح أن يهدّد ذلك الفعل سلامة الطائرة؛ أو

وضع جهاز تفجيري على متن طائرة؛ أو محاولة القيام بذلك؛ أو الاشتراك مع شخص يقوم بأفعال من ذلك النوع أو يحاول القيام بها؛

- تقضي بأن تعتبر الدول الأطراف في الاتفاقية تلك الأفعال جرائم يفرض القانون على مرتكبيها "عقوبات قاسية"؛
- تقضي بأن تقبض الدول المتعاقدة على المجرمين وأن تسلمهم أو تقدّمهم إلى القضاء؛

٤. اتفاقية سنة ١٩٧٣ لمنع الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص المتمتعين بحماية دولية، بمن فيهم الموظفون الدبلوماسيون، والمعاقبة عليها — بشأن الهجمات على كبار المسؤولين الحكوميين والدبلوماسيين.

- تعرّف "الأشخاص المتمتعين بحماية دولية" بأنهم رئيس الدولة، ووزير الشؤون الخارجية، وممثل الدولة أو المنظمة الحكومية الرسمي الذي يحق له ولأسرته التمتع بالحماية في دولة أجنبية؛
- تقضي بأن تجرّم كل دولة طرف الاعتداء على شخص يتمتع بحماية دولية، بالقتل عمداً، أو الاختطاف، أو الهجوم على شخصه أو المسّ بحريته، أو ارتكاب هجمات خطرة على أماكن عمله الرسمية، أو على مراسلاته الخاصة، أو وسائل تنقله، أو التهديد بالقيام بتلك الهجمات أو محاولة القيام بها، وبأن تجعل تلك الأفعال مستوجبة "لعقوبات مناسبة تأخذ في الاعتبار طبيعتها الخطرة" واعتبار من يهدّد بتلك الهجمات أو يحاول القيام بها شريكاً في تلك الاعتداءات.

٥. اتفاقية سنة ١٩٧٩ لمناهضة أخذ الرهائن ("اتفاقية مناهضة أخذ الرهائن")

- تنص على أنّ "كل شخص يأخذ شخصاً آخر رهينة أو يحتجزه ويهدّده بالقتل أو الأذى أو الاعتقال بهدف إكراه شخص ثالث، سواء الدولة أو أيّ منظمة حكومية دولية، أو أيّ شخص طبيعي أو قانوني أو أيّ مجموعة من الأشخاص، على اتخاذ

إجراء أو التخلّي عن هذا الإجراء بوصفه شرطاً صريحاً أو ضمنياً لتحرير الرهينة، يكون مرتكباً لجريمة أخذ الرهائن بالمعنى المنصوص عليه في هذه الاتفاقية".

٦. اتفاقية سنة ١٩٨٠ للحماية المادية للمواد النووية ("اتفاقية المواد النووية") — بشأن حيازة المواد النووية واستخدامها بشكل غير مشروع

- تجرّم حيازة المواد النووية، واستخدامها، ونقلها، وسرقتها، بشكل غير مشروع، وكذلك التهديد باستخدام المواد النووية للتسبب في الموت، أو إحداث ضرر فادح، أو خسائر كبيرة في الممتلكات.
- التعديلات التي أُدخلت على اتفاقية الحماية المادية للمواد النووية
  - إلزام الدول الأطراف قانوناً بحماية المرافق والمواد النووية عند استعمالها محلياً للأغراض السلمية وتخزينها ونقلها؛
  - النص على توسيع التعاون بين الدول فيما يتعلق بسرعة اتخاذ التدابير لتحديد مواقع المواد النووية المهرّبة واسترجاعها، والتخفيف من أيّ نتائج إشعاعية أو تخريب، ومنع الجرائم ذات الصلة ومكافحتها.

٧. بروتوكول سنة ١٩٨٨ المتعلق بقمع أعمال العنف غير المشروعة في المطارات التي تخدم الطيران المدني الدولي،التكميلي لاتفاقية قمع الأعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني*.

- يوسّع نطاق أحكام اتفاقية مونتريال (انظر البند ٣ أعلاه) ليشمل الأعمال الإرهابية في المطارات التي تخدم الطيران المدني الدولي.

٨. اتفاقية سنة ١٩٨٨ لقمع الأعمال غير المشروعة الموجّهة ضد سلامة الملاحة البحرية — بشأن الأعمال الإرهابية على متن السفن

- تضع نظاماً قانونياً ينطبق على الأعمال الموجّهة ضد الملاحة البحرية الدولية شبيه بالنظام الذي وُضع للطيران المدني الدولي.
- تجرّم قيام شخص باحتجاز سفينة والسيطرة عليها بشكل غير مشروع، أو التهديد، أو الترهيب، أو القيام بأعمال عنف ضد شخص على متن سفينة، إذا كان من المرجح أن يهدّد ذلك العمل سلامة ملاحة السفينة؛ أو وضع أجهزة أو مواد تفجيرية على متن سفينة؛ أو أيّ أعمال أخرى تهدّد سلامة السفن.
- بروتوكول سنة ٢٠٠٥ لاتفاقية قمع الأعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الملاحة البحرية
  - يجرّم استخدام السفن كأجهزة للقيام بأعمال إرهابية؛
  - يجرّم استخدام السفن لنقل مختلف المواد مع العلم بغرض استخدامها للتسبب في الموت أو في إصابات بالغة أو في أضرار فادحة، أو التهديد باستخدامها لتلك الأغراض؛
  - يجرّم استخدام السفن لنقل أشخاص ارتكبوا أعمالاً إرهابية؛
  - يضع إجراءات تحكم تفتيش سفينة يُشتبه في ارتكابها جريمة في إطار الاتفاقية.

٩. بروتوكول سنة ١٩٨٨ المتعلق بقمع الأعمال غير المشروعة الموجّهة ضد سلامة المنشآت الثابتة الموجودة على الجرف القاري — والمتعلق بالأعمال الإرهابية على المنشآت الثابتة في عرض البحر:

- يُنشئ نظاماً قانونياً ينطبق على الأعمال الموجّهة ضد المنشآت الثابتة الموجودة على الجرف القاري، مشبه للنظام الذي وُضع لحماية الطيران المدني الدولي.
- بروتوكول سنة ٢٠٠٥ للبروتوكول المتعلق بقمع الأعمال غير المشروعة الموجّهة ضد سلامة المنشآت الثابتة الموجودة على الجرف القاري

- يكيّف التغييرات التي أُدخلت على اتفاقية قمع الأعمال غير المشروعة الموجّهة ضد سلامة الملاحة البحرية، وفق سياق المنشآت الثابتة الموجودة على الجرف القاري.

١٠. اتفاقية سنة ١٩٩١ لتمييز المتفجرات البلاستيكية بغرض كشفها — تنص على التمييز الكيميائي لتيسير كشف المتفجرات بلاستيكية، لمكافحة تخريب الطائرات، مثلاً

- وُضعت لمراقبة استخدام المتفجرات البلاستيكية والحد منه (جرى التفاوض بشأنها في أعقاب تفجير رحلة بانام ١٠٣ بالقنابل سنة ١٩٨٨)؛
- الأطراف ملزمة بكفالة مراقبة المتفجرات غير المميزة، في إقليمها، من قبيل المتفجرات التي لا تحتوي على أحد عوامل الكشف الواردة في مرفق الاتفاقية التقني؛
- على كل طرف، عموماً، واجبات منها اتخاذ التدابير الفعّالة لحظر ومنع صناعة المتفجرات البلاستيكية غير المميزة؛ ومنع دخول المتفجرات البلاستيكية غير المميزة إلى إقليمها وخروجها منه؛ وممارسة مراقبة صارمة وفعّالة على حيازة ونقل المتفجرات غير المميزة، التي صُنعت أو استوردت قبل سريان الاتفاقية؛ وكفالة تدمير كامل المخزون من المتفجرات غير المميزة عدا ما هو في حوزة الشرطة أو الجيش، أو استهلاكه، أو تمييزه أو إبطال مفعوله، في غضون ثلاث سنوات؛ واتخاذ التدابير اللازمة لكفالة تدمير المتفجرات غير المميزة التي هي في حوزة الجيش أو الشرطة، أو استهلاكها، أو تمييزها، أو إبطال مفعولها، في غضون ١٥ سنة؛ وكفالة القيام في أقرب وقت ممكن بتدمير أيّ متفجرات غير مميزة صُنعت بعد تاريخ سريان الاتفاقية بالنسبة إلى الدولة المعنية.

١١. الاتفاقية الدولية لقمع الهجمات الإرهابية بالقنابل، لسنة ١٩٩٧

- تُنشئ نظاماً قضائياً عالمياً يشمل استخدام المتفجرات وغيرها من الأجهزة الفتاكة بشكل مقصود وغير مشروع في مختلف الأماكن العامة أو ضدها، بغرض القتل أو إلحاق إصابات بالغة، أو بغرض التسبب في دمار واسع النطاق بالأماكن العامة.

١٢. الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب، لسنة ١٩٩٩

- تقضي بأن تتخذ الأطراف خطوات لمنع ومكافحة تمويل الإرهابيين، بشكل مباشر أو غير مباشر، عن طريق جماعات تدّعي السعي إلى غايات خيرية أو اجتماعية أو ثقافية، أو تشجع أنشطة غير مشروعة مثل الاتجار بالمخدرات أو تهريب الأسلحة؛
- تُلزم الدول بتحميل من يموّلون الإرهاب مسؤولية جنائية، ومدنية، وإدارية؛
- تنص على تحديد الأنشطة الإرهابية، وتجميد ومصادرة الأموال الموجّهة إليها، وكذلك تقاسم الأموال المصادرة مع دول أخرى، حسب الحالة. ولم تعد الأسرار المصرفية مبرراً كافياً للامتناع عن التعاون.

١٣. الاتفاقية الدولية لقمع أعمال الإرهاب النووي لسنة ٢٠٠٥

- تشمل مجموعة كبيرة من الأفعال والأهداف الممكنة، بما في ذلك منشآت الطاقة النووية، والمفاعلات النووية؛
- تشمل التهديد بارتكاب تلك الجرائم ومحاولة ارتكابها والاشتراك فيها؛
- تنص على تسليم أو مقاضاة مرتكبي تلك الجرائم؛
- تشجع الدول على التعاون في منع الهجمات الإرهابية بتبادل المعلومات والتعاون في سياق التحقيقات الجنائية وإجراءات تسليم المطلوبين؛
- تتناول كلاً من حالات الأزمات (مساعدة الدول على حل الأزمات) والحالات ألتي تلي الأزمات (تأمين المواد النووية عن طريق الوكالة الدولية للطاقة الذرية).

- (ملاحظة: لم تدخل هذه الاتفاقية حيز النفاذ بعد. وقد اعتُمدت في نيسان/أبريل ٢٠٠٥، وفُتحت للتوقيع في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥ وستدخل حيز النفاذ عندما تصدّق عليها ٢٢ دولة عضواً. وإلى حد ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، تلقّت ١٠٧ توقيعات و٦ تصديقات: الجمهورية التشيكية، وسلوفاكيا، وكينيا، ولاتفيا، والمكسيك، والنمسا.)

سادسا:الولايات المتحدة ومكافحة الارهاب:

لما كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الموجهة لسير العلاقات الدولية فانه من المنطقي ان تكون من الدول الرئيسة في مواجهة الارهاب والتحديات الناجمة من العمليات الارهابية تخول المادة الـ ٤١١ من قانون الوطنية الأميركي لعام ٢٠٠١ وزير الخارجية، بالتشاور مع زير العدل أو بناء على طلبه، تصنيف بعض المنظمات على أنها إرهابية لأغراض الهجرة. ويعرف هذا التخويل باسم التخويل الخاص بقائمة الاستبعاد للمنظمات والجماعات الإرهابية. ومن شأن تصنيف قائمة الاستبعاد للمنظمات والجماعات الإرهابية أن يدعم المجهودات المتعلقة بأمن الوطن عن طريق تسهيل قدرة الحكومة الأميركية لاستبعاد الأجانب الذين ينتمون إلى الكيانات المدرجة على القائمة ومنعهم من دخول الولايات المتحدة[٧].

***معايير التصنيف**

يمكن إدراج منظمة ما على اللائحة إذا ما وجد وزير الخارجية أن المنظمة[٨]:

-ترتكب نشاطا إرهابيا أو تحرض على ارتكابه، في ظل ظروف تدل على نية للتسبب في الوفاة أو الإصابة الجسدية الخطيرة.

-تحضر لنشاط إرهابي أو تخطط له .

-تجمع معلومات عن الأهداف المحتملة للنشاط الإرهابي، أو

-تقدم دعما ماديا لنشاط إرهابي إضافي.

ويعني النشأط الإرهابي، وفقا لنصوص القانون، أي نشاط مخالف للقانون الأميركي أو قوانين الأماكن التي ارتكب فيها هذا النشاط الذي يضم: اختطاف الطائرات، والسفن، والمركبات وغيرها أو القيام بأعمال تخريبية ضدها، أو أخذ الرهائن أو القيام بهجوم عنيف على شخص محمي دوليا، والاغتيال، أو استعمال المواد البيولوجية، أو الكيميائية، أو الأسلحة أو الأجهزة النووية، أو المواد المتفجرة، أو الأسلحة النارية، أو غيرها من الأسلحة الخطيرة (ما عدا استعمالها لمجرد الكسب المالي الشخصي لا غير)، بغرض تعريض أمن شخص أو

---

[7] انظر د. فكرت نامق العاني : "الولايات المتحدة الأمريكية والارهاب" ، مجلة قضايا سياسية ، كلية العلوم السياسية ، جامعة النهرين ،العدد(٢)،٢٠٠٢ . ص ص ٤١ –٤٣ .

[8] لمزيد من التفصيل انظر: بيان الحقائق الصادر عن وزارة الخارجية الامريكية : "قائمة المنظمات الإرهابية المستبعدة التي يخولها قانون الوطنية الأميركي" ،الصادر بتاريخ ٢٤/ايار ٢٠٠٤.

أكثر من شخص للخطر بشكل مباشر أو غير مباشر أو التسبب في خسائر مادية جسيمة. كما يسترعي التعريف الانتباه أيضا إلى أي تهديد، أو محاولة أو التآمر للقيام بأي من هذه الأنشطة.

***عملية التصنيف**

لدى وزير الخارجية صلاحية إدراج المنظمات على لائحة المنظمات الإرهابية المستبعدة، بالتشاور مع وزير العدل أو بناء على طلبه. وبمجرد التعرف على أي منظمة تثير القلق أو بمجرد تلقي طلب من وزير العدل لإدراج منظمة ما، تعمل وزارة الخارجية عن كثب مع وزارة العدل وأجهزة المخابرات لإعداد سجل إداري مفصل، وهو عبارة عن جمع معلومات عادة ما يحتوي على معلومات سرية وغير سرية تبين أن المعايير القانونية للتصنيف قد روعيت. وبمجرد أن يكتمل السجل الإداري، يُرْسَل إلى وزير الخارجية الذي يقرر بدوره ما إذا كان سيتم إدراج المنظمة على القائمة. ويتم نشر الأسماء المدرجة على القائمة في السجل الفدرالي.

***التبعات التي يترتب عليها التصنيف**

النتائج القانونية:

إن الأشخاص الأجانب الذين يقدمون الدعم أو ينتمون إلى منظمات مدرجة على قائمة الاستبعاد قد يحرمون من الدخول إلى الولايات المتحدة، أي أن مثل هؤلاء الأجانب قد يمنعون من دخول الولايات المتحدة أو، إذا كانوا بالفعل داخل الأراضي الأميركية، قد يتم طردهم تحت ظروف معينة. ومن الأمثلة على النشطات التي قد تحرم الأجنبي من الدخول بسبب إدراج منظمة ما على قائمة الاستبعاد ما يلي:

- عضويته في منظمة مدرجة على القائمة؛
- قيام الشخص الأجنبي باستخدام منصبه العالي داخل أي بلد لإقناع الآخرين بمساندة منظمة مدرجة على قائمة الاستبعاد؛
- طلب الحصول على أموال أو أشياء أخرى ذات قيمة لمنظمة مدرجة على القائمة.

الطلب من أي فرد الانضمام إلى عضوية منظمة ما مدرجة على القائمة؛
ارتكاب أي عمل يعرف الأجنبي أو يفترض أنه يعرف أن من شأنه توفير الدعم المادي، بما في ذلك توفير السكن الآمن، والنقل، والاتصالات، والأموال، وتحويل الأموال أو المواد الأخرى من أجل الربح المالي، والوثائق أو الهوية المزيفة، والأسلحة (بما فيها الأسلحة الإشعاعية أو البيولوجية والكيميائية)، والمواد المتفجرة، أو التدريب لأي منظمة مدرجة على قائمة الاستبعاد.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الأشخاص يحرمون من دخول الولايات المتحدة بناء على أنواع أخرى من النشاطات الإرهابية غير مرتبطة بالمنظمات المدرجة على قائمة الاستبعاد؛ راجع البند الثامن من القانوني الأميركي

التأثيرات الأخرى:

١. منع التبرّعات أو المساهمات إلى المنظمات المدرجة على القائمة.
٢. رفع درجة الوعي العام والمعرفة حول المنظمات الإرهابية.
٣. تنبيه الحكومات الأخرى إلى الهواجس الأميركية إزاء المنظمات الضالعة في الأنشطة الإرهابية.
٤. وصم المنظمات الإرهابية المدرجة على القائمةِ وعزلها.

الخلفية

قام وزير الخارجية كولن باول، وبالتشاور مع وزير العدل، بتصنيف المنظمات التالية كمنظمات إرهابية، وبذلك يتم إدراجها على قائمة المنظمات الإرهابية المستبعدة. وقد تمت إضافة عشر جماعات إلى القائمة في ٢٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤.

قائمة المنظمات الإرهابية المستبعدة:

١. لجنة المساعدة الأفغانية (المعروفة كذلك بإحياء التراث، كما تعرف أيضا بجمعية آيات الرس الإسلامية ولجنة المساعدة الأفغانية .
٢. مخابز حلويات الهاماتي
٣. الاتحاد الإسلامي

٤. المعونة
٥. مركز عسل النور
٦. الرشيد للائتمان
٧. مطبعة عسل الشفاء للصناعة والتجارة
٨. الوفاء للإغاثة الإسلامية المعروفة كذلك بمؤسسة الوفاء الإنسانية؛ وتعرف كذلك بالوفاء؛ وأيضا بمؤسسة الوفاء
٩. لواء أليكس بونكاياو
١٠. الفصيل الفوضوي للانقلاب
١١. جيش تحرير رواندا المعروف بإنتراهامو، القوات المسلحة السابقة
١٢. عصبة الأنصار
١٣. بابار خالسا الدولية
١٤. بنك التقوى المحدود (المعروف أيضا بمصرف التقوى
١٥. النجم الأسود
١٦. الحزب الشيوعي النيبالي (الماويين) المعروف أيضا بمجلس الشعب الثوري المتحد، كما يعرف أيضا بجيش التحرير الشعبي النيبالي
١٧. الجيش الجمهوري الأيرلندي الجناح المستمر المعروف أيضا بمجلس الجيش المواصل
١٨. شركة دركزنلي
١٩. جماعة حماة الدعوة السلفية (المعروفة كذلك بجماعة حماية التعاليم السلفية؛ والمعروفة كذلك بحماة الدعوة السلفية؛ والمعروفة أيضا بكتيبة الأهوال؛ كما تعرف بحماة التوكيد سلفي وتعرف أيضا بجماعة مؤيدي الاتجاه السلفي
٢٠. الحركة الإسلامية لتركستان الشرقية المعروفة أيضا بالحزب الإسلامي لتركستان الشرقية
٢١. جماعة الأول من أكتوبر لمقاومة الفاشية.
٢٢. حركة الجهاد الإسلامي
٢٣. الاتحاد الدولي للشباب السيخ.
٢٤. جيش عدن الإسلامي

٢٥. منظمة الإصلاح والتجديد الإسلامية
٢٦. جمعية التعاون الإسلامية
٢٧. جمعية المجاهدين
٢٨. الجيش الأحمر الياباني
٢٩. جيش محمد
٣٠. جيش الله
٣١. محاربو القدس
٣٢. الأشقر الطيبة
٣٣. جماعة المقاتلين الإسلامية الليبية
٣٤. قوة المتطوعين الموالين
٣٥. مكتب الخدمات
٣٦. الجماعة الإسلامية المقاتلة المغربية
٣٧. مؤسسة الندى الإدارية (المعروف كذلك بمؤسسة التقوى الإدارية
٣٨. الجيش الشعبي الجديد
٣٩. متطوعو (قاطفو) الحمضيات
٤٠. جماعة مكافحة أساليب العصابات والمخدرات
٤١. الألوية الحمراء – جناح المقاتلين للحزب الشيوعي
٤٢. مدافعو اليد الحمراء.
٤٣. جمعية إحياء التراث الإسلامية (ومكاتبها في باكستان وأفغانستان -- أما مكتبها في الكويت فهو غير مدرج على القائمة) (وتعرف كذلك بجمعية إحياء تراث المجتمع الإسلامي في القارة الإفريقية
٤٤. نواة الثوار البروليتاريين
٤٥. الجبهة الثورية المتحدة
٤٦. الجماعة السلفية للدعوة والقتال

٤٧. قوات التحالف الديمقراطي
٤٨. الكتيبة الدولية الإسلامية أو الكتيبة الدولية كما تعرف أيضا باللواء الدولي الإسلامي لحفظ السلام كما تعرف أيضا بالجيش الإسلامي لحفظ السلام
٤٩. جيش الرب للمقاومة
٥٠. عصابة البنتاغون
٥١. كتيبة الشهداء الشيشانيين ريادوس ساليخين للتخريب والاستطلاع (المعروفة كذلك بمجموعة شهداء رياض الصالحين للاستطلاع العسكري أو بكتيبة التخريب والاستطلاع شاهيدس شهداء
٥٢. الفرقة الإسلامية للغرض الخاص (وتعرف أيضا بفرقة الغرض الخاصة الإسلامية، وبالفرقة الخاصة للجهاد في سبيل لله أو الفرقة الإسلامية ذات المعنى الخاص.
٥٣. جماعة القتال التونسية أو جماعة المقاتلين التونسية
٥٤. حزب الله التركي
٥٥. جميعة أولستر للدفاع معروفة كذلك بمقاتلي أولستر من أجل الحرية
٥٦. أمة تعمير إينو المعروفة كذلك بمؤسسة البناء والتعمير أو التعمير القومي ومؤسسة إعادة البناء أو إعادة بناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأسماء .

الخاتمة:

بات واضحا ان هناك تعاونا دوليا منسقا لمكافحة الارهاب في كل بقاع العالم ، والذي يوجه ذلك التعاون هو اولايات المتحدة الامريكة بوصفها الدولة الموجهة للعلاقات الدولية وبات الدور الامريكي واضحا في مكافحة الارهاب بعد احداث ١١/ايلول، فقد سعت الولايات المتحدة للحصول على تصويت بالإجماع في مجلس الامن في ٢٨/ ايلول /٢٠٠١ للقرار رقم (١٣٧٣) الذي تم تبنيه بموجب احكام الفصل السابع من الميثاق، الذي يمنح سلطة واسعة لمجلس الامن لتنفيذ قرارات ويجعل القرار ملزماً للدول الاعضاء كافة في الامم المتحدة، واستوجب من الدول الاعضاء كافة بتحريم النشاطات المالية، لتنظيم القاعدة والمشاطرة في

المعلومات الاستخبارية، وآتخاذ إجراءات لمنع تحركات (الإرهابيين)، وهذا القرار لــه أثــر رمزي في تأمين الشرعية للمعركة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإرهاب، هذا على مستوى الأمم المتحدة أما على مستوى حلف شمال الأطلسي، فقد دعت الولايات المتحدة الدول الاعضاء التسع عشرة في الحلف إلى تطبيق أحكام المادة (٥) من معاهــدة الحلــف، وتلك هي ألمرة الأولى في تاريخ الحلف ،فبموجب تلك المادة يعد أي هجوم أتخذ ضد احــدى الدول الأعضاء هو هجوم على الدول الاعضاء كافة ويطلب من هذه الدول اتخاذ الخطــوات المناسبة بموجب الاجراءات الدستورية اما على المستوى العالمي، بدأت العروض مــن لــدن الدول للانظمام للحملة الدبلوماسية والعسكرية الأمريكية ضد (الارهاب) ، إذ اعلــن الجانــب الروسي أنه أصبح شريكاً في الحملة مع الولايات المتحدة ، ووفرت الصين معلومات تخــدم ذلك الجانب و ان العلاقات مع الهند أصبحت على نحوٍ افضل مع الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من اعتماد الاخيرة على القواعد الباكستانية في الحرب ضد افغانــستان ، فــضلاً عن الدولتين اللتين تعرضتا للهزيمة خلال الحرب العالمية الثانية (المانيا واليابان) تخلتا عــن المعوقات الداخلية، إذ بعثت المانيا بقواتها متخطية حدود حلف الناتو ، ونشرت اليابان ســفناً في المحيط الهندي بعيداً عن مياهها الإقليمية، وشاركت بقوات في (التحالف) الــدولي ضــد العراق عام ٢٠٠٣. ولاتزال الحرب العامية على الارهاب قائمة ولم تنتهي بقيادة الولايــات المتحدة الامريكية.

سياسات بناء الوعي الوطني والتجربة الديمقراطية في العراق

الدكتور
مهند علي الحسني (*)

المقدمة

تمثل سياسات بناء الوعي الوطني في الدول المتحضرة جزءً من منظومة التنشئة السياسية العامة والمدخل الأساسي لبورة الوعي الجمعي المشترك لدى ابناء الشعب الواحد بمختلف اطيافه العرقية والدينية والطائفية لذاتهم الوطنية والاساس الذي ينبثق عنه جملة من القيم والاعتبارات الوطنية كالمواطنة والمشاركة السياسية والهوية الوطنية....الخ وطبقاً لذلك تؤدي سياسات بناء الوعي الوطني ثلاثة وظائف محورية الاولى التاكيد على نقاط الاتفاق والمشتركات الوطنية بين الاطيتف المختلفة لابناء الشعب العراقي كمقدمة لتكريس فكرتي التوحد (بين ابناء الشعب الواحد) والتمايز (عن ابناء الشعوب الاخرى) لبلورة طابع معين يمثل الشخصية الوطنية التي يجب ان تكون عماد الوعي الجمعي بالذات الوطنية و الثانية العمل على صياغة وتحديث القيم والاعتبارات الوطنية وتطويرها بمرور الزمن للأرتقاء بالوعي الوطني الموحد لافراد الشعب العراقي لتأهيلهم للقيام بدورهم في عملية البناء الداخلي بأبعادها السياسية و الاقتصادية والاجتماعية وتفعيل جهودهم لتجسيد الذات الوطنية الفاعلة والمؤثرة على مستوى الفرد والجماعة و الثالثة العمل على تعزيز الحس الوطني و الشعر بالولاء و الانتماء للوطن لتشكل ساس الحصانة الوطنية للفرد و المجتمع العراقي من الاختراقات الخارجية و لتكون بدورها مدخلاً لجعل ابناء الوطن صورة مشرفة له في التاريخ من جهة و طرف له دوره الفاعل والمؤثر في الداخل والخارج في دعم قضايا البلاد المصيرية و الضغط بأتجاه تحقيق مصالحة العليا من جهة اخرى.

أن العراق وهو يعيش تجربة البناء الديمقراطي الجديد احوج ما يكون بحاجة لتبني سياسات معاصرة في بناء الوعي الوطني الجديد ليكون الاطار الاشمل الذي يحافظ على وحدة

(*) وزارة الخارجية.

الكينونة العراقية من جهة ويرتقي بها لتكون على قدر المهمة التاريخية المنتظرة و هي بنـاء عراق ديمقراطي جديد عبر تطوير الوعي الوطني بهذه الممارسة السياسية الجديـدة ، فـاذا كانت الديمقراطية بأبسط تعريفاتها حكم الشعب للشعب فأن الوعي في هذه الحالة يمثل مطلباً محورياً لاي شعب يطمح ان تكون له الاولوية في تقرير شؤونه الـسياسية و بغيـاب هـذا الوعي تكون الديمقراطية بممارساتها عملية عبثية ذات طبيعة عشوائية تؤدي الى حالة مـن الأرباك السياسي الذي ينعكس سلباً على امن البلد واستقراره و عليه فالوعي الوطني بالـذات الوطنية الواحدة يمثل ابسط متطلبات خوض التجربة الديمقراطيـة و عليـه تكـون بمثابـة استحقاق سياسي ملح يجب انجازه لتؤتي التجربة الديمقراطية ثمارها المرجوة.

١. **سياسات بناء الوعي الوطني**

تمثل سياسات بناء الوعي الوطني مجموعة من البرامج المنهجية المنظمة و المعدة مـن قبل السلطة الحاكمة او مؤسسات المجتمع المدني لاغراض التنشئة السياسية و تهدف الى بناء الوعي الوطني السليم و الفاعل لمواطني الدولة لغرض تأهيلهم سياسياً لاداء دورهم المرتقب داخل المجتمع السياسي ، و تتضمن سياسات بناء الوعي الوطني ثلاثـة انمـاط متداخلة و متكاملة من السياسات و هي:

١. سياسات بناء المواطنة (Citizenship Building Policy)

٢. سياسات بناء المشـاركـة (Participation Building Policy)

٣. سياسـات بنـاء الهـويـة (Identity Building Policy)

حيث تهدف الأولى الى بناء و تعزيز صلة المواطن بالدولة و تأكيد انتمائه عبر تعزيـز الروابط السياسية و النفسية معها و تهدف الثانية الى بناء وصـياغة الابعـاد المختلفـة لسلوكه السياسي ليكون قادراً على لعب دوره الفاعل في العملية السياسية الداخلية بوصفه ناخباً او مرشحاًاو عضواً في اي مؤسسة من مؤسسات المجتمع المـدني امـا الاخيـرة فتهدف الى اسباغ الهوية الوطنية على الافراد من خلال بلورة تصور مشترك لديهم حول هويتهم الوطنية التي تمثل الدالة المميزة لهم عن غيرهم من مواطني الدول الاخـرى و فيما يلي توضيح لهذه السياسات.

١ – ١ : سياسات بناء المواطنة

يعرف المواطن في المعاجم السياسية بالشخص المتمتع بالشخصية المعنوية و القانونية الكاملة في بلد ما[1] و المواطنين هم مجموع الاشخاص المتمتعين بكامل الحقوق السياسية و القانونية في بلد ما بسبب الولادة او الأكتساب[2] و طبقاً لهما تعرف المواطنة بالصفة التي تخول فرد ما كامل الحقوق السياسية و القانونية لمناقشة كل ما له علاقة بالشأن الخاص ببلده بموجب الأمتيازات السياسية و القانونية التي ترتبها له[3] ومن التأمل في هذه المفاهيم نرى ان الولادة او الأكتساب كواقعتين للحصول على الجنسية تمثل اساس المواطنة التي يترتب عليها جملة من الامتيازات السياسية و القانونية و التي يكون بموجبها السلوك السياسي اثراً مترتباً عليها ، وعليه يتجسد مجال عمل سياسات بناء المواطنة في ثلاثة حقول رئيسة هي اولاً (تعزيز صلة الانتماء بين المواطن و الدولة سواء اكانت نتيجة الحصول على الجنسية بالولادة من ابويين وطنيين او بالأكتساب بسبب الهجرة و التوطن و و تحويل هذه الصلة من رابطة ذات طابع شكلي الى صلة حية و فاعلة بين المواطن و الدولة و تعزيز حالة اندماج المواطن في المجتمع السياسي للدولة عبر زرع قيم الحرص و المسؤولية و الالتزام حيال المجتمع و الدولة كجزء من متطلبات احياء الصلة بما يؤدي لبورة انتماء حقيقي قائم على صلة حية بين الفرد و المجتمع و الدولة ، و تبدأ هذه العملية من الاسرة التي هي نواة المجتمع عبر توافر الوالدين على وعي وطني سليم مروراً بالمدرسة و النادي و المؤسسات الاخرى التي ترعى عملية تنشئة الافراد ويتحقق الانتماء الصميمي عندما ينشأ لدى عموم افراد المجتمع نمط موحد من الوعي الجمعي للذات الوطنية التي تشكل حجر الاساس للاحساس الفردي للانتماء للذات العليا و هي الوطن. اما المساحة الثانية فتتمثل في (تكريس الوعي السياسي لدى الافراد بحقوقهم و واجباتهم السياسية و القانونية داخل المجتمع نتيجة لتمتعهم بصفة المواطنة التي ترتب حقوقاً للفرد على وطنه بالأضافة للواجبات الملقاة على عاتقه و عليه فالمواطنة لجانب ارتكازها على الوعي الموحد للذات الوطنية تقوم على

[1] محمد عابد الجابري، قضايا الفكر المعاصر، مركز دراسات المستقبل العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ١٩٩٧ ، ص ١٢.

[2] A.S Hornby , Dictionary of Current English , Oxford Press , 1976 , P 167.

[3] New Webster Dictionary , Paradise Press I.N.C , 2000, P 28.

توازن دقيق بين الحقوق و الواجبات في علاقة الفرد بالدولة ، فالحقوق و الامتيازات تؤكد صلة الانتماء و تعزز من عمق العلاقة بين الفرد و الدولة بوصف الاخيرة عمقاً طبيعياً له يوفر له ما لا يمكنه الحصول عليه في بلد اخر اما الواجبات فتمثل العامود الفقري لدور الفرد العضوي داخل المجتمع من خلال لعب ادوار معينة و ادائه لوظائف محددة تتلائم و طبيعة تأهيله العلمي و النفسي و الاجتماعي ليمارس دوره الفاعل حيال المجتمع و الدولة في دعم حركة البناء و التجديد و الارتقاء) و اخيراً تكسبه الحقوق و الواجبات طابعه الوطني المميز الذي يمثل الاساس الذي ترتكز عليه هويته الوطنية التي تمثل اساس تمايزه عن مواطني الدول الاخرى. اما المساحة الثالثة لعمل سياسات بناء المواطنة فيتمثل في (بلورة الوعي السياسي للافراد لتأهيلهم سياسياً لاداء دورهم المؤثر في المشاركة السياسية عبر الفعاليات السياسية المختلفة من انتخابات و أستفتاءات و العمل في مؤسسات المجتمع المدني من منظمات و جمعيات و نقابات للدفاع عن حقوقه و حقوق الافراد بمعنى اخر انها تعلم المواطن الامتثال و المقاومة فبالأولى يضمن النظام و بالثانية يضمن الحرية)[4] وبذلك تعمل سياسيات بناء المواطنة على تحقيق اربعة اهداف محورية في اطار عملية بناء الوعي الوطني للفرد و هي :

١. بلورة التصور الجمعي الموحد للذات الوطنية.
٢. تحقيق الأنتماء الصميمي و الحي بين الفرد و المجتمع و الدولة.
٣. تعريف الفزد بحقوقه و امتيازاته.
٤. تأهيل الفرد للمشاركة السياسية الفاعلة.

وبتحقيق الاهداف الاربعة اعلاه تكون سياسات المواطنة قد حققت الوحدة الوطنية و كرستها من خلال صهر العناصر السكانية في وحدة اجتماعية و تنظيمها من ثم في نظام سياسي معين و احتوائها في هيئات او مؤسسات الدولة[5] او المجتمع المدني الامر الذي يؤدي

---

[4] محمد عابد الجابري ، قضايا الفكر المعاصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ .
[5] د. صادق الاسود ، علم الاجتماع السياسي اسسه و ابعاده ، بغداد – العراق ، دار الحكمة للنشر و التوزيع ، ط٢ ، ١٩٩١ ، ص ١٣.

لتوحيد المجتمع بأنتمائته المختلفة و صهرها في ظل امة واحدة تمثل المرجع الشامل لكل انتماء محلي او تعدد اجتماعي[6].

١ – ٢ سياسات بناء المشاركة

تعرف المشاركة السياسية بأي عمل تطوعي ناجح او غير ناجح منظم او غير منظم عرضي او مستمر مستخدماً اساليب شرعية بهدف التأثير في خيارات السياسة العامة و ادارة الشؤون العامة و اختيار القادة السياسيين على المستوى الوطني او المحلي[7] و المشاركة السياسية طبقاً لهذا المفهوم قائمة في جوهرها على الثقافة السياسية بوصفها (مجموعة القيم و المعتقدات السياسية الاساسية السائدة في اي مجتمع و التي تميزه عن غيره من المجتمعات و تخلق نوعاً من الملائمة الاجتماعية لسلوك الافراد)[8] و السلوك السياسي بوصفه (فعل او رد فعل لموقف او مواقف معينة ترتبط بالفرد وعلاقته بالمجتمع معبراً عنه بالاستجابة لذلك الموقف وفقاً للكيفية التي يتم بها ادراك ذلك الموقف)[9] وعليه يمكن تعريف سياسات بناء المشاركة بتلك السياسات الهادفة لصياغة الابعاد المختلفة للثقافة السياسية لتشكيل السلوك السياسي للأفراد لتعزيز قدرتهم على لعب دور سياسي فاعل في العملية السياسية داخل البلد ، و طبقاً لهذا المعنى فأن سياسات المشاركة موجهة اساساً لصياغة نمط معين من القيم المؤثرة في سلوك الافراد (الثقافة السياسية) و ما يتسق معها من انماط السلوك السياسي الذي يتمحور اساساً حول القيم[10] التي ترتبط اساساً بالثقافة السياسية للمجتمع التي ترتبط بالاطار الثقافي للمجتمع و لها تأثير مهم في سلوك الافراد او الجماعات حيث يمثل سلوكها السياسي ترجمة لما تحمله من قيم و معتقدات الثقافة السياسية[11] ويبدأ عمل سياسات بناء المشاركة من حيث تنتهي سياسات بناء المواطنة لان مفهوم المواطن و المواطنة لا يتحدد معناه العام بسمة

---

[6] د. محمد عدنان ، اثر القيم الاجتماعية في السلوك السياسي في المجتمعات النامية و المتقدمة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم السياسية – جامعة النهرين ، بغداد ٢٠٠١ ، ص ٩٩ .

[7] محمد احمد اسماعيل علي ، دور المثقفين في التنمية السياسية (دراسة نظرية مع تطبيق على مصر) ، ج٢ ، مؤسسة الارقم ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦٩.

[8] هذا التعريف للوسيان باي نقلاً عن نادية حسين سالم ، ادوار التنشئة الاجتماعية السياسية ، مجلة المستقبل العربي ، ١٩٨٣ ، ص ٥٥.

[9] محمد عدنان ، اثر القيم الاجتماعية في السلوك السياسي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩ .

[10] حسن صعب ، علم السياسة ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ١٩٦٦ ، ص ٣٦٩ .

[11] محمد عدنان ، اثر القيم الاجتماعية في السلوك السياسي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥١.

الانتماء لوطن ما بل تتعداه بكونه يتمتع بحق المشاركة و المساهمة في تدبير امور الدولة و تسيير شؤونها[12] و تركز سياسات بناء المشاركة على بناء ثقافة سياسية تعكس القيم العامة و المشتركة و الموحدة لعموم مكونات المجتمع السياسي و تكريس هذه القيم في الوعي الجمعي لافراد المجتمع السياسي كمقدمة لبناء نمط جديد من الوعي الوطني الذي يعلو و يسمو على القيم و المعتقدات المرتبطة بالثقافات الفرعية و الانتماءات الاجتماعية المتعددة بشكل لا يطمسها او يتجاوز عليها بل يرسم لها حدوداً تميزها عن القيم و المعتقدات الخاصة بالثقافة السياسة لعموم المجتمع السياسي ، و للقيام بهذه المهمة على النظام السياسي و المجتمع السعي لبناء ثقافة سياسية مشاركة تعبر عن قيم التوافق و التعايش السلمي المشترك لتهيئة البيئة السليمة لتنمية و تطوير السلوك السياسي الوطني للأفراد و الارتقاء بمستوى ادائهم السياسي للمشاركة السياسية الفاعلة في شؤون البلد في اطار اتفاق اجتماعي عام على الاهداف العامة المشاركة و اطر وقنوات التعبير الشرعي عنها للارتقاء بالسلوك السياسي لاعلى درجات التجرد عن القيم الفرعية و الانتماءات الجهوية و دفعها بأتجاه التكيف و الانسجام مع القيم الوطنية الشاملة لتغدو المشاركة السياسية لكل فئات المجتمع و ما يتصل بها من ثقافة و سلوك سياسيين نابعة من وعي وطني موحد يوجه هذه المشاركة بأتجاه خدمة الوطن و ارتقائه و نموه و ازدهاره.

و استناداً لما تقدم تهدف سياسات بناء المشاركة الى تحقيق الاهداف التالية:

١. صياغة ثقافة سياسية موحدة تقوم على القيم و المعتقدات المشتركة لعموم مكونات المجتمع السياسي.
٢. ايجاد نوع من الملائمة بين السلوك السياسي لافراد المجتمع و القيم و المعتقدات المشتركة للثقافة السياسية.
٣. ايجاد مشاركة سياسية حقيقة في الشؤون العامة مبنية على ثقافة سياسية مشاركة و سلوك سياسي عقلاني يضع الاعتبارات و المصالح الوطنية في المقام الأسمى.

---

[12] محمد عابد الجابري ، قضايا الفكر المعاصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .

٤. تكريس تقاليد محددة للمشاركة السياسية تمثل الإطار العامل الذي يسترشد به السلوك السياسي للأفراد في العملية السياسية.

١ – ٣ سياسات بناء الهوية

تعرف الهوية في العلوم الاجتماعية (بنزعة سلوكية بين الافراد تؤدي لبلورة حالة من التماثل و التطابق فيما بينهم لشعور وطني موحد يحمي و يعزز خصوصيتهم)[١٣] و تؤدي الهوية طبقاً لهذا المفهوم العديد من الوظائف على مستوى الدولة مثل تحديد مكانتها بالنسبة لغيرها من دول العالم من ثم تعريف الاعداء و الاصدقاء فضلاً عن المصالح و الطموحات بوصف الهوية جزءً من حركة صيرورة التاريخ الوطني لدولة ما و اخيراً تؤدي الهوية دوراً حاسماً في تعميق روابط الانتماء المشترك و العائدية لجهة ما و التي تظهر بوضوح عندما يتعرض افراد المجتمع السياسي للخطر الخارجي و يشعرون بالحاجة للحماية منه[١٤] و عليه فسياسات بناء الهوية هي تلك السياسات التي تهدف لتكريس منظومة متنوعة من الافكار و التصورات و الرؤى حول الخصائص و السمات المشتركة بين افراد المجتمع الوطني[١٥] في الوعي الجمعي لهم ليعزز بنية الوعي الوطني لديهم ، و الاشكالية التي تواجهها سياسات بناء الهوية في هذا المقام هو كيفية التعامل مع الهويات الفرعية التي تنشأ و تنمو في ظل ضعف او غياب الوعي الوطني الموحد متفاعلاً مع الخصائص العرقية و الطائفية الامر الذي يفضي لتشظي الهوية الوطنية و هو ما تتزايد مخاطره في حالة وجود تماثل عرقي او طائفي بين الاعراق و الطوائف في بلد ما و الدول المجاورة له الامر الذي ينعكس سلباً على الوحدة الوطنية للبلد المعني و من هنا تنطلق سياسات بناء الهوية في دورها المكمل لسابقتيها سياسات بناء المواطنة و المشاركة من خلال التركيز على ثلاثة مفاصل محورية الاول التاكيد على حقيقة الانتماء المشترك (من خلال توظيف مخرجات سياسات بناء المواطنة) لتلك الرقعة المكانية التي تشكل الحاضنة الجغرافية التي تجمع تأريخياً التنوع العرقي و

[13] Lisbeth Aggestam , Role Conception and The Politics of Identity in Foreign Policy, Internet ,www.stockholm.un.com,P1.
[14] M.Clarke , New Perspective on Security , London Brassey , P14.
[15] Lisbeth Aggestam , Role Conception and The Politics of Identity in Foreign Policy,P3.

الطائفي في بلد ما و المكونة للنسيج الاجتماعي لذلك البلد و اعتبارهـا المرجعيـة الاولـى الجديرة بالاحترام و التقدير على اية مرجعية سياسية او اجتماعية اخرى و الثانية التاكيد على حقيقة المصير المشترك (من خلال توظيف مخرجات سياسات بناء المشاركة) بوصفه واقعاً موضوعياً قائماً بحد ذاته من خلال الاثر السلبي الجامع الذي تمارسه التحـديات الداخليـة و الخارجية على السواء على كافة التشكيلات الاجتماعية العرقية و الطائفية الامر الذي يؤكـد حقيقة المصير المشترك كرابطة تظهر بوضوح في اوقات المحن تسود على الروابط الفرعية المختلفة و ثالثاً التاكيد على حقيقة التأريخ المشترك بوصفه البودقـة التـي انـصهرت فيهـا التجارب السابقة للمجتمع و ما تنطوي عليه من خبرات و معـانٍ و دلالات خـلال الحيـز الزمني الممتد لفترة ما يمكن ان تشكل بمدلولاتها التاريخية نقاط التقاء مشتركة تشكل رابطـة اضافية تؤدي لبلورة و تشكيل الهوية الوطنية الموحدة كحالة قائمة فـي الوجـدان الجمعـي للشعب و مدركاته في في وعيهم الجمعي لتشكل الضمانة الاكيدة لحماية ذواتهم المتعددة تحت مظلة البلد الواحد.

و تحقق سياسات بناء الهوية طبقاً لذلك جملة من الاهداف المهمة و هي :

١. بلورة أطار موحد من الإدراك الجمعي للذات الوطنية بين عموم أطيـاف المجتمـع السياسي.
٢. التأكيد على المشتركات الجغرافية و المصيرية و التاريخية بـين مكونـات النـسيج الاجتماعي.
٣. تذويب الهويات الفرعية في بودقة الهوية الوطنية الجامعة.
٤. التوافق على أن الهوية الوطنية الجامعة هي الإطار الذي تلتزم به كل الأطـراف أيّ كانت مخرجات العملية الديمقراطية سواء لصالح هذا الطرف أو ذاك.

و نرى ان النقطة المحورية التي يجب ان تلتقي عندها سياسات بناء المواطنة و المشاركة و الهوية كلا حسب مجالات عملها هي جعل الوطن ممثلاً بتلك الرقعة المكانية و ذلك النـسيج الاجتماعي المتنوع بمثابة مركز الانتماء و حيز المشاركة و عنوان التميز ، وبـنفس الوقـت البديل الافضل و الانسب و الضامن للمستقبل الزاهر بالنسبة لكل أفراد المجتمع السياسي مـن

اي بديل اخر كالأنفصال و الأنطواء تحت لواء بلد اخر او التجزئة و التفتت الى كيانات منفصلة.

٢. **سياسات بناء الوعي الوطني والتجربة الديمقراطية في العراق**

أن لسياسات بناء الوعي الوطني ارتباطاً مفصلياً مع التجارب المختلفة لبناء الديمقراطية في العديد من دول العالم عبر التزامن المفصلي مع ظاهرة الديمقراطية بمراحلها الثلاثة المفترضة و هي المقدمات و التحول و الرسوخ ، وطبقاً للنتائج التي توصلنا لها في الباب الأول من الدراسة نرى أن سياسات بناء الوعي الوطني تؤدي لإبراز عامل محوري يمكن أن نسميه بـ(National Consciousness) كعامل محوري و مؤثر في نشأة و تطور أي تجربة ديمقراطية في العالم لما لهذا العامل من دور مؤثر في ترشيد تجربة التحول الديمقراطي و تحديد مساراتها الصحيحة و صولا إلى تحقيق الغايات المجتمعية المرجوة من التحول إلى النظام الديمقراطي.

أن العراق كنموذج معاصر وفريد في التحول إلى النظام الديمقراطي لا يختلف عن سواه من التجارب الأخرى في عالمنا المعاصر من حيث أهمية العلاقة المفصلية بين بناء الوعي الوطني و تجربة التحول إلى النظام الديمقراطي لما للوعي الوطني من دور فاعل في ترشيد هذه التجربة و إضفاء الطابع الوطني عليها لتصل في النهاية إلى الغايات المرجوة منها.

لتوضيح اثر عملية بناء الوعي الوطني كعامل مؤثر في تجربة التحول إلى النظام الديمقراطي في العراق لجأ الباحث إلى نموذج Dankwart Rustow[١٦] ذي المراحل الأربعة للتحول الديمقراطي و الذي أشار له عام ١٩٧٠ في مقالة له بعنوان (Transition to Democracy) بناءً على دراسة مقارنة أجراها لكلاً من تركيا و السويد ، كإطار معرفي لشرح علاقة التأثير المتبادل بين الوعي الوطني كمتغير جوهري

[16] يعتبر روستو من رواد الاتجاه الانتقالي في تفسير ظاهرة تحول المجتمعات السياسية إلى الديمقراطية ويركز هذا الاتجاه على كيفية تحقيق الديمقراطية في المقام الأول وليس في اشتراطات بقائها و ديمومتها كما ذهب إليه الاتجاه التحديثي بزعامة عالم الاجتماع السياسي الأميركي ليبست.

ينتج عن السياسات المنهجية لبناء الوعي الوطني[١٧] و تجربة التحول إلى النظام الديمقراطي بمراحلها الأربعة كما هو مؤشر في نموذج روستو.

ينطلق نموذج روستو لتفسير عملية الانتقال إلى النظام الديمقراطي من تساؤل محوري قوامه كيفية تحقق الديمقراطية في المقام الأول ؟ و للإجابة على هذا التساؤل رأى ضرورة تبني منهج التحليل التاريخي المقارن لرسم ملامح المسار العام الذي تتبعه كل البلدان خلال عملية الدمقرطة[١٨] و الذي يتكون من أربعة مراحل أساسية هي :

١. مرحلة تحقيق الوحدة الوطنية (Background Condition)

وهي المرحلة الأولى في نموذج روستو و التي يقصد فيها بدء تشكيل هوية سياسية مشتركة لدى الغالبية العظمى من المواطنين ، و هو الأمر الذي يعتمد أساساً على مخرجات سياسات بناء الوعي الوطني المعتمدة من قبل السلطة الحاكمة حيث تؤدي سياسات بناء المواطنة إلى **بلورة تصور جمعي موحد للذات الوطنية العراقية** في حين تؤدي سياسات بناء المشاركة إلى **صياغة ثقافة سياسية موحدة تقوم على القيم و المعتقدات المشتركة لعموم مكونات المجتمع العراقي** و أخيراً تؤدي سياسات بناء الهوية إلى **بلورة أطار موحد من الإدراك الجمعي للذات الوطنية العراقية بين عموم أطياف المجتمع السياسي** وبتفاعل المخرجات الثلاثة أعلاه سيتم تشكيل الهوية السياسية المشتركة لعموم العراقيين كمتطلب محوري لبدء الشروع في عملية التحول إلى النظام الديمقراطي.

٢. مرحلة الحراك السياسي – الاجتماعي (Preparatory Phase)

و هي المرحلة التي تتميز بوجود حراك سياسي طويل و غير حاسمة بين مختلف المكونات الاجتماعية – السياسية المختلفة و الذي قد يأخذ أشكالاً عدة كالتعاون أو الصراع فيما بينها في خضم الحراك السياسي الأشمل للتهيؤ للانتقال إلى النظام الديمقراطي ، و هنا تؤدي سياسات بناء الوعي الوطني دور مهم في ضبط عملية

[17] المقصود بهذه السياسات سياسات بناء المواطنة و المشاركة و الهوية التي سبق الإشارة لها في الجزء الأول من الدراسة.

[18] وليد الطيمي ، الديمقراطية و الإصلاح السياسي ، ندوة الديمقراطية و الإصلاح السياسي في العالم العربي نحو رؤية عربية ، جامعة القاهرة – كلية الاقتصاد و العلوم السياسية ، ص٣ .

الحراك السياسي و السيطرة عليها من خلال مخرجات سياسة بناء المواطنة في **تحقيق الانتماء الصميمي و الحي بين الفرد العراقي و المجتمع و الدولة** ومخرجات سياسات بناء المشاركة في **أيجاد نوع من الملائمة بين السلوك السياسي لأفراد المجتمع و الثقافة السياسية التي تعكس القيم و المعتقدات المشتركة للشعب العراقي** و مخرجات سياسات بناء الهوية في **التأكيد على المشتركات الجغرافية و المصيرية و التاريخية بين مكونات النسيج الاجتماعي** العراقي ، وتمثل هذه المخرجات بمجملها صمام الأمان للمجتمع العراقي في حراكه السياسي نحو النظام الديمقراطي فهذه المخرجات من شأنها ضمان الحد الأدنى من درجات التلاحم الوطني لضبط عملية الحراك و الحيلولة دون خروجها عن السيطرة.

٣. مرحلة التحول و الانتقال (Decision Phase)

و هي المرحلة الثالثة و التي تعكس لحظة تاريخية تقرر فيها أطراف عملية الحراك السياسي - الاجتماعي غير المحسوم التوصل إلى تسويات وسط و تبني قواعد ديمقراطية تمنح الجميع حق المشاركة في المجتمع السياسي ، وفي هذه اللحظة التاريخية تؤدي سياسات بناء الوعي الوطني دوراً حاسماً من خلال محرجات سياسات بناء المواطنة في **تعريف الفرد العراقي بحقوقه و امتيازاته** و دور مخرجات سياسات بناء المشاركة في **بلورة مشاركة سياسية حقيقة في الشؤون العامة مبنية على ثقافة سياسية مشاركة و سلوك سياسي عقلاني يضع الاعتبارات و المصالح الوطنية العراقية في المقام الأسمى** و مخرجات سياسة بناء الهوية في **تذويب الهويات الفرعية في بودقة الهوية الوطنية العراقية الجامعة** ، و تؤدي هذه المخرجات مجتمعةً إلى توفير الظروف الموضوعية التي تمكن المجتمع العراقي من الانتقال إلى النظام الديمقراطي الذي يضمن لهم المساواة في المشاركة في الحياة السياسية على أساس الولاء و الانتماء للوطن الواحد.

٤. مرحلة التعود و الرسوخ (Habituation Phase)

و هي المرحلة الأخيرة و التي تتعود فيها الأطراف المختلفة على قواعد النظام الديمقراطي و تتكيف معها بفعل إيمان و قناعة الأجيال اللاحقة بها، وفي تتأسس متكسبات هذه المرحلة على

المخرجات التي تفرزها سياسات بناء الوعي الوطني حيث تؤدي سياسات بناء المواطنة إلى **استكمال عملية تأهيل الفرد العراقي للمشاركة السياسية الفاعلة في العملية الديمقراطية** و تؤدي سياسات بناء المشاركة إلى **تكريس تقاليد محددة للمشاركة السياسية تمثل الإطار العامل الذي يسترشد به السلوك السياسي لكافة العراقيين في العملية السياسية** في حين تؤدي سياسات بناء الهوية إلى **التوافق على أن الهوية الوطنية العراقية الجامعة هي الإطار الذي تلتزم به كل الأطراف أيّ كانت مخرجات العملية الديمقراطية سواء لصالح هذا الطرف أو ذاك** و تساهم هذه المخرجات مجتمعةً في تكريس البناء الديمقراطي و ترسيخ دعائمه ليكون المجتمع العراقي في هذه المرحلة قد انتقل وبشكل نهائي إلى النظام الديمقراطي كإطار أساسي ينظم الحياة السياسية في هذا البلد بعد عقود من التسلط و الطغيان.

وعلى هذا الأساس يمثل الوعي الموحد بالذات الوطنية الموحدة معبراً عنها بالوعي الوطني (National Consciousness) يمثل الشرط المسبق الذي لا غنى عنة للانتقال بالمجتمع من ربقة التسلط و الاستغلال إلى التحرر والديمقراطية والمجتمع العراقي في عملية الانتقال هذه يجب أن يتوافر على الحد الأدنى من الإدراك الموحد للذات العراقية ليتمكن كل مكوناته من العمل سوية تحت سقف موحد من المصالح و الأهداف المشتركة التي تدفعهم للتعايش السلمي فيما بينهم في ظل نظام ديمقراطي منفتح يلبي تطلعاتهم ولكي لا يكون غياب مثل هذا الوعي الموحد سبباً في تشتيت جهودهم وتقاطعها بما يمهد الفرصة لمزيد من التصارع والاختلاف الذي يؤدي إلى تمزيق الوحدة الوطنية و تزايد قوة إحدى الجماعات بسبب ظروف الصراع بالدرجة التي تمكنها من التغلب على القوى المعارضة لها وإنهاء الصراع لصالحها وسد الطريق أمام التحول الديمقراطي وهو ما يمثل عودة إلى نقطة الصفر و مزيداً من الوقت الضائع خارج حركة التاريخ.

اثر الارهاب على حقوق الانسان

الدكتور
حيدر ادهم الطائي(*)

المقدمة

في تمام الساعة ٨،٤٥ من صباح يوم الثلاثاء المصادف الحادي عشر من ايلول عام ٢٠٠١ بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأميركية صدمت طائرة أميركية من طراز بوينغ ٧٦٧ مخصصة للأغراض التجارية البرج الشمالي لمركز التجارة العالمية، وعند الساعة ٩،٠٣ (أي بعد ١٨ دقيقة) صدمت طائرة أخرى البرج الجنوبي مما أدى الى انهيار البرج الجنوبي اولاً عند الساعة ١٠،٠٥ والبرج الشمالي بعد خمس دقائق وبعد أربعين دقيقة من اصطدام الطائرة الثانية بالبرج الجنوبي(أي عند الساعة ٩،٤٣) ضربت طائرة ثالثة من طراز بوينغ ٧٥٧ إحدى أجنحة البنتاغون، وبعدها بأربعة دقائق سقطت طائرة رابعة مماثلة في أحد الحقول الزراعية الواقعة في ولاية بنسلفانيا (عند الساعة ١٠،١٠ على وجه التحديد) وقيل فيما بعد ان هذه الطائرة كانت تستهدف البيت الأبيض كما سقطت بناية أخرى بتأثير سقوط البرجين بطوابقها الـ ٤٧ وكانت قد شيدت عام ١٩٨٦[1].

وقد أدت هذه الهجمات إلى تركيز المجتمع الدولي على موضوع الإرهاب الى حد كبير، ففي ظرف أسابيع قليلة اقر مجلس الأمن الدولي بالإجماع القرارين ١٣٦٨ و١٣٧٣ الصادرين سنة ٢٠٠١[2]، كما اعتمدت الجمعية العامة القرار ٥٦/١ بتوافق الآراء، وعقدت دورة

(*) كلية الحقوق/ جامعة النهرين.

[1] محمد عزيز شكري، الإرهاب الدولي مفهومه الجديد، مجلة المحامون، نقابة المحاميين السورية، العددان ٣-٤، آذار - نيسان٢٠٠٢،ص٢١٣، انظر كذلك ملخصا للإحداث التي أعقبت احداث الحادي عشر من ايلول والمتعلقة بمكافحة الإرهاب على الموقع http://ara.amnesty.org/library

[2] يفرض القرار ١٣٧٣ على جميع الدول واجبات ملزمة بهدف مكافحة الارهاب بجميع اشكاله ومظاهره ويقتضي من الدول الاعضاء اموراً شتى من بينها :
١) منع جميع اشكال الدعم المالي المقدم للجماعات الارهابية.
٢) عدم توفير ملاذ آمن للارهابيين أو دعمهم وعدم موازرتهم.
٣) تبادل المعلومات مع الحكومات الأخرى حول أي جماعات تمارس العمليات الارهابية أو تخطط لها.
٤) التعاون مع الحكومات الأخرى في التحقيق مع الذين يشاركون في هذه الأعمال والكشف عنهم والقبض عليهم ومحاكمتهم.

استثنائية مما عكس عمق وأهمية الالتزام الدولي لمواجهة هذا التهديد[3] بأبعاده المتعددة التي منها ما يتعلق بحقوق وحريات الإنسان التي كفلتها له التشريعات الوطنية والاتفاقيات الدولية والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو ماهية الأثر الذي يمكن ان تخلفه العمليات الإرهابية على مستوى او درجة احترام حقوق الإنسان؟

ان معالجة الموضوع المتقدم يمكن ان يتم طبقاً للآتي:

المطلب الأول: مفهوم الإرهاب

الفرع الأول: تاريخ الإرهاب

الفرع الثاني: تعريف الإرهاب

المطلب الثاني:آثار الإرهاب المباشرة وغير المباشرة على حقوق الإنسان

الفرع الأول: الأثر المباشر

الفرع الثاني:الأثر غير المباشر

الفرع الثالث: الإفلات من العقاب والتسليم

المطلب الأول: مفهوم الإرهاب

ان تحديد مفهوم الإرهاب يمكن ان يتم من خلال التعرف على البعد التاريخي لبعض أشكال الظاهرة موضوع البحث فضلاً عن استجلاء معناها من خلال التعرف على بعض التعاريف المقدمة على المستوى الوطني والدولي وهذا ما سيتم في فرعين هما:

الفرع الأول: تاريخ الإرهاب

الفرع الثاني: تعريف الإرهاب

الفرع الأول: تأريخ الإرهاب

ليس من السهل إنكار حقيقة مفادها ان الإرهاب يعد شكلاً مميزاً من أشكال النشاط الإجرامي وهو يولد نوعاً من الفزع والرعب وسط الجمهور كما انه شكل قديم من أشكال الجريمة فمن اقدم التنظيمات الإرهابية المعرفة في التاريخ يشار الى السيكاريون وهي طائفة

---

٥) تحريم المساعدة الصريحة أو الضمنية المقدمة للارهاب في القوانين المحلية وتقديم منتهكي هذه القوانين للعدالة.
٦) الانضمام في أقرب وقت ممكن الى الاتفاقيات الدولية ذات الصلة والبروتوكولات المتصلة بالارهاب

[3] متاح على الموقع www.un.org

دينية يهودية لعبت دوراً مهماً في حركة الغيورون في فلسطين (٦٦-٧٣م) ولجوأ الى اتباع أساليب وطرق غير تقليدية في مهاجمة أعدائهم كالانقضاض عليهم في وضح النهار وكان ذلك يتم في أيام الأعياد عندما يتجمهر الناس في مدينة القدس وهم يستعملون سيوفاً قصيرة يخفونها تحت ثيابهم لقتل الأبرياء الذين لم يتفقوا معهم في الرأي وقاموا بتحطيم منزل الكاهن الكبير وقصور الحكام الهيروديون فضلاً عن اتلافهم لسندات مفوضي الأموال والسجلات والمحفوظات العامة،ويذكر (تاسيتوس) ورجال دين يهود ان السكاريين قاموا بحرق مخازن الغذاء وتخريب إمدادات المياه في القدس ولم يميزوا بين جنس وآخر او عقيدة وأخرى فضحاياهم من كل الأعراق والأجناس والطوائف الدينية بمن فيهم اليهود الذين وصفوا بأنهم متعاطفون مع روما.

أما رجال الدين المسيحيين فقد باركوا ايضاً ممارسات إرهابية في فترات معينة حيث يذكر الأستاذ (فورد) ان الاغتيالات كانت شائعة برعاية البابوات بيوس العاشر وغريغوري الثالث عشر وسيكتوس الخامس فتاريخ هؤلاء يمثل تاريخ العلاقة بين الكنيسة والقتل السياسي العمد[4].

وإذا كنا لا نستطيع ان نربط الإرهاب بالعقيدة اليهودية او العقيدة المسيحية كما أنزلت على الرسولين موسى وعيسى فمن غير المقبول ان يربط البعض بين الإرهاب والإسلام.

واذا كان من الصعب التسليم بعدم ممارسة الارهاب في فترات مختلفة من تاريخ الامم والشعوب فانه وفي العصر الحديث لم يظهر إلا في الممارسات غير الانسانية التي قادت الى قتل آلاف الناس بعد الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ وبعد هذا التاريخ فان العالم يحفل بامثلة عن استخدام الارهاب كأداة لتحقيق أهداف سياسية على وجه الخصوص[5].

وعلى مستوى تطور التنظيم القانوني الدولي لمكافحة الارهاب فقد كانت البداية مع عصبة الامم التي وضعت أول معاهدة دولية لمكافحة الارهاب في العالم ١٩٣٧ حيث وقعت (٢٤) دولة معاهدة الوقاية من الارهاب ومعاقبة مرتكبيه لكن امتناع عدد من الدول عن المصادقة عليها منع دخولها حيز النفاذ مما قاد الى عدم اقامة المحكمة الجنائية الدولية التي نص عليها

---

[4] محمد عزيز شكري، المصدر السابق، ص٢١٥

[5] للمزيد حول تاريخ الإرهاب، أنظر سامي جاد عبد الرحمن، إرهاب الدولة في إطار القانون الدولي العام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص٧-١٦.

أحد ملاحقها حيث كانت الهند الدولة الوحيدة التي صادقت على هذه المعاهدة، وبعد الحرب العالمية الثانية قدر للجهود الدولية لمكافحة الارهاب ان تشهد تطوراً اكبر ونجاحاً أشمل فأبرمت معاهدات عديدة في هذا المجال منها معاهدة الجرائم وبعض الأعمال الأخرى التي ترتكب على متن الطائرات المعقودة في العام ١٩٦٣ والتي جرى التوقيع عليها في العاصمة اليابانية طوكيو في ١٤ أيلول من العام المذكور، ومعاهدة قمع عمليات الاستيلاء غير الشرعية على الطائرات الموقع عليها في ١٦ كانون الأول عام ١٩٧٠ بمدينة لاهاي ومعاهدة قمع الأعمال غير القانونية ضد سلامة الطيران المدني الموقع عليها في مدينة مونتريال الكندية بتاريخ ٢٣ ايلول ١٩٧١ وبروتوكول قمع أعمال العنف غير القانونية في المطارات التي تخدم الملاحة الجوية المدنية التابع لها (بروتوكول مونتريال) والموقع عليه في مدينة مونتريال بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٨٨ والمعاهدة الدولية لمكافحة احتجاز الرهائن المقرة من الجمعية العامة للأمم المتحدة لعام ١٩٧٩ ومعاهدة مكافحة الأعمال غير القانونية ضد سلامة الملاحة البحرية الموقع عليها في العاصمة الايطالية روما في ١٠ آذار ١٩٨٨ والمعاهدة الدولية لمكافحة التفجيرات الارهابية التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة لعام ١٩٩٧ والحقيقة ان هذه المعاهدات مثلت خطوة ناجحة في مجال مكافحة الارهاب ولعل من عوامل نجاحها انها حاولت ان تكافح أنواع محددة من الجرائم بدلاً من تبني مفاهيم عامة مختلف عليها (احتجاز الرهائن أو خطف الطائرات بدلاً من تجريم الارهاب بصورة عامة) وعَلى المستوى الاقليمي بذلت جهود دولية أيضاً حيث كان للقارة الاوربية دور السبق في هذا الميدان فعقدت المعاهدة الأوربية لقمع الارهاب ووقعت الدول الاعضاء في مجلس أوربا عليها في ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٧ ثم صدر اعلان بون حول الارهاب الدولي عام ١٩٧٨ الذي وقع كذلك من قبل اليابان والولايات المتحدة وعدد من الدول الاوربية الذي ينص على وقف الرحلات الجوية الى البلدان التي ترفض تسليم الارهابيين أو محاكمتهم، ثم عقدت المعاهدة الدولية لمكافحة تمويل الارهاب عام ١٩٩٠ بعد ان اقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة، فضلاً عن معاهدات أخرى كالاتفاقية العربية لمكافحة الارهاب والاتفاقية الافريقية

لمكافحة الارهاب لعام ١٩٩٩ واتفاقية التعاون بين الدول الاعضاء في كومنولث الدول المستقلة عام ١٩٩٩.

الفرع الثاني: تعريف الإرهاب

تعتبر مسألة وضع تعريف للإرهاب من اكثر المسائل المثيرة للجدل على المستويين القانوني والسياسي[٦] وليس هذا بالأمر الجديد فمنذ عام ١٩٣٧ أخفقت الجهود الدولية المبذولة من اجل إصدار الاتفاقية الدولية لمنع الإرهاب والمعاقبة عليه التي اعتمدت برعاية عصبة الأمم، ومنذ التاريخ المذكور لم يعالج المجتمع الدولي المسائل الخاصة بالإرهاب الا بصورة جزئية أي حسب كل جريمة وكل مسألة على حدة اذ لا توجد معالجة شاملة لهذا الموضوع مما ترتب عليه تعذر الوصول الى تعريف مقبول على وجه العموم لمصطلح الإرهاب ولا زالت المشكلة قائمة حيث يثير مصطلح الإرهاب الكثير من المشاعر المرتبطة بالاعتبارات السياسية فهو يقترن بحكم سلبي يتصف بالانتقائية حيث يتم نعت كل سلوك او نشاط عنيف معارض من جانب جهة معينة بأنه نشاط او عمل إرهابي طبقاً لوجهة نظر هذه الجهة التي يرتكب النشاط العنيف ضدها والعكس يمكن ان يكون مقبولاً حيث ترفض ذات الجهة استخدام مصطلح الإرهاب اذا كان النشاط العنيف قد تم اللجوء إليه في حالات تلقى قبولاً من هذه الجهة وعندها تصدق العبارة الشهيرة التي تقول :ـ(الإرهابي في نظر البعض هو مقاتل من اجل الحرية في نظر البعض الآخر) يقول احد الحقوقيون :ـ (لدينا سبب يدعونا لإبداء الأسف لأن مفهومنا قانونياً للإرهاب يفرض علينا في وقت من الأوقات فالمصطلح تعوزه الدقة كما انه غامض والاهم من ذلك انه لا يخدم غرضاً قانونياً فاعلاً) وتقف بعض الدول ضد إيجاد تعريف محدد وواضح للإرهاب، وهذا الموقف الرسمي للولايات المتحدة الأميركية، ومع ذلك يلاحظ وجود ما يقارب (١٠٩) تعريف للإرهاب حتى عام ١٩٨٩ أحصاها الأستاذ شميد في كتابه (الإرهاب السياسي).

[6] إن مصطلح الإرهاب يعد من المصطلحات الحديثة الاستعمال في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات، بالمعاني المعروفة الآن وقد وردت كلمة الرهبة والترهيب بمعنى التخويف، وأصبح راهباً أي خائفاً. وورد في القرآن الكريم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...).

فعلى المستوى الفقهي يبرز تباين واضح في الآراء والتعاريف المقدمة للارهاب فهناك اتجاه مادي لتعريفه واتجاه آخر يركز على الجانب المعنوي، فضلاً عن وجود اتجاهات توسع من ظاهرة الارهاب لتشمل أو هي تقترب من تضمينه للجريمة السياسية، كما ان هناك من يخلط بين الاتجاهات المذكورة.

فالاتجاه المادي في تعريف جريمة الارهاب يؤكد على الافعال التي تتكون منها الجريمة فهو يشير الى تعداد مجموعة من الجرائم التي تعد ارهابية في نظره دون البحث في الهدف أو الغرض الذي يسعى اليه العمل الارهابي وازاء قصور هذه النظرة فقد اتجه من يعرف الارهاب طبقاً للفكرة المتقدمة الى تحديد المميزات او الخصائص الاساسية للجرائم الارهابية في محاولة لتجاوز التعداد الحصري لجرائم معينة، ويلخص (جونزبورج) العناصر المكونة للارهاب الدولي في حدوث اعتداء على احدى الخدمات العامة المتعلقة بتشغيل المواصلات الدولية كخطف الطائرات، والاعتداء على رئيس دولة او احد اعضاء الحكومة في الخارج[٧].

اما الاتجاه المعنوي فهو يؤكد على الهدف المراد تحيقيه من ممارسة الارهاب وهو هدف أما ان يكون دينياً أو سياسياً أو غيره من الأهداف ذات الطبيعة الفكرية فيعرف ويلكنسون الأرهاب بأنه (نتاج العنف المتطرف الذي يرتكب من أجل الوصول الى أهداف سياسية معينة يضحى من أجلها بكافة المعتقدات الانسانية والاخلاقية) أما (اريك ديفيد) فيعرف الارهاب بانه (أي عمل من أعمال العنف المسلح الذي يرتكب لتحقيق أهداف سياسية أو فلسفية أو آيديولوجية أو دينية)[٨].

وفي اطار الفقه العربي يعرف عبد العزيز محمد سرحان الارهاب الدولي باعتباره كل اعتداء على الارواح والاموال والممتلكات العامة او الخاصة بالمخالفة لاحكام القانون الدولي العام بمصادره المختلفة، بما في ذلك المبادئ الأساسية لمحكمة العدل الدولية، وهو يعتقد بعدم امكانية عد فعل ما عملاً ارهابياً إذا كان الباعث الذي قاد الى ارتكابه الدفاع عن حقوق الافراد والشعوب، وحق تقرير المصير.

---

7 احمد محمد رفعت، صالح بكر الطيار، الارهاب الدولي، الطبعة الاولى، مركز دراسات العرب الأوربي، ١٩٩٨، ص٢١٩-٢٢٠.

8 المصدر نفسه، ص٢١٥-٢١٨.

والحق في تحرير الاراضي المحتلة ومقاومة الاحتلال فهذه الافعال تقابل حقوقاً يقررها القانون الدولي ويعترف بها للافراد والدول فالارهاب هنا ستعلق باستعمال مشروع للقوة تسمح به قواعد النظام القانوني الدولي الاتفاقية منها والعرفية[9].

ويجعل اسماعيل الغزال للارهاب والنضال الثوري مضمون واحد فيقول (ان الارهاب أو بالاحرى النضال الثوري هو آيديولوجية، هو مبدأ، هو فكر، هو مؤسسة، هو ميثاق يسوغ العنف او استراتيجية تعطي الافضلية لتلك الأعمال) وهو يستند الى فكر الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر الذي يعتقد ان الارهاب هو القوة الدافعة للتنظيم الاجتماعي ومفتاح الحرية ويضعه في أعلى مرتبة للشؤون الانسانية ويعتقد ان بممارسته هي احدى شروط الحرية[10] وإذا كان الارهاب ظاهرة موجودة على مستوى الحياة العملية بشكل واضح فان من الضروري تمييز العمليات الارهابية عن الكفاح المسلح للشعوب من أجل تحقيق استقلالها وضمان مصالحها المشروعة طبقاً للطرق والاساليب التي لا تتعارض مع المبادئ العامة للانسانية.

على مستوى الأنظمة القانونية الداخلية يعرف قانون العقوبات السوري الصادر عام ١٩٤٩ الإرهاب ويعاقب عليه بعقوبة تصل إلى الإعدام في المواد ٣٠٤-٣٠٦ بقوله (يقصد بالأعمال الإرهابية جميع الأفعال التي ترمي إلى إيجاد حالة ذعر وترتكب بوسائل كالأدوات المتفجرة والأسلحة الحربية والمواد الملتهبة والمنتجات السامة او المحرقة والعوامل الوبائية التي من شأنها ان تحدث خطراً عاماً).

بينما يعرف القانون الفرنسي رقم ١٠٢٠ لعام ١٩٨٦ الإرهاب بأنه (خرق للقانون يقدم عليه فرد من الأفراد او تنظيم جماعي بهدف إثارة اضطراب خطير في النظام العام عن طريق التهديد بالترهيب).

أما في الولايات المتحدة الأميركية فقد صدر اول قانون ضد الإرهاب في ولاية تكساس عام ١٩٧٤ وعدت هذه الجريمة جنحة بموجب هذا القانون ثم صدرت العديد من التشريعات

---

[9] عبد العزيز محمد سرحان، حول تعريف الارهاب الدولي وتحديد مضمونه من واقع قواعد القانون الدولي وقرارات المنظمات الدولية، المجلة المصرية للقانون الدولي، المجلد ٢٩، السنة ١٩٧٣، ص١٧٣-١٧٤.

10 احمد محمد رفعت، صالح بكر الطيار، المصدر السابق، ص٢٢٤.

الخاصة بمكافحة الإرهاب في التسعينيات من القرن المنصرم[11] ومن الجدير بالذكر ان قانون العقوبات العراقي ذو الرقم ١١١ الصادر عام ١٩٦٩ لا يتضمن أي تعريف او تحديد لافعال او تصرفات توصف بأنها إرهابية أي انه لا يعرف جريمة الإرهاب.

الا ان هناك قانوناً مستقلاً صدر مؤخراً في العراق هو قانون مكافحة الارهاب رقم ١٣ لسنة ٢٠٠٥ جرى فيه تحديد افعال معينة باعتبارها تشكل أفعالاً ارهابية. وكانت المادة الأولى من هذا القانون قد عرّفت الإرهاب باعتباره كل فعل إجرامي يقوم به فرد أو جماعة منظمة استهدفت فرداً أو مجموعة أفراد و جماعات أو مؤسسات رسمية أو غير رسمية أوقع الأضرار بالممتلكات العامة أو الخاصة بغية الإخلال بالوضع الأمني أو الاستقرار والوحدة الوطنية أو إدخال الرعب والخوف والفزع بين الناس أو إثارة الفوضى تحقيقاً لغايات إرهابية. وقد عدت المادة السادسة/ الفقرة الأولى من هذا القانون الجرائم الواردة فيه من الجرائم العادية المخلة بالشرف.

وفي إطار النظام القانوني الدولي يلاحظ ان التوجه المعمول به حالياً في إطار منظمة الأمم المتحدة يساير وجهه النظر التي لا تدعم تقديم تعريف عام وشامل يغطي الأفعال التي يمكن ان توصف باعتبارها أفعالا إرهابية بحجة ان تقديم تعريف يمكن ان يقود إلى تجميد مفهوم الإرهاب وحصره في أفعال او تصرفات معينة بينما يسمح عدم تقديم او اعتماد تعريف بإضافة أشكال جديدة للهجمات الإرهابية الا ان هذا التوجه لم يمنع منظمات إقليمية من تقديم تعاريف للإرهاب تعكس وجه نظرها لهذه الجريمة من الناحية القانونية، فالاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب لعام ١٩٩٨ تعرف المادة الأولى منها هذه الجريمة باعتبارها(كل فعل من أفعال العنف او التهديد به ايا كانت بواعثه او أغراضه يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي او جماعي ويهدف الى إلقاء الرعب بين الناس او ترويعهم بإيذائهم او تعريض حياتهم او حريتهم او أمنهم للخطر او إلحاق الضرر بالبيئة او بأحد المرافق او الأملاك العامة او الخاصة او احتلالها او الاستيلاء عليها او تعرض أحد الموارد الوطنية للخطر).

---

11 محمد عزيز شكري، المصدر السابق ص٢١٦-٢١٧.

اما الجريمة الإرهابية فتعرف في هذه الاتفاقية باعتبارها (أي جريمة او شروع فيها ترتكب تنفيذاً لغرض إرهابي في أي من الدول المتعاقدة او على رعاياها او ممتلكاتها او مصالحها ويعاقب عليها قانونها الداخلي، كما يعد من الجرائم الإرهابية الجرائم المنصوص عليها في الاتفاقية التالية، عدا ما استثنته منها تشريعات الدول المتعاقدة او التي لم تصادق عليها:

أ- اتفاقية طوكيو والخاصة بالجرائم والافعال التي ترتكب على متن الطائرات والموقعة بتاريخ ١٩٦٤/٩/١٤.

ب- اتفاقية لاهاي بشأن مكافحة الاستيلاء غير المشروع على الطائرات والموقعة بتاريخ ١٩٧٠/١٢/١٦.

ج- اتفاقية مونتريال الخاصة بقمع الاعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني والموقعة في ١٩٧١/٩/٢٣ والبروتوكول الملحق بها والموقع في مونتريال بتاريخ ١٩٨٤/٥/١٠.

د- اتفاقية نيويورك الخاصة بمنع ومعاقبة الجرائم المرتكبة بالاشخاص المشمولين بالحماية الدولية بمن فيهم الممثلون الدبلماسيون والموقعة في ١٩٧٣/١٢/١٤.

هـ- اتفاقية اختطاف واحتجاز الرهائن والموقعة في ١٩٧٩/١٢/١٧.

و- اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لسنة ١٩٨٢، ما تعلق منها بالقرصنة البحرية)

اما المادة الثانية من هذه الاتفاقية فنصت على الآتي (أ- لا تعد جريمة، حالات الكفاح بمختلف الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الاجنبي والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير، وفقاً لمبادئ القانون الدولي، ولا تعتبر من هذه الحالات كل عمل يمس بالوحدة الترابية لأي من الدول العربية. ب- لا تعد أي من الجرائم الارهابية المشار اليها في المادة السابقة من الجرائم السياسية وفي تطبيق احكام هذه الاتفاقية، وتعد من الجرائم السياسية ولو كانت بدافع سياسي الجرائم الآتية:

١. التعدي على ملوك ورؤساء الدول المتعاقدة والحكام وزوجاتهم أو اصولهم أو فروعهم.
٢. التعدي على أولياء العهد، أو نواب رؤساء الدول أو رؤساء الحكومات، أو الوزراء في أي من الدول المتعاقدة.

٣. التعدي على الأشخاص المتمتعين بحماية دولية بمن فيهم السفراء والدبلوماسيون في الدول المتعاقدة أو المعتمدون لديها.
٤. القتل العمد والسرقة المصحوبة باكراه ضد الافراد أو السلطات أو وسائل النقل والمواصلات.
٥. أعمال التخريب والاتلاف للممتلكات العامة المخصصة لخدمة عامة حتى ولو كانت مملوكة لدولة أخرى من الدول المتعاقدة.
٦. جرائم تصنيع أو تهريب أو حيازة الأسلحة أو الذخائر أو المتفجرات أو غيرها من المواد التي تعد لارتكاب جرائم ارهابية.)

وتقوم هذه المادة بتعريف الاتفاقيات الست التي أقرتها الأمم المتحدة وفيها اعتمدت في التعريف على الأسلوب غير العام او الشامل (أي إنها اعتمدت في التعريف على الأسلوب القطاعي) كما يوجد تعريف في معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامي لمكافحة الإرهاب الدولي والمقرة من جانب مؤتمر القمة الإسلامي المنعقد بتاريخ ١٩٩٩/٦/١٤ وفي معاهدة منع ومكافحة الإرهاب للدول الأعضاء في منظمة الوحدة الأفريقية الموقعة في ١٩٩٩/٧/١٤ فضلاً عما اقره مجلس الاتحاد الأوربي بهذا الخصوص اما اللجنة السادسة التابعة للجمعية العامة للامم المتحدة فهي تنظر حالياً في مشروع اتفاقية شاملة تتعلق بالإرهاب الدولي وقد تتضمن هذه الاتفاقية في حال اعتمادها تعريفاً للارهاب[١٢].

ان إعطاء تعريف محدد للإرهاب او الجريمة الإرهابية امر سوف لن يتم الاتفاق عليه على المستوى الدولي الا بعد الاتفاق على تحديد أشكال الأفعال المكونة للعمليات الإرهابية بالشكل الذي يقود الى يجاد نوع من الفصل الواضح بين ما يمكن ان يعد فعلاً او تصرفاً ارهابياً وبين ما يمكن ان يعتبر شكلاً من إشكال الدفاع عن النفس او شكلاً من إشكال المقاومة المسلحة المشروعة التي تعمل في إطار الحق في تقرير المصير الثابت بصورة قانونية.

---

[12] محمد عزيز شكري، المصدر السابق، ص٢١٨، وانظر بخصوص جهود اللجنة السادسة (اللجنة القانونية) التابعة للجمعية العامة اعتماد اتفاقية شاملة بشان الارهاب الدولي موقع اللجنة السادسة على الشبكة:
www.un.org/law/cod/sixth/59.htm

وقد أكدت محكمة العدل الدولية في رأيها الاستشاري الصادر بتاريخ ٩ تموز ٢٠٠٤ المتعلق بالتبعات القانونية المترتبة على بناء الجدار العازل في الاقليم الفلسطيني المحتل[١٣] على ان الحق في تقرير المصير يعد من المبادئ القانونية الدولية التي ترتب التزامات على الكافة erga omnes اما على المستوى الوطني او الداخلي فلا توجد مشكلة في التعريف اذ ان السلطة التشريعية في كل دولة لها الحق في ان تعتمد المفهوم الذي تراه مناسباً لوصف فعل جرمي معين وهذه مسألة تدخل في إطار الاختصاص الداخلي للدولة[١٤].

ان أي تعريف للإرهاب من الضروري ان يتضمن مجموعة من العناصر هي:

١- العنف كظاهرة او سلوك يعبر عن نفسه بعدد من المظاهر ولهذا السلوك اثر فعال على الأوضاع السياسية والاجتماعية والنفسية ويمكن وصفه على انه رد فعل لوضع معين يعكس عدم الرضا عن أوضاع اقتصادية او سياسية او اجتماعية فهو ضغط مادي او معنوي يتخذ طابعاً فردياً او اجتماعياً.

٢- يعتمد العمل الإرهابي على العامل النفسي الى حد كبير والمتمثل في إشاعة الرهبة والخوف في نفوس الضحايا المحتملين فالعمل الإرهابي يعمل على إشاعة جو من الخوف العام والرهبة من ردود أفعال عنيفة محتملة يمكن ان تقوم بها المجموعات الإرهابية دون سابق إنذار وبصورة مفاجئة.

٣- يستهدف العمل الإرهابي تحقيق أهداف سياسية ويتم اللجوء الى الأعمال العنيفة ذات الطابع الإرهابي ضد الهدف نظراً للتفاوت الكبير بين قوة الإرهابيين وقوة ضحايا الإرهاب (السلطة غالباً).

٤- تتم ممارسة العمليات الإرهابية عن طريق العنف المنظم والمتصل الذي تتخذه صورة جماعات إرهابية تغذيها أيديولوجيات وأفكار يؤمن بها الإرهابيون الى حد بعيد.

---

[13] I.c.j, legal consequences of the construction of a wall in the occupied Palestinian territory (Request for advisory opinion) summary of the advisory opinion of 9 July 2004

[14] أنظر ايضاً حول تعريف الإرهاب من وجهة نظر اخرى وصعوبات التعريف وفيما إذا كنا بحاجة إلى تعريف، وكيف يمكن أن نعرف الإرهاب

Jean – marce sorel, some question about the definition of terrorism and the against its financing, E.J.I.L, vol. 14 no.2. 2003. p.p 365-378

المطلب الثاني: آثار الإرهاب المباشرة وغير المباشرة على حقوق الإنسان

تمثل العمليات الإرهابية التي تشكل ظاهرة إجرامية شكلاً خطيراً وتهديداً حقيقياً لمجموعات الحقوق والحريات الأساسية التي اقرتها الحركة او النشاط القانوني لحقوق الإنسان سواء على المستوى الوطني او على المستوى الدولي والحقيقة انه يوجد نوعين من الاثارة التي يخلفها الإرهاب في علاقته بحقوق الإنسان وهذا ما سنتعرض له في الفرعين الآتيين:

الفرع الاول: الاثر المباشر

الفرع الثاني:الاثر غير المباشر

الفرع الثالث: الإفلات من العقاب والتسليم

الفرع الأول: الأثر المباشر

لا يوجد حق من الحقوق الأساسية التي يجب ان يتمتع بها كل إنسان لا تتأثر بالإرهاب فالحق في الحياة والحق في عدم التعرض للتعذيب والاحتجاز التعسفي، وحقوق المرأة وحقوق الطفل والحق في الصحة والحق في العيش(الغذاء) والحق في نظام ديمقراطي وسلام وامن والحق في عدم التمييز كلها تتأثر بصورة او بأخرى نتيجة العمليات الإرهابية وما تخلفها من آثار، ففي بعض الدول يتم حرمان الأشخاص المحتجزون كإرهابيين من حقوق الزيارة وقد تمتد هذه الممارسة لتشمل إنكار حق المدعى عليه في الاتصال بمحاميه او فرض قيود شديدة تعرقل من إمكانية تحقيق اللقاء مع محاميه وهذا قد يشمل اشتراط الحضور المستمر لموظفي الدولة في لقاءات المحامي بموكله مما يؤدي الى الانتقاص من حق المتهم في الحصول على المشورة القانونية[15].

ويشمل الأثر المباشر للإرهاب على حقوق الإنسان اتباع إجراءات خاصة تسمح بالتثبت من الهوية، وتفتيش البيوت وافعال أخرى تطال الحقوق في الحياة الخاصة والأحكام المتعلقة بإجراءات تحقيق محاكمات نزيهة فضلاً عن التسامح في الإجراءات اللازم توافرها لإصدار مذكرة قبض او إلغاء الحاجة لها بصورة كلية او يمكن الحد من عدد الشهود الذين

15 انظر الوثيقة المرقمة E/CN.4/ Sub.2/2001/31-27 June 2001 تقرير مرحلي مقدم من المقررة الخاصة كاليوبي ك كوفا، الإرهاب وحقوق الإنسان، ص٣٧.

يسمح لهم بالإدلاء بشهاداتهم والذين يطلبهم المتهمون بارتكاب أعمال إرهابية وقد يصل الأمر الى منع حضور أي شهود بصورة مطلقة وهذه إجراءات تؤثر بصورة خطيرة في المحاولات المبذولة من جانب المدعى عليه لاثبات عدم صلته او ارتباطه بمجموعة معينة ينظر إليها النظام القانوني باعتبارها مجموعة إرهابية.

ان هذه الإجراءات الاستثنائية تؤثر تاثيراً مهماً على جوانب مهمة تخص سير العدالة فهناك مسائل قانونية معقدة من الصعب على الكثير من محامي الدفاع معالجتها او التعامل معها، كما ان السلطة القضائية قد تتردد في الوقوف بوجه الدولة في هذه المسائل فحتى الدولة التي تملك قضاءً مستقلاً ونزيهاً بصورة نسبية لا يوجد إلا عدد قليل من المحاميين والقضاة الذين لديهم ثقافة جيدة في مجال حقوق الإنسان والمعايير التي يجب الالتزام بها لإعمال هذه الحقوق، وعندما تستخدم الدولة قوانين المسؤولية الجماعية او قوانين التآمر ضد من يتهمون بممارسة الإرهاب فان جوانب مهمة من الحقوق الأساسية للإنسان الخاصة بالإجراءات القضائية ستكون عرضة للانتهاك كما في الحالة التي يقوم فيها شخص بتوزيع منشورات تتصل بالهدف نفسه الذي تدعو الى تحقيقه المجموعات الإرهابية فهنا قد يتهم الشخص المشار إليه بمساعدة الإرهاب وقد يتهم بارتكاب أعمال سبق ان قامت بها المجموعات الإرهابية وهو ليس متورط فيها اساساً[١٦].

ومن جانب أخر قد تشكل العمليات الإرهابية عند تصاعدها واتخاذها مساراً عنيفاً سبباً في إعلان الأحكام العرفية بمعنى العمل بموجب قوانين الطوارئ وهي مجموعة من القواعد والمبادئ القانونية التي تعطل العمل في حالة اللجوء اليها بالقوانين العادية ومنها تلك التي توفر ضمانات أساسية لحقوق الإنسان وعلى اعتبار ان الجمعيات الإرهابية تؤدي الى الإخلال بالنظام العام أو الأمن العام او الأمن القومي وعلى أساس المعنى المتقدم فقد نصت المادة الأولى من امر الدفاع عن السلامة الوطنية رقم (١) لسنة ٢٠٠٤ على (لرئيس الوزراء، بعد موافقة هيئة الرئاسة بالإجماع، إعلان حالة الطوارئ في اية منطقة من العراق، عند تعرض الشعب العراقي لخطر حال جسيم يهدد الأفراد في حياتهم ، وناشئ من حملة

16 المصدر نفسه،ص٣٨

مستمرة للعنف، من أي عدد من الأشخاص لمنع تشكيل حكومة واسعة التمثيل في العراق او تعطيل المشاركة السياسية السلمية لكل العراقيين او أي غرض آخر)

وفي حالة إعلان حالة الطوارئ فان رئيس الوزراء يخول سلطات استثنائية مؤقتة تؤثر على بعض الحقوق الأساسية التي من غير الممكن تعطيلها في الظروف الاعتيادية كوضع قيود على حرية المواطنين او الأجانب في العراق في حالات حددتها المادة(١/٣) او فرض حضر التجوال لفترة قصيرة على المنطقة التي تشهد تهديداً خطيراً للأمن او ....)

وهو ما نصت عليه المادة (٢/٣) او اتخاذ إجراءات احترازية على الطرود والرسائل البريدية والبرقيات ووسائل وأجهزة الاتصال السلكية واللاسلكية المادة (٤/٣) او فرض قيود على النقل المادة (٥/٣) او فرض قيود على المحال العامة والتجارية والنوادي والجمعيات والنقابات والشركات والمؤسسات والدوائر المادة (٦/٣) فضلاً عن إجراءات أخرى تؤثر بشكل او بآخر على النظام القانوني لحقوق الإنسان[١٧]. وفي الاطار ذاته فقد لجأت سكوتلانديارد ولاول مرة منذ الحرب العالمية الثانية إلى فرض رقابة خاصة ومشددة على مكتب بريد لندن بسبب سلسلة انفجارات تمت في المبنى بعد ارسال رسائل وطرود بريدية تحتوي على متفجرات[١٨]. ففي المملكة المتحدة وعندما بدأت السلطات المعنية بفرض تدابير الطوارئ في سياق النزاع في ايرلندا الشمالية جرت التضحية بحقوق الإنسان باسم الأمن، ومن بين الانتهاكات التي سهلت تدابير الطوارئ ارتكابها التعذيب وإساءة المعاملة والمحاكمات الجائرة. ومنذ مجيء الحكومة العمالية إلى السلطة عام ١٩٩٧ فقد عملت على انفاذ أربعة تشريعات بهدف مكافحة الإرهاب وهي قانون القضاء الجنائي (الإرهاب والتآمر) للعام ١٩٩٨ وقانون الإرهاب للعام ٢٠٠٠ وقانون مكافحة الإرهاب والجريمة والأمن العام للعام ٢٠٠١ وقانون منع الإرهاب للعام ٢٠٠٥ فضلاً عن مشروع قانون الإرهاب، وهذه تشريعات في مجملها لا تتماشى مع قانون ومعايير حقوق الإنسان، وأدى تطبيقها إلى

---

17 النصوص القانونية الواردة في امر الدفاع عن السلامة الوطنية رقم(١) لسنة ٢٠٠٤ على وجه التحديدالمادة الثالثة التي تخول رئيس الوزراء سلطات استثنائية مؤقتة في حالة الطوارئ وفي منطقة اعلانها منشوراً في الوقائع العراقية بالعدد المرقم ٣٩٨٧ في ايلول ٢٠٠٤.

18 احمد محمد رفعت، صالح بكر الطيار، المصدر السابق، ص٩.

انتهاكات خطيرة لهذه الحقوق حسب تعبير منظمة العفو الدولية. وكان قانون الإرهاب للعام ٢٠٠٠ قد منح السلطات المعنية صلاحيات بعيدة المدى وهي صلاحيات وصفها مفوض حقوق الإنسان في مجلس أوربا بأنها من أكثر تشريعات مكافحة الإرهاب في أوربا شمولية، فضلاً عن التعريف الواسع والفضفاض للإرهاب الذي جاء به هذا القانون، كما خلق هذا القانون نظاماً دائماً متميزاً للاعتقال والاحتجاز والمقاضاة بالعلاقة مع الجرائم الإرهابية مما يمكن أن يشكل انتهاكاً لمبدأ المساواة بين جميع البشر أمام القانون[١٩].

ان حالات إعلان الطوارئ التي تتم طبقاً لقوانين تنظم اللجوء الى فرض أحكام الظروف الاستثنائية لإجراء يؤثر في المستوى الطبيعي للحقوق وضماناتها المكفولة دستورياً وبموجب الاتفاقات الدولية كذلك، والحقيقة ان استخدام مصطلح النظام العام في نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وفي نصوص اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية واتفاقية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية يستهدف فرض تقيدات على بعض حقوق الإنسان قد تقود الى عدم الاستقرار والى إخلال او انتهاك بعيد المدى بالحقوق والحريات التي تضمنها الدولة مع الملاحظة ذاتها تنطبق على مصطلح الأمن العام وهو مصطلح مستخدم في النصوص التقييدية الواردة في المواد(٣/١٨) و(٢١٢) و(٢٢) من اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية، كما انها تنطبق على مصطلح الأمن القومي المنصوص عليه في المواد(٣/١٩) والمادتين(٢١) و(٢٢) من الاتفاقية ذاتها[٢٠]، وهذا يعني ان الاتفاقيات المنظمة لحقوق الإنسان تجيز التذرع بالحالات المتقدمة في حالة تحقق إحداها وهو أمر يقود إلى القول ان العمليات الإرهابية تؤثر على حقوق الإنسان وحرياته المكفولة في الأنظمة القانونية الوطنية والدولية سواء بعيداً عن الحالة المقبولة ضمن أحكام قوانين الطوارئ او خارج هذا الإطار.

---

[19] أنظر الوثيقة الصادرة عن منظمة العفو الدولية، المملكة المتحدة: حقوق الإنسان ونكث العهود، EUR451004/2006 في نيسان ٢٠٠٦، ص٥-٦.

20 أنظر مبررات النصوص المقيدة لحقوق الانسان وحريات الافراد، بدرية العوضي، النصوص المقيدة لحقوق الإنسان الأساسية في العهد الدولي وفي دساتير دول مجلس التعاون الخليجي، الكويت، ١٩٨٥، ص١٨-٣٧.

الفرع الثاني: الأثر غير المباشر

يتمثل الأثر غير المباشر الذي ينشأ عن الإرهاب من حالة الخوف العام الذي تخلقه العمليات الإرهابية المرتكبة ضد السكان المدنيين على وجه الخصوص فمثل هذا الشعور بالخوف الكبير غير المناسب مع الخطر الحقيقي او الفعلي قد يقود الى ولادة مواقف تتسبب في نشوء حالة خوف عامة لدى أعراق معينة او مجموعة دينية محددة مما قد يثير نوعاً من التعصب العرقي او الديني كما ان شيوع الإحساس بالخوف الوهمي قد يؤدي إلى إضعاف مقاومة التدابير المتخذة لمكافحة الإرهاب والمفرطة في القسوة وفي كل الأحوال فان هذا الشعور أحد الأسباب التي تقود إلى تقليص الحريات المدنية الأساسية.

وتتصل بهذه المسألة قضيتان لهما طابع سياسي الى حد كبير الأولى هي حالة الخوف التي يمكن ان تجعل أحد الشعوب يعيش في ظلها من دولة أخرى وقادتها وشعوبها دون وجود مبرر حقيقي لا يتناسب مع أي خطر يشكلونه فمثل هذا الشعور له اثر سلبي على فكرة التضامن الدولي وهي فكرة تقوم على ما ورد في الجملة الثانية من المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على ان الناس جميعاً (قد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم ان يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء) وهو واجب تبرره الأخلاق الدولية وتطبيقاً لهذا الواجب انهالت التبرعات والمساعدات من دول العالم وشعوبها والمنظمات الدولية على الدول التي تعرضت لزلزال المحيط الهندي الذي نشأ عنه مد بحري كبير أودى بحياة الآلاف من البشر في القارة الآسيوية.

المسألة الثانية تتعلق بالنقاش الذي يخص المقولة التي مضمونها (ان المحارب من اجل الحرية في نظري هو إرهابي في نظركم).

وهناك من يدعو على مستوى الدراسات القانونية المعنية بحقوق الإنسان الى عد بعض الأفعال المنتهكة لحقوق الإنسان باعتبارها جرائم دولية تخضع لولاية عالمية فضلاً عن الدعوة الى إضافة الأفعال التي تشكل حالة من حالات ارهاب الدولة الى الأفعال التي تعد جرائم دولية لا يمكن الاحتجاج بوجود حصانة للإفلات من العقاب[٢١].

---

[21] - كاليوبي ك. كوفا، المصدر السابق، ص٣٧

كذلك يمكن الإشارة الى مظاهر أخرى غير مباشرة ناتجة عن شيوع عمليات الإرهاب في مجتمع معين منها انعدام الأمن مما يتيح الفرصة للمجرمين في ارتكاب جرائم محددة تؤثر سلباً على مجمل الخدمات التي تقدمها فئات مؤثرة في المجتمع وهذا ما يحدث في العراق بعد تاريخ التاسع من نيسان ٢٠٠٣ نتيجة الانقلاب في الوضع الأمني الناتج عن عمليات إرهابية أدت الى شيوع الجريمة حيث اتخذت الممارسة الإجرامية مظاهر متعددة منها خطف الأطباء او قتل أساتذة الجامعات بهدف ابتزازهم مقابل مبالغ مالية وهذه مظاهر إجرامية قادت الى هجرة أعداد كبيرة منهم خارج البلد نتيجة الخوف من التعرض لحوادث مماثلة وترتبط بالآثار المباشرة وغير المباشرة للإرهاب على حقوق الإنسان مسائل الإفلات من العقاب والتسليم التي بدورها تثير مشاكل قانونية فتقليل تأثير الإرهاب على حقوق الإنسان يجب ان يقابل بخطوات فعالة في مجال مكافحة الإفلات من العقاب بالنسبة لمرتكبي العمليات الإرهابية وهو ما يتم بأعمال حق الضحية في المعرفة وحقه في العدالة وحقه في التعويض كما يجب ان تكون هناك آليات قانونية للتسليم تعتمد بين دول العالم لمكافحة الإفلات من العقاب وربما كان ما جاءت به قرارات مجلس الأمن الخاصة بالإرهاب والمتخذة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول خطوة بهذا الخصوص حول عدم جواز انتفاع الإرهابيين من المركز القانوني للاجئ طبقاً لاتفاقية ١٩٥١ وبروتوكول ١٩٦٧، والدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ جاء بنص يحظر منح صفة اللاجئ لمن يرتكب أعمالاً إرهابية، والحقيقة إن حمية اللاجئين تعد من جملة المواضيع المرتبطة بحقوق الإنسان التي تتأثر إلى حد كبير بالأعمال الإرهابية، فالحرب ضد الإرهاب التي أعلنتها الولايات المتحدة أدت إلى تفاقم النزعة إلى اعتبار الهجرة كتهديد أمني وتجسد ذلك من خلال تحويل خدمة الهجرة والتطبيع من وزارة العدل الأمريكية إلى قسم الأمن الوطني المشكل حديثاً ويمكن أن تتأثر حماية اللاجئين بثلاث طرق هي:

١. قد يتم تفسير بعض مواد اتفاقية عام ١٩٥١ المتعلقة باللاجئين ومنها تفسير شروط الفرد الواردة في المادة 1F بشكل موسع وبوضوح.
٢. قد يتم رفض ادعاءات عدم طرد الأشخاص الذين يشتبه بتورطهم بأعمال إرهابية وفي أن يكون هناك حكم عادل بهذا الخصوص.

٣. قد يتم فرض إيقاف حماية اللاجئين بشكل متهور على أساس الانتصارات القليلة، مثل الانتقال الضعيف أفغانستان.

ولم يكن أي من خاطفي الطائرات في أحداث ١١ أيلول لاجئ أو باحث عن لجوء،وتؤكد تقارير منظمة العفو الدولية إن أغلب ، إن لم يكن جميع الأشخاص الذين يتم احتجازهم من الناحية الإدارية بموجب تشريع المملكة المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول هم إما لاجئين أو باحثين عن لجوء، إذ ان عدم الربط هذا بين الحقيقة والاستجابة السياسية يهدد سلامة حماية اللاجئين.

وقد أعطى قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ١٣٧٣ وعلى مرتين إشارة واضحة إلى الحاجة إلى حماية نظام حماية اللاجئين الدولي من إساءة استخدامه من قبل الإرهابيين واتفاقية عام ١٩٥١ لم توفر ملاذا آمناً للأشخاص الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية وجرائم غير سياسية خطرة أو القيام بأعمال منافية لأهداف ومبادئ الأمم المتحدة.

وقد صنفت المادة 1F استبعاد هذه الفئات الثلاثة وقد تنطبق الأعمال الإرهابية وتحت ظروف تقييدية معينة على أي من هذه الفئات الثلاثة، ويمكن أن يؤدي التفسير الموسع لأسس الاستبعاد أو عمليات إصدار حكم لحالة معين إلى إثارة خطورة من الأشخاص قد يتم استبعادهم دون وجود دليل معتد به يتعلق بتورطهم في قيامهم بسلوك ما.[٢٢]

الفرع الثالث: الإفلات من العقاب والتسليم[٢٣]

في مرحلة السبعينيات من القرن المنصرم جرت تعبئة جهود المنظمات غير الحكومية والمدافعين عن حقوق الإنسان، كما جرت في بلدان معينة تعبئة جهود المعرضة الديمقراطية من أجل العفو عن السجناء السياسيين وهذا التطور تميزت بع دول أمريكا اللاتينية التي كانت آنذاك خاضعة لأنظمة استبدادية، وفي مرحلة الثمانينيات أصبح العفو يبدو

---

22 jean Fitzpatrick, speaking law to power, the war against terrorism and human rights, EJIL (2003) vol. 14, no.2, p.p 258-259.p 258-259.

23 أنظر بخصوص المبادئ المتعلقة بحماية حقوق الإنسان من خلال مكافحة الإفلات من العقاب التقرير النهائي الذي أعده السيد ل. جوانيه تحت عنوان إقامة العدل وتأمين حقوق الإنسان للمحتجزين/ مسألة إفلات مرتكبي انتهاكات حقوق الإنسان المدنية والسياسية

E/CN.4/sub.2/1997/20
26/june/1997.

أكثر فأكثر نوعاً من أنواع المكافأة على الإفلات من العقاب بظهور قوانين العفو الذاتي ثم انتشارها، وهي قوانين قامت الأنظمة الاستبدادية العسكرية الآيلة إلى النزول بإصدارها لصالحها وذلك سعياً منها لتنظيم إفلاتها من العقاب عندما سمح لها الوقت بذلك، وأثارت هذه الانحرافات ردود فعل حادة من جانب الضحايا الذين عززوا قدرتهم على التنظيم لكي ينفذ العدل، وبدأت مرحلة أخرى بعد نهاية الحرب الباردة وسقوط حائط برلين ورغبة المجتمعات التي كانت تشكل جزءاً من المعسكر الشرقي في إرساء الديمقراطية ووضع حد للمنازعات المسلحة الداخلية فكانت مسألة الإفلات من العقاب في صميم النقاش بين الأطراف المعنية وهما طرفان يبحثان عن توازن مفقود بين منطق النسيان الذي كان يرحك المضطهد السابق ومنطق العدالة طالب به الضحايا. وفي مرحلة رابعة أدرك المجتمع الدولي الأهمية التي تكتسبها فكرة مكافحة الإفلات من العقاب، فعلى سبيل المثال اعتبرت محكمة البلدان الأمريكية لحقوق الإنسان بموجب اجتهادات قانونية مبتكرة أن العفو عن مرتكبي انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان لا يتمشى مع حق كل شخص في أن تبت محكمة محايدة ومستقلة في قضيته بإنصاف.

ويمكن بالاستناد لما تقدم تحديد مجموعة المبادئ أو الحقوق التي تتعلق بمكافحة إفلات مرتكبي انتهاكات حقوق الإنسان من العقاب وهي حقوق للضحايا الذين يعتبرون أصحاب حق، وهذه الحقوق يجب احترامها لمصلحة ضحايا العمليات الإرهابية في مواجهة الإرهابيين وهي:

أولاً: حق الضحية في المعرفة:

يعد الحق في المعرفة أول الحقوق الثابتة للضحايا وهو ليس مجرد حق فوري يتمتع به أي ضحية أو أقرباء الضحية لمعرفة ما حصل بوصفه حقاً في الإطلاع على الحقيقة، فهو حق جماعي يعود أصله إلى التأريخ لتلافي تكرار الانتهاكات ويقابل هذا الحق واجب الذكرى الملقى على عاتق الدولة في سبيل الحماية من تشويه التأريخ الذي يطلق عليه اسم مراجعة التأريخ وإنكار التأريخ، فمعرفة شعب ما لتأريخ اضطهاده تندرج فعلاً في تراثه ويجب صونها بالتالي وهذه هي الأغراض الرئيسية للحق في المعرفة بوصفه حقاً جماعياً.

ثانياً: حق الضحية في العدل:

يقضي الحق في العدل أو في الانتصاف العادل والفعال إلى تمكين أي ضحية من المطالبة بحقوقه والتمتع بانتصاف عادل وفعال ولاسيما ليكفل له أن يقدم من اضطهده إلى المحاكمة وأن يتلقى الضحية التعويض ولا يمكن تحقيق مصالحة عادلة ودائمة إلا بإيجاد حل فعال يقتضيه العدل، والصفح بوصفه عامل مصالحة يفترض بصفته فعلاً شخصياً أن يعرف الضحية من ارتكب الانتهاكات وأن يتمكن مرتكب الانتهاكات من إبداء ندمه فلا بد أن يطلب العفو لكي يمنح.

ويفرض الحق في العدل التزامات على الدولة، فهو يلزمها بالتحقيق في الانتهاكات وملاحقة مرتكبيها وكفالة معاقبتهم إذا ثبتت إدانتهم وإذا كانت مبادرة الملاحقة تقع بين أيدي الدولة في المقام الأول فإنه يجب النص على قواعد إجرائية تكميلية تمكن كل ضحية من أن يكون طرفاً مدنياً في الملاحقة وأن يتخذ الضحية ذاته المبادرة إذا عجزت السلطات العامة عن اتخاذ تلك المبادرة.

ثالثاً: حق الضحية في التعويض:

يشمل الحق في التعويض تدابير فردية من ناحية وتدابير ذات نطاق عام جماعي من ناحية أخرى، ففيما يتعلق بالتدابير الفردية يجب أن يتمتع الضحايا على الصعيد الفردي من سبل الانتصاف الفعال ويجب أن تكون التدابير السارية علنية بأقصى ما يمكن، ويجب أن يشمل الحق في التعويض كامل الأضرار التي تكبدها الضحية.

أما التدابير العامة والجماعية فهي تتمثل بالإشادة السنوية بذكرى الضحايا أو اعتراف الدولة علناً بمسؤوليتها، وقد استلزم الأمر في فرنسا على سبيل المثال انتظار أكثر من خمسين عاماً ليعترف رئيس الدولة رسمياً في عام ١٩٩٦ بمسؤولية الدولة الفرنسية عن الجرائم التي ارتكبها نظام فيشي ضد حقوق الإنسان بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٤، وكذلك الحال مع الإعلانات المماثلة الصادرة عن الرئيس كاردسو فيما يتعلق بالانتهاكات المرتكبة في البرازيل في ظل النظام العسكري المستبد، ويتشدد بوجه خاص على مبادرة الحكومة

الأسبانية التي اعترفت مؤخراً لمناهضي الفاشية وأعضاء الفيالق الذين ناضلوا خلال الحرب الأهلية في صف الجمهوريين بصفة المحاربين القدامى.

أما فيما يتعلق بالتسليم فالحقيقة انها طريقة يستطيع بموجبها المجتمع الدولي أن يتصدى من خلالها للإفلات من العقوبة، وتركز الصكوك الدولية لمكافحة الإرهاب ومعظم الاتفاقيات الإقليمية الشاملة المتعلقة بالإرهاب على هذه المسألة ذلك ان اعتبار التسليم في العالم كله يعد أداة قوية للحؤول دون الإفلات من العقوبة ومن ثم التقليل من الأعمال الإرهابية. فالخوف من التسليم إلى دولة مستهدفة بأعمال الإرهاب أو إلى دولة تقاضي مرتكبي أعمال الإرهاب يعد رادعاً رئيسياً للإرهابيين المحتملين، فمن المهم أن يعلم الأشخاص الذين يمكن أن يتم إقناعهم بارتكاب أعمال إرهابية أنهم سيقاضون إذا ما ألقي القبض عليهم، كما من المهم بالنسبة لهؤلاء أن يدركوا العلاقة بين قانون اللجوء السياسي وقانون الإرهاب الناشئ الذي لا يجوز طبقاً له منح اللجوء لأشخاص ارتكبوا أعمالاً إرهابية، وقد نصت على ذلك المادة ٢١/ ثالثاً من دستور العراق النافذ عام ٢٠٠٦ والتي أكدت على أنه (لا يمنح حق اللجوء السياسي إلى متهم بارتكاب جرائم دولية أو إرهابية، أو كل من ألحق ضرراً بالعراق) ومن الضروري أن تخضع دعوات التسليم إلى إجراءات قضائية ينبغي للمحاكم أن تراجع هذه الطلبات بدقة ضماناً للتطبيق السليم للقانون الإنساني وغيره من القوانين.

الخاتمة:

إذا كان الإجماع منعقدا ان من اصعب القضايا المتصلة بالإرهاب هو البحث او الجزم بوجود تعريف متفق عليه يحدد المقصود بذلك فان تأثير الإرهاب او العمليات الإرهابية على حقوق الإنسان امر يحظى بنفس الدرجة من الإجماع سواء ارتبط الأمر بالآثار غير المباشرة او المباشرة وفي كل الأحوال يلاحظ ان الدول التي تتحقق فيها نسبة عالية من احترام حقوق وحريات الأفراد يقل فيها تأثير الإرهاب على حقوق الإنسان والعكس صحيح كما ان ما تقدم يعني بالمقابل ان انتهاكات حقوق الإنسان في المجالات المتعددة تعتبر من العوامل الرئيسية المسببة للإرهاب.

من جانب آخر يلعب العامل الاقتصادي دوراً مهماً في تأثيره على زيادة نسبة الانتهاكات الموجهة الى فئة معينة من الحقوق والحريات وبالنتيجة تأثيرها على الإرهاب فإقامة توازن اقتصادي فيما بين الدول وبالشكل الذي يعمل على تحقيق وإنجاز جانب كبير ومهم من الحق في التنمية فضلاً عن إقامة علاقات حسنة بين الدول كلها عوامل تساهم في تحسين المشهد العام لحقوق الإنسان من جهة احترامها وتقليل تأثيرات الإرهاب على مستوى تمتع الأفراد بها في مجتمعاتهم المتباينة.

ان ما تقدم الإشارة اليه من أثر مباشر أو غير مباشر ربما يبدو وكأنه يعكس العلاقة بين الدولة وسلطاتها من جهة والأفراد من جهة أخرى وهنا من الضروري للغاية التذكير بأن حقوق الإنسان في جوهرها تمثل واجباً بالنسبة لكل فرد تجاه الآخر فما يعد حقاً هو واجب في الوقت نفسه وهذا يعني ان من يلجأ للارهاب لا يعرف أو هو لا يريد احترام حقوق الآخرين المختلفة.

رؤية حول العلاقة المستقبلية بين العراق والمملكة العربية السعودية في مجال التعاون الامني ومكافحة الارهاب

المدرس المساعد
جمال مالك سعيد القويزي(*)

المقدمة

إن طبيعة الأعمال الإرهابية في تنامي متزايد نتيجة لعوامل عديدة أبرزها الفجوة بين الشمال والجنوب وتقاطع الثقافات بين الشرق والغرب والتباين الطبقي والاجتماعي بين المجتمعات الغربية والشرقية وتمسك الغرب عموماً بنظرية التفوق النسبي والإرتقاء الحضاري وأسبابه في المجتمعات النامية وخاصةً المجتمع الإسلامي والعربي ووجود منهج استعماري بأشكال مختلفة من خلال السيطرة الاقتصادية وفرض التبعية السياسية على الحكومات الضعيفة وأحياناً استعمال القوة العسكرية لغايات سياسية وكما حدث في غزو العراق .

إذاً يجب أن تخرج من النطاق الضيق لنظرية الإرهاب العالمي ويجب ربطها بمجمل حركة الأحداث الدولية لأنها عملية متناسقة مع تطور الصراع الأيدلوجي والاستراتيجي .

إن للتعاون الأمني أشكالاً متنوعة تبدأ من التعاون الثنائي . والتعاون الأقليمي والتعاون الدولي.

وأي انموذج للتعاون بين هذه الأطراف يعتمد على النيات الحقيقية والرغبة المشتركة والمصالح المتبادلة . ومن أهداف التعاون الأمني بين الدول بشكل عام الأهداف الآتية[1]:

١. توسيع نطاق المعرفة بالتنظيمات الإرهابية وقواها المحركة من أجل المنع والمكافحة.

(*) كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية.

[1] الاتفاقية الدولية لقمع الإرهاب بالقنابل . صادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثانية والخمسين (يناير سنة ١٩٩٨).

٠٢ مواجهة أنشطة المنظمات الأجرامية عن طريق تأكيد العقاب وحرمان تلك المنظمات من فرص العثور على ملاذات آمنة .
٠٣ حرمان المنظمات الأجرامية من الأموال التي حصلت عليها من الأنشطة غير المشروعة .
٠٤ توسيع نطاق التعاون القانوني والمساعدة المتبادلة بين الدول والارتقاء بنظم العدالة الجنائية من حيث الفاعلية والكفاءة .
٠٥ الاهتمام بالتدابير الوقائية .
٠٦ توعية الجهود وتعبئة الرأي العام ضد الجريمة .
٠٧ تحقيق حد من التقارب بين أجهزة الأمن لتوفير وحدة الأساليب والممارسات الأمنية.
٠٨ التنسيق بين القدرات البشرية والإمكانيات المادية وتبادل الدراسات والبحوث.
٠٩ تحقيق التكامل الأمني من أجل تلبية الحاجات الأمنية والقيام بدور فعّال في مواجهة الأخطار التي تمس أمن الدولة .

ونتيجة لهذه الظروف ، نجد أنفسنا بأمس الحاجة إلى فهم جذور الإرهاب والإحاطة الكاملة بكل تفاصيله من فكر وأعلام وتمويل ودعاية ومتابعة مروّجي فكر الإرهاب ونسيج ارتباطاتهم الخارجية وطرق الأمن الوقائي والتعرض وتسليط الضوء على نهجهم العدواني... وتوعية الشباب .. والرأي العام بمخاطر هذا النهج الذي يلبس غطاء الدين .. وإرباك خطط الإرهابيين من خلال المباغتة السريعة والمتابعة الدقيقة لكل خيوط الأعمال الإرهابية .

وبما أن العراق الآن يتعرض إلى أكبر هجمة إرهابية من خارج الحدود نتيجة ظروف الاحتلال ، فأنه من المفيد أن يتعاون مع جيرانه والذين أيضاً أبتلوا بهذا المرض الخطير وخاصةً الملكة العربية السعودية . مما يتطلب التعاون الوثيق في مكافحة الإرهاب والتنسيق على أعلى المستويات للحد من آثاره المدمرة على البلدين لأن الأهداف تتشابه والغايات واحدة لهذا التنظيم الأجرامي .. وهو شل وحدة البلاد وإغراقها في حروب طائفية وعرقية ..

ولهذا السبب ولأسباب عديدة سوف يتم التطرق إليها ، نجد من الضروري تسليط الضوء على أهمية التعاون الأمني في مكافحة الإرهاب بين العراق والسعودية وأن يكون هذا البحث بداية متواضعة لبحوث أخرى تتناول هذا الجانب في هذا الظرف الصعب الذي تعيشه المنطقة ..

وبما يخدم الشعبين الشقيقين ويكون بادرة لفتح مجالات أوسع لتطوير التعاون الثنائي في المجالات كافة .

الفصل الأول: مفهوم الإرهاب

في قواعد اللغة العربية ممكن أن نعرّف الإرهاب بإنه محصور ضمن مفهوم كلمة (رهب) وتعني الخوف أو التخويف أو الرعب ويعني الإضافة والتخويف والفزع .

وتعريف الإرهاب يختلف من حيث المعاني والتوصيف الضمني باختلاف ثقافة الشعوب " فقد تختلف المفاهيم في نظر بعض الباحثين ، فهناك من يعدّه جهاداً في سبيل الله مستنداً إلى قوله تعالى : (**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**) (الانفال ، آية ٦٠) . ويعدهُ عملاً مشروعاً .

وهناك من يعدهُ جزءاً من الجريمة المنظمة وعملاً منافياً للأعراف والقوانين الدولية ووسيلة من وسائل العنف الأعمى لتحقيق غايات سياسية . أو فرض ثقافة مغايرة لنمط السلوك الحضاري .

إذاً يمكن أن نستنتج أن اختلافه التوجه الثقافي والحضاري بين الشعوب يخلق حالة من التباين حول مفهوم الإرهاب .

إذاً يمكن أن نحصر الإرهاب ضمن عناصره الأساسية ومحتواه السياسي والديني وتفرزه عن العمل المشروع في مقاومة الإحتلال أو حالة الدفاع عن النفس. ويمكن أن نقارن الحالة ما يحدث في المقاومة النبيلة في جنوب لبنان ضد إسرائيل والمقاومة المشروعة في فلسطين المحتلة .

إذاً نجد في كلمة إرهاب (Terrorisme) تعني سياسة أو أسلوباً يُعدُّ لإرهاب وإفزاع المناوئين أو المعارضين لحكومة ما ، وهذا المعنى قريب لما كان يحدث في بريطانيا في تعاملها مع الجيش الجمهوري الأيرلندي السري وعملياته العسكرية ضد الحكومة البريطانية .

كما إن كلمة إرهابي (Terrorist) تثير بوجه عام إلى أي شخص يحاول أن يدعم آراءه بالإكراه أو التهديد أو الترويع . وكما مذكور في قاموس السياسة . تعني كلمة إرهابي (Terrorist) الشخص الذي يلجأ إلى العنف والرعب ليحقق أهدافه السياسية التي كثيراً ما تتضمن الإطاحة بالنظام القائم . ويمكن أن نذكر أن في قاموس العلوم الاجتماعية نجد أن كلمة الإرهاب تشير إلى نوع خاص من الاستبداد غير المقيد بقانون أو قاعدة . ولا يعير اهتماماً بمسألة أمن ضحاياه . وهو يوجه ضرباته إلى أهدافه المقصودة بهدف إيجاد جو من الرعب والخوف وشل فاعلية ومقاومة الضحايا .

وإنموذج الإرهاب في العراق أفضل صورة للسلوك الشاذ لهذه الجماعات والتي تدعي تارة إسلامية وتارة أخرى يلبس عباءة المقاومة لأنه أسلوب الترديع والتهجير والقتل للناس الأبرياء ليست صفة من صفات المقاومة النبيلة وكما في إنموذج حزب الله في لبنان .. فحزب الله لم يوجه أسلحته يوماً إلى شعبه أو يفرض آراءه السياسية أو الأيدلوجية بصيغة الإكراه والقوة المسلحة .. ولم يصنف أبناء شعبه إلى مرتدين وخونة وعملاء يجوز إقامة الحد عليهم وقتلهم ضمن تفسيرات المقدسي وغيره وليس القتال لانتزاع امتيازات إنهارت أو فتح صفحة للدبلوماسية والحوار وفتح الصفحة الثانية من القتال بالحوار والتعاون مع المحتل..

إذاً مقاومة هذا النوع من الإرهاب الدامي هي مسؤولية وطنية لكل أبناء الشعب بمختلف انتماءاتهم العرقية والمذهبية ..

إذاً يمكن أن نفهم حقيقة مهمة من طبيعة الأعمال الإرهابية وهي استعمال العنف في أقصى درجاته التدميرية بقصد إثارة ونشر الرعب باستعمال الوسائل التي تتراوح بين الاغتيالات وتفجير القنابل والسيارات المفخخة في الأماكن العامة والمزدحمة والهجوم المسلح على المنشآت والبنى التحتية والأفراد والممتلكات واختطاف الأشخاص وأعمال القرصنة

الجوية والبحرية .. واحتجاز الرهائن وإشعال الحرائق . وغير ذلك من الأعمال التي تتضمن المساس بمصالح الدول الأجنبية مما يترتب عليه إثارة المنازعات الدولية وتبرير التدخل العسكري (مثال ذلك ما حدث في أفغانستان بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية) .

الإرهاب الدولي

يغلب على الإرهاب المعاصر سمة عبور الحدود القومية كما أن له أساساً اقتصادياً قوياً عابراً للحدود القومية .

وتوضح دراسة حديثة للموارد الاقتصادية التي تنطوي عليها الأنشطة التمويلية للمجموعات الإرهابية وغيرها من المجموعات الفاعلة من غير الدول . الحجم الاقتصادي للمشاكل وطبيعتها[٢]. وترى الدراسة أن جذور الإرهاب اقتصادية وليست سياسية أو دينية وأن الإرهاب العابر للحدود القومية أصبح ممكناً نتيجة لثلاثة تطورات رئيسية . حدثت منذ الحرب العالمية الثانية :

١. نمو الإرهاب الذي ترعاه الدول . ولاسيما أثناء أوائل مرحلة الحرب الباردة عندما كانت القوتان العظميان تخوضان الحروب بالوكالة .
٢. خصخصة الإرهاب أثناء أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . عندما استقلت المنظمات المسلحة بنفسها عن رعاتها وطورت استراتيجيات للتمويل الذاتي .
٣. عولمة الإرهاب في التسعينيات . عندما تمكّن تحرير الأسواق المالية الدولية من القيود . المجموعات المسلحة من جمع الأموال في أكثر من بلد واحد والعمل عبر الحدود .

وتبين مجموعة من الدراسات كيف بنت أنواع مختلفة من المنظمات المسلحة اقتصاداتها الخاصة بدعم من الداخل من الاتجار غير القانوني بالمخدرات والموارد الطبيعية والأشخاص إضافة إلى الأنشطة القانونية والرسمية .

[2] P.Lock بيتر لوك . التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي . معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي .

بدأ ينشأ إجماع بأن الوسائل العسكرية غير فعّالة في محاربة الإرهاب الدولي. بل أن القضية هي إيجاد التوازن الصحيح بين وسائل الوقاية من أنشطة الإرهاب ووسائل مكافحة الإرهاب من خلال السياسات الطويلة الأمد التي تتعامل مع المنابع . وقد حددت الاستراتيجية الأمريكية لمحاربة الإرهاب التي تم تبنيها في شباط / فبراير ٢٠٠٣ أربعة أهداف لمكافحة الإرهاب :

١٠ إلحاق الهزيمة بالمنظمات الإرهابية ذات الامتداد العالمي .
٢٠ حرمان الإرهابيين من الرعاية والدعم والملاذ الآمن .
٣٠ تقليص الشروط الأساسية التي يسعى الإرهابيون إلى استغلالها .
٤٠ الدفاع عن المواطنين الأمريكيين والمصالح الأمريكية .

وهي تنص صراحةً على أن تشمل الاستراتيجية أيضاً تدابير طويلة الأمد ضد الشروط الأساسية التي تعزز اليأس والرؤى الهدامة للتغيير السياسي الذي يدفع الناس إلى إعتناق الإرهاب بدلاً من نبذه .

وتحدد استراتيجية الاتحاد الأوربي الأمنية مجموعة من الأسباب المعقدة للإرهاب . بما في ذلك الضغوط الناشئة عن التحديث . والأزمات الثقافية والاجتماعية والسياسية . ونفر الشباب الذين يعيشون في مجتمعات أجنبية .

طُورت مجموعة من الأدوات الأمنية الداخلية على المستوى الوطني لتفادي الهجمات الإرهابية غير المتوقّعة والحماية منها والحد من آثارها .

وقد جُمعت في الولايات المتحدة الأمريكية الهيئات المعنية بمكافحة الإرهاب معاً في وزارة الأمن الداخلي التي تأسست في سنة ٢٠٠٣ . وقد ارتفعت مخصصات موازنة الأمن الداخلي في الولايات المتحدة كثيراً منذ أحداث ١١ سبتمبر/٢٠٠١. لكن لا تزال تتعرض للانتقاد لكونها غير كافية.

لا تكفي الإجراءات التي تركز على الوقاية الداخلية والتجنب على المدى الطويل . بل أن هناك اعترافاً متزايداً بأن لمثل هذه التدابير مجموعة من العواقب المعاكسة على المستويين الوطني والدولي . وأن بعض هذه التدابير قد يفاقم المشاكل ويدخل مخاطر جديدة.

وكما رأى مسح حديث للمشاكل المرافقة لهذا النهج.. وقد تؤدي هذه التدابير مستقبلاً إلى تآكل الحريات المدنية . وتنفير مجموعات الأقليات الذين يُعدُّ تعاونهم حاسماً في الجهود الداخلية لمكافحة الإرهاب.وستقوض أيضاً السلطة الأخلاقية الغربية . ومقدرة الغرب على الضغط على الآخرين للتمسك الأسس والمعايير الدولية . ومن ثم تعيق إنشاء ائتلافات دولية واسعة لمكافحة الإرهاب .

وفي موازاة النهج على المستوى الوطني . ثمة اتفاق واسع على وجوب محاربة الإرهاب العابر للحدود القومية بوسائل دولية .

وقد أدخلت منذ ١١ سبتمبر/ ٢٠٠١ مجموعة من التدابير لهذه الغاية .

وطورت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) توجيهات للمجتمع الدولي والحكومات بشأن كيفية التعاطي مع الارتباطات بين الإرهاب والتنمية . وهي تملك نهجاً شاملاً :

(على حكومات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية حشد الفاعلين في التجارة والدفاع والشؤون الخارجية والهيئات المالية والتنموية العمل معاً لصياغة أدوار واضحة في محاربة الإرهاب . وقد تم تحديد أربع مهام رئيسية :

أ. تعزيز الاستقرار الهيكلي على المدى الطويل .

ب. ثني المجموعات الساخطة عن اللجوء إلى الإرهاب والأشكال الأخرى للنزاع المسلح.

جـ. حرمان المجموعات أو الأفراد من وسائل تنفيذ الإرهاب .

د. تعزيز تماسك السياسات وتكاملها . وهذه التوجيهات ليست غير مثيرة للجدل لكنها أثارت عدداً من القضايا . بما في ذلك إذا ما كان يجب أن توجه السياسة التنموية نحو البلدان التي يشكل فيها الإرهاب مشكلة أم نحو البلدان التي يأتي منها الإرهابيون .

وإذا ما كانت المعونة المقدمة إلى مثل هذه البلدان تخلق حافزاً (لتسليم الإرهابين) وإذا ما كان يجب استعمال معونة التنمية لأغراض غير تقديم المساعدة إلى الفقراء .

الأهم من ذلك في السياق الدولي أن الأمم المتحدة تبنت قرارات عـدة تتعامـل مـع الإرهاب الدولي . وعلى وجه الخصوص يفرض قرار مجلس الأمن الدولي ١٣٧٣ . الـذي تم تبنيه في ٢٨ سبتمبر /٢٠٠١ . على الدول الأعضاء كافـة فـي الأمـم المتحـدة سـن التشريعات المحلية التي تجرم الأفعال الإرهابية وتقديم الدعم والتمويل لهذه الأفعال . وتحرم الإرهابيين من الملاذ الآمن وتحظر تقديم أي دعم آخر للإرهـابيين . مثـل تقـديم الـسلاح ويتطلب التعاون العاجل مع الدول الأخرى في تطبيق مثل هذه التدابير. ولمراقبة تطبيق هـذا القرار . أنشأ مجلس الأمن الدولي لجنة مكافحة الإرهاب .

غير أنه كما يرى تحليل صدر مؤخراً . تفتقر لجنة مكافحة الإرهاب إلـى الـسلطة والموارد المطلوبة للقيام بدورها . ووفقاً لرئيسها الأول السير جيرمي غرينستوك . فأن هدف لجنة مكافحة الإرهاب هو (مساعدة النظام العالمي في الارتقـاء بقدراتـه علـى حرمـان الإرهاب من المجال والمال والدعم والملاذ . وتأسيس شبكة لتشارك المعلومـات . واتخـاذ الإجراءات التنفيذية التعاونية .

ومن العقبات الأساسية أن العديد من البلدان لا تستطيع تحمل تكاليف تقوية الضوابط الحدودية الضعيفة .

ولقد أفادت هيئة الأمم المتحدة الرفيعة المستوى بشأن التهديدات والتحديات والتغييـر أن العديد من الحكومات ومنظمات المجتمع المدني التي جرت استشارتها عبّرت عن مخاوفها من أن مقاربات الإرهاب التي تركز بشكل كامـل علـى التـدابير العـسكرية والـشرطية والاستخبارية تخاطر بتقويض الجهود الرامية إلى تعزيز الحكم الصالح وحقـوق الإنـسان . وتنفر أجزاء من سكان العالم ومن ثم تضعف إمكانية العمل الجماعي ضد الإرهاب .

وعلى المستوى العربي نلاحظ قصوراً واضحاً في التعاون العربي لمكافحة الإرهاب نتيجة عدم التجانس السياسي بين الأنظمة العربية وافتقار المقومات الأساسية للتعاون المهنـي والفعال وكذلك ضعف الإجراءات وافتقار قاعدة المعلومـات العربيـة للتحـديث والتـداول المشترك . وتزايد الشكوك بين الأجهزة الأمنية العربية في مجال مراقبة ومتابعـة الحـدود

وعمليات التهريب . وقيام بعض الأنظمة العربية باستغلال هذا الجانب لأغراض سياسية بحتة أدت إلى تدهور الوضع الأمني لبعض البلدان مثل ذلك العراق .

الفصل الثاني

طبيعة النظام السياسي للمملكة العربية السعودية

مدخل لفهم السلوك السياسي للنظام

إن النظام السياسي السعودي هو نظام ملكي وراثي مغلق والسعودية مملكة إسلامية محافظة يحكمها ملك يستمد سلطته من ولاء عائلته ــ آل سعود الكبيرة والمتماسكة وكذلك من ولاء فئة متنفذة من علماء الدين وتأييد قبلي يتمثل في ولاء شيوخ القبائل الأقوياء في أنحاء البلاد .

ويستند الأساس الدستوري للحكم على الشريعة الإسلامية التي تستمد قوانينها من القرآن الكريم والسنّة النبوية (الحديث) ثم آراء الفقهاء (الاجماع والقياس)[٣]. ولا توجد جماعات ضغط أو مصالح خاصة منظمة في السعودية كما هو الحال في الغرب . لاختلاف البنية السياسية وتباين الظروف الاجتماعية والأساليب والوسائل ومع ذلك يحرص نظام الحكم السعودي على أن تكون قراراته الداخلية والخارجية منسجمة مع التوجه العام للمجتمع .

وبصفة خاصة . فأن الأجهزة المنوط بها صناعة القرار السياسي الخارجي في المملكة العربية السعودية متعددة . منها الرسمي وغير الرسمي . وتتكون الأجهزة الرسمية من أربعة مستويات :

المستوى الأول :

ويختص به الملك وولي العهد والنائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وعلى هذا المستوى يتم وضع الخطط العامة ورسم الإطار النهائي للسياسة السعودية تجاه القضايا المطروحة .

---

[3] **حسن أبو طالب ـ من يحكم السعودية ؟ : دراسة في بناء السلطة السياسية بالمملكة ـ سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٦.**

المستوى الثاني :

ويختص به مجلس الوزراء وتناقش فيه النتائج التي توصل إليها وزير الخارجية السعودي طرفاً فيها . ويتم في مجلس الوزراء مناقشة سياسة ومواقف المملكة الخارجية تجاه القضايا التي يعرضها وزير الخارجية

المستوى الثالث :

ويتعلق بطريقة ووسائل إدارة السياسة الخارجية وسبل تنفيذها وتختص به وزارة الخارجية وأجهزتها المختلفة .

المستوى الرابع :

ويتعلق بمجلس الشورى الذي أُنشيء عام ١٩٩٢ وأصبح من اختصاصاته إبداء الرأي في السياسة العامة للدولة ودراسة المعاهدات والاتفاقيات الدولية . وكذلك الامتيازات واقتراح ما يراه بشأنها .

أما بالنسبة للأجهزة غير الرسمية التي تؤثر في السياسة الخارجية السعودية فانه يمكن رصد تأثير بعض الفئات والهيئات المتميزة على النحو الآتي :

١. إعطاء الأسرة المالكية (النخبة الملكية) :

تقوم النخبة الملكية بدور مهم في التأثير على القرارات الحكومية سواء التي تختص بالسياسة الداخلية أو الخارجية وعلى الرغم من أن الأسرة المالكة كبيرة العدد ، إلاّ أنها جميعاً متداخلة العلاقات ويتميز فيها صنع القرار بالتوفيق بين الاتجاهات المتعارضة تحقيقاً للإجماع الذي يمثل جوهر العملية السياسية في النظام السعودي .

ومن الطبيعي في إطار كبر حجم الأسرة السعودية أن تكون هناك تباينات في وجهات النظر بين الأمراء سواء أكانوا جيل واحد أو من أجيال عمرية مختلفة . ولكن هذا التباين ف وجهات النظر لا يؤثر في وحدة الأسرة المالكة وتضامنها . فهي استطاعت أن تحقق قدراً كبيراً من التماسك الداخلي وذلك عن طريق القيام بتوزيع جيد للأدوار السياسية بين الأمراء السعوديين داخل الجيل الثاني من الأمراء (أبناء الملك عبد العزيز) أو الجيل الثالث (أحفاد الملك عبد العزيز) .

وهو ما أتاح فرصة لبروز العناصر المؤهلة والأكثر كفاءة من الأمراء وارتقاءها لعدد من المراكز السياسية الهامة . والقيام ببعض المهام السياسية ذات الطبيعة الخاصة وأيضاً ترسيخ روح التضامن والتماسك الذاتي بين أمراء الأجيال المختلفة .

إن وجود أمراء سعوديين من أجيال مختلفة مختلفون في طبيعة النشأة ودرجة النفوذ السياسي بحكم المنصب يعكس درجة واسعة من الاختيارات والآراء . وعلى الرغم من ذلك فأنها كلها معنية بهدف واحد وأساسي ألا وهو حماية النظام السياسي السعودي وهذا يخلق نوعاً من الالتزام المعنوي بين الجميع بالتعاون على الرغم من الاختلاف في الآراء والوسائل وإبقاء هذا الاختلاف محاطاً بأكبر درجة من السرية والكتمان والعمل معاً على حماية المملكة واستقرار النظام السعودي .

وعلى أساس ذلك تأتي المهام السياسية المختلفة التي يقوم بها الأمراء عربياً ودولياً كعمل منسجم لصياغة وتنفيذ سياسة خارجية سعودية متميزة .

٠٢ علماء الدين (الجانب العقائدي):

تبدي القيادة السعودية اهتماماً خاصاً بعلماء الدين في المملكة وتحرص على سماع آرائهم في كل ما يختص بسياستها الداخلية والخارجية . فالعلماء يهتمون بوضع المعايير السلوكية للمجتمع وبعض اللوائح التنظيمية للدولة مع الاحتفاظ بحق الاعتراض على أية تشريعات يُرى أنها تتنافى مع مباديء الشريعة الإسلامية .

ويباشر علماء الدين نفوذهم في عملية صنع القرار أو برئاستهم لبعض الوزارات والهيئات السياسية مثل وزارة العدل ووزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٠٣ رجال الخدمة المدنية (التكنوقراط) :

يتمثل هؤلاء في أصحاب الخبرة والكفاءات العلمية والتقنية في مختلف قطاعات الدولة . وهؤلاء لهم رأي مسموع في كل ما يتعلق بالقضايا الفنية المعقدة وتعتمد الحكومة السعودية على هؤلاء ليس فقط في تسيير الأمور في القطاعات التي يقومون بإدارتها . وإنما تشمل رسم السياسات المستقبلية لهذه القطاعات . وعلى الرغم من أن رجال الخدمة المدنية

السعودية لا يشكلون جماعة متجانسة حيث يفتقدون القاعدة المؤسسية التي يتمتع بها رجال المؤسسة الدينية . إلاّ أنهم يمثلون جماعة ذات تأثير على القرارات الاقتصادية والمالية .

٤. (المثقفون وأساتذة الجامعات):

ينحصر تأثير المثقفين وأساتذة الجامعات في تشكيل التوجه العام للمجتمع ومناقشة القضايا العامة على مستوى واضح من الموضوعية مما يفيد أجهزة الدولة ويدعم خططها المستقبلية وغالباً ما تستعين الدولة بالكثير من هؤلاء المثقفين للعمل كمستشارين لأجهزتها الحكومية .

٥. رجال الأعمال :

ينحصر اهتمام رجال الأعمال في كل ما يختص بالسياسة الاقتصادية والصناعية والتجارية . ومع اهتمام المملكة العربية السعودية نحو تطوير وتوسيع قاعدتها الاقتصادية ودفع عملية التنمية إلى الأمام . فقد أبدت الحكومة اهتماماً كبيراً برجال الأعمال لكي يساهموا في تطوير القطاعات التجارية والصناعية وفق مبادىء الاقتصاد الحر الذي تنتهجه المملكة وبما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية . وتعوّل الحكومة على مساهمة القطاع الخاص لاسيما في السنوات الأخيرة للقيام بدور كبير في عملية التنمية .

ومن الواضح أن التلاحم بين رجال الأعمال والمسؤولين في الدولة يسير وفق خطة مدروسة تهدف إلى توسيع مشاركة هؤلاء في تنمية البلاد .

٦. رجال الإعلام والصحافة :

يقوم رجال الإعلام بدور مساند للسياسات الحكومية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي . وتسهم أجهزة الصحافة والإعلام في تشكيل التوجه العام وتوفر قنوات اتصال بين المواطنين وصانعي القرا ر . ويمكن أن نلمس أثر هذه المجموعة في عملية نقل المعلومات وتفسير السياسات الخارجية للدولة .

ومما سبق يتضح لنا أن أجهزة صنع القرا السياسي في المملكة العربية السعودية متعددة ما بين أجهزة رسمية وغير رسمية ويأتي على رأس الأجهزة الرسمية الملك ومجلس الوزراء ووزارة الخارجية ومجلس الشورى . أما الأجهزة غير الرسمية فهي تضم مجموعة

من الأفراد داخل النظام لها تأثير ملموس على قرارات الحكومة في كل ما يختص بالسياسة الداخلية والخارجية . ومن بين هؤلاء بعض النخبة من الأمراء والعلماء والمسؤولين الآخرين. وهذه النخبة تتفاعل مع النظام ولها صوت مسموع ومؤثر بحكم موقعها وعلاقاتها.

وعلى الرغم من الدور الذي تؤديه هذه الأجهزة غير الرسمية في صنع القرار السياسي السعودي الخارجي . إلاّ أنها غير مستقرة ويتراوح نشاط أفرادها صعوداً وهبوطاً وفقاً لظروفهم . فدورها في صناعة القرار السياسي لم ينبع من مسؤوليات مؤسسية أوكلت إليها . كما أن دور هذه الأجهزة يكاد يكون خفياً ومن الصعوبة حصر هذه الأجهزة وتتبعها إذ أنها أجهزة غير معلنة .

وأخيراً تم تشكيل هيئة تعنى بتوزيع الأدوار السياسية على أبناء الملك عبد العزيز وأحفاده . وتم تشكيل هيئة البيعة برئاسة الأمير مشعل بن عبد العزيز في ٢٠٠٧/١٢/١٠ والغرض منها وضع آلية لتوزيع المناصب بين أبناء الملك المؤسس عبد العزيز آل سعود وأحفاده .

الفصل الثالث

الرؤى المشتركة للتعاون الأمني العربي والثنائي بين الدولتين في مجال مكافحة الإرهاب

ترتبط المملكة العربية السعودية والعراق بحدود مشتركة تمتاز بطبيعتها الصحراوية وكذلك تمتاز المنطقة بالتداخل الجغرافي نتيجة وجود أراضي وعرة بين حدود الدولتين مما يساعد عمليات التهريب للأشخاص والبضائع والممنوعات من أسلحة ومخدرات وما شابه .

وهناك عوامل جديدة أدت إلى اختلال ميزان القوى بين الطرفين واختلال عمليات المراقبة المشتركة للحدود نتيجة سقوط النظام السابق وترك المناطق الحدودية سائبة في الجانب العراقي مما أدى إلى إرباك النظام الأمني السعودي نتيجة عمليات التهريب المتبادل وكذلك بروز ظاهرة استقطاب العناصر الإرهابية في المملكة إلى العراق للقيام بعمليات إرهابية تحت مسميات عديدة منها الجهاد الإسلامي ومقاومة الاحتلال والدفاع عن أرض إسلامية مغتصبة من قبل الكفار.

عملية الاختلال هذه ولّدت حاضنات مهمة لبعض الجماعات السعودية المتطرفة المرتبطة بتنظيم القاعدة الإرهابي بزعامة أسامة بن لادن .. ونتيجة عمليات التمويل الضخمة من قبل تنظيم القاعدة إلى جماعة التنظيم في العراق .. أدى هذا التمويل إلى كسب مجموعات عديدة من العراقيين المتذمرين من الاحتلال وأعماله غير العادلة .. وكذلك استطاع هذا التنظيم كسب ود العديد من الضباط ومنتسبي الأجهزة الأمنية المنحلة والقادة العسكريين والخبراء في هيئات التصنيع العسكري السابق والبعثيين السابقين وبعض المجموعات الإسلامية المتطرفة وضمهم إلى فصائله وتنظيماته ومد العون والمساعدة لهم بعد أن فقدوا وظائفهم ومراكزهم وامتيازاتهم السابقة من خلال حل الجيش والأجهزة الأمنية على يد بريمر الحاكم المدني الأمريكي للعراق .

إن عمليات نقل الأسلحة بين الدولتين أدت إلى تقوية الخلايا الإرهابية في المملكة العربية السعودية وساعدتها على القيام بأعمال إرهابية عديدة في المملكة طالت المنشآت الحيوية والأمنية منها والنفطية وكذلك والتخطيط لاغتيال بعض الرموز السياسية والدينية في المملكة . وكذلك الجاليات الأجنبية القصد منها زعزعة استقرار المملكة والاستفادة القصوى من الوضع المتأزم في العراق لتحقيق أغراضها السياسية في المملكة .. ولقد تداركت المملكة بوعي تام واستطاعت أن تأخذ زمام المبادرة من خلال القيام بعدة إجراءات أمنية فعالة للحد من هذه العمليات وتحجيمها ومطاردة العناصر الإرهابية وكشف الخلايا النائمة وكشف فعاليتها قبل تنفيذها . ومن هذه الإجراءات تشديد الإجراءات والمتابعة والمراقبة على بعض المراكز الفكرية المتطرفة التي تدعوا جهاراً إلى الجهاد في العراق وتوظف كل الفتاوى لأئمة الإرهاب لتجنيد الشباب السعودي في العراق من خلال الإيحاء لهم بأن مهمتهم في العراق هي مهمة مقدسة وتدخل ضمن فريضة الجهاد .. وكذلك قيام الجانب السعودي بتعطيل العديد من المكاتب والمراكز المالية التي تحول الإرهاب العالمي بحجة الزكاة أو مؤسسات دعم الفقراء أو مراكز الدعوة والإرشاد .. أو من خلال الدعم المباشر . وكذلك قيام المملكة بالتعاون الأمني مع منظومة الأمن الخليجي ومنظومة الأمن الدولي لكشف تحركات هذه المجموعات الإرهابية وأخيراً من جملة إجراءات المملكة ردع مراكز الإفتاء

وحصرها بمركز إفتاء مركزي وبمرجعية دينية حرمت الذهاب إلى العراق ونفت صفة الجهاد عن الانتحاريين الذين يقتلون الأبرياء بدون تمييز ..

وكذلك قيام الجانب السعودي بالمراقبة الدقيقة للأعلام الداعم لهذه الفتاوى المحرضة وكذلك مراقبة مواقع المجموعات المتطرفة على شبكة الانترنيت . وكذلك إدخال رجال دين أكفاء ي عمليات التوجيه والإرشاد والإصلاح في السجون السعودية للمغرر بهم .. وكذلك متابعة حركة الأموال والتمويل داخل المملكة وخارجها .

وللتأكيد على أهمية التعاون الأمني يمكن أن نجمل النقاط الآتية :

٠١ إن العالم اليوم أصبح متداخلاً ومترابطاً وأشبه ما يكون بمدينة أو قرينة صغيرة لوجود وسائل وأساليب الاتصال الحديثة والتقنية المتطورة والتكتلات الاقتصادية والسياسية ، وتبادل المنافع والخبرات .

٠٢ إذا كان الإرهابي يعلم أنه بوسعه أن يرتكب ما يشاء في بلد ما . ثم إذا ما هرب من ذلك البلد والتجأ إلى بلد معين . فأنه سيكون في مأمن من أن تطاله يد العدالة . فأن هذا سيكون له إنعكاساته وتداعياته الخطيرة على الدول منفردة أو مجتمعة وعلى أمنها .

٠٣ إن استفادة كل دولة بما لدى الآخرى من تجارب في مجال الأمن والتشريعات والنظم والأساليب . يعتبر ضرورة يمليها الواقع العربي . وتحتمها الأخوة . والمصالح المشتركة بين هذه الدول .

إضافة إلى الاعتبارات والأهداف والمقومات التي أشرنا إليها سابقا في اهمية التعاون الأمني

إن التعاون الأمني العربي قد قطع شوطاً كبيراً من ناحية التنسيق المشترك وتبادل المعلومات وتبادل الخبرات بين الأقطار العربية وكذلك تبادل الزيارات والتدريب المشترك والتعاون المشترك في الجانب الأمني والجانب الأقليمي والعربي وكذلك ضمن برامج الجامعة العربية .

ومن الأمثلة على وجود مرتكزات للتعاون الأمني العربي ، تم إنشاء العديد من المنظمات ومنها :

١. المكتب الدائم لشؤون المخدرات عام ١٩٥٠م .
٢. المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة في عام ١٩٦٠م.
٣. مؤتمر قادة الشرطة والأمن العربي عام ١٩٧٢م.
٤. مؤتمر وزراء الداخلية العربي عام ١٩٧٧م .
٥. مجلس وزراء الداخلية العرب عام ١٩٨٢م .

وللوقوف على إنجازات التكامل الأمني العربي . فأنه يأتي في مقدمة تلك الإنجازات مجلس وزراء الداخلية العرب وأمانته . وما تمخض من أدوات لتحقيق تعاون أمني عربي . بما في ذلك وضع استراتيجيات وصياغة اتفاقيات . ورسم خطط مرحلية للتنفيذ في مجالات أهمها مكافحة الجريمة ، ومكافحة المخدرات ، ومكافحة الإرهاب التي تمثل خطوات رائدة وبالغة الأهمية وإنجازاً كبيراً على درب مسيرة العمل الأمني العربي المشترك . هذا وقد أصدر مجلس وزراء الداخلية العربي خلال دورات انعقاده التي تمت خلال السبعة عشر عاماً الماضية (١٩٨٢-١٩٩٨م) العديد من القرارات الهادفة إلى تدعيم التعاون الأمني العربي وتعزيزه في المجالات كافة . ومن أهم الإنجازات التي حققها مجلس وزراء الداخلية العرب هو إقرار العديد من الاستراتيجيات[4]:

١. الاستراتيجية الأمنية العربية .
٢. الاستراتيجية العربية لمكافحة الاستعمال غير المشروع للمخدرات والمؤثرات العقلية.
٣. الاستراتيجية العربية الإعلامية للتوعية المدنية والوقاية من الجريمة .
٤. الاستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب . الاستراتيجية العربية للحماية المدنية (الدفاع المدني) .

[4] محمد عطية راغب . الجريمة السياسية في التشريع العربي المقارن .

وعدد من الخطط المرحلية لتنفيذ الاستراتيجيات . وتم كذلك عقد عدد من الاتفاقيات العربية :

١. الاتفاقية العربية لمكافحة الاتجار غير المشروع بالمخدرات والمؤثرات العقلية .
٢. الاتفاقية العربية الثنائية النموذجية في مجال الحماية المدنية .
٣. الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب .

وتم إعداد نماذج لقوانين عربية موحدة مثل :

أ. القانون العربي الموحد الإنموذجي للمخدرات .
ب. القانون العربي الموحد الإنموذجي للمؤسسات العقابية .
ج. القانون العربي الإنموذجي للمرور .

وفي مضمار التعاون والاهتمام العربي بمكافحة الجريمة بشكل عام والإرهاب بشكل خاص ، فقد أنجزت جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢م اتفاقية الإنابة القضائية . واتفاقية تسليم المجرمين . وبعد تأسيس المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة كان من ثمارها عقد مؤتمر سنوي لقادة الشرطة والأمن العرب .

وكان اجتماعه في مدينة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة في المدة من ١٨-١٩٧٢/١٢/٢١م . وفي هذا المؤتمر ناقش قادة الشرطة والأمن العرب موضوع تسليم المجرمين . وفي سبتمبر ١٩٧٧م أوصى المؤتمر العربي الأول لوزراء الداخلية العرب الذي عقد في القاهرة بوجوب الأخذ بعين الاعتبار الظواهر والاتجاهات الجديدة في الجرائم وكافة الأنماط السلوكية غير المألوفة على مجتمعنا العربي والإسلامي . وتنامت الجهود للتصدي لجرائم الإرهاب حيث عقد قادة الشرطة والأمن العرب مؤتمراتهم : السابع ، والتاسع ، والعاشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر ، والعشرين وتدارسوا فيها موضوع الإرهاب وقواعد التعاون العربي لمكافحة هذه الظاهرة .

كما أقر مجلس وزراء الداخلية العرب في دورة انعقاده الثانية في بغداد بقراره المرقم ١٨ بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٧م الاستراتيجية الأمنية العربية التي تهدف إلى حماية

المجتمع العربي من الإرهاب والتخريب وصنوف الجريمة كافة . وقد جاء في مقدمة هذه الاستراتيجية وتحت بند الأهداف ما يأتي :

١. تحقيق التكامل الأمني العربي تبعاً لوحدة الأمن العربي بهدى من الشريعة الإسلامية السمحاء . وذلك لأن الأمن الداخلي والخارجي لكل دولة عربية مرتبط بالأمن العربي الجماعي والاخلال باستقرارها السياسي والاقتصادي وقدرتها العسكرية من أجل التحرير والتنمية والرخاء ومجابهة التحديات التي تواجهها .
٢. مكافحة الجريمة بكل أشكالها وصورها القديمة والمستحدثة في المجتمع العربي وتطهيره من مختلف أنواع الإنحرافات السلوكية .
٣. الحفاظ على أمن الوطن العربي وحمايته من المحاولات العدوانية للإرهاب والتخريب الموجه من الداخل والخارج .
٤. الحفاظ على أمن المؤسسات والهيئات والمرافق العامة في الوطن العربي وحمايتها من محاولات العدوان على سلامتها .
٥. الحفاظ على أمن الفرد في الوطن العربي وضمان سلامة شخصه وحريته وحقوقه وممتلكاته .

وحددت الاستراتيجية الأمنية العربية عدداً من المقومات لتحقيق أهدافها .. وهذه المقومات هي كالآتي :

١. تحصين المجتمع العربي ضد الجريمة بالقيم الأخلاقية والتربوية النابعة من أحكام الشريعة الإسلامية .
٢. ترشيد السياسة الجنائية العربية باستقاء قواعدها من مبادىء الشريعة الإسلامية وتضمينها الوسائل التي تحول دون نشوء الميول الاجرامية والإجراءات المانعة لوقوع الجريمة والعقوبات والتدابير اللازمة لإصلاح المجرم وتأهيله. دون إغفال تجريم الانحرافات السلوكية المستحدثة بفعل المتغيرات الاجتماعية المستجدة .
٣. تحديث أجهزة الأمن العربية بتطوير أساليب عملها وتعزيزها بالطاقات البشرية المؤهلة .

٠٤ اعتماد المنهج العلمي في العمل الأمني العربي باتخاذ التخطيط العلمي أساساً للعمل الأمني والتزام الأجهزة الأمنية بصيغ البحث العلمي .

٠٥ تطوير المؤسسات العقابية والإصلاحية بتوفير أفضل الوسائل اللازمة لتمكينها من تأهيل وإصلاح المجرمين وجعلهم أعضاء صالحين في المجتمع.

٠٦ تدعيم وتعميم أجهزة الحماية المدنية والانقاذ في الدول العربية لتحقيق وقاية جادة من الكوارث الطبيعية ومعالجة أضرارها .

٠٧ تصعيد إسهام المواطنين في مكافحة الجريمة دفعاً للأخطار عن أنفسهم وعن المجتمع الذين يعيشون فيه .

٠٨ ترسيخ التعاون العربي على الصعيد الأمني .

٠٩ تعزيز التعاون الدولي في مكافحة الجريمة في إطار تزاوج الخبرة وتبادل المنافع لمواجهة الجريمة .

لغرض تعزيز التعاون الأمني بين العراق والمملكة العربية السعودية لما يواجهه البلدان من أخطار محدقة من التنظيمات الإرهابية والاجرامية . يمكن أن نشير إلى بعض النقاط الواجب اتباعها لتفعيل هذا التعاون في المستقبل :

٠١. بناء الثقة بين البلدين وخاصةً بين الأجهزة الأمنية المعنية بمجال مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة وتبادل اللقاءات الثنائية بين ضباط ارتباط البلدين ونقل المعلومات والحقائق بصورة دقيقة لما فيه مصلحة الطرفين . وتطوير فعالية غرفة العمليات المشتركة .

٠٢. زيادة عدد المخافر الحدودية وزيادة فعاليتها بما يضمن تقليل عمليات التسلل بين الطرفين .

٠٣. وضع أجهزة حديثة وخاصةً في مجال الرؤيا الليلية لكشف حالات التسلل وكما معمول به في المنطقة الحدودية بين الولايات المتحدة والمكسيك .

٠٤. التعاون مع القبائل والعشائر الساكنة في المنطقة المتاخمة للحدود . وخاصةً زعماء القبائل ووجهاء المنطقة ودعمهم من الناحية المادية والمعنوية .

٠٥. زيادة الاستثمارات في المناطق الحدودية وجعلها عامل جذب وذات مردود اقتصادي لأهالي القرى والقصبات الحدودية لكسب تعاطفهم.

٠٦. زيادة فعاليات المخافر الحدودية العراقية من خلال التنسيق المشترك مع قوات الحدود السعودية ورفدها بالإمكانيات والمعدات ويفضل اختيار العناصر وأغلبهم من أهالي تلك المناطق ووضع نظام حازم في التعامل مع حالات التهريب وخاصةً للأسلحة والمخدرات . وإعطاء مكافآت لعناصر قوات الحدود في حالة القبض على المتجاوزين .

٠٧. فتح حوار متواصل مع الجانب السعودي في مجال مكافحة الإرهاب والاستفادة من خبرة الكادر السعودي في هذا المجال .

٠٨. تسليم المجرمين بين الدوليين وتفعيل الاتفاقيات العربية والثنائية في هذا المجال.

٠٩. وضع دراسة ميدانية معززة بالخرائط والاستطلاع الجوي لتحديد الثغرات بين المناطق الحدودية لكلا الدولتين . ووضع أسس جديدة لفتح مخافر حدودية ثابتة وكذلك وضع دوريات متحركة وقاعدة لطائرات الهليوكوبتر ونظام رادار متكامل بين الطرفين .

١٠. تحديث قاعدة المعلومات بين الدولتين وخاصةً في مجال حركة الإرهابيين من خلال المناورة التي يقوم بها البعض من خلال السفر إلى أوربا ثم التوجه للعراق . ومن خلال الثقة المتبادلة وتعزيزها مستقبلاً . ممكن إشراك محققين سعوديين في عمليات استجواب إرهابيين سعوديين داخل العراق لكشف عمليات التمويل والتهريب والخلايا الإرهابية لتعزيز أمن البلدين وتعطيل عمليات تنظيم القاعدة الإرهابي في المملكة .

١١. لأغراض التمويه تقوم المجموعات الإرهابية في المملكة بخزن الاعتدة والأسلحة في المنطقة الفاصلة بين الجانبين .

١٢. زرع الوكلاء والمتعاونين من رعاة الأغنام وبعض المهربين لكشف حالات التسلل بين الدولتين .

١٣. تفعيل اتفاقية عدم الإعتداء بين الدولتين وإعادة صياغتها بما يخدم المصالح العليا للدولتين .

١٤. ربط العراق بمنظومة تبادل المعلومات لدول مجلس التعاون الخليجي .. وخاصةً في مجال مكافحة الإرهاب وتعقب المجرمين وقيام العراق بدور فاعل لتعزيز الأمن الأقليمي وتفعيل قيام منظمة أمن خليجي مشترك بشراكة فعالة مع العراق .

١٥. نظراً لتوتر العلاقات بين دول مجلس التعاون الخليجي وإيران ممكن أن يكون العراق حلقة الوصل في مجال التعاون الأمني بين دول الخليج وإيران. وخاصةً بعد الارتياب الخليجي من البرنامج النووي الإيراني .

١٦. تبادل الزيارات والتدريب المشترك مع منظومات الأمن الخليجي ووضع برنامج مستقبلي لمكافحة الإرهاب .

١٧. الاهتمام بمراكز البحوث الأمنية في النطاق الأقليمي وتبادل الدراسات والأفكار لمصلحة دول المنطقة .

١٨. قبل عملية التفاوض مراجعة كافة محاضر اللقاءات السابقة في المجال الأمني وكذلك دراسة كافة الاتفاقيات الأمنية الملزمة للطرفين والجهات الموقعة عليها وبيان سريانها أو تجميدها لأي سب من الأسباب وتفعيل اللجان الأمنية.

١٩. يجب أن تكون اللجان التفاوضية في المجال الأمني على إلمام كامل بطبيعة السياقات العسكرية والأنظمة والقوانين العسكرية للأجهزة الأمنية السعودية وحتى نظُام الترقية والرتب العسكرية لغرض التعامل مع المفاوضين السعوديين بأسلوب حرفي ومهني وعسكري فيه قدر كبير من الاحترام .

٢٠. تبادل الخبرات في مجال استيراد الأجهزة الحديثة وكذلك كيفية تشغيلها ومناشئها والاستفادة منها في مجال العقود للأجهزة الأمنية العراقية وخاصةً في مجالات العمل الجنائي .

٢١. زيادة مجالات التعاون الاقتصادي بين الدولتين وتشجيع رجال الأعمال السعوديين في الاستثمار في العراق لأنه المردود الاقتصادي سوف ينعكس على المجال السياسي والأمني .

٢٢. تشجيع الدولتين على إقامة منطقة حرة في المنفذ الحدودي عرعر . وسوف تكون بداية للتعاون الأمني الواسع بين الدولتين .

٢٣. توثيق حالات التسلل وأماكنها وطبيعة جنسيات المتعاونين معهم . وتحديد الثغرات السهلة التي من الممكن التسلل منها ووضع نقاط متخفية وتسهيل عملية العبور للقبض عليهم لاحقاً .

٢٤. تشكيل لجنة فنية لإزالة الألغام الغير المنفقلة بين الدولتين وعلى خط الحدود والاستعانة بالمؤسسات الدولية المتعاونة في هذا المجال .

٢٥. محاولة الاستعانة بأنظمة مشابهة لأنظمة مراقبة الحدود لتسهيل عملية التعاون المشترك بين البلدين .

٢٦. تعزيز التعاون المشترك بين منظومة الدفاع الحدودي لكلا الدولتين وتنفيذ دوريات مشتركة وإقامة دورات تدريبية للجانب العراقي لتعزيز قدراته وزيادة كفاءته والتعريف بآليات العمل الحدودي السعودي وطبيعة الآليات المستعملة أو الطائرات أو أجهزة الرصد وتبادل الخبرات لتلافي أي احتكاك سلبي مستقبلاً بين الجانبين . وإقامة زيارات متبادلة للمخافر الحدودية لتعزيز الثقة والتعاون البنّاء .

الخلاصة

إن ضرورات مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة أصبحت حاجة ماسة لكافة شعوب المنطقة نتيجة لحجم الأخطار التي يمثلها هذا العمل التدميري والذي يحاول فرض أجندته السياسية والدينية بكافة الطرائق غير المشروعة والمخالفة للأعراف الإسلامية ومتعارضاً مع القوانين الدولية والمحلية ومستهدفاً الوحدة الوطنية والدين الواحد والإنسانية جمعاء .

إذاً يجب أن تكون هناك وقفة حقيقية وجادة تخرج من النطاق الضيق للمصالح الذاتية والصراع السياسي ، والاختلاف المذهبي والأيدلوجي . وأن العراق والمملكة العربية

السعودية يشكلان الركن الأساسي للعمل الأمني العربي والأقليمي تحديداً لأهمية منطقة الخليج العربي على الاقتصاد العالمي .

وتحول المنظمات الإرهابية وتركيزها على أحداث توتر دائم في هذه المنطقة لأن تأثيرها سوف يكون كبيراً وفعالاً على المستوى الدولي . لهذا نرى تحول جهد وفعالية تنظيم القاعدة الإرهابي من أفغانستان معقل تنظيم القاعدة إلى العراق والمملكة العربية السعودية . وهذا يجعل من حكومة البلدين الشقيقتين أن تعي تماماً حجم المخاطر التي تحيط بهما .. مما يتطلب زيادة التعاون الأمني الفعال في مكافحة الإرهاب وفتح كافة المجالات التعاون بين المؤسسات الأمنية لكلا الطرفين ومن دون تحفظ .. لأن العدو واحد وهدفه مشترك في أحداث أكبر قدر من الضرر لكلا الدولتين .

والمهم الآن تفعيل الاتفاقيات الأمنية العربية المشتركة بروح الأخوة الصادقة ولذلك السعي لتنشيط الإجراءات والآليات الثنائية بين البلدين بما يخدم المصالح المشتركة للشعبين الشقيقين . وبما يخص العلاقة مع العراق نلاحظ أن هناك توجه سعودي لنخبة من الأمراء وصناع القرار ترى أن وضع عوازل بين البلدين هي عملية مضرة على المدى القريب والبعيد للمملكة . وترى هذه النخبة أن المجال الحيوي السعودي هو العراق لكونه البلد الأكثر مقدرة على مقاومة النفوذ الإيراني المتزايد في الخليج وعدم ترك العراق ساحة مفتوحة لتوسيع النفوذ الإيراني في المنطقة . ولكن يقف عائقاً أمام هذا التوجه حسب رأي هذه النخبة هو طبيعة النظام السياسي غير المتجانس في العراق والطبيعة المذهبية لشكل النظام السياسي.

وهذا ما نلاحظه في التحفظ السعودي في تطوير العلاقات السياسية والدبلوماسية والاقتصادية بين البلدين لأنه هناك توجس من تطوير العلاقات بما يصب في مصلحة النظام الإيراني .. لكون أن النظام في العراق حليف قوي لإيران وذلك لطبيعة التجانس المذهبي بين البلدين ولكن صدرت إشارات من الجانب السعودي بددت هذا القلق وقامت المملكة العربية السعودية بالإعلان عن فتح سفارة لها في العراق قريباً وقام بعض المسؤولين الحكوميين العراقيين .. بتبديد هذه المخاوف ونقل الحقائق بصورة واضحة وفتح كل الملفات

من خلال الحوار المباشر وأن النظام السياسي الحاكم في العراق لا يدين بالولاء لأي جهة خارجية إلاّ على أساس التعاون المشترك والمصالح المتبادلة .

ولكن هذا لا يكفي ، فهناك خطوات مطلوبة على الأرض ممكن أن تعزز العلاقة ومنها التعاون الأمني وزيادة حجم الاستثمارات السعودية وتطوير العلاقات الدبلوماسية وتبادل الزيارات لمسؤولي البلدين الشقيقين .

وكلنا يعلم أن هناك بعض الرموز السياسية في العراق أسهمت في تشويش العلاقة بين البلدين لأغراض سياسية واضحة ونقل المعلومات خاطئة للجانب السعودي . الغرض منها توتر العلاقة بين البلدين .

وإشعار الجانب السعودي أن النظام السياسي الجديد في العراق يغلب مصلحة فئة مذهبية على فئة أخرى .. وهذا ما دفع بعض الرموز السياسية والدينية في السعودية إلى أن تتبنى فكرة الدفاع عن هذه الفئة المذهبية في حالة اندلاع حرب أهلية في العراق لا سامح الله..

هناك مجالات عديدة للتعاون ويمكن أن تكون المملكة أكبر شريك تجاري للعراق في المنطقة نتيجة الخبرة السعودية في مجالات الإعمار والاستثمار .

وهذا ما سوف يفتح صفحة جديدة من العلاقة الوطيدة بين البلدين ويؤسس لشراكة مستقبلية تخدم الأمن الجماعي لدول الخليج العربي .

مستقبل العلاقات الامريكية-العراقية في ضوء مبادئ المالكي-بوش

المدرس المساعد
سعد سلوم(*)

المقدمة

تعود انطلاقة العلاقات الاميركية مع دول المنطقة الى النشاط الأمريكي المزدوج في المنطقة العربية، التبشيري والتجاري، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد دشنت العلاقات الاميركية العراقية من خلال النشاط الاقتصادي، الا إن الحكومات الأميركية المتعاقبة لجأت الى نشاط من نوع مختلف تمثل في الإرساليات التبشيرية المسيحية التي بعثت للمنطقة في سبيل نشر المسيحية بين سكانها، وقام المبشرون الأمريكان بممارسة نشاطهم في شمال العراق وأسسوا أول مركز تبشيري لهم في مدينة الموصل عام (١٨٨٩)، ثم تم افتتاح مركز تبشيري أمريكيا في البصرة عام (١٨٩١) .

وفي الحقيقة نجحت الإدارات الاميركية في استغلال النشاط التبشيري لرعاية مصالحها في العراق والمنطقة المجاورة في وقت كانت فيه الدول الأوربية (فرنسا وبريطانيا) تتنافس على اقتسام ممتلكات الرجل المريض (الدولة العثمانية)، ولم تكن الولايات المتحدة حينذاك مؤهلة للمطالبة بنصيب في التركة العثمانية لافتقارها لقوات عسكرية منتشرة في المنطقة، وانشغالها بحروبها في القارة الاميركية من اجل احكام سيطرتها عليها، واتباعها سياسة العزلة منطلقة من مبدأ مونرو الذي مكنها من بسط نفوذها من دون تدخل الدول الاستعمارية الاخرى.

وعلى الرغم من مبادئ الرئيس الاميركي ويلسون الأربعة عشر التي بشر بها الشعوب المستعمرة وبالأخص مبدأ (حق الشعوب في تقرير مصيرها) وتأسيس عصبة الامم 1919، فقد أقرت بنود اتفاقية (سايكس بيكو) السرية المعقودة بين كل من بريطانيا وفرنسا يوم (١٦/ أيار/١٩١٦) والمتضمنة تحديد مناطق النفوذ السياسي والاقتصادي لكلا الدولتين في أراضي الرجل المريض واستمرت السيطرة الاستعمارية لاراضي المنطقة في صيغة الانتداب.

لكن الولايات المتحدة التي ظلت في وضع المراقب للوضع الدولي التزاما منها بمبدأ العزلة

(*) كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية.

وعدم التدخل في شؤون الدول الاستعمارية الاخرى، لم تمض قدما والى ما لانهاية في تلك السياسة، سيما بعد أن ظهر العراق على الساحة الدولية كدولة ذات سيادة (وان تكن سيادة منقوصة) حيث سارعت الولايات المتحدة بالاعتراف به كدولة مستقلة عام (١٩٣٠) وكان هذا الاعتراف ضمنيا جاء من خلال التوقيع على المعاهدة العراقية، البريطانية , الأمريكية في تلك السنة.

وخلال الفترة الممتدة بين عامي (١٩٣٠-١٩٣٩) شهدت العلاقات العراقية - الأمريكية تطورا ملحوظا وبدأت تتضح معالم الاهتمام الاميركي بالعراق، ويمكن تقسيم العلاقات الاميركية العراقية الى ثلاث مراحل متميزة :

الاولى تشهد بداية الصراع والتنافس الاميركي البريطاني حول نفط العراق والذي تزامن مع بروز الولايات المتحدة كدولة عظمى وآفول الامبراطورية البريطانية سيما بعد الحرب العالمية الثانية واتجاه الولايات المتحدة الى وراثة المستعمرات البريطانية واشغال الفراغ الذي تركه الانسحاب البريطاني من منطقة الخليج، وتغطي هذه الفترة المتميزة حقبة الحكم الملكي في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة على يد البريطانيين عام ١٩٢١ وحتى يوم سقوط النظام الملكي على يد العسكريين في انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨

أما المرحلة الثانية فتمتد طوال حقبة العراق الجمهوري ١٩٥٨-٢٠٠٣ بتجلياتها القاسمية (نسبة الى عبد الكريم قاسم) والعارفية (نسبة الى الاخوين عارف) والصدامية ١٩٧٩-٢٠٠٣، وفيها نشهد بداية تدهور العلاقات الاميركية العراقية والتي وصلت الى اوجها في عام ١٩٩١ في المواجهة العسكرية المباشرة التي ترتب عليها هزيمة الجيش العراقي وانسحابه من الكويت ثم تجلى بعدها التصارعي في سقوط نظام صدام حسين عن طريق الغزو العسكري الاميركي المباشر ٢٠٠٣

في حين ستشكل المرحلة الثالثة والتي نعيش في خضمها الان، المرحلة التي تم فيها بناء العلاقات على اسس جديدة غير مسبوقة، رتبت لوضع العراق المتميز في أطار تحقيق الاهداف الاميركية العامة في منطقة الشرق الاوسط على خلفية من احداث ١١ من أيلول وتداعياتها، الامر الذي يضع مستقبل العلاقات الاميركية العراقية في دائرة الاهتمام الاقليمي والدولي في ضوء الثروات التي يمتلكها العراق والموقع الاستراتيجي له وسط جو اقليمي مشحون بالصراع وتعارض الاهداف والمصالح.

ووفقا لما تقدم سنقسم الدراسة الى المباحث الاربعة الاتية:

المبحث الاول: العلاقات الاميركية العراقية في فترة العراق الملكي ١٩٢١-١٩٥٨

المبحث الثاني: العلاقات الاميركية العراقية في فترة العراق الجمهوري ١٩٥٨-٢٠٠٣

المبحث الثالث: العلاقات الاميركية العراقية بعد الاحتلال الاميركي للعراق ٢٠٠٣

المبحث الرابع: آفاق ومستقبل العلاقات الاميركية العراقية في ضوء اتفاقية المالكي- بوش

المبحث الاول

العلاقات الاميركية العراقية في فترة العراق الملكي ١٩٢١-١٩٥٨

التنافس الاميركي البريطاني على نفط العراق

ان انهيار الامبراطورية العثمانية وانتصار القوات البريطانية، من فلسطين الى العراق، سمح لبريطانيا بالبقاء في المنطقة وتحويل الشرق الاوسط الى مستعمرة بريطانية واسعة. وحتى تضمن بريطانيا سيطرتها على هذه الاراضي، نصبت في ظل انتداب عصبة الامم حكومة ملكية في العراق أشتملت على ضباط محليين من الجيش العثماني ومتعاطفين مع بريطانيا، وتجار اساسيين وبيروقراطيين محليين ذوي روابط بالمشايخ وملاك الاراضي في المناطق الريفية، ومن ثم قامت الحكومة الملكية التي نصبتها بريطانيا بتنفيذ الاهداف السياسية والاقتصادية للانتداب البريطاني في العراق، وبحماية المصالح البريطانية في المنطقة بطريقة جيدة في القرن العشرين[1].

وعلى حد ما يلاحظ روجر أوين فإنه "بحلول منتصف العشرينات كان الانكليز والفرنسيون هم سادة الشرق الاوسط، فكانوا هم الذين يحددون الحدود الجديدة، وكانوا هم الذين يقررون هوية الحكام وأشكال الحكم فيه، وكانوا هم الذين كانت لهم-إلى جانب الاميركيين- الكلمة العليا في كيفية تقسيم الموارد الطبيعية للمنطقة، وخاصة حقول النفط التي بدأت لتوها في الظهور على شواطيء الخليج العربي وفي الموصل بشمال العراق"[2].

لكن الاسراع بنقل السلطة الى العراقيين ما كان ليكون بهذه السرعة أو يعد حلا مناسبا لولا التحدي الذي أثاره اندلاع ثورة العشرين ضد البريطانيين في العراق، واقتناع البريطانيين بوجوب نقل السلطة الى العراقيين وحكمهم بصورة غير مباشرة، اذ " نمت هذه الثورة في الميثولوجيا السياسية العراقية لتصبح الحدث المؤسس للأمة، وجذورها على وجه الاحتمال كانت تكمن في

[1] بيرش بيربروجلو، اضطراب في الشرق الاوسط-الامبريالية والحرب وعدم الاستقرار السياسي، ترجمة فخري لبيب، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢ ص٨٨

[2] روجر أوين، الدولة والسلطة السياسية في الشرق الاوسط ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٤ ص٢٢

الغضب من الغرض العسكري لجمع الضرائب الفعال. وكانت في ذروتها عند نهاية شهر آب قد انتشرت الى الفرات الأعلى والمنطقة المحيطة في بغداد. واستغرق ذلك من القوات البريطانية، في مواجهة ما مقداره ١٣١,٠٠٠ رجل، من الوقت حتى شباط ١٩٢١ لاستعادة السيطرة التامة على البلاد بكلفة ٤٠ مليون جنيه والكثير من الاصابات البريطانية"[3]. على أثر ذلك كلف المبعوث البريطاني السير بيرسي كوكس السيد عبد الرحمن النقيب بتشكيل أول حكومة محلية عراقية مؤقتة، فتألفت الوزارة برئاسة النقيب وعضوية ثمانية وزراء إضافة إلى اثني عشر وزير بلا وزارة وذلك بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٠، وقد روعي في اختيار الحكومة الجديدة نوع من التمثيل الطائفي والعرقي والعشائري والمدني.

وفي سبيل استكمال هيكل النظام السياسي العراقي توج الأمير فيصل بن الحسين ملكا على العراق يوم ٢٣ آب ١٩٢١ ولم يمض على حفلة تتويج فيصل ملكا على العراق إلا بضعة أيام حتى بدأت المفاوضات بين الجانبين العراقي والبريطاني حول استبدال الانتداب بمعاهدة.

وقد لقيت السيطرة البريطانية على نفط العراق معارضة اميركية، اذ ظل النفط (بالنسبة للولايات المتحدة) العنصر الاساس الاول لانطلاق العلاقة مع العراق وتدعيمها، فقد شكل اهم مدخلاتها وحركاتها (مهما تنوعت الذرائع) وتلك القاعدة يمكن تمييزها خلال الفترة الزمنية الممتدة منذ كان العراق تحت الاحتلال البريطاني وبعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وحتى وقوعه تحت الاحتلال الاميركي المباشر وبعد انهيار هذه الدولة .

فقد كانت مصادر الطاقة، منذ بداية التدخل الاميركي في المنطقة تشكل اهم أهم أسباب الصراع الأمزيكي البريطاني، ويذكر جيف سيمونز في كتابه "عراق المستقبل" ان بريطانيا ذهبت الى حد اتهام واشنطن بدعم المتمردين العراقيين ضد الحكومة البريطانية، وقد زعمت بريطانيا ذات مرة إن احد زعماء الثوار (عراقي الجنسية) قد تم اعتقاله على يد قوات الأمن البريطانية وهو يحاول إثارة الرأي العام ضد الحكومة ، وقد عثرت في حوزته على وثائق تثبت بأن القنصل الأمريكي في بغداد كان يمول الشيعة في كربلاء ويحشد طاقاتهم ويحثهم على طرد الإنكليز من البلاد[4].

---

[3] توني دوج، تأسيس العراق وعالم ما بعد الكولونيالية، ترجمة: عادل العامل، جريدة الصباح العراقية، ملحق آفاق استرتيجية بتاريخ ٧كانون الثاني ٢٠٠٨

[4] جيف سيمونز , عراق المستقبل - السياسة الأمريكية وإعادة تشكيل الشرق الأوسط , ترجمة : سعيد العظيم , دار الساقي , بيروت , ٢٠٠٤ , ص ٣١٨ .

لا انه تم اخيرا وضع حد للصراع الاميركي البريطاني على نفط العراق فقد جرى وضع نهاية له في إطار تساومي تم التوصل اليه في غضون السنوات الاولى من العهد الملكي، بين الاميركان والبريطانيين اعتباراً من تموز/ ١٩٢٢ وذلك بمنح الشركات الاميركية حصة من ذلك النفط لا تقل عن حصص الاطراف الاخرى، هذا الصراع انعكس على العلاقات الاميركية العراقية بمختلفها وخاصة مصالحها النفطية. كذلك انسحب على العلاقات الثقافية (مؤسسات ثقافية) اهمها كلية بغداد وجامعة الحكمة، والتجارية بين البلدين ومقدار تطورها الذي زاد قياساً الى ما كان قبل الحرب العالمية الاولى، مما فرض واقعاً جديداً في العلاقات الدبلوماسية بين العراق والادارة الاميركية رغم ادراك البريطانيين ضرورة ذلك الا انهم يرغبون ان يتم الامر من خلالهم وان لا يتجاوز الحد الذي رسموه[5].

في سنة ١٩٤٠ اتخذ قرار بخصوص العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الاميركية من الجانب العراقي يقضي بتأسيس مفوضية عراقية في واشنطن بدلاً من قنصلية عامة في نيويورك. وفي المقابل اخذت واشنطن تولي العراق بدورها اهتماماً اكبر باعتباره يحتل وزناً سياسياً واقتصادياً في الشرق الاوسط. وبسبب موقف الولايات المتحدة الاميركية العدائي من انتفاضة ١٩٤١ ودعمها المطلق للسياسة البريطانية انذاك ترك آثاراً سلبية في العلاقات الاميركية العراقية، وما اتخذته الولايات المتحدة الاميركية كان سلوكاً يتماشى ومصالحها السياسية والاقتصادية في اطار سياسة عامة للمنطقة والتغيرات الحاصلة على الصعيد الدولي، كذلك ما تؤدي اليه الحرب من تأثيرات على وضع بريطانيا ما سهل تدخل الولايات المتحدة الاميركية في شؤون العراق[6].

شمول العراق بقانون الاعارة والتأجير الاميركي

بعد دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية الى جانب الحلفاء معتبرة تأييد الحلفاء وفي مقدمتهم بريطانيا ضمن نطاق مصالحها، فأصدرت قانون الإعارة والتأجير Lend and Lease آذار من العام (١٩٤١) ليمثل نهاية الحياد الظاهري الأمريكي وبداية

---

[5] شهاب احمد الفضلي، العلاقات العراقية - الاميركية.. من علاقات تفضيلية الى القطع فالحرب، افاق ستراتيجية، ٢٢ كانون الاول تشرين الثاني ٢٠٠٧

[6] المصدر نفسه.

التأييد العلني دون الاشتراك في الحرب مباشرة . وبموجب هذا القانون قدمت الولايات المتحدة معدات ومعلومات دفاعية تحت لافتة (حماية الأمن القومي الأمريكي) لأية دولة أو جهة يعتقد بأن دفاعها ضروري لأمن الولايات المتحدة الأمريكية ، وحال صدور القانون المذكور أعلن الرئيس الأمريكي (روزفلت) بأن دفاع بريطانيا والأراضي الخاضعة لسيطرتها (في مقدمتها العراق) هو ضروري لدفاع الولايات المتحدة[٧].

وفي مايس من العام (١٩٤٢) شمل العراق بمساعدات الإعارة والتأجير بوصف دفاعه ضروريا لدفاع الولايات المتحدة .. لكن مع الحرص على عدم تزويده بمعدات ومساعدات عسكرية أمريكية إلا بالقدر الذي يتوافق مع متطلبات الأمن البريطاني في العراق، مما يعني عدم تزويد العراق بمساعدات عسكرية خشية استخدامها ضد الحليفة بريطانيا[٨].

في جميع الاحوال كان ما حصل عليه العراق بموجب قانون الاعارة والتأجير لايتوافق مع ما قدمه من خدمات للمجهود الحربي للحلفاء وقد وصل للكونغرس تقرير في نيسان ١٩٤٤ أعده شفيق حداد (الملحق العسكري في المفوضية العراقية في واشنطن) تحدث فيه عن نصيب العراق في ذلك المجهود، منها ان الحكومة العراقية وسعت منظمات الامن العام كالشرطة من أجل ان تمد بالحماية القوات الحليفة المرابطة في العراق، وتجهيزات المواد الحربية الضخمية التي نقلت عبر العراق الى روسيا، كما تحملت الحكومة العراقية جميع التكاليف التي نشأت من جراء وجود هذه المؤسسات، ووضعت جميع منشآت التلفون والبرق تحت تصرف الحلفاء وقلصت من استعمال المدنيين للبرقيات الى ادنى حد، وان المواصلات التلفونية مع الاقطار المجاورة قد اوقفت وسلمت الى القوات العسكرية الحليفة ...والمعدات...جعلتها تحت خدمة السلطات العسكرية، مع خدمات المهندسين العراقيين ومعامل التصليح العراقية.. وجعلت وزارة المعارف ...المعامل العائدة لمدارس التدريب اليدوي في تناول الحلفاء ...ووسعت مديرية الصحة العامة والمستشفيات خدماتها لتشمل القوات الحليفة. وفي الوقت نفسه استخدمت مديرية الاشغال العامة مقادير كبيرة من المواد

[7] أسامة عبد الرحمن نعمان الدوري، العلاقات العراقية الاميركية في سنوات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥، بغداد، مطبعة الرفاه، ٢٠٠٦، ص١٩٧

[8] المصدر نفسه ص ٢٠٤

التي لاتعوض والتي استوردتها اصلا لحاجة البلاد من اجل معاضدة المجهود الحربي للحلفاء. وينطبق الامر نفسه على على شبكة السكك الحديدية مع معاملها ومواردها وموظفيها..بما فيه من استخدام الطرق مجانا وانفاق الاموال لتقوية الجسور والمعابر وتسليم البواخر والسفن النهرية ومنشآت الموانى البرية والقنوات الى القوات العسكرية الخ[9].

لقد تحول قانون الاعارة والتأجير الى وسيلة مهمة لتعزيز النفوذ الاميركي في العراق في سنوات الحرب العالمية الثانية، فقد ساعد تنفيذه على تغلغل اقتصادي اميركي متزايد والى تزايد عدد الاميركيين في العراق والى توثيق الروابط بين الدولتين[10].

ضمن نطاق تطبيق هذا القانون قامت الولايات المتحدة بإنشاء أول ميناء بحري عسكري في أم قصر (أقصى جنوب البصرة) يطل على الخليج العربي، وقد كان مقررا إقامة هذا الميناء قبل سنوات الحرب إلا أن الإنكليز عرقلوا إنشاءه لأسباب متعلقة بتقوية مركز العراقيين، غير أن الحاجة أدت أيام الحرب العالمية إلى وجوده هناك فأنشئ بالمال والجهد الأمريكي الخالص .. وبعد استخدام الميناء وسكة الحديد التي أُوصلت به لتقديم المساعدات الحيوية للإتحاد السوفيتي وحالما انتهت الحرب، سارعت بريطانيا بالاتفاق مع الأميركيين – بتدمير الميناء كليا[11].

بفضل ما تقدم قطعت العلاقات الاميركية العراقية شوطا بعيدا على كافة الصعد في سنوات الحرب العالمية الثانية بحيث لم تنته الحرب الا واصبحت الولايات المتحدة تحتل المكانة الثانية بعد بريطانيا من حيث النفوذ في العراق، وتنافس بريطانيا بقوة لتزيحها عن مكانتها المتميزة هناك على غرار ما فعلت في العديد من اقطار الخليج العربي، وفي ايران وتركيا المجاورتين.

---

[9] المصدر نفسه ص ٢٠٧- ٢٠٨

[10] المصدر نفسه ص٢١٤

[11] سعد سلوم، النفط والايديولوجيا والتغيير في العلاقات الاميركية العراقية، مركز الصباح للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠٧

وقد ذهب نوري السعيد قبل ان تضع الحرب اوزارها الـــى ان الولايـــات المتحـــدة ستضع يدها على تراث بريطانيا بعد الحرب وكان بهذا الادراك يعكس قناعة ساسة العـــراق بهذه الحقيقة وما ستؤول اليه الامور[١٢].

من التنافس على النفط الى الصراع الايديولوجي

حين وصل ترومان الى حكم البيت الابيض بعد وفاة روزفلت قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت مخاوف اميركية من بروز معسكر جديد بقيادة الاتحاد السوفيتي، مما تطلب تعزيز مركز الولايات المتحدة بتقوية المعسكر الرأسمالي في مواجهة المعسكر الاشتراكي ووقف المد الـــشيوعي، وجراء ذلك ظهر مشروعان يهدف احدهما الى إيقاف انتشار الشيوعية في منطقة الشرق الأوســـط وهو ما عرف بـــ (برنامج النقطة الرابعة) وثانيهما يهدف الى اعمار أوربا وتقوية المعسكر المحالف للولايات المتحدة وهو ما سمى بـــ(مشروع مارشال) نسبة الى رئيس أركان الحرب الأمريكي آنذاك (جورج مارشال) J . Marshall.

وفي إطار برنامج النقطة الرابعة الأمريكي ابرم العراق اتفاقا مع الولايات المتحـــدة يوم (١٠- نيسان -١٩٥١) تضمن بنودا هامة تتعلق بتعهد العراق بتقديم المعلومات المتعلقـــة بالمشاريع والبرامج والإجراءات والأعمال التي تنفذ بموجب الاتفاق، مما يجعل المؤســـسات العراقية تحت الإشراف الأمريكي المباشر ويمكن للمـــصارف الأمريكيـــة تقـــديم المـــساعدة للحكومة العراقية ، وتكون هذه المساعدة على شكل قروض مالية مضروبة بفائـــدة وإعفـــاء الموظفين الأمريكيين الذين يعملون في مشاريع المساعدة الفنية من ضرائب الدخل وضـــرائب الضمان الاجتماعي وضريبة الملكية ، ويعاملون معاملة الدبلوماسيين في السفارة الأمريكيـــة في بغداد وغيرها من البنود التي جعلت الاميركيين ينخرطون كخبراء فـــي دوائـــر الدولـــة العراقية وبشكل خاص في وزارة الأعمار التي تأسست عام (١٩٥١) على يد رئيس الوزراء العراقي (نوري السعيد) ، وقد عملت في العراق بعثة الخبراء الأمـــريكيين بموجـــب اتفاقيـــة التعاون الفني العراقي – الأمريكي، وقد ساهمت هذه البعثة في أعمال بنـــاء ســـد ســـامراء (الثرثار) وأصدرت نشرة مصورة للمشاريع التي افتتحت في أسبوع الأعمار في شهر نيسان من العام (١٩٥٦) وصورا فوتوغرافية كنوع من الدعاية .وقد ضم مجلس الأعمـــار مقعـــدا

[12] أسامة عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره ص٣٧٥

دائما لخبير أمريكي وآخر لخبير بريطاني وكان لهؤلاء الخبراء حق تقديم المشورة وحق التصويت على القرارات، الا ان مجلس الإعمار الغي بعد قيام ثورة ١٤- تموز وتوقفت مشاريع إعمار العراق لتبدأ مشاريع جديدة مع شركات غير أمريكية[١٣].

اصبح العراق في تلك الفترة دائرة للصراع الأمريكي – السوفيتي حول النفوذ، الا إن الإدارات الأمريكية المتعاقبة استطاعت حسم الموقف لصالحها من خلال اجتذاب النظام السياسي العراقي للدوران في فلكها عن طريق مجموعة ترتيبات كان لها الأثر في توجيه السياسة الخارجية العراقية بما يخدم الولايات المتحدة ، في مقدمة هذه الإجراءات الأمريكية جاءت اتفاقية الأمن المتبادل لعام (١٩٥٤) ، ومعاهدة حلف بغداد لعام (١٩٥٥) كما جاء مبدأ ايزنهاور لملئ الفراغ في منطقة الشرق الأوسط بعد تراجع وضعف النفوذ البريطاني.

وقد كان أهم الأهداف الأمريكية من حلف بغداد، إقامة حزام امني يطوق الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية ويبعد خطر أي تحالف مستقبلي عربي – سوفياتي. لذا شكل انقلاب ١٤ تموز واسقاط نظام الحكم الملكي في العراق وإعلان الجمهورية صدمة كبيرة لإدارة ايزنهاور، دفعت الاخير للقول (هذه هي البلاد التي كنا نعتمد عليها اعتماداً كلياً في أن تكون الحصن المنيع للاستقرار والازدهار في تلك المنطقة)[١٤].

المبحث الثاني

العلاقات الاميركية العراقية في فترة العراق الجمهوري ١٩٥٨-٢٠٠٣

انهيار الخطة الاميركية وتراجع العلاقات الاميركية العراقية

أثار انقلاب (أو ما يعرف بثورة) ١٤ تموز ١٩٥٨ والذي قام به كل من آمر اللواء التاسع عشر عبد الكريم قاسم وآمر اللواء العشرين عبد السلام محمد عارف، الكثير من الجدل حول مسيرة الانقلاب والانعطافة التي دخلت بها البلاد نحو تبني الانظمة الثورية الانقلابية مما لايدخل في موضوعنا بشكل مباشر، الا ان المهم هو ان الانقلاب قد نجح وتم تأسيس حكومة جديدة، وشكل مجلس قيادة الثورة حكومة جديدة لم تضم أعضاءاً من الضباط الأحرار فحسب وإنما تم تشكيلها من المدنيين الذي يمثلون أحزاب المعارضة أيضاً، وأعلنت

---

[13] المصدر نفسه ص ٣٧٥ وسعد سلوم، مصدر سبق نكره

[14] جيف سيمونز ،مصدر سبق نكره ، ص ٢٩٦

كذلك عن تشكيل مجلس سيادة يمارس صلاحيات رئيس الدولة بشكل مؤقت لحين انتخاب رئيس الجمهورية وبعدها تم وضع دستور مؤقت للعراق من قبل لجنة وزارية أعد للعمل به لحين صدور الدستور الدائم على يد مجلس وطني ينتخبه الشعب(وهو التقليد الذي استمر عبر الحكومات الجمهورية المتعاقبة والذي لم يسفر حتى نيسان ٢٠٠٣ عن اصدار اي دستور دائم) .وفي جميع الاحوال كان النظام الثوري الجديد يمثل تهديدا لمصالح الولايات المتحدة في العراق والمنطقة على خلفية من الحرب الباردة والتنافس الاميركي السوفيتي على خلق مناطق نفوذ في المنطقة ككل.

فقد طلبت الإدارة الأمريكية من رؤساء الأركان للقوات المسلحة تحريك وحدة بحرية مقاتلة من قاعدتها في (أوكيناوا) في اليابان إلى مواقع جديدة لها في منطقة الخليج العربي لمنع هجوم عراقي محتمل على الكويت، كذلك عملت القوات المسلحة على زيادة مجالات الدعم في المجالين السياسي والعسكري لكل من إيران والسعودية طبقاً لمشروعات الاتفاقيات العسكرية الثنائية، وذلك في سبيل الحفاظ على موازين القوى التي أختلت بسبب الثورة وخوفاً من انتقال العدوى لحكومات عربية أخرى موالية للغرب .

في ذات الوقت استدعى الرئيس اللبناني كميل شمعون السفير الأمريكي في بيروت (روبرت مكليتوك) حال سماعه النبأ وطلب إبلاغ حكومته بضرورة التدخل عسكرياً ... وفي تلك الأثناء أشار (ألن دالاس) رئيس المخابرات الأمريكية في حديثه أمام الكونغرس إلى إن ملك السعودية أوفد مبعوثاً عنه إلى السفير الأمريكي في جدة وطالب بتدخل دول حلف بغداد وإلا فما فائدة هذه الأحلاف (كما قال) ، كما هدد ملك السعودية بأنه سوف ينضم إلى حلف جمال عبد الناصر في حال تخلي الولايات المتحدة عن العراق والأردن[15].

وقد أعتبر قاسم إنزال الجيش الأمريكي في لبنان والجيش الإنكليزي في الأردن مقدمة لغزو العراق. ولا بد ان الادارة الاميركية ظنت بأن العراق ينزلق سريعا نحوالشيوعية وان من الأفضل دفع العراق بعيدا عن موسكو، ربما بغزو العراق او التمهيد لانقلاب. هنا ربما نجد الخيوط الاولى التي نسجت الدعم الخفي لانقلاب البعثين اللاحق ضد نظام الحكم الجديد.

---

[15] سعد سلوم، مصدر سبق ذكره

لكن استقرار الوضع السياسي واستتباه لصالح الثوار فضلا عن تصريحات رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم بالالتزام بالمواثيق والمعاهدات الموقعة مع النظام الملكي والعمل على اعادة استمرار تدفق النفط الى الخارج والمحافظة على الاجانب في العراق دفع الولايات المتحدة الى اتخاذ موقف الترقب ومن ثم الاعتراف بالنظام الجمهوري في أواخر عام ١٩٥٨ ليتبعه اعتراف بريطانيا وبقية الدول وفي المقدمة منها دول حلف بغداد[16].

وعلى أثر زيارة مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط (وليم راونتري) بتاريخ ١٥-١٢-١٩٥٨ خرجت تظاهرات حاشدة وانطلق هجوم اعلامي اوحى للاميركيين، بان العراق ينزلق الى الشيوعية بعد ان كان الظن ان الخطر كان (ناصرياً) ومن الافضل دفعه الى القاهرة لتفادي موسكو[17].

نجم عن الملابسات والشكوك بين الطرفين تحول في العلاقات عبر اجراءات خطيرة منها إلغاء اتفاقية الأمن المتبادل لعام (١٩٥٤)، والاتفاق الخاص بالتصرف بالمعدات والذخيرة الموقع في (١٥/تموز/١٩٥٥) (علماً بأنه ملحق بالاتفاق الأول)، واتفاقية تقديم المساعدات الاقتصادية (التي تدخل في بنود مشروع ايزنهاور لعام ١٩٥٧) والانسحاب من حلف بغداد.

وفي عام ١٩٦١ طالب قاسم بضم الكويت إلى العراق باعتبارها مقاطعة تابعة للبصرة وهنا أيدت الولايات المتحدة الموقف البريطاني القاضي بحماية الكويت، إذ كان هناك اعتقاد لدى الدوائر الأمريكية بأن الاتحاد السوفيتي كان يقف وراء رغبة قاسم في ضم الكويت و ذهبت صحيفة النيويورك تايمز الى انه إذا قدر للإمبراطورية أن تتخلى فجأة عن ملحقاتها ونوابها في الخليج فإن العالم الحر والحلف الأطلنطي قد ينهاران تماماً. وقد نجم عن الموقف الاميركي سحب السفير العراقي في واشنطن وطلبت من الأخير سحب سفيرها من بغداد.

من جهة أخرى اتهم قاسم كل من بريطانيا والولايات المتحدة إشعال نار التمرد الكردي في شمال العراق وتغذية الحركات والعناصر المناوئة لنظامه فرد قاسم بإصدار قانون

---

16 شهاب احمد الفضلي، العلاقات العراقية - الاميركية، مصدر سبق ذكره

17 المصدر نفسه.

رقم (٨٠) يوم (١١/كانون الأول/١٩٦١) الذي جرد شركة نفط العراق(وهي شركة عملاقة مملوكة من قبل شركات النفط الاميركية والبريطانية والهولندية والفرنسية) من جميع الأراضي غير المستثمرة فعلياً والتي كانت تساوي حوالي (٩٩,٥) من الأراضي العراقية غير المستثمرة والممنوحة للشركات. فوصلت العلاقات الى مستوى متأزم بتقديم الحكومة الأمريكية مذكرة للحكومة العراقية تطلب فيها وجوب العودة إلى المفاوضات مع الشركات واللجوء إلى التحكيم الدولي ، لكن المذكرة رفضت ضمناً.. وتم الاستغناء عن خبراء أمريكيين، وألغيت عدة عقود مع شركات أمريكية[١٨].

ويرى البعض ان القانون رقم ٨٠ كان السبب الرئيس في اسقاط حكم عبد الكريم قاسم، وذلك على خلفية من ارتباط الكثير من الانقلابات في الشرق الاوسط بالنفط ومصالح شركات النفط الغربية، ومن الامثلة على ذلك الانقلاب ضد حكومة القوتلي في سوريا التي كانت مترددة عام ١٩٤٩ في توقيع اتفاقية لمرور النفط مع شركة نفط العراق، فقامت الولايات المتحدة بدعم انقلاب اسقط القوتلي وجاء بحسني الزعيم الذي وقع الاتفاقية.

والمثال الاشهر هو الانقلاب الذي وقع ضد رئيس الوزراء الايراني محمد مصدق النتخب ديمقراطيا أثر تأميمه للنفط الايراني عام ١٩٥٢. وقد كشفت دراسة سرية للمخابرات المركزية الاميركية الدور البريطاني في الانقلاب المذكور ومساعدة الشاه لاستعادة سيطرته لحماية مصالح الشركات النفطية الغربية[١٩].

الادهى من ذلك هو تطلع النظام الجديد إلى تحسين علاقته مع الاتحاد السوفيتي وتشجيع نشاطات الحزب الشيوعي العراقي اضافة إلى تبني الحكومة الجديدة بعض السياسات ذات الصبغة الاشتراكية .

بدأ قاسم يظهر بمثابة التهديد المتزايد للمصالح الغربية في تأميم اجزاء من شركة نفط العراق IPC فخططت شركات النفط المالكة لهذه الشركة العملاقة مع وكالة الاستخبارات وهيئات التخطيط العسكري الامريكي لتطوير مخططات لاسقاطه وحين قام الجيش اخيرا بانقلاب

---

18 الدكتور حامد البياتي، صدام حسين والمؤامرة الكبرى- اسرار انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ في العراق في الوثائق السرية الاميركية، مؤسسة الرافد، دراسات وثائقية، لندن، ٢٠٠٠، ص ٣٩-٤٠

19 المصدر نفسه، ص٣٩.

ناجح ضده، حوكم محاكمة قصيرة ثم اقتيد إلى كرسي واعدم بالرصاص، أظهرت وكالة الاستخبارات الامريكية تقريرها حيال محاولة الانقلاب هذه بابداء قدر كبير من التعاون، وهو الامر الذي اعترف به على نطاق واسع في ذلك الوقت، واعلن وزير الداخلية في النظام الجديد آنذاك (علي صالح السعدي) : لقد وصلنا إلى السلطة على قطار الـ(سي أي أيه C I A). بل لقد قارن بعض الانقلابيين التعاون مع الولايات المتحدة والـ(سي أي أيه) في سبيل الوصول الى السلطة مع وصول لينين في قطار ألماني لينفذ ثورته، وقد كانت دوافع الولايات المتحدة لدعم انقلاب البعث لتسلم مقاليد السلطة تتضمن بالاضافة الى الحفاظ على مصالحها الاقتصادية النفطية وحمايتها،الرغبة في أبعاد الاخرين مثل الشيوعيين والناصريين عن الحكم[٢٠].

الانقلاب البعثي وتقلبات العلاقات الاميركية العراقية ١٩٦٣-١٩٦٨

بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ استقبل وكيل وزارة الخارجية الاميركية "روي مالكوم" القائم باعمال السفارة الاميركية في بغداد وعرض الخطوط العامة لسياسة الانقلابيين الخارجية. وفي مساء اليوم نفسه اعلنت الحكومة الاميركية اعترافها بالحكومة العراقية الجديدة، وعلى ما يبدو فأن الولايات المتحدة الاميركية كانت ترغب في استغلال الخلافات والحملات الاعلامية بين العراق والاتحاد السوفياتي.

جرت بعد ذلك اتصالات بين الحكومتين وعرض الجانب الاميركي رغبة بلاده تقديم ما يحتاجه العراق من خبراء وفنيين واستعداد المنظمات الاميركية الاقتصادية كمنظمة التنمية والاستيراد والتصدير والبنك الدولي لتمويل بعض المشاريع المهمة في العراق كمشاريع الري وعرضها على الحكومة العراقية. وبعد مناقشة تلك العروض، وافق مجلس الوزراء العراقي في ٢٦آيار١٩٦٣ المشاركة في معرض نيويورك الدولي.

وفي نهاية حزيران١٩٦٣ بدأت مرحلة جديدة في العلاقات الدبلوماسية بين العراق والولايات المتحدة الاميركية حيث وصل بغداد روبرت ستروك السفير الجديد للولايات المتحدة الاميركية المعين لدى الجمهورية العراقية لاستلام مهامه.

[20] المصدر نفسه ، ص٤٤ وانظر ايضا: علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط من حوار المفاهيم الى حوار الدم- مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، دار الكنوز الادبية، بيروت ١٩٩٩، ص٢٩١.

وفي ١٠تموز١٩٦٣ وافق مجلس الوزراء على تصديق الاتفاقية الثقافية بين العراق وامريكا الموقع عليها في بغداد في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦١ و التي تأخر تصديقها بسبب توتر العلاقات العراقية الاميركية قبل ٨ شباط ١٩٦٣. اضافة الى مجالات اخرى كالزراعة والري والقضايا الدولية وبهذا احتفظت الولايات المتحدة بالمركز الثاني بعد بريطانيا في علاقاتها التجارية مع العراق[٢١].

الا ان ذلك لا يعني ان العلاقات مع الولايات المتحدة قد شهدت تطورات او انعطافات نوعية بعد مجيء البعثيين الى السلطة ،على الرغم من ان العراقيين زاروا آخر معرض اقتصادي أمريكي أقيم على أرض بغداد في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٦٦, حيث علقت صورتا الرئيسين جونسون وعارف في مدخله. وأعجبوا بتلك الإمكانيات التقنية الهائلة في ثلاثة حقول أساسية: الصناعة، الزراعة، الطب. وهذه الحقول التي كان العراق بحاجة ماسة لها اكثر من حاجته إلى شركات الأمن الخاص وإنشاء الأجهزة الاستخبارية. ففى عهد قاسم والأخوين عارف, كانت تخصيصات العراق لهذه الحقول أكبر كثيراً جداً مما يخصص للجيش والشرطة.

فقد كانت السياسات الايديولوجية للنخب العراقية الحاكمة هي المرجع النهائي المتحكم بمخرجات العلاقات، فحين اصيبت الدول العربية بنكسة جراء الهزيمة امام اسرائيل في ١٩٦٧ انقاد الرئيس عارف الى حسه الايديولوجي العروبي فقبل توصيات القمة العربية في الخرطوم التي قطع بموجبها علاقاته الشاملة مع الولايات المتحدة التي اتخذت موقفاً غير مقبول بنظر تلك القمة من حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧[٢٢].

يمكننا ان نتلمس في تلك الفترة، اي خلال حصول التغير السياسي في عام ١٩٦٣ وحتى تبلور التغير بصورة اخرى عام ١٩٦٨، ان العراق قد اخذ يبتعد عن دائرة النفوذ الامريكي، وقد كانت الولايات المتحدة تفضل المحافظة على الاستقرار لحماية تدفق النفط لذا كانت مستعدة لمصافحة الشيطان لحين قيام حرب تشرين ١٩٧٣ وتبني النظام الجديد سياسة استخدام النفط كسلاح مما أطلق عليه (الصدمة البترولية).

---

21 شهاب احمد الفضلي، مصدر سبق ذكره

22 عصام البغدادي، مستقبل العلاقات العراقية الدولي،صحيفة الزمان, العدد ١٨٣٧ الصادر في ١٦ حزيران ٢٠٠٣

وزاد ذلك بتوقيعه معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، فعقد الرئيس نيكسون اجتماعا خاصا طارئا مع كيسنجر قررا فيه مساندة الأكراد، واعتماد (١٦) مليون دولار لتغطية نفقات الأسلحة الأمريكية لكردستان العراق ، بعد توجه وفد كردي إلى واشنطن ليبحث مع المسؤولين الأمريكيين تفاصيل المساعدة فاتفقت الأطراف على أن تمر تلك المساعدات عبر إيران.هكذا اصبحت القضية الكردية أهم الأوراق التي استخدمتها الولايات المتحدة مع الحكومة العراقية بعد ان تلاعبت الاخيرة بورقة النفط للضغط على الولايات المتحدة والغرب.

ويذكر الكاتب الفرنسي بيتر سكاون ان الولايات المتحدة راقبت صدام حسين منذ اليوم الأول لتوليه قيادة حزب البعث ١٩٧٩ ووردت تفاصيل عنه في وثيقة مذهلة معلنة لوزارة الخارجية لقبت صدام حسين بـ(عبادة الشخصية) في أب عام ١٩٨٠ وهذا التقرير هو عبارة عن وجهة نظر حول إمكانية اطاحة صدام حسين عبر ثورة شعبية ونتيجة التقرير المخيبة لامال الاستخبارات المركزية جاءت ان صدام حسين كان ماكراً جداً وقاسياً بحيث لايمكن تنحيته بسهولة لاسيما بانه قد تولى السلطة بفضل جهاز امن الدولة الذي اقتلع كل معارضة من جذورها باكثر الطرق عنفاً كما ورد التقرير، الا انه كان للولايات المتحدة هموم اخرى عديدة في المنطقة تشغلها عن صدام فقد كان اية الله الخميني قد أطاح الشاه في ١٩٧٩ وكانت ازمة الرهائن في بدايتها وكان الاتحاد السوفيتي ابان اخر عقود قوته في أفغانستان بينما كان عملاؤها يبحثون عن حلفاء محتملين في الشرق الأوسط[٢٣].

حرب الخليج الاولى وتحولات العلاقات الاميركية العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨

لكن الخطوة الحاسمة لاحتواء العراق تمثلت بدفعه للتصادم مع ايران ثم العمل على استمرار هذه الحرب فقد كان ذلك كفيلا بانهاك الطرفين.

لكن خلال بداية الحرب تحرك الرئيس الأمريكي (رونالد ريغان) لإعادة العلاقات مع العراق أقنع جورج بوش ريغان بأيفاد رامسفيلد فأرسل نائب مساعد وزير الخارجية (موريس داريبر) الى بغداد عام (١٩٨٠) ، وفي عام (١٩٨٢) طرحت مسألة إعادة العلاقات

[23] بيتر سكاون ، امريكا – الكتاب الاسود ، الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٣، ص١٦٨-١٧٠،

رسميا مع الدولة العراقية أمام الكونغرس الأمريكي بعد توصية الإدارة الأمريكيـة، وعنـدما اجتمع مبعوث الرئيس الأمريكي إلى منطقة الشرق الأوسط (دونالد رامسفيلد) مـع الـرئيس العراقي في كانون الأول (١٩٨٣) سلّمه رسالة خطية من الرئيس الأمريكي ريغـان تؤكـد استعداد الحكومة الأمريكية لاستئناف العلاقات الدبلوماسية كاملة.

وحين عودته الى واشنطن رسم صورة كلها مديح للرئيس العراقي بحيـث وجهـت رسالة بعد اثني عشر يوما الى حكام خليج تقر بأن هزيمة العراق في الحرب ستكون مـضرة بالمصالح الاميركية[٢٤].

وتم إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بشكل رسمي في تشرين الثاني (١٩٨٤) وقـد شهد هذا العام تحولا في الموقف الاميركي في أعقاب دراسة وضعها مجلس الأمن القومي تشير إلى إن اندحار العراق يعني خلق وضع يهدد المصالح الأمريكية في الخليج ، وانه ينبغي مساندة العـراق .. فظهر ميل اميركي نحو العراق ، وفي هذا الإطار زار (ميرني) دول المنطقة في نيسان (١٩٨٤) وعرض فكرة الحصول على تسهيلات خليجية للقوات الأمريكية مقابل حماية جوية أمريكية للجـيش العراقي ، ومنع أي انتصار حاسم لإيران على العراق .

بعد عامين من نجاح رامسفيلد في اعادة العلاقات على مستوى الـسفارات، سـألته صحيفة شيكاغو تريبيون عن أكثر عمل يثير فيه الاعتزار اجاب انه"استعادة العلاقـات مـع العراق"[٢٥].

ربما من المدهش ان نعرف ان فترة رئاسة ريغان وبدايات حكومة جـورج بـوش الاب كانت لدى الاميركيين علاقات وثيقة وداعمة الان، لكن كما يقال في المثل الشائع (عدو عدوي صديقي). جراء هذه السياسة الاميركية الحاذقة قامت الحكومة الاميركية بتزويد صدام بأحدث الصور التي تلتقطها الاقمار الصناعية والتي تبين مواقع القوات الايرانية وتحركاتهـا، مما قلب الامر لصالح الجيش العراقي، فضلا عن تقديم قروض لنظام صدام كان من المحتمل كما يلاحظ وليام بولك ان ينهار الاقتصاد العراقي دونها. كما تم ترتيب(مع اخرين) او تزويد

[24] أريك لوران، حرب آل بوش، ترجمة سلمان حرفوش، بيروت، دار الخيال، ٢٠٠٣، ص٤٤
[25] المصدر نفسه، ص ص٤٤-٤٥.

الجيش العراقي بالقنابل العنقودية والاسلحة الكيمياوية والبيولوجية، بل قدمت بعض المساعدة نحو حصول العراق على سلاح نووي.

ويذكر بيتر و.غالبريث في كتابه "نهاية العراق" مفارقات التحول في الموقف الاميركي ازاء العراق في حربه مع ايران، ففي العام ١٩٨٢ شطب اسم العراق من قائمة الدول الداعمة للأرهاب، رغم عدم حدوث تغيير يذكر في دعم العراق لجماعات فلسطينية متطرفة كانت تمثل القلق الرئيسي من الارهاب انذاك. ثم بادرت الادارة الاميركية في العام ١٩٨٣ الى تقديم ضمانات شركة commodity credit corporation التابعة للحكومة لمشتريات العراق من السلع الزراعية الاميركية، ووفرت قروضا من بنك الاستيراد والتصدير(Ex_Im bank) للعراق في العام ١٩٨٤. وفي الوقت الذي كانت فيه ضمانات القروض مخصصة لتمويل مشتريات السلع الزراعية والبضائع المصنعة الاميركية، الا انها ساهمت في المجهود الحربي العراقي من خلال تمكينه من تحويل مبالغ اخرى للأغراض العسكرية، بحلول العام ١٩٨٨ كانت اعانات الولايات المتحدة للعراق قد بلغت قرابة مليار دولار سنويا.

في العام ١٩٨٣ امرت ادارة ريغان وكالة الاستخبارات المركزية بإشراك العراق في معلومات الاستخبارات الواردة من ساحات القتال، وقام ضابط اتصال بإطلاع العراقيين على مواقع الوحدات الايرانية، مما مكن العراق من توقع الهجمات الايرانية والاعداد لها. فتمكن العراقيون_ بفضل الاستخبارات التي قدمها الاميركيون_ من استهداف حشود القواتُ الايرانية بالأسلحة الكيماوية. وكانت الادارة الاميركية-على حد ما يذكره غالبريث- على علم مؤكد بالطريقة التي تستخدم بها هذه المعلومات الاستخباراتية. هكذا كانت وزارة الخارجية تنتقد بصورة علنية استخدام العراق لأسلحة كيماوية، في الوقت الذي كانت فيه الادارة تعمل بسرية لزيادة فعاليتها.

في اذار ١٩٨٤ رفع الامين العام للأمم المتحدة تقريرا اعده عدد من الخبراء الى مجلس الامن حول استخدام العراق لأسلحة كيماوية، فوزع المندوبان الهولندي والبريطاني مشروع قرار يدين استخدام الاسلحة الكيماوية (دون توجيه اللوم الى العراق بالتحديد)،

ولكن الولايات المتحدة لم تتخذ تدابير تذكر لتأييد حليفتيها. الا ان وزارة الخارجية التقت نزار حمدون السفير لدى الولايات المتحدة للتباحث حول كيف كان لمجلس الامن ان يتعامل مع هذه القضية بطريقة تثير اقل مايمكن من الاعتراضات على بغداد. لم يكن العراق يرغب في تبني مجلس الامن قرار حول الموضوع (اذ كان من الممكن ان تترتب عليه عواقب قانونية) وطلب بدلا عن ذلك تأييد الولايات المتحدة في تحديد اي اجراء ببيان يصدره رئيس المجلس. فاستجابت ادارة ريغان وتحققت للعراقيين النتيجة التي ارادوها. اما لدى لجنة الامم المتحدة لحقوق الانسان فذهبت الادارة الى ابعد من ذلك، حين عارضت بشكل نشط اصدار قرار يدين استخدام العراق لأسلحة كيماوية[٢٦].

وفي (٢٦- تموز-١٩٨٥) فتحت الولايات المتحدة مكتبا تجاريا في العراق ، كما تم تشكيل هيئة العمل العراقية - الأمريكية في حزيران (١٩٨٥) وهي تهدف الى توسيع مجالات التعاون والتعرف على شروط وقوانين العمل في القطر العراقي ، وقد ضمنت هذه الهيئة (٤١) شركة. وقد استفاد العراق من القروض الأمريكية في تطوير صناعاته ، حيث انه حصل عام (١٩٨٥) على (٦٨٠) مليون دولار عام (١٩٨٥) وعلى (٨٠٠) مليون دولار عامي ١٩٨٦- ١٩٨٧.

الا ان المخاوف الاميركية من العراق بقيت ماثلة ويعبر عنها تأكيد كيسنجر من (إن خروج أي من العراق او إيران منتصرا من الحرب سيوقع مشاكل عديدة أمام المصالح الأمريكية بالأخص إن انتصر العراق ، لان الأخير من أكثر بلدان أوبك تطرفا في الأسعار على الرغم من التنازلات التي حصل عليها..)[٢٧].

من عاصفة الصحراء ١٩٩١ الى الصدمة والترويع ٢٠٠٣

كان من المخيب بالنسبة للولايات المتحدة خروج العراق من الحرب مؤهلاً للعب دور اقليمي معززاً بقدرات وامكانات عسكرية وتقنية وكان على الولايات المتحدة ان تنتظر

---

[26] بيتر و غالبريث، نهاية العراق- كيف تسبب القصور الاميركي في اشعال حرب لانهاية لها، ترجمة: أياد أحمد، بيروت: الدار العربية للعلوم،٢٠٠٧ ص ٢٨_٢٩.

[27] سعد سلوم، مصدر سبق ذكره

حتى تخطئ القيادة العراقية بدخول الكويت عام ١٩٩٠ مع ما يشاع عن الضوء الاخضر الذي اعطته السفيرة الاميركية لصدام بغزو الكويت والذي يذكر كاستدارج الى فخ منصوب.

يذهب الكاتب الاميركي"وليم بولك" الى ان تصريحا قويا وواضحا مفاده ان اميركا من الممكن ان تحمي الكويت كان من شأنه ان يوقف صدام عند حده، لكن السفيرة الاميركية لم تقدم مثل هذا التصريح[28].

رد الفعل الاميركي كان سريعا ونموذجيا، تم تحرير الكويت وتدمير القدرات العسكرية العراقية الا ان فرص العراق بالتعافي والعودة للعب دور اقليمي كانت واردة لذا جاءت استراتيجية الاحتواء المزدوج للعراق وايران في عهد إدارة (كلنتون) لتحكم اتجاه العلاقة في بعدها التصارعي، الا إن استراتيجية الاحتواء المزدوج فشلت في تحقيق أهدافها، لذلك عمدت واشنطن إلى تشكيل فريق عمل لإعادة النظر في الخيارات المتوفرة حيال منطقة الخليج العربي وقد بلور الفريق تقريراً عن الاستراتيجية الأمريكية أطلق عليه (الأحتواء المتمايز) ولم يقترح التقرير سياسة بديلة وإنما أقترح إجراء تعديلات ، أهمها: تخفيف العقوبات الاقتصادية على العراق مع الإبقاء على الحصار العسكري وأجراء حوار مع إيران بعد خطوات متبادلة تفتح ثغرة في ما أعتبره (الطريق الذي مازال مسدوداً) وإن هذا التقدير لم يناقض جوهر السياسة الأمريكية القائمة على عدم رفع الحصار طالما أستمر النظام القائم، أنما دعا إلى تخفيفه على الصعيد الاقتصادي كما إنه أكد على ضرورة الرد الحاسم إذا خطر للعراق تجاوز الخطوط المرسومة خاصة في مجال أسلحة الدمار الشامل وتهديد الدول المجاورة.

العقوبات المفروضة على العراق لم تؤت اكلها، ومن جراءها تحطم المجتمع المدني في العراق في حين ازداد نظام صدام قوة وشراسة في الداخل. ونتيجة للضغط الشعبي والصور المنقولة عن معاناة المدنيين تم توقيع اتفاق النفط مقابل الغذاء ١٩٩٥.

ويلاحظ وليم بولك ان تخفيف العقوبات تم بشكل غير رسمي وبصورة سرية بقيادة الولايات المتحدة. ووفقا لتقرير مجلس الشيوخ الاميركي، كان المشترون الكبار للنفط العراقي المخفض سعره كثيرا هم شركات النفط الاميركية والتي كانت مشترياتها تسهل احيانا من قبل

[28] وليم بولك. لكي نفهم العراق، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦، ص١٧٨.

الحكومة الاميركية. وهذه المشتريات بما تنطوي عليه من تقديم عمولات سرية لنظام صدام من شأنها ان تشوه السياسة الاميركية المعلنة[٢٩].

بعدئذ طرأ تحول على استراتيجية الاحتواء الأمريكي ضد العراق بالانتقال من الاحتواء شبه السلمي المعتمد على تخفيف العقوبات و التفتيش والرقابة الدولية إلى الاحتواء العسكري عن طريق لستخدام القوة المباشرة سيما بعد فشل خطط لاغتيال صدام او التخطيط لانقلاب ضده في ما عرف بنظرية الرصاصة الذهبية مما حتم التدخل المباشر الذي انتهى بأحتلال العراق وأسقاط نظام صدام حسين ٢٠٠٣. ومن الراجح ان جذور ومقدمات احتلال العراق ترتبط بالتخطيط لاحتمالات شن حرب على العراق بدأت قبل حوالي ربع قرن من الزمن عندما دشن الاميركيون اول تدريبات عسكرية تستهدف احتلال العراق عام ١٩٧٣ حين واجهت القوات الامريكية المتدربة جنوداً يرتدون الزي العسكري العراقي في صحراء "موهافي" الواقعة في شرقي ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة اثر تاميم العراق لنفطه عام ١٩٧٢.كما تم التحضير لدراسة شكلت وثيقة بالغة الاهمية أعدت للكونغرس الامريكي عام ١٩٧٥ كدراسة جدوى احتلال منابع النفط في دول الاوبك[٣٠].

المبحث الثالث

<u>العلاقات الاميركية العراقية بعد الاحتلال الاميركي للعراق ٢٠٠٣</u>

برنامج لتغيير الشرق الاوسط من خلال النموذج العراقي

(حرب العراق أو تحرير العراق أو احتلال العراق أو حرب الخليج الثالثة) هذه بعض من أسماء كثيرة أستعملت لوصف العمليات العسكرية التي وقعت في العراق عام ٢٠٠٣ والتي أدت إلى إحتلال العراق عسكريا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية حسب تعريف مجلس الأمن لحالة العراق في قرارها المرقم ١٤٨٣ في ٢٠٠٣.

ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على هذا الصراع هي "حرب العراق" و"حرب الخليج الثالثة" و"عملية تحرير العراق" وأطلق المناهضون لهذا الحرب تسمية "حرب بوش"

---

[29] سعد سلوم، مصدر سبق ذكره.

[30] انظر على سبيل المثال: امريكا تغزو الخليج، دراسات الكونغرس الامريكي، ترجمة: وجيه راضي، دار الجليل، بيروت، ١٩٩١.

على هذا الصراع. وبدأت عملية غزو العراق في ٢٠ مارس ٢٠٠٣ من قبل قوات الإئتلاف بقياده الولايات المتحدة وأطلقت عليه تسمية ائتلاف الراغبين وكان هذا الائتلاف يختلف إختلافا كبيرا عن الائتلاف الذي خاض حرب الخليج الثانية لأنه كان ائتلافا صعب التشكيل. شكلت القوات العسكرية الأمريكية والبريطانية نسبة ٩٨% من هذا الأئتلاف. تسببت هذه الحرب بأكبر خسائر بشرية في المدنيين في تاريخ العراق وتاريخ الجيش الأمريكي في عدة عقود.

كان الغزو سريعا بالفعل فبعد حوالي ثلاثة اسابيع سقطت الحكومة العراقية، وقد اعتمدت قيادات الجيش الأمريكي على عنصر المفاجاة فكان التوقع السائد هو ان تسبق الحملة البرية حملة جوية كما حدث في حرب الخليج الثانية فكان عنصر المفاجئة هنا هو البدء بالحملتين في ان واحد وبصورة سريعة جدا اطلقت عليها تسمية "الصدمة والترويع" Shock and Awe وكان الاعتقاد السائد لدى الجيش الأمريكي انه باستهداف القيادة العراقية والقضاء عليها فان الشعب العراقي سوف ينظم للحملة وسوف يتم تحقيق الهدف باقل الخسائر الممكنة[٣١].

ويذهب ريتشارد كلارك في كتابه (في مواجهة جميع الأعداء) أن "بول وولفوفيتز" نائب وزير الدفاع السابق وأحد أشد المحافظين الجدد تطرفاً كان خلال شهور طويلة يؤكد بأن الهدف الرئيسي يجب أن يكون (الإرهاب العراقي) لا القاعدة، وهذا رغم أن دوائر الاستخبارات الأمريكية لم تعثر على أي دليل على تبني العراق لعمليات إرهابية ضد أميركا. غير أن هجمات ١١ سبتمبر منحت وولفوفيتز وكثيرين من أمثاله ممن كانوا طوال التسعينات يرغبون بمهاجمة العراق، الفرصة لتحويل تركيز الرد الأمريكي من القاعدة إلى العراق. حتى أنهم وصفوا العراق بأنه أكبر خطر يهدد الأمن القومي الأمريكي. وكان الدافع الحقيقي وراء ذلك حسب كلارك هو:

- تحسين وضع إسرائيل الاستراتيجي بالقضاء على بلد عربي كبير ومعاد

[31] الغزو الأمريكي للعراق، موضوع منشور في ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

- الحد من الاعتماد الأميركي على النفط السعودي بخلق مصدر آخر للنفط موال وصديق[٣٢].

عقب الإطاحة بحكومة صدام حسين عام ٢٠٠٣ شهد العراق سلسلة من الانتخابات حيث جرت ثلاث عمليات اقتراع، كان الاقتراع الأول عبارة عن انتخاب الجمعية الوطنية أو ما يسمى أيضا بمجلس النواب العراقي أو البرلمان العراقي المؤقت الذي انبثقت عنه الحكومة العراقية الانتقالية , وكان الاقتراع الثاني عبارة عن تصويت على الدستور العراقي الدائم, وكان الاقتراع الثالث عبارة عن انتخابات عامة لاختيار مؤسسات حكم دائمة في العراق[٣٣].

وكانت الحكومة العراقية المؤقتة هي السلطة الثالثة حسب التسلسل الزمني التي تشكلت في العراق عقب غزو قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة، وتشكلت الحكومة المؤقتة في ٢٨ حزيران ٢٠٠٤ لتحل محل سلطة الإئتلاف الموحدة ومجلس الحكم في العراق وإدارة شؤون العراق تحت إشراف الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن حل محلها الحكومة العراقية الانتقالية في ٣ مايو ٢٠٠٥ . وكانت الحكومة معترفا بها من قبل الولايات المتحدة والجامعة العربية وبعض الدول الاخرى كممثل شرعي للعراق، ولكن الولايات المتحدة أحتفظت بصلاحيات واسعة في العراق وكانت هي صاحبة القرار النهائي أثناء فترة الحكومة المؤقتة[٣٤].

وكانت قد وظفت غزوها للعراق بما يكشف عن خطة اميركية شاملة لتغيير المنطقة، حيث جاء الاحتلال على خلفية من احداث ١١ من ايلول ليعلن برنامجا شاملا لتغيير الشرق الاوسط، فأرتبط منذ البداية بتنفيذ نظرية الدومينو في نشر الديمقراطية في الشرق الاوسط وأقامة نظام تعددي وما ينطوي عليه ذلك من نشر مفاهيم حرية العمل السياسي وإقامة مؤسسات المجتمع المدني التي تعمل بمجملها على تشجيع التداول السلمي للسلطة وتحقق كبح مشهد استمرار الصراع مع الولايات المتحدة، اذ ان مثل هذا التعددية ستحول دون وقوع

---

[32] ريتشارد كلارك، في مواجهة جميع الأعداء، ترجمة وليد شحادة، الحوار الثقافي، ٢٠٠٤، ص٥٦، ٥٣، ٨٦. وكذلك رجب البنا، أمريكا (رؤية من الداخل)، دار المعارف بمصر، ٢٠٠٤، ص٣٣٣-٣٣٤.

[33] الانتخابات العراقية، من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

[34] الحكومة العراقية المؤقتة من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

البلاد تحت سيطرة نظام شمولي فردي او حزب وحيد للسلطة، كما انهـا تـدفع الـى تبنـي سياسات برغماتية والابتعاد عن السياسات الايديولوجية السابقة، التي كانت تتبنى مواقف مـن العلاقة من الولايات المتحدة لا تستند الى معطيات واقعية، مما سبب الانغلاق عـن العـالم ورفض تبني اقتصاد السوق ومعطيات الاقتصاد الليبرالي.

هكذا انتهى (العراق العدو) وجاء (العراق/النموذج) ليخدم الخطة الاميركية القاضية بتغيير الشرق الاوسط، فكانت الفرصة متاحة للعب دور الصديق أوالحليف والشريك.

وجاء الوقت المناسب لحصول تبدل جذري في طبيعة التوجه السياسي والاقتـصادي للنخب الحاكمة في العراق مما يمهد لهندسة علاقة غير تصارعية مـع الولايـات المتحـدة، وتشجيع اقامة علاقات متوازنة معها بما يخدم صياغة أمثـل لمـستقبل العـراق الـسياسي والاقتصادي .

آفاق جديدة للعلاقات الاميركية العراقية

وقد شهد العراق تحولا نوعيا في توجهاته الاقتصادية بعد الاحتلال الاميركي نحـو اندماج اعمق في الاقتصاد الدولي، وفي ٢٦ نيسان صرح نائب وزيـر الماليـة الأميركـي، روبرت كيميت، بان المسؤولين الاقتصاديين في العراق حققوا تقدما هائلا في إرسـاء أسـس اقتصاد قائم على قوى السوق وذي اكتفاء ذاتي، بيد ان قطاعي الطاقة والمصارف يواجهـان بعض التحديات.

ديفيد شلبي، الحكومة العراقية ترسي الاسس لاقتصاد قائم على قوى السوق[٣٥]. وذلك في الوقت الذي تقدمت فيه العلاقات الاميركية العراقية خطوات غير مسبوقة، وشملت جميـع مجالات التعاون حيث أجرت المؤسسة الوطنية لتسويق النفط مفاوضات لبيع النفط الخام مع الشركات الأميركية التالية:

- شركة كوستال
- شركة فونيكس
- شركة تشيفرون

[35] موقع وزارة الخارجية الاميركية، ٢٦ نيسان/ابريل ٢٠٠٦

-شركة موبيل

ومن المتوقع حسب خبراء في صناعة النفط العراقي أن تكون شركة هاليبيرتون الأميركية كيه بي آر – التي كان يرأسها ديك تشيني في الفترة من عام ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠ والتي تعمل بقوة في العراق منذ عام ٢٠٠٣– أن يكون لها حاليا بالفعل عقود لإعادة تأهيل قطاع النفط فضلا عن تخصصها في توفير الوقود للجيش الأميركي وأعمال أخرى[٣٦].

وتشير تقديرات بعض خبراء النفط إلى أن تكلفة إعادة بناء البنية التحتية لصناعة النفط العراقي تتراوح بين ٣٠–٤٠ مليار دولار، فيما قدرها في فبراير/شباط ٢٠٠٧ تامر غضبان وزير النفط العراقي السابق ومستشار شؤون الطاقة بالحكومة العراقية الحالية بـ٧٥ مليار دولار[٣٧].

ومن الباعث على القلق ان نموذج تطوير قطاع النفط الذي يجري الترويج له يعتمد على عقود تعرف بأسم "عقود مشاركة الانتاج"* . ويتفق خبراء النفط ان غرضها سياسي في المقام الاول: فهي من الناحية الشكلية تبقي ملكية احتياطات النفط في يد الدولة ، في حين انها عمليا تعطي شركات النفط النتائج ذاتها مثل اتفاقيات الامتياز التي كانت قد حلت محلها[٣٨]. وهذا الشكل من الاتفاقيات كانت الادارة الاميركية وشركات النفط قد روجت له بشدة ضمن مشروع "مستقبل العراق" الذي كان ضمن عملية التخطيط التي اقدمت عليها وزارة الخارجية الاميركية قبل غزو العراق عام ٢٠٠٣، وقد طورت تلك الاقتراحات فيما بعد على يد سلطة التحالف المؤقتة والحكومة العراقية المؤقتة والحكومة الانتقالية التي تلتها[٣٩].

وان تحليلا محايدا يبين ان لعقود مشاركة الانتاج عيبان رئيسان يتركان أثرا هائلا على مستقبل الشعب العراقي:

- خسارة مئات مليارات الدولارات من العوائد المحتملة
- خسارة السيطرة الديمقراطية على صناعة النفط الوطنية لصالح الشركات الدولية

---

36 محمد سلمان القضاة، شركات النفط في العراق، موقع المعرفة، السبت ٢٠٠/١٠/١٦

37 وائل يوسف، الصناعة النفطية العراقية، موقع المعرفة، الاثنين ٢٠٠٧/١٠/٢٦

38 كريك موتيت، عقود مشاركة الانتاج -التنازل عن مصدر سيادة العراق، ترجمة مركز Ubada، نوفمبر ٢٠٠٥، ص ٣

39 المصدر نفسه، ص٤.

- فضلا عن إن عقود مشاركة الانتاج قد تدمر فرصة مهمة لاقامة اشراف فعال يوقف الفساد الحالي وسوء الادارة المالية في قطاع النفط العراقي[٤٠].

وفي جميع الاحوال فأن اهمية النفط العراقي(*) بالنسبة لمستقبل الولايات المتحدة أمر لايختلف عليه السحللون، ويمكن تحديدها في عدة نقاط نختصرها على الشكل التالي:

أولا– أن الولايات المتحدة أصبحت تعي تماما أنها ليست وحدها على الساحة الدولية خاصة من الناحية الاقتصادية, وأن هناك دولا عديدة تسعى للوصول إلى مستواها والتفوق عليها في المدى المنظور, وعليه كان لا بد لواشنطن أن تعمل على إفشال وصول الآخرين إلى مستواها أو التحكم في عملية صعودهم إليها, فكان النفط العزاقي هو الوسيلة.

ذلك أن معظم الدول الأوروبية واليابان والصين والهند تستورد نفط الخليج، وعليه فإن قوتها الاقتصادية ترتكز بالأساس على النفط المستورد من الخارج وبالتحديد من الخليج, وسيطرة أميركا على هذا النفط سيعطيها المجال أكثر لتحديد كميات الإنتاج وكميات التوريد وأسعار النفط.. إلخ، ما يجعل تطور الدول الأخرى ونموها الاقتصادي خاضعا بطريقة غير مباشرة للإشراف الأميركي.

---

[40] المصدر نفسه، ص١٩.

(*)من البدائل لعقود مشاركة الانتاج العقود التالية:

* تتمثل هذه البدائل بما يلي :

عقد مخاطر المهنة : حسب هذا النموذج تستثمر الشركة الاجنبية رأسمال وحين يبدأ الانتاج تستعيد ما تكلفته (من مبيعات النفط) + رسم ثابت بشكل علم عن كل برميل ينتج من النفط. وبذلك تستطيع الشركة زيادة اربلحها بزيادة معدل الانتاج. من جهة اخرى تتحمل الشركة مخاطر فشل العملية(خاصة اذا اشتمل الاتفاق على أعمال تنقيب) وقد استغلت الجزائر بشكل جيد آلية عقد مخاطر المهنة.

عقود إعادة الشراء : طورت ايران خلال عقد التسعينات من القرن الماضي عقود اعادة الشراء وطبقته على عدد من استثمارات حقول النفط. وهو يشبه الى حد بعيد اتفاق مخاطر المهنة لكنه يبرم عادة لفترة اقصر (٥-٧) سنوات من الانتاج ، تتلو (٢-٣) سنوات من التطوير تتولى بعدها شركة نفط الدولة المنتجة تشغيل المشروع وتحتفظ بكامل الايرادات. ويدفع أجر الشركة المستثمرة على شكل نفط وليس نقود، ويحسب على اساس نسبة منوية من رأس المال المستثمر. وبذلك تحصل الشركة على نسبة متفق عليها على استثماراتها، شريطة تحقيق معدل كاف من الانتاج

عقد التطوير والانتاج : صيغة جديدة من العقود طورها العراق في ظل نظام صدام حسين اواخر التسعينات تقوم بموجبه الشركة بتطوير وتشغيل حقل نفط لفترة محددة –عادة ١٢ سنة-بعد ذلك تنقل مهمة التشغيل الى شركة النفط الوطنية ، وتقدم الشركة خدمات تقنية بموجب " اتفاق خدمات تقنية" (غالبا لفترة ١٥ سنة اخرى) يحق للشركة خلالها شراء النفط ، اما بسعر السوق او بسعر خصم متفق عليه.

انواع هذه العقود تحد من الارباح التي تحصل عليها الشركات الاجنبية ، ما يضمن بشكل اكثر فاعلية دخل الدولة، كما انها لاتتنازل عن الدرجة ذاتها من السيادة مثل عقود مشاركة الانتاج. كريك موتيت المصدر نفسه، عقود مشاركة الانتاج -التنازل عن مصدر سيادة العراق، ترجمة مركز Ubada، نوفمبر ٢٠٠٥ ص٣١

ثانيا– في حال استقرار الأوضاع بالعراق, فإن ذلك يمكن الشركات الأميركية من الوصول إلى ١١٢ مليار برميل من النفط وهو الاحتياطي المعلن للبلاد وبعضهم يشير إلى ٢٠٠ مليار برميل, ويعتبر أهم احتياطي عالمي بعد السعودية, وهذا معناه أن السيطرة على العراق تعني الحصول على نحو ربع احتياطي العالم النفطي, دون أن نذكر الأرباح التي ستأتي للشركات النفطية الأميركية بعد إنهاء مصالح الشركات النفطية الروسية والفرنسية والصينية التي كانت قائمة في العراق إبان حكم صدام.

ثالثا– تعتبر كلفة إنتاج النفط العراقي من بين الأدنى في العالم (نحو ١,٥ دولار للبرميل كحد أقصى) ولذلك فإن الأرباح هائلة. وعدا عن ذلك فإن الأهم هو الأرقام التي تتحدث عن نسبة الاحتياط ومعدلات الإنتاج إلى الاستهلاك, أي بمعنى آخر عدد السنوات التي سيستغرقها صرف الاحتياطي النفطي بمعدلات الإنتاج الحالية.

وخلال الخمس إلى العشر سنوات القادمة سيستقر إنتاج النفط ويتجه فيما بعد للانخفاض بحدود خمسة ملايين برميل يوميا, والعراق وحده يمتلك قدرة عالية جدا على زيادة الإنتاج بكميات كبيرة جدا, إذ يعتقد بعض المحللين أن العراق في حدود السنوات الخمس القادمة سيبلغ قدرة السعودية الحالية أو بحدود ١٠ ملايين برميل نفط يوميا.

رابعا– وجود وسيطرة القوات الأميركية على نفط العراق والخليج سيمنع حتى إمكانية التفكير في استخدام سلاح النفط سواء ضد أميركا أو إسرائيل, وستكون القوات الأميركية جاهزة في قلب الآبار النفطية للدفاع عنها وبمقربة جميع دول الخليج النفطية إذا حصل أي انقلاب أو تغيير للسلطة أو لأي إستراتيجية يمكنها أن تهدد الآبار النفطية وإمداداتها, ويمكن أميركا أكثر من الضغط على منظمة أوبك لاستنزاف احتياطياتها من خلال الإنتاج العالي لدرجة قصوى، مع التشديد على أن يكون سعر البرميل في حدوده الوسطى إن لم تكن الدنيا[41].

[41] النفط العراقي في الاستراتيجية الاميركية، موقع المعرفة، علي حسين باكير، الأربعاء ٢٠٠٦/٥/١

وشهدت مجالات التعاون الاخرى تطورا غير مسبوق، ففي آب/أغسطس، ٢٠٠٦، اتفقت الحكومتان العراقية والأميركية على العمل سوية من أجل تعزيز القطاع الزراعي في العراق من خلال دعم نظام التوسع الزراعي واستصلاح الأراضي في العراق.

وتنص الاتفاقية التي تم التوقيع عليها من قبل جوهانس ونائب رئيس الوزراء العراقي سلام الزوبعي في اب ٢٠٠٦ على تحقيق التوافق بين برامج منح الأراضي الخاصة بالكليات والجامعات الأميركية التي تتلقى تمويلا من الدولة وبين الجامعات الزراعية العراقية. وسيتلقى بعد ذلك طلاب وموظفو الجامعة العراقية وموظفو برنامج نظام التوسع الزراعي دورات تدريبية قصيرة الأجل ودراسات عليا طويلة الأجل في المؤسسات التعليمية الأميركية وفي المعاهد التابعة لوزارة الزراعة الأميركية.

وقد أثمرت الاتفاقية التعاونية عن قيام جهود مشتركة أخرى، بما في ذلك تحسين نظام الري وإدارة الموارد المائية ومكافحة الحشرات وغيرها من الآفات الزراعية.

وأفاد البيان أن المجالات الأخرى المحتملة للتعاون فيها تتضمن الحنطة والشعير والأرز والفواكه وإنتاج الخضار وتربية الأغنام والماعز والصحة الحيوانية.

ويقول البيان إنه سيتم بموجب الاتفاقية البناء على دورات التدريب الزراعي والمعونات الفنية والمساعدات الغذائية التي تقدمها وزارة الزراعة الأميركية للعراق منذ ٢٠٠٣[٤٢].

كما كانت سلطة التحالف المؤقتة في العراق قد منحت شركات المقاولات الامنية العاملة لحساب الحكومة الامريكية وغيرها حصانة مطلقة من المقاضاة امام القضاء العراقي بموجب قانون صدر عام ٢٠٠٣. وقد جدد العمل بهذا القانون قبل ايام قليلة فقط من حل سلطة التحالف (CPA) في شهر يونيو حزيران عام ٢٠٠٤

فهؤلاء الحرس، الذين يعتبرون مقاولين ثانويين وليسوا موظفين حكوميين، لا تسري عليهم القوانين الدولية ولا الانظمة الامريكية ولا القوانين العراقية، ولو انهم – من الناحية الفنية على الاقل – يخضعون لقوانين بلدهم الام[٤٣].

---

[42] الولايات المتحدة والعراق توقعان على اتفاقية للنهوض بالقطاع الزراعي في العراق، موقع وزارة الخارجية الامريكية، تاريخ النشر: ٠٢ آب/أغسطس ٢٠٠٦ آخر تحديث: ٠٢ آب/أغسطس ٢٠٠٦

وقد كان في العراق، نهاية عام ٢٠٠٤، حوالي ١٥٠ ألف جندي أميركي، منهم حوالي ٣٠ ألفاً من المارينز أو الوحدات الخاصة النظامية، المجهّزة لتنفيذ أعقد العمليات العسكرية، وإلى جانب هذه القوات النظامية كان هناك أكثر من ٢٠ ألفاً من قوات خاصة تابعة لشركات أمن أميركية، والمشكلة في معظمها من جنود متقاعدين. في عام (٢٠٠٤) كانت الحكومة الأميركية قد رصدت لعقودها مع شركات الأمن أكثر من ٩٠ مليار دولار.

وحسب ما يذكر الصحافي الأمريكي "جيرمي سكاهيل" فأن موظفي الشركات الأمنية الخاصة يشكلون اليوم ثاني أكبر قوة في العراق، مضيفا ان هناك نحو مائة ألف في العراق، منهم ٤٨ ألفاً يعملون كجنود خاصين، تبعاً لتقرير صادر عن مكتب المحاسبة الأمريكي .

وفي كتابه "مرتزقة بلاك ووتر[*].. جيش بوش الخفي" ، كشف سكاهيل بعض الجوانب الخفية عن عملهم بالعراق. اذ يروي بداية انطلاق شركة أو جيش بلاك ووتر ، الذي وصفه بأنه أقوى جيش للمرتزقة في العالم، بعد أن تبنى البنتاغون سياسة جيش القطاع الخاص التي وفرت له أكثر من مائة ألف من المرتزقة يقاتلون في العراق لصالح الجيش الأمريكي.

وبلاك ووتر ليست الشركة الوحيدة العاملة في العراق، فهناك أكثر من ٦٠ شركة أمنية أجنبية تعمل في العراق، وجميعها منظمة في اتحاد واحد تحت اسم اتحاد الشركات الأمنية في العراق ويتراوح الأجر اليومي للجندي (المرتزق) ما بين ٩٠٠ إلى ٣ آلاف دولار أمريكي، وهو ما يفسر استنزاف مليارات الدولارات من العراق.

---

[43] ستيفاني هولمز، الوضع القانوني المبهم لمقاولي الامن في العراق، موقع بي بي سي، الجمعة ٢١ سبتمبر ٢٠٠٧

[*] من المهم التمعن بالحقائق التالية حول النفط العراقي :

- يبلغ حجم احتياطي النفط العراقي المؤكد نحو ١١٢ مليار برميل.
- ونسبة ٨٠% من نفط العراق ما تزال غير مؤكدة، ولذلك يقدر هذا الاحتياطي غير المؤكد بحدود ٣٦٠ مليار برميل.
- ويبلغ احتياط النفط العراقي حوالي ١٠,٧% من إجمالي الاحتياطي العالمي.
- ويحتل العراق أكبر احتياطي نفطي في العالم بعد المملكة العربية السعودية.
- ويبلغ الاحتياطي النفطي العراقي أربعة أضعاف الاحتياطي النفطي الأميركي.
- ويمتاز النفط العراقي بوجود جميع حقوله في اليابسة، لذلك فتكاليف إنتاجه تعد الأقل في العالم إذ تتراوح بين ٠,٩٥ و١,٩ دولار للبرميل الواحد، مقارنة بكلفة إنتاج البرميل في بحر الشمال التي تصل إلى عشرة دولارات.
- وفي العراق جميع أنواع النفط من خفيف ومتوسط وثقيل.
- ويوصف العنصر البشري العامل في قطاع النفط العراقي بأنه من بين أفضل العناصر كفاءة في الشرق الأوسط.

سيدي أحمد ولد أحمد سالم، النفط العراقي.. الاحتياطي والإنتاج، موقع المعرفة، الاثنين ٢٠٠٧/١١/٥

ان القيمة المقدرة للعقد الذي فازت به شركة بلاكووتر (لخدمات الأمن)[*] حتى شهر ايلول/سبتمبر ٢٠٠٦ بلغت ٣٣٧ مليون دولار. وعندما غادر بريمر العراق في يونيو من عام ٢٠٠٤ كان هناك أكثر من ٢٠ ألف جندي مرتزقة من قوات القطاع الخاص يمارسون نشاطا لا يخضع لرقابة أو سيطرة[٤٤].

احتكار العقود من قبل الشركات الاميركية التابعة للنخبة الاميركية الحاكمة

وقد أصدر الرئيس الأمريكي جورج بوش قراراً بحصر منح العقود الاقتصادية لإعادة إعمار العراق بالدول التي ساندت الولايات المتحدة في الحرب ومنع ثلاث دول رأسمالية من حق التمتع بتقديم عروض للحصول على تلك العقود، وهي فرنسا وألمانيا وروسيا.

إن قرار الرئيس الأمريكي بمنع الدول المذكورة وغيرها من المشاركة في الحصول على عقود إعادة إعمار العراق، مخالف للقانون الدولي حيث يمنع الاخير احتكار الحصول على عقود لدولة أو مجموعة من الدول الأخرى، وهناك معلومات تشير إلى أن المشاريع قد منحت أساساً حتى قبل بدء الحرب في العراق، وقد ادى منح العقود المذكورة للشركات الاميركية الى انسياب الموارد المالية الممنوحة كمساعدة لإعادة إعمار العراق ثانية إلى الولايات المتحدة من خلال تلك الشركات[٤٥].

ففي فترة واحدة بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، منح أكثر من ٨٠ بالمائة من العقود الأساسية إلى الشركات الأمريكية، ويخمّن احد المصادر بان مجموع العقود التي استلمتها الشركاتُ العراقية أثناء حكم سلطة الائتلاف المؤقّتة بلغ حوالي ٢ بالمائة فقط.

---

[*] شركة (بلاكووتر) : أسسها عام ١٩٩٧ ضابط سابق في القوات البحرية الخاصة الامريكية، مقرها في ولاية كارولينا الشمالية وهي واحدة من ٢٨ شركة مقاولات امنية عاملة في العراق، لها ٧٤٤ موظفا امريكيا و٢٣١ موظفا من دول اخرى و١٢ عراقيا يعملون على حماية نشاطات وزارة الخارجية الامريكية في العراق، وقد كانت مسؤولة عن حماية رئيس سلطة التحالف بول بريمر، قتل ٤ من موظفيها في الفلوجة عام ٢٠٠٤

ستيفاني هولمز، الوضع القانوني المبهم لمقاولي الامن في العراق، موقع بي بي سي، الجمعة ٢١ سبتمبر ٢٠٠٧

[44] سعيد عبد الهادي، بين أكثر من ٦٠ شركة أمنية عاملة في العراق خارج أطر المساءلة القانونية شركة بلاكووتر.. جيش ظل من البنادق المأجورة، جريدة المؤتمر، ٢٠٠٧-١٠-٠١

[45] كاظم حبيب، ما هي الأهداف الكامنة وراء قرار حصر منح العقود بالشركات الأمريكية في العراق؟ الحوار المتمدن، الحوار المتمدن - العدد: ٦٨٢ - ٢٠٠٣ / ١٢ / ١٤

كان منها مبلغ – ٤,٥£ مليار – يمثل قيمة العقود التي منحت إلى Halliburton وتابعتها Kellogg، و Brown and Root في العراق لعام ٢٠٠٣[46].

وقد استطاعت سلطة الائتلاف المؤقتة تركيز الأموال في أيدي الشركات الأمريكية بإصدار العروض غير التنافسية. ومن خلال سجلات الإنفاق يمكن أن نخمّن بأنّ حوالي ٦٦ بالمائة من العقود بين نيسان ٢٠٠٣ ونيسان ٢٠٠٤ أصدرت بغير تنافس إلى الشركات المفضّلة المختارة.

الجزء الأكبر من مليارات الدولارات من أموال إعادة البناء في العراق أنفقت إلى المقاولين الأساسيين الأمريكيين. وهم:

Kellogg- Brown and Root-(تابعة لهالبرتون)

Parsons Delaware-

Fluor Corporation-

Washington Group- Bechtel Group-

.Contrack International- Louis Berger Perini-

يعمل هؤلاء المقاولون الأساسيين كـ"البوّابين"، الذين يسيطرون على الدخول إلى السوق العراقية.

تقريبا كلّ المندوبين الأجانب في مؤتمر إعادة البناء في العراق ٢٠٠٥ الذي عقد في الأردن كانوا يتعاقدون مع المقاولين الأساسيين الأمريكيين بدلا من الشركات العراقية. طبقا للوفود البريطانية، لم تعقد صفقة واحدة مع رجال الأعمال العراقيين خلال طيلة أيام المؤتمر الأربع[47].

ومن جانب أخر يذكر Dave Whyte ان الإيرادات النفطية العراقية قد سلمت إلى سلطة الائتلاف المؤقتة نقدا على شكل اوراق من فئة أل ١٠٠$ دولار، كل حزمة فيها ١٠٠،٠٠٠ الف دولار ووصف مسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة كيف وزّع النقد إلى المقاولين باليد من الشاحنات. إن قيام هذه السلطة بتوزيع المال نقدا مكنها من توزيع أموال

---

46 المصدر نفسه.

47 Dave Whyte، الشركات تنهب العراق- حقائق وأرقام مخيفه، ترجمة: كهلان القيسي،الحوار المتمدن - العدد: ١٤٥٧ - ١٠/٢/٢٠٠٦

إعادة الأعمار بدون ترك أية إثباتات ورقية[48]. مما فتح المجال للتلاعب وامكانيات الفساد وضيع فرصا ثمينة لاعادة اعمار العراق.

وفي كتابه "شركة العراق: احتلال مربح" يذهب براتاب شاترجي" مدير برامج مجموعة "مراقبة الشركات." الى الكثير من الوقائع المفيدة بهذا الصدد حول تفضيل الشركات الاميركية التي لديها ارتباطات بالنخبة الحاكمة الاميركية، منها انه بعد أيام قلائل من الاحتلال الأمريكي للعراق تم إسناد مهمة إصلاح أنظمة الطاقة والكهرباء والهواتف والمستشفيات إلى شركة بيكتيل **Bechtel** التي يقع مقرها في سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا وذلك بعد أسابيع قليلة من تعيين المالتي بليونير ريلي بيكتيل **Riley Bechtel**وهو المالك الرئيسي لأسهم الشركة وعضو في مجلس الرئيس بوش للتصدير من أجل تقديم النصيحة للحكومة الأمريكية حول كيفية فتح الأسواق للشركات الأمريكية في الخارج.

كما يشرح الكاتب كيفية اعتماد الجيش الأمريكي بكثافة على الشركات الخاصة للقيام بالأعمال الروتينية في العمليات العسكرية بداية من طبخ الطعام للجنود وانتهاء بإصلاح الطائرات النفاثة المقاتلة وذلك في إطار البرنامج المسمى" برنامج تحفيز الإمدادات المدنية" والمسمى اختصارا "لوجكاب **"LOGCAP** الذي يعني أن الحكومة الفيدرالية لديها اعتماد مفتوح لإرسال مثل تلك الشركات لأي مكان في العالم للقيام بالعمليات الإنسانية والعسكرية نظير أرباح، وفي مقدمة تلك الشركات العاملة في العراق شركة هاليبرتون **Halliburton**ذات العلاقة الوطيدة بنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، أما مهمة الأمن فيعهد بها إلى عدد آخر من الشركات الخاصة مثل شركة "أنظمة الدفاع المحدودة" وديتكورب، والمتحدة لتوريد العسكريين المتخصصين والتي قامت بتدريب الجنود الأمريكيين في كل من الكويت والعراق على الرماية بالذخيرة الحية، وحتى المهام المتعلقة بالأعمال الاستخباراتية فلا تخلو من "البيزنس" من خلال الاستعانة بشركات مثل الشركة الدولية لتطبيقات العلوم التي

---

[48] المصدر نفسه.

تقوم بإعداد بعض البرامج التي تساعد وكالة الأمن القومي في الولايات المتحدة على مراقبة التليفونات والفاكسات والبريد الإلكتروني[٤٩].

شركة "هاليبرتون" وحاميها نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني الرئيس التنفيذي السابق للشركة، يقول عنها براتاب في كتابه سابق الذكر إنها "المقاول الأكبر للحكومة الأمريكية في العراق" وإن أرباحها تعادل ثلاثة أضعاف شركة بيكتيل (أقرب منافسيها) فقد ربحت الشركة من عقودها مع الجيش الأمريكي هناك في عام 2003 نحو ٣,٩ مليارات دولار وهو ما يعادل ٦٨٠% من أرباحها في عام ٢٠٠٢، كما أنها حصلت على الجزء الأكبر من كعكة إعادة الإعمار بحصولها على عقود تعادل ٢ مليار دولار عن عام ٢٠٠٣، أما عقود خدمات النفط والإمدادات في العراق التي ذهبت للشركة فتقدر بـ٨ مليارات دولار، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن نائب الرئيس الأمريكي يمتلك ٤٣٣ ألف سهم من أسهم الشركة تساوي أكثر من عشرة ملايين دولار وأنه حصل على تلك الأسهم كجزء من مكافأة نهاية خدمته في الشركة عندما صار نائبا للرئيس الأمريكي عام ٢٠٠٠، وشملت تلك المكافأة مبالغ تدفع له سنويا -لأسباب تتعلق بالضرائب- بلغت في مجملها أكثر من نصف مليون دولار ما بين أعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٣، إضافة إلى معاش مبكر صوت مجلس إدارة الشركة على منحه إياه عند توقفه عن العمل، ومن ثم فلا عجب أن تحظى هاليبرتون بتلك المكانة[٥٠].

---

[49] د. مجدي سعيد، لعراق.. شركة الاحتلال المربح، موضوع منشور في موقع اسلام اون لاين بتاريخ ٢٠٠٥/٠٥/٣١

[50] المصدر نفسه.

المبحث الرابع

مستقبل العلاقات الاميركية العراقية في ضوء اعلان مبادئ المالكي- بوش

ارساء المبادئ المشتركة لمستقبل العلاقات الاميركية العراقية

وفي ٢٦ تشرين الثاني٢٠٠٧ صدر عن البيت الابيض إعلان المبادئ الأميركي العراقي للصداقة والتعاون، وهو بحسب تحديد البيان " بيان نوايا مشتركة يرسي المبادئ المشتركة لرسم علاقاتنا في المستقبل".

من ذلك نفهم انه :

أولا: اعلان نوايا لم تدخل بعد في حيز الفعل، لكنها نوايا عبر عنها الطرفان اكثر من مرة لتعزيز العلاقة وتوضيح معالمها.

وهذا الاعلان استمرار لالتزام بدأ في آب ٢٠٠٧ اذ إن حكومتي العراق والولايات المتحدة ملتزمتان بإقامة علاقات طويلة الأمد كدولتين ذات سيادة تامة، مستقلتين وذات مصالح مشتركة.

فبيان ٢٦ آب الذي وقعه القادة السياسيون الخمسة، رئيس الوزراء نوري المالكي، والأعضاء الثلاثة لمجلس الرئاسة العراقي والزعيم الكردي مسعود البرزاني، يوم ٢٦ آب ٢٠٠٧، والذي أيّده الرئيس بوش ينص على ما يلي: "اعتبر القادة أن من المهم ربط تمديد العمل بالقرار ١٧٢٣ لعام آخر بإشارة الى إنهاء وضع العراق بمقتضى قرار الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة وما يواكب ذلك من استئناف وضع العراق الطبيعي كدولة كاملة السيادة والسلطات واستعادة وضع العراق القانوني الدولي، أي الوضع الذي كان يتمتع به قبل صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٦١ في العام ١٩٩٠. وفي هذا الإطار أكد الزعماء على ضرورة التوصل الى إقامة علاقة طويلة الأجل مع الجانب الأميركي... تكون مبنية على مصالح مشتركة وتشمل مختلف المجالات بين جمهورية العراق والولايات المتحدة الأميركية. وهذا الهدف ينبغي أن يتحقّق في المستقبل القريب[51]".

---

[51] "النص الكامل لاعلان المبادى الامريكي العراقي، بترا نت.. صحيفة تصدرها وكالة الأنباء الأردنية،الأحد ٢-١٢-٢٠٠٧

أما الرئيس جورج بوش فقد أيد من جانبه بيان ٢٦ آب. اذ قال "إنني أرحب وأقبل الرغبة المعلنة للقيادة العراقية بتطوير علاقة طويلة الأجل مع الولايات المتحدة ترتكز على المصالح المشتركة. إن الولايات المتحدة ملتزمة بتطوير هذه العلاقة وتمتين الروابط الدبلوماسية والإقتصادية والأمنية مع الحكومة والشعب العراقيين"[52].

- "إن القادة العراقيين مدركون أن نجاحهم سيقتضي مشاركة سياسية واقتصادية وأمنية أميركية تتجاوز فترة ولايتي الرئاسية. وقد طالب القادة العراقيون بعلاقة دائمة مع أميركا ونحن على استعداد للمباشرة ببناء تلك العلاقة، بصورة تصون مصالحنا في المنطقة وتقتضي وجود عدد أقل من القوات الأميركية"[53].

وبهذا الامر عبر الجانبان بصورة صريحة عن رغبتهما في تطوير العلاقة وتدعيم اسسها وبذلك تحقق الايجاب والقبول بين الطرفين لعقد الاتفاقية او اعلان المبادىء .

وثانيا: البيان يتعلق بارساء المبادىء المشتركة التي ستسير عليها العلاقات بين الطرفين مستقبلا ومن ثم فأنه سيحدد الخطوط العريضة التي ستتناولها المفاوضات مستقبلا بالتفصيل.

وعلى الرغم من ان البيان هو اتفاق غير ملزم بحسب التصريحات، الا اننا نجد اشارة واضحة الى نطاق التزام الطرفين به من حيث المباشرة بالمفاوضات حيث ذهب البيان الى انه " بهذا الإعلان يلتزم قادة العراق والولايات المتحدة بالمباشرة بالتفاوض حول الترتيبات الرسمية التي تحكم هذه العلاقة".

وقد اشار البيان الى طلب النخبة السياسية الحاكمة في العراق ورغبة صانعي القرار الاميركيين في تطبيع العلاقات بين الجانبين ومن ثم هناك ايجاب من قبل الطرف الاول وقبول من الطرف الثاني بما يظهر الاعلان او البيان بصورة اتفاق ابتدائي او أولي يفصح عن نية الطرفين وكاشفا عنها، بما يرتب التزامات متبادلة بينهما تتعلق بتدشين المفاوضات اللازمة لتفعيل الاتفاق حيث كشف الاعلان عن مطالبة "القادة العراقيون بعلاقة دائمة مع أميركا، ونحن نسعى لإقامة علاقة دائمة مع عراق ديمقراطي. ونحن على استعداد

---

[52] (من كلمة الرئيس بوش في قاعدة كيركلاند الجوية بولاية نيو مكسيكو، ٢٧ آب/أغسطس، ٢٠٠٧) المصدر نفسه

[53] (من خطاب الرئيس بوش الى الأمة من البيت الأبيض يوم ١٣ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٧) المصدر نفسه

لبناء تلك العلاقة بصورة مستديمة تصون مصالحنا المتبادلة وتشيع الإستقرار الإقليمي وتقتضي مرابطة عدد أقل من قوات التحالف".

ويكشف هذا الامر عن جملة من المسائل التي نسوق حولها الملاحظات الاتية:

١- الاستعداد الاميركي لبناء العلاقة بصورة دائمة تتجاوز الوضع المرحلي الحالي من خلال اطار القوات متعددة الجنسيات، وذلك على نحو (حسب النص الذي يعكس وجهة النظر الاميركية) يصون المصالح المتبادلة ولكن الاخيرة تحتاج الى تقديرها من قبل كلا الطرفين كل من جهته، وقد تتلاقى المصالح وقد تتقاطع او تتعارض سيما اذا كانت تتعلق بتحقيق بعض الاهداف في المنطقة بشكل عام، لذا نجد النص يذهب الى ان بناء العلاقة يشيع الاستقرار الاقليمي وقد لايعني ذلك تشجيع مبادرات السلام فحسب انما خوض الحرب من اجل تحقيق الاستقرار وهو ما يجعل مفهوم الاستقرار الاقليمي مفهوما نسبيا يعكس وجهة النظر الاميركية فحسب، من حيث :

-تحقيق الاستقرار الاقليمي قد يعني ضمان امن اسرائيل وضمان استمرار تدفق النفط

- وسائل تحقيق هذا الاستقرار قد تتضمن سياسة الضغط والاحتواء عن طريق العقوبات او عن طريق الحرب المباشرة تجاه دول الجوار مثل سوريا و ايران.

من جهة اخرى اشار البيان الى بناء العلاقة بما يحقق ترابط أقل عدد من القوات الاميركية وهذا يعكس لا شك الرغبة الاميركية في تجاوز الضغوط والصراع بين الحزبين الاميركيين على مستقبل الوجود العسكري الاميركي في العراق والجدل المشتعل بينهما حول الانسحاب من عدمه، وبطبيعة الحال فإن تفويض مجلس الامن للقوات متعددة الجنسيات في العراق والذي يعد الغطاء الشرعي للوجود الاميركي في العراق سيستبدل بأتفاقية تشرعن ضمن اطار ثنائي لمستقبل الوجود الاميركي في العراق سيما وان هناك عدة قواعد اميركية في العراق لا بد من ترتيب وضعها في اطار قانوني كما هو عليه الامر في القواعد الاميركية في الخليج العربي وفي اليابان والمانيا وكوريا الجنوبية وغيرهما، حيث يمكن اجراء المناورات والتدريبات العسكرية واستعمال القواعد في تأمين القوات المرابطة في المنطقة الى غير ذلك من المهام والاحتياجات.

وبهذا الصدد تتضارب التصريحات من قبل المسؤولين الاميركيين حول أمد ومستقبل بقاء القوات الاميركية في العراق، ففي الوقت الذي أقر فيه مجلس النواب الأمريكي مشروع قانون هو الثالث من نوعه، يقضي برفض إقامة أية قواعد عسكرية دائمة للقوات الأمريكية في العراق، فيما يُعد مواجهة بين الديمقراطيين، الذين يسيطرون على غالبية مجلسي الكونغرس، وإدارة الرئيس الجمهوري جورج بوش.وقد صوت لصالح القرار، الذي يتضمن أيضاً نصاً يحول دون سيطرة الولايات المتحدة على الموارد النفطية في العراق، ٣٩٩ عضواً، من الديمقراطيين والجمهوريين، فيما عارضه ٢٤ عضواً فقط، جميعهم من نواب الحزب الجمهوري.وفور إقرار مشروع القانون، قالت رئيسة مجلس النواب، نانسي بيلوسي، وهي نائبة ديمقراطية من ولاية كاليفورنيا: "هذا القانون يظهر بوضوح أن الولايات المتحدة لا تنوي البقاء إلى ما لا نهاية في العراق."وأضافت بيلوسي قائلة: "كان لابد من اتخاذ مثل هذا الإجراء، لتوضيح الأمر جلياً، بعد صدور عدة تقارير متضاربة من بالإدارة، حول الإستراتيجية الأمريكية المستقبلية في العراق."[٥٤]

وذلك في الوقت الذي صرح فيه روبرت عيبتس (سكرتير إدارة الدفاع الأمريكية) في زيارة له لقيادة الباسفيك- هنولولو " أن الولايات المتحدة تبحث عن "وجود ثابت طويل الأمد" في العراق وفق اتفاقية مع الحكومة العراقية". وذهب للقول "يُعتبر النموذج الكوري أحد الخيارات، وعلاقاتنا الأمنية مع اليابان خيار آخر،".

تتواجد القوات الأمريكية في كوريا الجنوبية منذ انتهاء الحرب الكورية ١٩٥٠-١٩٥٣ وفي اليابان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.وقد أكّد المتحدث باسم البيت الأبيض خلال نفس التاريخ رغبة بوش بتواجد عسكري أمريكي في العراق في سياق دعوة الحكومة العراقية المضيفة. "إن الوضع في العراق، وفي الحقيقة، الحرب الطويلة الأمد على الإرهاب، هي أمور تتجه لتأخذ وقتاً طويلاً،" حسب قوله[٥٥].

---

[54] الشرق الأوسط، مجلس النواب يرفض قواعد عسكرية أمريكية دائمة بالعراق، ٢٠٠٧/٠٧/٢٩موقع السي ان ان العربي.

[55] الولايات المتحدة مستمرة ببناء القواعد العسكرية في العراق...ترجمة: د. عبدالوهاب حميد رشيد، موقع ديمقراطية شعبية الصادر عن اللجنة المصرية لمناهضة الاستعمار والصهيونية.

مثل هذه التصريحات، بما تُرافقها من خطط عسكرية، تعني بوضوح فرض استمرار بقاء القوات الاميركية لأمد بعيد، وتعبر عن شكلية المناقشات الجارية في الولايات المتحدة- في الكونغرس، الصحافة والرأي العام- بشأن وضع حد للتواجد الاميركي في العراق.

وقد استعرض تقرير بحثي صادر في شهر يوليو ٢٠٠٧ عن مركز "جلوبال ريسيرش" الكندي لأبحاث العولمة شبكة القواعد العسكرية الأمريكية العريضة في العالم من قواعد أرضية وبحرية وجوية أو حتي قواعد تجسسية ومخابراتية في كل بقاع الأرض تقدر بحوالي سبعمائة أو ثمانمائة قاعدة تكلف الولايات المتحدة سنويا مئات المليارات من الدولارات من ضمنهاعشرين قاعدة في العراق تكلفت ١،١ مليار دولار.

ومع زيادة شعور الولايات المتحدة بالخطر بعد هجمات ١١ ايلول أضيفت سبع دول جديدة الي قائمة الدول التي تسمح بوجود قواعد عسكرية أمريكية علي أراضيها. وبعد أن كان هناك ٢٥٥ ألف جندي أمريكي منتشر في دول أجنبية عام ٢٠٠٢ قبل أن تحدث هجمات ١١ ايلول آثارها . أصبح الآن عددهم ٣٢٥ ألفا منتشرين في أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية وأوروبا الغربية والشرق الأوسط ووسط آسيا واندونيسيا والفلبين واليابان. ويشير التقرير الي أن العديد من القواعد الجديدة التي أنشأتها الولايات المتحدة مؤخرا هي قواعد تجسسية ومخابراتية متصلة بالأقمار الصناعي[٥٦].

هذا مع العلم بأن تسمية قواعد "دائمة الوجود" يتم إطلاقها بواسطة البنتاغون على القواعد العسكرية الأمريكية التي يتم اعتمادها للبقاء لفترة طويلة الأجل، وتكون تماماً مثلها مثل القواعد العسكرية الأمريكية الموجودة داخل الولايات المتحدة الأمريكي[٥٧].

ثلاث خطوات لتطبيع العلاقات الاميركية العراقية

يرسم الاعلان ثلاث خطوات من شأنها تطبيع العلاقات الأميركية العراقية بصورة تنسجم مع سيادة العراق وتساعده على استعادة وضعه الذي يستحقه في المجتمع الدولي :

---

[56] خريطة جديدة للقواعد العسكرية الامريكية في العالم تكشف عن انشاء ٢٠ قاعدة في العراق بكلفة ١,١ مليار دولار، موقع المرصد العراقي بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٠٩

[57] علي الطالقاني، ضمن اهداف الإتفاقية الخفيَة: نوايا امريكية للبقاء العسكري في العراق، موقع شبكة النبأ المعلوماتية http://www.annabaa.org

١- (أعلان المبادىء) الخطوة الاولى يمثلها الاعلان نفسه فهو اعلان نوايا كما اسلفنا يعكس رغبة الطرفين في تدعيم وبناء العلاقة، لكنه من جهة اخرى لم يشر الى قضايا مثل جدولة الاحتلال بل هو يقطع بموضوع مستقبل الوجود الاميركي في العراق بالاشارة الى مرابطة عدد أقل من القوات، كما انه لم يعرض على البرلمان على الرغم من اهميته القصوى المتعلقة بمصير البلد واستقلاله وهندسة مستقبله على جميع الصعد.

٢- الخطوة الثانية تتمثل بالتجديد لعام نهائي لتفويض قرار الأمم المتحدة بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة بشأن وجود القوة المتعددة الجنسيات في العراق، وذلك للدخول في مرحلة جديدة اطلق عليها الاعلان تسمية "ما بعد الوجود الدولي" ولم يستخدم الاعلان تسمية "اممي" فليس هناك قوات للامم المتحدة مرابطة انما هناك قوات احتلال حول وضعها بشكل قانوني لاضفاء الشرعية على تواجدها من خلال تفويض مجلس الامن فاصبحت تحمل تسمية القوات متعددة الجنسيات منحت تفويضا رسميا " باتخاذ جميع التدابير الضرورية للحفاظ على السلام والأمن" بما يعنيه ذلك من استخدام القوة.

وبذلك يقسم الاعلان التواجد الاميركي في العراق الى مرحلتين الاولى هي

-(مرحلة الوجود الدولي) طبقا لتفويض قرار مجلس الأمن المستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

-(مرحلة ما بعد الوجود الدولي) حيث سيلتزم الطرفان العراقي والاميركي بانتقال الطرفين الى المرحلة الجديدة من خلال هندسة وجود القوات الاميركية ووفقا للاتفاق الجديد، مما يعني ان الطرف الثالث وهو الامم المتحدة سيكون بعيدا عن المفاوضات ولن تكون هناك حاجة له ما دام طرفا العقد او الاتفاق يمتلكان الشرعية الكاملة لعقده وفقا للضوابط المعروفة دوليا لعقد الاتفاقات او المعاهدات الثنائية وتصديقها وايداعها الخ

وقد اشار الاعلان الى ان العراقيين قد عبروا عن" رغبتهم بتجاوز تفويض الفصل السابع للقوات المتعددة الجنسيات ونحن ملتزمون مساعدتهم على تحقيق هذا الهدف".

والحقيقة ان رغبة معظم العراقيين كانت متعلقة بجدولة الانسحاب ولم ترغب بتجاوز التفويض بقدر رغبتها بانسحاب القوات كقوات محتلة بغض النظر عن التفويض الذي تستند اليه هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فإن الهدف من تطبيق الفصل السابع او اخضاع العراق لنظام الامن الجماعي الدولي هو رد العراق الى حظيرة القانون الدولي وهو ما تمثله القرارات المتخذة بعد احتلال الكويت، سيما القرار ٦٦١ الذي فرض مقاطعة اقتصادية شاملة على العراق والقرار ٦٧٨ الذي خول بأستخدام القوة لاخراج القوات العراقية من الكويت.

الا ان القرارات الصادرة بعد ذلك منذ صدور القرار ٦٨٧ وحتى صدور القرار ١٤٤١ غذت تطوير اهداف شملت طائفة لا نهاية لها من المطاليب مثل التعويضات، نزع اسلحة العراق، تحديد الحدود، قضايا الارهاب، تطويق النظام السابق ...الخ

في حين كانت القرارات الصادرة بعد الاحتلال منذ صدور القرار١٤٨٣ تعالج المتغيرات الطارئة بفعل الاحتلال ومسؤولية الدول القائمة به وقضايا الشرعية وانتقال السلطة ومحاربة الارهاب وادارة البلاد واعاة البناء على الرغم من ملاحظة مجلس الامن المتكررة عن كون الحالة العراقية ما تزال تشكل تهديدا للامن والسلم الدوليين.

الامم المتحدة ستصبح اذن خارج نطاق اللعبة بعد ان تم توظيفها لخدمة الاهداف الاميركية خلال الفترة السابقة وسيخرج العراق من الخضوع للفصل السابع ليخضع لالتزامات جديدة ترتبها اتفاقية ثنائية ستتضح تفاصيلها خلال المفاوضات المقبلة لكن رسمت ملامحها الاساسية من خلال الاعلان الحالي.

٣- (التفاوض حول مستقبل العلاقات) الخطوة الثالثة تتمثل بالتفاوض بشأن ترتيبات تفصيلية ستنظّم العلاقة الثنائية بعد انتهاء تفويض قرار مجلس الأمن بموجب الفصل السابع.

حيث يشير الاعلان الى انه " بعد تمديد العمل بتفويض الفصل السابع لمدة عام واحد، سنبدأ بالتفاوض حول إطار يحكم مستقبل علاقاتنا الثنائية".

التفاوض حول الاطار الحاكم لمستقبل العلاقات يعني بداية عملية شاقة من المفاوضات بين الجانبين وبما ان طبيعة التفاوض معلنة حيث الهدف، اذ انها تفاوض من

أجل تطبيع العلاقة (Normalization) و المقصود بذلك " إعادة تأسيس علاقة دبلوماسية او انهاء احتلال مؤقت، مثال ذلك العلاقة بين مصر واسرائيل والامم المتحدة عام١٩٤٧، اي عقب موقف غير عادي وبعد وقف قتال ووجود جو غير مستقر"[٥٨].

لكن ينبغي الاخذ بنظر الاعتبار ان التفاوض بصدد الاطار الحاكم قد يفرز أما اتفاقا لصالح الطرفين وهو اذا ما انتهج الطرفان المتفوضان مبدأ المصلحة المشتركة او ما يعرف بمباراة "اكسب واكسب" والاستراتيجيات التفاوضية التي يحاول الطرفان تبنيها هي تطوير التعاون الراهن وتعميق العلاقة القائمة وتوسيع نطاق التفاوض ومده الى مجالات جديدة[٥٩].

أو سيكون التفاوض من أجل مكسب لأحد الاطراف وخسارة للطرف الآخر: وهذا النوع (win-Lose) يحدث عندما لا يتحقق توازن في القوة بين الطرفين، والاستراتيجيات التفاوضية المنتهجة هنا هي استراتيجيات تصارعية مثل إنهاك واستنزاف الخصم وإحكام السيطرة عليه المصدر نفسه"[٦٠].

طبيعة المفاوضات بين الطرفين الاميركي العراقي

تمثل المفوضات الطريق المألوف لعقد المعاهدات والاتفاقات الدولية والوسيلة الرئيسة لتنظيم وتنسيق العلاقات الثنائية . وكل طرف من اطراف العملية التفاوضية 'يملك سلطة تفاوضية معينة، نقاط قوة يرتكز عليها في أدارة عملية التفاوض، ولكونه من جهة اخرى، لايستطيع فرض ارادته ومطالبه على الطرف الآخر، لانه لايملك السلطة المطلقة التي تتيح له التحكم بالطرف الآخر تماما، ومن هنا كان لزاما عليه اللجوء الى التفاوض بوصفه المخرج الوحيد المناسب الذي يمثل اداة فعالة لها أكبر الاثر في حسم القضايا والمشاكل والوصول اتفاق يرضي الاطراف المتفاوضة"[٦١].

---

[58] حسن محمد وجيه، مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، المجلس الثقافي للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤، ص ٨٠.

[59] المصدر نفسه ص٧٧-٧٨

[60] المصدر نفسه ص ٧٨

[61] احسان العارضي، فن ادارة المفاوضات، مركز الشهيدين الصدرين للبحوث والدراسات، بغداد، ٢٠٠٦، ص٢

وبذلك يمكن القول بأن التفاوض سيكون عبارة عن "مشروع تعاوني يتم البحث من خلاله عن مصالح مشتركة بين الاطراف المتفاوضة للتوصل الى اتفاق"[٦٢] وجاء نص الاعلان مؤكد على ضرورة المفاوضات حول مستقبل العلاقات كإقرار ضمني بأن هناك مشاكل وعثرات وتجاذبات ستبرز حول تحديد ماهية العلاقات ومستقبلها مما سيتطلب من وفدي المفاوضات التباحث بشأنها وتبادل وجهات النظر والتحاور والنقاش شفاها او بتبادل المذكرات، والتنازل عن المواقف وتهيئة البدائل وممارسة التكتيكات التفاوضية واتباع اسلوب المساومات القائمة على عنصر المناورة وصولا الى نقطة التوازن وتحقيق الالتقاء والتوافق واقناع الطرف الآخر بوجهات النظر التي تحقق المصالح الوطنية.

ولاشك في ان ذلك يثير كثيرا من الاسئلة في الذهن مثل : هل ستكون الاهداف المعلنة للسياسية الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ككل هي سقف ما تسعى المفاوضات الى بلوغه وتأطيره في اتفاق ثنائي؟ وهل ستتطابق الاهداف المعلنة من خلال اعلان المبادىء مع ما سيتم بلوغه من اهداف من خلال المفاوضات ؟ وهل ستتم المفاوضات بصورة سرية او علنية وهل ستنشر وقائع المفاوضات وسيتم الاطلاع على المجرى الذي تسير فيه؟ اذ كثيرا ما يكون من المرغوب فيه في المفاوضات إحاطتها بجانب من السرية من أجل ابعاد التأثيرات الخارجية سيما وان العراق محاط بعدد من دول الجوار التي ترغب بشدة في ان تأخذ علاقاته مع الولايات المتحدة طابعا يتماشى مع مصالحها وهو ما لايتوافق بالضرورة مع المصالح العراقية او المصالح الاميركية. واعلان المبادىء عن وقت انطلاق المفاوضات سوف يترك وقتا لوضوح وتنامي هذه التأثيرات تدريجيا مع اقتراب الموعد الحاسم لانطلاقها.

ومن المهم بالنسبة للطرف العراقي الاستعداد للمفاوضات لنيل اكبر مكاسب ممكنة، سيما وانه سيواجه فريقا محترفا من المفاوضين مسلحا بجميع القدرات والمهارات التفاوضية،و سيتم التفاوض حول مسألة في غاية الحساسية بالنسبة للسياسية الاميركية ومستقبلها في المنطقة الا وهي شكل وطبيعة وحجم الوجود الاميركي طويل الأمد في العراق وما سيرتبه ذلك من التزامات على العراق.

---

[62] سيد عليوة، مهارات التفاوض-سلوكيات الاتصال والمساومة الدبلوماسية، المنظمة العربية للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٧، ص٨٧ .

ويمكننا تصور مرحلتين ستجري في سياقها المفاوضات هي:

قبل اجراء المفاوضات

قبل اجراء المفاوضات ينبغي طرح بعض الاسئلة ومحاولة ايجاد اجوبة لها تترتب طبقا لها استراتيجيات تفاوضي، مثلا:

بأي لغة سيكون نص الاتفاقية؟ واذا كان الاتفاق باللغتين العربية والانكليزية فعند الاختلاف في التفسير اي النصين سيرجح، الانكليزي ام العربي؟

ومن سيقود المفاوضات : هل هم القادة السياسيون ام فريق من المفاوضين المحترفين والخبراء؟

قبل الاجابة على هذه الاسئلة وحسمها قد يكون من المفيد ان نتفحص مليا في النصيحة التي قدمها الخبير الاميركي "بيتر و. غالبريث" للقادة الاكراد حين طلبوا منه مراجعة الجوانب العملية لمجرى المفاوضات حول الدستور الانتقالي اذ قال :

" لو كنت أجري المفاوضات لصالح سلطة التحالف لكنت أريد السيطرة على النص. ففي المفاوضات التي نتجت عنها أتفاقيات دايتون للسلام (والتي شاركت فيها) بادر كبير المفاوضين الاميركيين-السفير ريتشارد هولبروك- إلى جعل الأطراف يوافقون على مبادىء عامة، ثم ترك لخبراء أميركيين إدخال التفاصيل بالطريقة التي كنا نريدها. كما كنا نعمل بنص باللغة الانكليزية، الامر الذي كان لصالحنا، وليس لصالح الاطراف الناطقة باللغات الصربية والكرواتية والبوسنية"[٦٣].

ويذهب غالبريث الى انه قام بحث القادة الطالباني والبارزاني على العمل من خلال مفاوضين، بدل مشاركتهما المباشرة في المباحثات الدستورية، فالقادة في رأيه نادرا ما يفهمون المعاني المبطنة في النصوص، وحين يجلسون الى مائدة المفاوضات، يقعون تحت ضغوط تقديم الإجابات الفورية. لذلك رأى غالبريث ان من الافضل للفريق المشارك في المفاوضات أن يكون في وسع ممثله القول إنه يترتب عليه عرض أي اتفاق مقترح على

---

[63] بيتر غالبريث، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣

صاحب القرار الغائب، فهذا لايتيح وقتا للتأمل فحسب، بل يمكن استغلاله من أجل الحصول على بعض التنازلات الإضافية[٦٤].

ويقول غالبريث بالاستناد الى خبرته "إن القادة بشكل عام ليسوا افضل المفاوضين لكون غريزتهم السياسية تملي عليهم السعي الى اسعاد الناس، وهذا يعني في معظم الاحوال الإجابة بنعم. أما المفاوض الناجح فلا بد له من أن يتلذذ بكلمة كلا"[٦٥].

يمكن تلخيص انطلاق الاستراتيجية التفاوضية بوضع العزم على ما يلي:

١. (لغة الاتفاقية) لابد من السيطرة على نص الاتفاقية فمن الافضل ان تكون لغة الاتفاقية العربية والانكليزية وعند الخلاف يرجح النص العربي

٢. (فريق المفاوضين) : لا بد من أن يقود المفاوضات خبراء ومفاوضون محترفون يرجعون الى القادة السياسيين لاتخاذ القرارات النهائية والحاسمة، من اجل تدعيم موقفهم التفاوضي من جهة وكسب مزيد من الوقت لاجراء المساومات والحصول على تنازلات مفيدة من جهة اخرى.

٣. (الجانب المعلوماتي) : من المهم استطلاع وجهات نظر الطرف الآخر للعملية التفاوضية، وتوفر القدرة على جمع البيانات والمعلومات المستخدمة او الداخلة في عملية التفاوض والتي لها علاقة مباشرة او غير مباشرة بها، وكذلك وجود القدرة على تحليل واستخدام المعلومات. مع عدم نسيان مصدر مهم في المفاوضات الحكومية هو المصدر الاستخباراتي[٦٦].

والطرف الذي يمتلك المعلومات الجيدة، يستطيع ادارة عملية التفاوض لصالحه، فنحن نعيش في عصر المعلومات، لا عصر الافتراضات الشخصية، وكلما كانت المعلومات ذات طبيعة واضحة ومحدودة ودقيقة، كلما سهلت عملية التفاوض، وسيكون مالكها بالتالي في موقع افضل دائما. وتشمل المعلومات حجمها ونوعيتها وعلاقتها بموضوع التفاوض وكذلك المعلومات السابقة وجوانب القوة والضعف عند طرفي التفاوض، وحجم الموارد المتوفرة

---

[64] المصدر نفسه، ص١٨٣-١٨٤

[65] المصدر نفسه، ص١٨٤

[66] احسان العارضي، مصدر سبق ذكره، ص٩ :

ومعرفة اعضاء فريق المفاوض وفريق الخصم (الطرف الاخر)، والتوقيت اللازم لبدء المفاوضات وطبيعة المشاكل التي يتم التفاوض بشأنها ومقدار حجم الصلاحيات الممنوحة للمفاوض وخصمه وغيرها[٦٧]..

٤. (توازن القوى بين الطرفين): قبل اجراء عملية التفاوض يجب توفر توازن القوى، أي ان يكون توزيع القوة بين اطراف العملية التفاوضية قريبا من نقطة التوازن، والا فأن احد الاطراف سيكون تحت رحمة الطرف الآخر، وستملى عليه الشروط من قبل الطرف القوي، وعدم التكافؤ بين اطراف العملية يجعل المفاوضات تسير بشكل غير ناجح بالنسبة للطرف الضعيف، سيما اذا تعارضت المصالح، وحصلت في مجرى العملية التفاوضية مساومات قسرية تجعل الطرف الضعيف يخضع لشروط مجحفة وحققت مكاسبا للطرف القوي .

اثناء المفاوضات

- (المصلحة المشتركة) يجب ان تتوفر مصلحة مشتركة بين اطراف العملية التفاوضية، اي ضرورة توافر مصلحة محتملة متبادلة بين الطرفين يدفعهما للتوافق ورؤية منافع متبادلة ملموسة في التوصل الى اتفاق يخدم الطرفين، بخلاف ذلك تسير المفاوضات باتجاه واحد ولايبقى تفاوض على شيء بقدر قسر من طرف وقبول واذعان من قبل الطرف الآخر. وفي جميع الاحوال لايمكن ان تكون المصالح متطابقة تماما بل ان كل علاقة محتملة تتضمن "مزيجا من المصالح المشتركة والمصالح المتعارضة، فالمشاركة في بعض المصالح تخدم كحافز نحو الدخول في مساواة لتحقيق اتفاق حول المصالح الاخرى المتنازع عليها"[٦٨].

- (مهارة صنع القرار التفاوضي): لا بد لفريق المفاوضين من امتلاك القدرة الفنية في صنع القرارات الخاصة بالمفاوضات، وهذه القدرة تعتمد على امتلاك وتنمية المداخل

---

[67] المصدر نفسه، ص١٠

[68] اسماعيل صبري مقلد، نظريات السياسية الدولية- دراسة تحليلية مقارنة، منشورات ذات السلاسل، دولة الكويت، ١٩٨٧، ص ٣٤٤

الرئيسية للتفاوض، وكذلك مستلزمات صنع القـرار التفاوضـي وتطـوير البـدائل والخطط الخاصة به[٦٩].

اذ تتحرك عملية التفاوض بشكل مستمر حول تحديـد شـكل الخيـارات والبـدائل المطروحة، وعلى هذا فعلى طرفي العملية التفاوضية انشاء وتكوين عـدد مـن الخيـارات والبدائل قبل تقرير ماذا سيعملون لاحقا.(٦٩) واذا جرى نوع من التنازل فليكن فـي امـور هامشية ولايتعلق بالمسائل بالغة الخطورة والحيوية والا فأن الافراط في التنـازلات سـيؤدي الى انهيار عنصر التوازن القائم بين الطرفين ويجعل من احد الاطـراف مـذعنا لرغبـات ومصالح الطرف الاخر.

مستقبل التعاون في الحقول السياسية والاقتصادية والامنية

وتضمن الاعلان الاشارة الى مجموعة من القضايا في مقدمتها التعاون في الحقـول السياسية، الاقتصادية، الثقافية، والأمنية، والنص يتضمن الاشارة الى التزام الولايات المتحـدة حول ترتيبات تقوم على طائفة من المبادئ يمكن تلخيصها كالاتي:

في المجال السياسي والدبلوماسي: يتضمن ذلك التزام الولايات المتحدة بالدفاع عـن العراق ضد التهديدات الداخلية والخارجية، ودعم الدستور العراقي، ومساندة التوافق العراقـي الوطني، وتعزيز وضع العراق الإقليمي وفي المنظمات الدولية، كي يكون بمقدوره أن يلعـب دورا بنّاء في المنطقة.

في المجال الاقتصادي: يتضمن ذلك دعم نمو العراق وتحويله الى اقتصاد السوق و دعم تطوير المؤسسات الاقتصادية العراقية وتعزيز اندماج العراق فـي المؤسـسات الماليـة الدولية، لغرض تشجيع كل الأطراف على التقيد بالتزاماتها التي قطعتها في العقد الدولي مـع العراق، ومساعدة العراق في جهوده لاستعادة أموال وأملاك أخرجت من العراق بصورة غير مشروعة، ولتأمين تخفيف أعباء ديونه وتشجيع تدفق الاستثمارات الأجنبية على العراق.

[69] المصدر نفسه، ص١١

في المجال الامني : دعم الحكومة العراقية في مجالات تدريب قوات الأمن العراقية وتزويدها بالعتاد وتسليحها، كي تستطيع توفير الأمن والاستقرار لجميع العراقيين؛ ودعم الحكومة العراقية في المساهمة في الكفاح الدولي ضد الإرهاب من خلال التصدي للإرهابيين من أمثال القاعدة والصداميون وكذلك كل الجماعات الأخرى الخارجة عن القانون، وتوفير ضمانات أمنية للحكومة العراقية كي تردع اي عدوان خارجي، وتكفل وحدة الأراضي العراقية.

على الرغم من عدم اشارة الاعلان الى طبيعة ما سيقدمه العراق من التزام تجاه الولايات المتحدة مقابل التعاون الاميركي في المجالات سالفة الذكر، الا ان مساهمة العراق تبدو واضحة في ضوء الاهداف الاميركية المعلنة للحرب وما تبعها من تحركات، فالعلاقة ترتب التزاما تبادليا على الجانبين، وفي ضوء اوجه التعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والامنية

ففي المجال السياسي كان الهدف المعلن هو تحويل العراق الى نموذج للديمقراطية يحتذى به في المنطقة كجزء من عملية تحويل الشرق الاوسط ومن ثم كان العراق بوصفه النموذج سيكون قطعة الدومينو الاولى في عملية تغيير المنطقة وسيعقبها التغيير عبر تعاقب الآثر، ومن ثم يصبح الدفاع عن نجاح هذا النموذج وتجنب الفشل وتحطيم تجربة التحول الديمقراطي في العراق جزءا من الاستراتيجية الاميركية في حربها الطويلة مع الارهاب الدولي.

اما الجانب الاقتصادي فيشمل استمرار تدفق النفط وضمان حصول الشركات الاميركية على حصة الاسد في مجال الاستثمار في قطاع النفط وفقا لعقود مشاركة الانتاج او غيرها من صيغ العقود التي ستحقق ارباحا طائلة للشركات الاميركية فضلا عن الحصول على عقود اعادة البناء والاعمار حيث يمثل العراق ارضا خصبة وفرصة هائلة للاستثمارات في جميع المجالات بالاضافة الى المجالات الامنية ودور العراق في المعركة العالمية ضد الارهاب الدولي التي اصبح العراق بعد الغزو الاميركي ساحتها الرئيسة وجبهتها الاولى، في سياق ذلك ستقدم الاراضي العراقية مساحات للقواعد العسكرية الدائمة التي سيتم الانطلاق

منها للدفاع عن المصالح الاميركية وتطويق بؤر التوتر والنزاعات، سيما وان السياسة الاميركية بعد ١١ من ايلول تنطلق من تصور ذاتي للدفاع عن النفس -طبقا للمادة ٥١ من ميثاق الامم المتحدة- يرى في محاربة شبكات الارهاب في اي جزء من المعمورة تفعيلا لحق الدفاع الشرعي عن النفس حتى لو كان الخطر مفترضا واحتماليا ولم يكن مؤكدا، لذا كان حق الدفاع هنا وقائيا واستباقيا.

خاتمة

لا تأخذ طبيعة العلاقات بين أي دولتين طابعا واحدا او تظل على مستوى افقي متوازي بل هي في حالة صيرورة وتبدل تبعا لمدركات كل من الدولتين للاخرى، وهذا يعني ان طبيعة ادراك دولة لعلاقتها مع الدولة الاخرى لن تكون بالضرورة متوافقة ومتطابقة مع إدراك الدولة الاخرى لطبيعة هذه العلاقة، وهذا التباين في الرؤى مرده الى حالة الاختلاف والتباين في المصالح والتكوين الايديولوجي والأهداف لكل طرف من طرفي العلاقة.

هذه القاعدة العامة تنطبق على تاريخ العلاقات الاميركية العراقية، وستحكم مستقبلها أيضا، وكان من نتائجها اتصاف العلاقات الاميركية العراقية بقدر غير قليل من عدم الاستقرار والتذبذب، اذ نجدها تنطوي على مدخلات تعاون في فترات ثم تنقلب الى مدخلات صراع في أحيان أخرى، او نلاحظ انها تنطوي على الاثنين معا في فترات اخرى، وقد غفلت النخب السياسية العراقية عن الامكانيات المتاحة في استثمار هذه العلاقات بما يخدم عملية بناء الدولة وتعزيز دورها، وظلت السياسات الايديولوجية للنخب العراقية الحاكمة، متحكمة في طبيعة هذه العلاقات، وانعدام الثقة والشك علامة رئيسية من علاماتها.

ويبقى الرهان منعقدا على حسن اداء العلاقة ومخرجاتها المستقبلية للخروج من آسار التبعية والذيلية الى مستوى الشراكة والتحالف الايجابي بما يخدم مستقبل البلاد والارتفاع الى مستوى النضج والاستقرار، سيما بعد تصدع الدولة وضعفها وحاجتها الى الحماية وأعادة البناء وسط اطماع اقليمية معروفة وتدخلات من قبل بعض دول الجوار، وهو ما يرسم مديات ضرورية وواسعة لقيام علاقات مستقبلية تنطوي على مدخلات تدعم تلك العلاقة قائمة على المصالح المتبادلة والاعتماد المتبادل.

لكن القيام بعلاقات قائمة بين طرفين متساويين هو افتراض متفائل مع واقع مقتضيات السيادة الفعلية، سيما اننا نتناول طرفين غير متكافئين من حيث القوة او السلطة: فأولا هناك الولايات

المتحدة اكبر قوة عسكرية امبراطورية ومن جهة اخرى هناك العراق المحطم المنقوص السيادة والذي هو في مرحلة اعادة البناء وسط جو شرق اوسطي متفجر.

لا يمكن هندسة علاقات ايجابية مع الولايات المتحدة دون اخذ الامور التالية بالاعتبار:

- لابد من تحقيق نوع من الاستقرار السياسي وانطلاقة عملية التنمية التي لا تحيا بدون جو امن، وذلك لغرض تحقيق رؤية سياسية واضحة في محيط ضبابي يموج بالعنف واللااستقرار.
- انسحاب القوات متعددة الجنسيات وتسلم الملف الامني كاملا، بما يظهر العراق بلدا كامل السيادة، مزودا بحكومة قوية مستقلة تحقق هامشا تفاوضيا ايجابيا.
- وضع ثروة العراق النفطية في أطار خطة وطنية تأخذ بالاعتبار دعم تنمية البلاد ومستقبلها مع ضمان قدر اكبر من الاستقرار في توفير الامدادات النفطية للولايات المتحدة وبما يحقق مصالح متوازنة للجانبين
- الخروج بالعلاقات من أطار التوظيف السياسي لخدمة الاهداف الاميركية الى نطاق توظيف العلاقات بما يسهم في بناء البلاد وتدعيم دورها الاقليمي والدولي، ويكون ذلك بتوظيف مكانة العراق في السياسة الاميركية بشكل عام بما يدعم نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية و التاثير على بقية الدول الدائنة للعراق في سبيل تخفيض ديونها على العراق أو اسقاطها، ودعم وتغذية متطلبات التحول الديمقراطي في العراق؛ والانفتاح على العالم الخارجي والنظام الدولي بما يكفل لعب الدور الاقليمي والدولي الملائم لدولة تحتفظ بأهم احتياطيات الطاقة في العالم.

العنف الطائفي (لماذا)؟ الاسباب-النتائج-المعالجات

المدرس المساعد
سهيلة عبد الانيس(*)

المقدمة

تكاد تكون الطائفية احد أهم التحديات التي تواجه العراق الجديد بل هي التحدي الأكبر الذي يقف إمام الانطلاق بمرحلة جديدة للبناء والتطور وإرساء أسس مرحلة تعتمد الديمقراطية وتحترم حقوق الإنسان ، وخطورة هذه الآفة التي تهدد مستقبل العراق تكمن في أنها أضعفت من الخيارات ومن عناصر القوة التي يمكن إن توظف لمكافحة الإرهاب.

إن الحديث عن العنف وخاصة الطائفي منه يحتم علينا بدا قراءة جادة لأسباب هذا العنف ، وفي ذات الوقت فإن دراسة الأسباب يجب ألا تفهم على أنها تبرير لإحدى مقدمات هذا السلوك المنحرف ، فهي أسباب تفسيرية لا تبريرية[1].

وان كنا نبحث عن حل فلا بدا أن نتعرف على الأسباب ، وعلى هذا فالبحث محاولة للتعرف على ماهية العنف والعنف الطائفي تحديدا وماهية جذوره وأسبابه وماهية النتائج المترتبة على تجدده والبحث في إمكانية وضع بعض المقترحات التي يمكن إن تسهم باحتواء هذه الظاهرة في المجتمع العراقي .

كيف ولماذا يحدث العنف ؟

العنف ظاهرة مركبة لازمت الإنسان منذ بداية وجوده تتداخل فيها عناصر مترابطة ومتصلة يمكن حصرها بثلاثة عناصر، الأول يتصل بعالم الأفكار، والثاني بالبيئة الاجتماعية التي يتولد فيها العنف، والثالث يتصل بالنشاط السلوكي للظاهرة، ولا يمكن إن تفهم ظاهرة العنف بدون النظر إلى هذه العناصر بصورة مركبة ومتصلة فيما بينها، ولا يساعد النظر إليها بصورة أحادية ومفككة على تكوين فهم ناضج وعميق لها، فعالم الأفكار هو العنصر الحيوي الخفي والأكثر جوهرية في معرفة المنطق الداخلي للظاهرة ، إذ يقوم بدور تشكيل

(*) كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية.

[1] سلمان العودة ، لماذا العنف ، العربية نت ، وكذلك د .إبراهيم سعيد البيضاني ، الطائفية عقبة إمام العراق الجديد .

المبررات وبناء القناعات، وإضفاء الشرعية على هذا النمط من السلوك، ولذلك يمكن القول، بان العنف هو ظاهرة فكرية تعبر عن نفسها في نشاط سلوكي يتصف باستخدام وسائل القوة ، وتصبح هذه القوة المظهر الخارجي للظاهرة في حين تصبح الأفكار هي المعبرة عن المظهر الداخلي لها، إما البيئة الاجتماعية بحسب طبيعتها وملامحها ومكوناتها، هي التي تسهم في توليد البواعث والمحرضات الحسية، وخلق الانطباعات والصور الذهنية المحركة لذلك النمط من السلوك، والأفكار لا تكون مؤثرة لوحدها، ولا تتحول إلى ظاهرة سلوكية ما لم تجد لها ما يبرر لها ويحفز عليها من داخل البيئة الاجتماعية لان العنف ظاهرة ليست طبيعية او مؤتلفة، أو حتى مقبولة لهذا فهي بحاجة إلى ما يبرر لها ويحرض عليها، ويكسبها قدرا من المشروعية، إما النشاط السلوكي للعنف فتتحدد صورته ونمطيته بحسب طبيعة الأفكار المكونة له من جهة عالم الأفكار، لكنها تختلف وتتعدد من جهة اختلاف وتعدد البيئات الاجتماعية التي يتولد منها ويتطور فيها من جهة أخرى، وباختلاف هذه البيئات قد تختلف او تتعدد صور او ظواهر العنف وأنماطها ، ويمكن أن تتحد هذه الظواهر أو تتقارب من جهة عالم الأفكار ، لكنها تختلف وتتعدد من جهة اختلاف وتعدد البيئات الاجتماعية ، فالصورة التي يظهر عليها العنف ليس بالضرورة ناشئ من تعدد الأفكار ، وإنما هو ناشئ من اختلاف البيئة الاجتماعية وتركيبتها السياسية والاقتصادية[٢]. وعلى هذا يمكن القول ان العنف بجميع أنواعه وإشكاله وأساليبه رافق الإنسان منذ وجوده ، فهو بهذا الوضع يعتبر سلوك غير طبيعي وغير مقبول وشاذ، يؤدي الى تداعيات خطيرة في المجتمع الذي يظهر فيه، لهذا نجد ان العنف كسلوك بمدلوله العام والخاص قد خضع الى دراسات وتحليلات عديدة بحسب تعدد العلوم الاجتماعية ، فعلماء النفس والاجتماع حاولوا ولازالوا يحاولون دراسة هذه الحالة من ناحيتها النفسية على اعتبار ان العنف يمثل سلوكاً عدوانياً له دوافعه النفسية الغريزية أو المكتسبة ، وفي كلا الحالتين تظهر من خلال المؤثرات المتراكمة التي يتعرض لها الآخرين

---

[2] د.عزيز جبر شيال. ظاهرة العنف والتطرف الأسباب والمعالجات,الرأي الأخر .دورية. كلية العلوم السياسية ، الجامعة المستنصرية .٢٠٠٧. العدد ٣. ص ٢٣

داخل بيئتهم الاجتماعية ، وهذا أيضا يرتبط بدرجة ثقافتهم وديانتهم وتربيتهم الأخلاقية وتوازنهم النفسي بشكل عام في الحالات العادية للسلوك الجماعي[٣].

ويعرف العنف حسب ما يشير إليه القاموس السياسي Le Report بأنه تعبير يعود تاريخه إلى عام ١٢١٥ ، ويعني الاستخدام المتعسف للقوة ، كما انه عمل موجه ضد الأشخاص والمجموعات والدول، لإرغامهم على القيام بعمل ضد إرادتهم باستخدام القوة أو التخويف[٤]. وبقدر تعلق الموضوع بالعنف الطائفي سنحاول هنا تحديد أهم أسباب هذا النوع من العنف :

في أسباب العنف الطائفي

كما هو الحال مع أي ظاهرة فالأسباب تعددت وتعددت الآراء فالبعض يرجع ذلك إلى القول إن قضية العنف وبروزها الحاد إنما يعود الى:غياب الممارسة الديمقراطية أو بعض مظاهرها الأساسية، ويرى فريق أخر ان الأزمة الاقتصادية والسياسَية تعد أساس ظاهرة العنف، وهناك فريق أخر يرجعه إلى افتقاد المشروع الوطني وغياب هدف مجتمعي عام وسيادة نمط الحل الفردي وظهور أنماط اجتماعية متباينة واشتداد التباين لمظاهر حياة الفئات المختلفة ، ويتهم البعض المؤسسة الدينية بالعجز عن استيعاب مفاهيم الحداثة فيكون سببا في حدوث العنف ويضيف البعض الأخر بروز ظاهرة الإحياء الديني المرتكز في معظمه على شروح مشوهة للدين كسبب يكفل العنف ضد المخالفين اياً كانوا .

ومن اجل توضيح كيف ولماذا يحدث العنف وتحديداً الطائفي في العراقُ لابد من معرفة الظروف والعوامل التي هيأت الفاعلين نحو العنف والعوامل التي أضعفت كوابح إفراده تجاه هذا النوع من العنف ، وعلى هذا لابد من قراءة سريعة للواقع الاجتماعي والسياسي للعراق. وقبلا لابد من التفريق بين مفهوم الطائفة والطائفية إذ إنّ الطائفة اتجاه اجتماعي له أبعاده التاريخية المعينة وهي بذلك تعني (التنوع في المعتقدات والممارسات الدينية بين الإفراد). أمّا الطائفية فهي في اغلب الأحوال نهج سياسي يشير إلى اعتماد الطائفة والعمل على فرض هيمنتها السياسية والتعصب ضد الطوائف الأخرى وهي في نفس الوقت

---

[3] د. حبيب الشاوي. ظاهرة العنف الطائفي في العراق : تداعياته - ومعالجاته,الرأي الأخر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٥

[4] د. عبد الأمير محسن. العنف في العراق ....سياسي لا طائفي,الرأي الأخر ، مصدر سبق ذكره ص٨

استخدام التنوع الديني لتحقيق أهداف سياسية او اقتصادية او ثقافية مثل المحافظة على مصالح ومزايا مكتسبة او النضال من اجل تحقيق تلك المصالح لزعماء وأبناء طائفة معينة في مواجهة الطوائف الأخرى حيث تصبح الطائفة بهذا المعنى استخدام الدين كوسيلة لتحقيق أهداف دنيوية[٥].

ورغم اختلاف أراء الباحثين في تحديد الجذور التاريخية للطائفية في العراق، فان الوقائع تشير إلى أن الصراع الطائفي قد حكم تاريخ العراق منذ العصر الإسلامي ، كما حكمه الصراع الطبقي والاجتماعي، وتفاقمت الحالة الطائفية في فترة الانــحطاط الحضاري إبان سقوط الدولة العباسية[٦]، ويحدثنا التاريخ ان العراق خضع للاحتلال الفارسي والعثماني قرابة أربعة قرون وكانت هاتين الإمبراطوريتين قد مارستا الورقة الطائفية لجر الشعب العراقي الى أتون الحروب الطائفية الدينية وجعل أرضه ساحة لهذه الحروب بادعاء العثمانيين أنهم حماة السنة وادعاء الفرس بأنهم حماة الشيعة[٧].

وبحسب رأي احد الباحثين، أُطلِقَ اسم طائفة على بعض الفرق الإسلامية في عصر متأخر ليكرس تحول الفرقة في جماعة دينية خالصة بعد أن تكون قد انسحبت من ساحة العمل السياسي أو الثقافي الذي يقع في أصل تسمية فرقة وشملت التسمية الجديدة أهل السنة والشيعة كما انسحبت هذه التسمية على الفئات المسيحية المختلفة في الوقت الحاضر، الى ذلك سعت سلطات الاحتلال البريطاني منذ البداية الى تعزيز النزعة الطائفية ففضلت مكون على حساب مكون اخر استمرت على نهجها هذا في العهدين الملكي والجمهوري لإضعاف التماسك الوطني[٨].

الى ذلك كانت ظروف الصراعات والعنف التي عاشها العراق ابتداءاً من ثورة تموز ١٩٥٨ والمراحل التالية وما رافقها من تجاوزات ومؤامرات وانقلابات ، وفي سياق اتساع

---

[5] فالح عبد الجبار . مفهوم العنف ومفهوم الإرهاب . عراق الصراع والمصالحة والتعايش في مجتمعات الصراع . مجموعه باحثين. . الحوار المتمدن . ٢٠٠٧.ص ١٦

[6] العنف الطائفي في العراق وتداعياته الكارثية عراقيا وإقليميا . مركز الإمارات للدراسات والبحوث والاستراتيجية، الإمارات.٢٠٠٦

[7] د. عبد الأمير محسن .مصدر سبق ذكره. ص٩

[8] د. قيس ألنوري . المجتمع المحلي والمجتمع المدني جدلية الانتماء والولاء في العراق. مجلة دراسات اجتماعية . بيت الحكمة. العدد١٨. ٢٠٠٦ . ص٣٣-٣٥ .

لغة العنف بين الحاكمين والمحكومين وفي داخل كل منهما خلقت ظروفاً ملائمة لتجديد القيم البدوية والطائفية التي لم تقتصر على فئة اجتماعية معينة بل امتدت إلى معظم الإطراف والجماعات العراقية بأحزابها ومنظماتها ومؤسساتها، ومع إن مختلف الأطياف العراقية أعلنت وباستمرار رفضها التعامل الفئوي ونبذ قيم التعصب والعصبية إلا أنها في واقع الأمر انغمست فيها أحيانا وانجرفت معها أحيانا أخر" بغض النظر"عن مواقفها داخل الحكم وخارجه[9]. وجاءت ظروف الحروب لتضيف عاملا أخر لإنعاش هذه القيم والممارسات ، ففي الحرب العراقية- الإيرانية ركزت الدعاية الإعلامية للمتحاربين على إثارة المسألة المذهبية ونفخت في بوق الطائفية، بينما قادت ظروف ما بعد حرب الخليج١٩٩١الى مزيد من التعديل والتكييف في مفاهيم وطرق الحكم وسياساته الخاصة في الاعتماد المتزايد على المؤسسات التقليدية "العشيرة "، وبذلك تعزز الطابع الأساسي العام لشخصية الفرد العراقي وهي شخصية منفعلة جامحة عصبية هذه الصفات دفعت بالنتيجة إلى التوتر وساعدت عليه ظروف ما بعد الاحتلال وعملت على ازدياد حالة الشد التي كان لابد لها إلا إن تقود إلى بروز ظاهرة العنف في سلوك الفرد بوصفه أداة لحل المشكلات في ظل غياب القانون والضوابط الاجتماعية[10]. وعلى ذلك يمكن تحديد أهم الأسباب المهيأة والمساعدة لبروز وتجدد ظاهرة العنف وتحديداً الطائفي :

الأسباب المهيأة للعنف

يرى اغلب الكتاب والمفكرين إن الإنسان الذي يتعرض إلى العنف باستمرار أو يعيش في بيئة غير مستقرة في جميع نواحيها الحياتية ، تكون له القابلية الأكثر تأثيراً في إن يصدر منه سلوك عنيف غير منضبط وتعصبي يؤدي به إلى القيام بإعمال العنف ، ثم تصبح هذه الإعمال ، بحاجة الى ما يبرر لها ويحرض عليها ويعطيها نوع من المشروعية.

ووفق هذا المنظور في تفسير العنف عموماً، فقد تم تفسير العنف الطائفي على انه: انتساب الجماعة للثقافة التي تتعصب الى مذهب ديني معين، وترفض وتنكر مذهباً دينياً اخر

[9] عبد الوهاب حميد رشيد. التحول الديمقراطي في العراق المواريث التاريخية والأسس الثقافية والمحددات الخارجية . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت. ط ١ . ٢٠٠٦ . ص٢٥٠

[10] فوزي حامد. هل هناك حل لأزمة العنف الطائفي في العراق. وكذلك فارس كمال . أنماط الشخصية العراقية الحالية وأفاق الوحدة المجتمعية- الحوار المتمدن -ص١٨

، وتعتمد في هذا الرفض وهذا التنكر على مصادرها الدينية الخاصة بها ، ولا تستقر عند هذا الوضع وانما يصاحب ذلك اعمال عنف مختلفة

وعلى هذا يمكن القول انه من الخطا الظن بإن العنف ينتج عن أسباب أنية، فالتوترات الداخلية إنما هي محصلة للتفكك الحاصل في المجتمع لمراحل متقادمة ومتواترة ، فحالة التفكك المستدامة تظهر عندما تعصف بالمجتمعات الحروب، والكوارث الطبيعية ، والنكبات والهزائم العسكرية ، والأزمات الاقتصادية، والتغيرات المفاجئة والسريعة في موازين القوى والسلطة والمال داخل المجتمع، مما يؤدي إلى ظهور إعمال العنف كمتنفس طبيعي لتلك التحولات[11].

وعليه يمكن تحديد أهم الأسباب المهيأة للعنف الطائفي في العراق وهي:

- يعد العامل الثقافي وطبيعة الشخصية العراقية والظروف التي عاشها تحت ثقل البطالة واضطراب القاعدة المعيشية والحرمان النسبي وغياب الحق في الاعتراض السلمي سبباً مهما في بروز ظاهرة العنف في المجتمع العراقي.
- الأمر الذي جعل الفرد يحتمي بالطائفة بوصفها الملاذ بدلاً عن الواقع المتأزم إمام غياب القدرة على التفكير الناقد والذهنية الميالة الى التطرف الأمر الذي أدى إلى إنعاش نشاط الجماعات الإسلامية والإسلامية السياسية تحديداً ، وتتفق الآراء في إن من يتحكم في الشخصية العراقية مرجعيتان ، مرجعية تتمثل بالتراث الديني الزاخر بالصراعات السياسية والمرجعية الأخرى هي مرجعية القبيلة وظلت الشخصية العراقية تستمد مرجعيتها من القبيلة التي اندمجت بمرور الوقت مع الطائفة ، وما يزال هذا المركب يشكل إطارا مرجعيا للسلوك الفردي والجماعي ، يقابل ذلك الانقلاب على المفاهيم المتعلقة بحقوق الإنسان . على ذلك ظل المجتمع العراقي رغم تحضره الظاهري غير قادر على إن يطور بناءاته الثقافية والتوجهات الاجتماعية التي تساعد على ضبط النفس إلى تنمية روح العداء والجمود والتعصب وعدم تقبل

[11] د. أسامة مرتضى. العنف... مدخلاته.. مخرجاته ... حلوله المفترضة. الرأي الأخر . مصدر سبق ذكره.ص٢٧

الأخر[١٢]. وعليه يمكن القول ان العوامل الثقافية والاجتماعية لعبت دوراً كبيراً في تزويد الفرد بالكيفية التي يعمل بها وكيف يرتكب العنف ، إما لماذا يرتكب العنف فذلك مرهون بعوامل بنائية يمثل المجتمع بمؤسساته المختلفة مصدراً لها وتتمثل في عجز النظام الاجتماعي عن تحقيق توزيع عادل للفرص والسكافآت ومن يكفل للفرد الأمن الاجتماعي الذي يحقق من خلال اشباعاته الأساسية ، بمعنى إن العنف الذي نشهده هو عنف بنيوي مؤسسي.

- كشفت إحداث ٩ نيسان عن أزمة مجتمعية عميقة يعيشها المجتمع العراقي سرعان ما تمخضت عن انفجار طائفي عم العراق كله ، ان هذا الانفجار لا يمكن النظر إليه على انه نتيجة بل يجب النظر إليه على انه انفجار حانت ظروف تفجيره وانبعث من خلال تراكمات موجودة داخل الجسد العراقي ابتدأت من القرون الوسطى حتى يومنا هذا[١٣].
- وعلى هذا كان للتحولات السياسية التي أعقبت سقوط النظام وما رافقتها من صراعات اثر في توفير بيئة مناسبة لإنعاش خطاب الجماعات الإسلامية فكانت الساحة العراقية بيئة خصبة لظهور العديد من الأحزاب والحركات بصورة جعلت الأفق السياسي للمواطن العراقي يعيش في حالة من الحيرة وعدم الاتزان النفسي فظروف الفوضى وعدم الاستقرار وفقدان الإحساس بالأمان ساعدت في تنامي الشعور الديني خصوصاً الإسلامي إذ اتجه الناس إلى المساجد وتولى الأئمة والمراجع الدينية القيادة وازداد الشعور بالحاجة إلى تنظيم جديد يلبي احتياجاتهم الاجتماعية وبطبيعة الحال لا يقدر على ذلك إلا الحركات الدينية بسبب خبرتها العريضة . ففي ظل الفوضى أصبحت الطائفة والتكوينات القبلية هي الملاذ الذي يحقق الحماية . وفي الخارج نجد ان جميع دول الجوار الإقليمي للعراق كانت لها أجندتها الخاصة بها وفي هذا قامت بترتيب أوضاعها ومواقفها لأجل تأمين مصالحها

---

[12] د. ثناء محمد صالح . حقوق الإنسان رؤية سوسيولوجي . مجلة دراسات اجتماعية. بيت الحكمة العدد١٨ . ٢٠٠٦. ص٢٢-٢٦

[13] مهدي النجار المأزق الطائفي في العراق الحوار المتمدن . أربع سنوات من الاحتلال الاميريكي للعراق. مجموعه باحثين. ٢٠٠٧. ص٩٢.

الحيوية فيه والحفاظ على أمنها الوطني طالما بقى العراق واقعاً تحت سيطرة هذا الظروف .

- وتبرز الخارطة السياسية العراقية اليوم تيارات دينية بشقيها " السني والشيعي " بشكل واسع وبرغم ان برامجها وبرامج أحزابها وخطابها العام هو عراقي وبرغم ان المشتركات واسعة ومتعددة الأوجه إلا إن واقع تركيبها الداخلي من حيث الانتماء الحزبي هو واقع خاص ، وهذا له ظروفه الخاصة التي يصعب على تلك الأحزاب تجاوزها رغم الوطنية الصادقة لديها إلا ان واقع الحال يتحدث عن نفسه.
- ويمكن هنا إضافة عامل أخر هو ان التعبير عن الهوية أصبح يتخذ من العنف دليلا على كفاءتها وصلابتها وبالتالي تم تقديم الهويات الفرعية على الهوية الوطنية التي بدت هشة مفككة كما أصبحت صورة الأخر أكثر سوداوية وتبرير العداء صار علينا دون أي تفكير أنساني.
- هناك حكمة في الإنجيل تقول " هناك من يرى القشة في عين غيره ولا يرى العود في عينه " وهذا ما ينطبق على بعض الساسة العراقيين الذين دعو إلى التخلص من الطائفية وهم الذين أسسوا الطائفية وهم نتاجها وهذه الطائفية هي التي أوصلتهم الى ما هم عليه[14] فهذه القيادات ساهمت بشكل او بآخر في تعزيز الانقسام من خلال الخطابات الموجهة للطائفة التي يمثلونها بوصفهم الراعيين الوحيدين لمصالح هذه الطائفة واخطر ما ترتب على هذا الخطاب السياسي المتشنج هو نجاح بعض هذه القيادات في نقل صراعاتهم الى قواعدهم الجماهيرية ليتحول الصراع السياسي إلى صراع مجتمعي .

[14] الطائفية والطائفيون. هرمز كوهاري.- الانتر نت

بعض المعالجات والحلول المقترحة

إن العنف بذاته ليس سالبا بإطلاق فهو مصدر حيوي وهو بلا شك مصدر حيوي وسبب للتطور شريطة إن يجري بوسائل مدنية أي عن طريق المؤسسات وهو بلا شك ليس ايجابيا بل مصدر تدمير وقهر إن جرى بوسائل عنيفة[١٥].

نستطيع القول هنا إن الحل ممكن وفي متناول الجميع لو وجدت النية الصادقة والمخلصة والمتسامحة ومن خلالها القيام بمحاولة لملمة الصفوف وتوحيد المواقف ودراسة الأوضاع بعين الحكمة والشجاعة والواقعية من اجل مواجهة تداعيات هذا الواقع وبمصداقية وأخلاقية لاتخاذ جملة من القرارات والمبادرات والتحركات والمواقف التي تعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه ودرء الأخطار المحيطة بالوطن وتقليص حجم الإضرار والخسائر التي إصابته ، ولا يكون ذلك بتقديراتنا المتواضعة إلا من خلال الآتي :

- إن بناء الدولة في العراق على أساس الموازنات والمحاصصات ليست هي التي ستنهي العنف الطائفي إنما اجتثاث جذور هذا العنف وحده هو القادر على إن يفتح الطريق إمام بناء مجتمع ودولة حديثين ، إن المعضلة الطائفية ستبقى بلا حل إلى أمد منظور إذ تم فحصها ومعالجتها بذلك التصور الطائفي الذي يتجلى بوجه عديدة ، فالوجه السياسي يتعلق بتخصيص الطوائف بمناصب ثابتة في السلطة التنفيذية والتشريعية وهي واضحة للعيان[١٦].
- العمل على ترصين وحدة العراق وسلامة أراضيه وحدوده وسلطته الوطنية ، والعمل بروح وطنية مخلصة ومنفتحة وشفافة ، من اجل إقامة دولة المواطنة ولا يكون ذلك إلا بالتأكيد على الهوية الوطنية والولاء الوطني أولا وأخيرا.
- خلق الوعي الديمقراطي بين جميع مكونات المجتمع العراقي بشكل تدريجي ومنضبط ، والابتعاد عن الإجراءات المفاجئة وغير المنضبطة ، ليكون ذلك الانطلاقة الصحيحة في بناء دولة المؤسسات والقانون .

[15] مهدي النجار . مصدر سبق . ذكره. ص٩٣.
[16] فارس كمال . مصدر سبق ذكره. ص١٨

- تفعيل دور منظمات المجتمع المدني بالعمل على تعزيز الروح الديمقراطية داخل المجتمع بكافة طبقاته ومستوياته وبشكل متوازن وعدم السماح بتحويل التنوع الاجتماعي العراقي سواء أكان دينياً أو عرقياً أو مذهبياً إلى طائفية سياسية وإيديولوجية للحكم.
- السعي الجاد والحثيث على تعليم الأجيال وتدريبها على القبول بالأخر حتى ولو اختلفت مذهبياً أو دينياً أو عرقياً ، بل اعتباره مصدر قوة للمجتمع ، والامتناع عن مهاجمته بأي صورة من الصور . ويكون كل ذلك من خلال توظيف الوسائل والقنوات التربوية والتعليمية والإعلامية المختلفة ، وبشكل منظم وفعال وجماعي.
- توحيد الخطاب السياسي والديني في مناسبات الدولة الرسمية الوطنية والدينية، بابتعاد مضامينه عن كل تعصب حزبي وسياسي وديني ومذهبي وعرقي .
- التوجه بشكل حثيث وفعال على بناء مستقبل العراق بتطوير الإنسان العراقي وجعله يعتمد الأساليب العلمية في التفكير والعمل بدلاً من إيجاد المبررات الفقهية والتاريخية للبقاء خارج عجلة التاريخ وإطارها لغرض إن يواكب التطورات العلمية والتكنولوجية والتقنية التي حصلت وتحصل وستحصل .
- إن تخرج الأحزاب والقوى السياسية من محيطها الطائفي وان تكون أكثر شمولية بانفتاحها على قوى وشخصيات قد تلتقي معها في الكثير من الثوابت الوطنية .
- تفعيل ما يمكن إن نطلق عليه " وسائل الضبط الاجتماعي " للتعامل مع حالة فقدان الأمن عبر توسيع نطاق القانون وتمتين قواعدها لمواجهة أي انحراف اجتماعي حاصل أو سيحصل .
- دعم المؤسسة الدينية باعتبارها عامل موحد وعنصر استقرار داخل المجتمع، وليس عامل تفرقة وعنصر فتنة .
- العمل على تأكيد وحدة العراق والتأكيد على الهوية الوطنية وجعل الولاء للوطن أولا.
- الحفاظ على التنوع الاجتماعي العراقي وحمايته من الانزلاق في الفتنة.

- التأكيد على إن استمرار مظاهر العنف إنما هي خسارة وطنية وليست طائفية او قومية والاتفاق على إن الاستمرار على هذا النهج إنما هو خسارة وطنية وليست طائفية أو قومية والأمر ذاته مع المكاسب .
- إن تبذل الحكومة كل ما في وسعها لإعادة الشعور بالهوية الوطنية .وتبني أجندة تغطى فيها الأولويات لاحترام القانون وإيجاد فرص عمل وتوفير الخدمات.

الخاتمة

يتضح من خلال ما تقدم بأن ظاهرة العنف والتطرف ظاهرة مركبة ومتصلة في دوافعها وأسبابها ونتائجها لذا فأن أية معالجة مجتزأة سوف لن تؤدي إلى إيقاف دوامة العنف ، وأن ما طارحناه من معالجات تؤكد ما افترضناه ، أذ أن تصورنا للمعالجة أتخذ طابع الارتباطات المتداخلة للمعالجة ، ففي الوقت الذي نؤكد على أوجه المعالجة في قطاع معين فأن هذه المعالجة قد تصبح غير مجدية ما لم تتم معالجة الجوانب الأخرى لأنها تعمل بنفس القوة كدوافع وحواضن للتطرف والعنف ، وهذا لن يتم بدون التخطيط والتنفيذ لسياسات مشتركة في مختلف قطاعات الدولة أخذة بعين الاعتبار معالجة ظاهرة العنف باعتبارها آفة خطيرة تهدد كيان الفرد والمجتمع.

وعلى هذا ومن اجل الخروج من المأزق الذي يعيشه المجتمع ولاحتواء الازمة والعنف الطائفي لابد من العمل وتكثيف الجهود من اجل خلق مناخ قبول الأخر بدلا من الانصهار الثقافي في بودقة الطائفية فهو البديل للقهر السياسي، وهذا يتطلب القبول بالفكرة القائلة " إن الحوار يصبح أكثر ثراء ودفئاً وان الوحدة تكون أكثر تماسكاً وقوة من خلال التنوع والتنوع يعني سماع الأخر باعتبار ان الاختلاف أمر طبيعي في المجتمع البشري بل هو عامل ايجابي في توسيع المدارك العقلية للوصول إلى الرأي الأكثر نضوجاً "

إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الصراحة والعمل من اجل معالجة الواقع المر بمعنى أن الإطار الذي ولدت فيه هذه الإشكالية، والظروف والدوافع التي أدت إلى تصعيدها، هي سياسية في جوهرها لا طائفية لذلك فان هناك حاجة حقيقة لإعادة بناء الثقة وإقامة سلطة القانون وتكريس مفهوم المواطنة. وعود على بدا لابد من القول انه لا معالجة من دون

الوقوف على الجذور والأسباب ، فهذا العنف المتجدد هو ليس وليد الصدفة في المجتمع العراقي ، ولا تحليل حقيقي للجذور دون معالجة ولا صراحة من دون وضع النقاط على الحروف ، ذلك إن غياب القدرة على تحديد مواطن الخلل يعني المجاملة والنفاق السياسي . لذا فأن المسؤولية التاريخية تحتم مراجعة للنفس وللسياسات والتفكير بالعوامل والمصالح المشتركة ، وتفويت الفرصة على المراهنين على الفتنة والاقتتال ، إذ إن من مصلحة الجميع إن يتوفر الأمن والاستقرار وان تتوفر فرصة بناء مؤسسات دولة يكون القانون والشرعية عمادها وتضع مصلحة المواطن وحياته وأمنه ومستقبله على قمة أولوياته بل انه أيا كان من إطرافها لن يخرج منتصرا.

المضمون المادي للتماسك الاجتماعي

المدرس المساعد
نصر دحام اسماعيل(*)

المقدمة

في الوقت الذي وجدت فيه شعوب شرق اسيا والتي يطلق عليها (العنصر الاصفر) قيمة جديدة في ثقافاتهم بموجب القوانين الغريزية والموضوعية لتكييف الانسان مع محيطه البيئي واعتبروها تحمل كنوز التربية والاعداد للعمل والتقدم بما تحمله الثقافة الغربية من تصدعات قيمية رغم التقدم التكنولوجي الهائل منحدرة نحو التفكك الاجتماعي الذي دفع الرأسمالية للامعان في اتخاذ الاجراأت الاقتصادية والسياسية لتدعيمه والحفاظ عليه، وقد ترجمت شعوب الصين واليابان وكوريا وهونك كونك وتايوان والشعوب المتجاورة معها والمتالفة في نشاطها في ماليزيا واندونيسيا هذه القيم الانبعاثية في ذلك التقدم السريع في مجالات الاقتصاد والتقنية الحديثة الى الدرجة التي استدعت الغرب لدق ناقوس الخطر لترمي بعدها الحجارة امام عجلات هذا التطور الشرق اسيوي .

فاذا كانت القيم العملية والعلمية خلف الاطر الفكرية لبعث التنظيم والتطور للبنى الاقتصادية والاجتماعية، فما هي ملامح ردود الافعال في غرب اسيا عند الشعوب الاسلامية والعربية أزاء هذا التطور في الغرب الاوربي الامريكي والشرق الاسيوي على اعتبار ان الاسلام كمصدر للهوية والمعنى والاستقرار والشرعية والقوة والاصل ، وهل يمكن اختزال ذلك في الشعار المرفوع(الاسلام هو الحل)، وهذا الحل يكمن في مظهر التكيف مع ثقافات الغرب والغرب الاسيوي باستيراد كل ماهو جاهز ونافع ونصبه فوق بنى ثقافية واجتماعية متنافرة معه.

للانبعاث اثر واضح لدى المسلمين ومظاهر هذا التأثير واضحة في مجالات السياسة والتجمهر والتحزب ولكنه أضر شكلا للتعبير القانوني والسلوكي بعيدا عن المضمون السايكولوجي في التصرف والمضمون المادي في العلم والعمل.

(*) كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية.

المبحث الاول: المضمون السايكولوجي للانبعاث

ان الشعور العام للمجتمعات السياسية في اطار اي نظام سياسي او اي شكل من اشكال الدولة بأنها عاجزة عن امتلاك القدرة للدفاع عن النفس تجاه التهديدات الخارجية وعن امتلاك التأثير والحضور المؤثرين فيالبيئة الاقليمية والدولية، يدفع في اتجاهين الاول نحو الانبعاث لامتلاك عناصر القوة المؤثرة. والثاني نحو الانكسار والتخلف المعمم نحو الاستسلام والوقوع بالاسر لصالح الشعوب الاكثر تفوقا وتأثيرا[1].

الروح المعنوية في الانبعاث

يستعمل المعنوي ضد المادي والطبيعي مرارا بالشئ المتعلق بالنفس والذهن دون البدن. ويعبر بها عن الحالة النفسية والمنزلة الذهنية للشخص او للجماعة، سمو الروح المعنوية في تلاؤم الفرد والجماعة مع المجتمع والبيئةوالميل نحو المحافظة وعدم التجديد رغم التخلف والمشاكل تعتبر روح معنوية سلبية، وميلها الى التجديد والامعان في حل المشاكل والانتصار عليها روحا معنوية ايجابية[2].

الانبعاث هو سيادة اتجاه جديد :

الاتجاه العام لآكثرية الافراد والجماعات هو عملية تنظيم نفسي لمستقرات ادراكية ومعرفية وجدانية صادرة نحو الاشياء والمسميات نحو احلال بدائل عنها ، ويعتمد هذا التنظيم ليكون اتجاها مع الخبرة وليس المزاجية او الشحنات الانفعالية، ويشغل مكان الاتجاه في علم النفس مكانه قريبة جداً من مكانه الغريزة لدى الانسان بتوقه صوب التكييف الجديد للمتغيرات ولكي يتحول الاتجاه Attiude من اتجاه فردي الى اتجاه جماعي عليه امتلاك القدرة للانتقال بين الافراد بحكم قوة حجة ومنطق الآراء والافكار التي يحملها وان وان تحمل هذه الافكار والآراء مصالح الاكثرية وان يرسم برامج وخطط يمكنها التحقق وتغيير اتجاهات سلوكية سابقة[3] في عمليات اتصال جماعي تنظمه القيادة او الصفوة او النخبة في عملية الانبعاث هذه[4] التي تأخذ طريقها بعملية خلق تمثيلات assimlation عصرية فاعلة

[1] نظلم بركات – مراكز القوى – دار الجليل – عمان ١٩٨٣.
[2] د.ابراهيم مدكور – معجم العلوم الاجتماعية – الهيئة المصرية العامة للكتاب .
[3] د.ابراهيم مدكور _المصدر السابق .
[4] د.محمد عودة – اساليب الاتصال ةالتغيير الاجتماعي – ذات السلاسل – الكويت .

لأسقاط projecon تمثيلات متخلفة، اي ان التمثيلات الثقافية الجديدة هضمت وتم استيعابها وتداولها لتحل كقيم جديدة للقيم السابقة .

الانبعاث عملية ذكاء :

فشلت الكثير من العمليات التي توهم البعض واطلق عليها مفهوم الانبعاث وهي في الحقيقة لم تكن سوى شحنات انفعالية غضبية حماسية عاطفية مؤقتة

ان الانبعاث هو عملية ذكاء للقيام بأستجابات تتوافق مع المواقف الجديدة مقابل الابتعاد عن االاستجابات الغريزية العاطفية السطحية

انها عملية فهم وتعقل

انها عملية صهر الذكاء المتنوع للافراد في اهداف وخطط وبرامج .

انها الية حركية هدفية.

انها سلوك حضاري لآنها تبغي التقدم والرقي للحياة الانسانية نحو الافضل في كافة المجالات ولكافة الفئات وهي ليست طبيعية مصيرية حتمية آلية، انها عملية ليلعب الانسان فيها الدور المهم والمؤثر، فلانهضة ولا حضارة ان لم تسبقها عملية انبعاث قيمية وسلوكية وتنظيمية[5].

الانبعاث عملية دينامية :

شغلت ديناميات الجماعة لما لها من مدلول في وجود قوى كامنة في الاشياء ومنها الانسان تصدر الحركة وبها تفسر الظواهر الطبيعية ودينامية الجماعة هي المؤسسة العلمية للجماعات من حيث بناؤها ونشاطها وما يمكن ان يتم بينها من تفاعل وتسجيل التغيير في الانماط الغالبة في السلوك والتصرفللافراد وخاصة تلك المؤثرة في تماسك الجماعة، ومن اجل تغيير انماط السلوك الحالية او تفعيل حركتهاونشاطها وتماسكها.

لجأ الباحثون الى وضع التغيير والتقدم في المجتمعات كما يسيطر صاحب الآلة على عمل آلته في المصنع ، ومن اجل وضع الزمن في موضعالاعتبار والاهمية وعدم هدره ، ووضع امكانات البشر الروحية والفيزيقية والتعليمية والاقتصادية في موضع المسيطر والمبرمج عليها لتحقيق افضل النتائج المرسومة لأهداف الانبعاث[6].

---

[5] حامد حمزة حمد الدليمي – فلسفة التاريخ والحضارة – دار الكتب والوثائق – بغداد ٢٠٠٤

[6] هنري برجسون – الفكر والواقع المتحرك – ترجمة سامي الدروبي – دمشق .

الانبعاث... وحماية القيم :

الشعور بالراحة وللاطمئنان على القيم والتراث ونمو الثقافة وتدعيمها كلهـا نجـدها بالمنظور الامني الحديث المتفاعل مع المبادئ الاساسية للبيئة النفسية فـي الاخـلاق والقـيم والايدلوجيات الوطنية أبرز جملة من المفاهيم اهلها للتبصير بأنبعاث القدرة على حماية الامة من خطر القهر على يد قوة خارجية وقد عرفوا الامن من هذه الزاوية على انه (قدرة الامـة على حماية قيمها الداخلية من التهديد الخارجي) حتى ان كيسنجر عرفـه (انـه يعنـي اي تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها الى تحقيق حقه في البقاء). فالكل يتحدث عـن حمايـة القيم والتراث بل وحتى الوجود عن القدرة والاقتدار، واذا كانت البنى الحالية والقيم الحاليـة لاتستطيع انتاج تلك القدرة او ذلك الاقتدار فهي تكون الحالة مطالبة بأنبعاث قـيم جديـدة لا يشترط أن تكون متقاطعة متقاطعة مع القيم القديمة بل مستلة منها بعـصرية وتحـديث مـع بنىاجتماعية وسياسية واقتصادية لتحقيق الانبعاث[٧].

المبحث الثاني : الانبعاث والعلم

لا معنى للانبعاث بدون المضمون المادي المتمثل في ادخال عمليـات التطـور التقنـي والتكنولوجي في انشطة المجتمع والاقتصاد والصناعة والقوات المسلحة والعملية التربوية بعد خلق تظم وتشكيلات تابعة لها قائمة على احدث مبتكـرات العلـوم الطبيعيـة والاجتماعيـة مستوحاة من نتائج صنع ثقافةعملية لعملية الانبعاث الداخلي للشعب.

العلم :

كل نشاط علمي مرتبط بأضافات تقدمية للنشاط الانساني علما خاصا به له طريقتـه وادواته الخاصة به وهذا يعني ان عملية الانبعاث يجب ان تدخل في صنع مؤسسات بحثيـة وتطبيقية لجميع العلوم المحـركة للتقدم الانساني العالمي[٨].

عالمية العلم

العلوم مرتبطة بخاصية العالمية ، فهي ليست علوم اجتماعية او اقتـصادية تحمـل الفروق التاريخية من خصوصيات الامم والشعوب القيمية والاخلاقية والعقائدية او متغيـرات

---

[7] روبرت جيلبن – الحرب والتغيير والسياسة الدولية – الثقافة العامة – بغداد ١٩٩٠ .
[8] د.لبيب شقير – تاريخ الفكر الاقتصادي – دار النهضة – مصر – بدون تاريخ .

الجغرافية التي تعكس اختلافات في العرق والعادات وفي معطيات الارض وثرواتها ، فالعلوم المطلوبة هنا والداخلة في التكنولوجيا علوم صرفة تحمل نتائج كامل الانطباق اذا مادرست وطبقت في اوربا او اسيا او امريكا ، لان القانون العلمي لايقوم على مصادفات حدثت في الماضي وقد تحدث او لاتحدث في المستقبل بل هو يقوم على رابطه حتمية هي رابطة السببية وهذه الرابطة لاتتوقف على زمان معين او مكان محدد[9]، وهذا م يفسر احتفاظ الافراد ممن نال اكتساب المعرفة العلمية بعين المكانة في الدول ولدى الشعوب المتقدمة علميا ، وهذا ما يفسر رفض الدول والشعوب المتقدمة علميا، فالغرض هنا يكمن في الجهد الانساني المتآتي من عمليات انبعاث الثورة العلمية في هذا الشعب وغيابها عن ذلك الشعب والمبادئ الاساسية للشعوب دورا مهما فيها.

والفارق في المبادئ الاساسية للشعوب لايرتقي الى العوامل التي تمنع احتضان قوانين التطور العلمي التكنولوجي بعيدا عن الوقوع في مأزق (الصوت والصدى) المتمثل بالتقليد الكامل عند بناء النظم والتشكيلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والامنية تحت وهم الحصول على نفس النتائج. وعلى سبيل المثال من دراسة التطور الاقتصادي لدول غرب اوربا نرى ان هذا التطور قد سار وفقا لنمط معين بحيث اتخذ مراحل متعددة . رتب كل منها على المرحلة السابقة لها والتي تركت بصماتها على المرحلة التي تلتها[10]، بيد ان هذه المراحل لن يمر بها التطور الاقتصادي لشعوب اسيا وافريقيا، ونستخلص من هذا ان القوانين التي حكمت التطور الاقتصادي لغرب اوربا ليست حتمية الانطباق فيمٌا يتعلق بالتطور الاقتصادي لشعوب اخرى ، بيد ان قوانين التطور التكنولوجي سنجدها تلعب دورا مهما في اي تطور اقتصادي في جميع انحاء العالم ، فتغييرات العلم بالمكننة الزراعية ومعالجة آفاتها اخرجت قانون تطور الانتاج الزراعي عند توافر المستلزمات الاخرى لدى جميع شعوب ودول العالم.

---

[9] د.لبيب شقير ــالمصدر السابق .
[10] د. اسماعيل محمد هاشم ــ مذكرات في التطور الاقتصادي ــ دار الجامعات المصرية ١٩٧٤

العلم وانبعاث تماسك الجماعة:

اهم ميزة تقدمية على الصعيد الاجتماعي يوفرها العلـم كقاعـدة للانطـلاق هـي محاصرته للتنافر بين الاراء والذهنيات ، فالعلم يوفر حقيقة واحدة يتقبلها الجميع وان اختلفت ميولهم وهي القوة الرئيسية لمحرك المشترك العام داخل المجتمع.

اما على صعيد الدول التي انتقل اليها التطور العلمي التكنولوجي التي كانـت غيـر مؤثرة في البيئة الاقليمية والدولية ولاتملك المقدرة عن الدفاع عـن نفـسها ، نجـدها الان امتلكت التأثير والقدرة في الدفاع عن نفسها كالهند وباكستان وكوريا الشمالية علـى صـعيد التكنولوجيا النووية و وهونك كونك واليابانوكوريا الجنوبية والمانيا على صعيد التكنولوجيـا العلمية الاقتصادية والصناعية بعد ان رتب العلم لها مساحة اكبر من الحريـة فـي توظيـف مواردها الطبيعية والبشرية

انبعاث تطوري Development Change :

ونعني بهذا التغيير احلال نفوذ واحكام اسـاليب جديـدة فـي الانـشطة الـسياسية والاقتصادية والاجتماعية والامنية وينتج عن عملية التحلل والاحلال هذه تطورر مهم يصب في مجمله في مظاهر يمكنها من التفاعل مع الدول المتطورة مثلها والارقى منها نسبيا وفـق مبادئ المصالح المشتركة ، ويمكنها من الخروج من الاثار السلبية لأشكالية وجـود حاجـات انسانية متعدده للمجتمع وموارد محدودة لأشباع تلك الحاجات مما يجعلها رهينـة الاعتماديـة على الغير او وجود موارد ستراتيجية فائضة عن الحاجة للمجتمع وتحتاج لهـا المجتمعـات الاخرى مما يجعلها موضع طمع واستقطاب الآخرين.

التغيير التطوري هذا يتناسب حجما مع الموارد الطبيعية والبشرية وفاعليـة النظـام الديمقراطي في الدول.

غياب الانبعاث يؤدي الى تغيير انتكاسي Retrogressive Change :

ونعني بهذا التغيير هو تدهور مستويات الاداء والفاعلية فـي الواجبـات الـسياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية والامنية ، بسبب غياب المقدرة علـى اللحـاق بـالتطور والتفوق لدى دول الجوار او دول العالم الاخرى ، وينتج عن هذا التغيير تدهور معمم يـصب

في مجمله في قصور الدولة في الدفاع عن مصالحها في علاقاتها الدولية ويجعلها عرضة للتدخلات الاقليمية والدولية . ويمكن اعتبار الحالة انتكاسية على الدولة عندما تبقى مستويات الانشطة في كافة المجالات على حالتها في مقابل حدوث تغيير تطوري نوعي في المجالات نفسها لدى الدول الاخرى وخاصة المجاورة .

والحالة الانتكاسية تنسحب على الدولة سلبا في هذا الوقت اكثر من الفترات السابقة بعد ان انتشر النظام الاقتصادي العالمي المتخطي للقوميات حيث اصبحت فيه الدول عاجزة عن الخروج من تأثيرات ترابط وتشابك المصالح[11] وبذلك تكون الغاية من احتضان القوة العلمية:

١. تدعيم الاستقلال السياسي
٢. تدعيم البناء الاجتماعي
٣. تدعيم الاقتصاد الوطني
٤. حماية الامن القومي

الانبعاث والحرية

الانبعاث هو مشاركة جماعية ، والجماعية لاتتم الا باتاحة الفرص للجميع بحرية ، فاساس التطور العلمي هو الابداع ، والابداع هو النزوع الى تجاوز المألوف وتنسيق المعارف وفق نمط جديد للأتيان بحلول جديدة للمشكلات المطروحة ، فالمبدع صاحب تحليل دقيق وتفكير خلاق يولد الحقائق من رحم ركام معرفي بجهد علمي يكسر الاطار المعهود والاجتهادات السابقة وفق اسس قابلة للتحقيق ، والمبدع يمتاز بجمع المعلومات وصهرها عقليا واخراجها في حالة جديدة تخدم عمليات التطور الاقتصادي والتقني والاجتماعي واي حقول اخرى ، ولكن لايمكن الحديث عن الابداع العلمي والمبدعين في مناخ متوتر غير مستقر تغيب فيه الحرية وينعدم فيه الامن النفسي والجماعي ، فحيثما حكمت القوة وحذفت الاصوات الحرة تراجع الابداع وتراجع معه التطور العلمي وتوقفت الحالات الاقتصادية والاجتماعية والامنية على حالها[١٢].

---

11 فؤاد مرسي – الراسمالية تجدد نفسها – عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٠
12 سلطان بلغيث – تطور الجامعات العربية في دعم ثقافة البحث العلمي والابداعي – شؤون عربية – العدد ١٢٧ لسنة ٢٠٠٦ .

انعكاسات التطور العلمي والتكنولوجي في العلاقات الدولية :

التطور العلمي للثورة الصناعية التي انطلقت في اوربا انعكست على واقع العلاقات الدولية لمظاهر (الاستعمار – الاحتلال – السيطرة – الهيمنة) بأساليب (الحروب – التحالفات العسكرية – المعاهدات الامنية – اقتسام مناطق النفوذ – حروب النيابة) وبأدوات عسكرية في اغلبها . اما انعكاسات الثورة التكنولوجية الحالية وتفاعلاتها في البيئة الدولية فأخذت مظاهر وادوات مختلفة ، ولكنها تتقارب اكثر في جوهر الاهداف ومن اهم هذه الانعكاسات :

١–الرأسمالية طورت نفسها :

ركزت الرأسمالية العالمية على المجالات البحثية العالمية وخلقت نظم وتشكيلات مطابقة لها، وقد اثبت هذا التطابق قدرة ملحوظة على التكيف والتجديد رتب تفوقا ملحوظا في القوى العلمية والقوى الاقتصادية على الطرف الشيوعي المواجه للرأسمالية ، وكانت نتائج هذا التفوق تفكك المعسكر الشيوعي[١٣] وتوجه معظم الدول نحو النظام الاقتصادي الحر.

٢–تصحيحا لمسار التقسيم الدولي للعمل والتجارة والنظام المالي وفي دورة اقتصادية جديدة بحيث لم يعد شئ في العلاقات الدولية بمنأى عن متناول الثورة العلمية التكنولوجية واتخذت المظاهر التالية :

المظهر الاول – تراكم الانتاج مع تراكم المعلومات واحتكار الحلقات العلمية التكنولوجية الاكثر تطورا وتأثيرا لدى الرأسماليات الكبرى ضاعف من قدراتها في مجال التأثير على الدول المتخلفة في هذا المجال .

المظهر الثاني – ثورة في الاستهلاك وتخلف في احتضان واستيعاب التطور العلمي التكنولوجي في الدول الضعيفة الامر الذي ادى الى انكشاف المساحات الجغرافية لهذه الدول امام زحف في الانتاج والرساميل والتجارة[١٤] والمال كجيوش عملية اقتصادية من اجل الهيمنة على ثروات وموارد وعمالة الدول (المتخلفة في هذا المجال).

المظهر الثالث – زحف الرأسماليات الكبرى نحو الشرق الاوربي بفضل انهيار النظم السياسية الشمولية ونحو اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، طارحة معها مفاهيم العولمة

---

[13] برنامج حرب النجوم الذي تبنته الولايات المتحدة الامريكية اثبت تفوقا علميا واضحا تجاه الاتحاد السوفيتي السابقفي مجال التسلح . انظر ميخائيل غورباتشوف - البيروسترويكا-ترجمة عباس خلف- شركة المعرفة – بغداد ١٩٩٠ .
[14] سالم توفيق النجفي – حول مسألة الرأسمالية ،رؤية للقرن الحادي والعشرين – بيت الحكمة – بغداد ١٩٩٩

مستندة على تفوقها العلمي والتكنولوجي والاقتصادي وحتى الدول القليلة التي استطاعت ان تحافظ على نظمها الشمولية قد لجأت الى تكييف نفسها مع هذه التفاعلات لاحداث اصلاحات وتعديلات في تشكيلاتها العلمية والاقتصادية والسياسية وخير مثال على ذلك الصين حيث اعتمدت تشجيع الاقتصاد الفردي وربطت الاقتصاد الاشتراكي مع نظام السوق بعد ادخال اساليب الادارة الاقتصادية الحديثة المتقدمة[١٥].

٣- مخاطر البيئة : اذا كان النشاط البيئي التقليدي للانسان قد الحق بالضرورة ضررا بعدد من البيئات الطبيعية مثل الماء والتربة والهواء ، فأن الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة قد عجلت بنمو القوة الانتاجية الى اقصى الحدود بأستغلال العمل واستنزاف الطبيعة بحكم المنافسة والجري السريع وراء الربح وان الاستخدام غير الرشيد للثورة التكنولوجية يؤدي الى تراكم وتزايد النفايات الضارة ، ولم تعد الطبيعة قادرة بعد الان على استيعاب هذه النفايات وكثير منها سام بالنسبة للطبيعة والانسان ايضا ومن ابرز مظاهر ذلك :

*تحول ٦ ملايين هكتار كل سنة من الاراضي الجافة المنتجة الى صحارى ظاهرة التصحر لاقيمة لها

*تدمير اكثر من ١١ مليون هكتار من الغابات سنويا .

انتشار ثاني اوكسيد الكربون بسبب محروقات الوقود المختلفة والتي تسبب زيادة تدريجية للحرارة في العالم بصورة عامة بما يكفي لالغاء العديد من المناطق الزراعية ، ورفع مستويات البحار وغرق المدن الساحلية وتهدل غلاف الاوزون الذي يحمي القشرة الارضية.

المبحث الثالث : المضمون الاقتصادي للانبعاث

لامعنى للحريات الفردية والحريات العامة وان قننت في قوانين الحقوق المدنية او السياسية الا بعد ضمانهااشباع الحاجات الرئيسية للافراد بفرص العمل واجتثاث العوز والجهل .

العمل Labour Economice انبعاث اقتصاديات:

ليس المقصود المقصود هنا الاستماع الى برامج العمال ونقاباتهم والدوران حول المطالب والاضطرابات او في الصراعات التي ذوبت الكثير منها التكنولوجيا والتقدم العالي الكفاءة والتقنية ، بل المقصود هنا دراسة وتنظيم مستوى التخصص وتقسيم العمل حسب القدرات وتنظيم مستويات

[15] د.عدنان مناتي – اشتراكية السوق،النموذج الصيني – الموقف العربي ٢٠٠٠ .

الاجور بالقدر الذي يعلو اشباع الحاجات الدنيا لممارسة الفرد نشاطه الابداعي وتطوير نفسه ، فبدلا من دراسة تأريخ الحركة العمالية يتم التأكيد على دراسة تطوير الظروف الاجتماعية للعمال من سكن وملبس وطعام ، والاهتمام بالبحوث الاحصائية للانتاجية وقوانين السوق من العرض والطلب وخلق الاسواق محليا واقليميا ودوليا .

الاقتصاد الرياضي Mathematical Economice:

بأستخدام المنطق والطرق الرياضية في التحليل لتحقيق درجة عالية من الدقة والتركيز، من اجل الدخول في الاقتصاد الدولي الذي يبحث الظواهر الاقتصادية التي تتحدى حدود منطقة ما بما في ذلك تبادل السلع وانتقال رؤوس الاموال والاشخاص هو مجموعة الدراسات الاقتصادية الواجب توفرها في عملية الانبعاث الاقتصادي نحو التقدم والتي تتميز والعلاقات النقدية ومشاكل الاختلال والتوازن في ميزان المدفوعات والسياسات المتعلقة بتحرير التجارة الدولية او التدخل فيها[١٦].

الاكتفاء الذاتي Self Sufficiency

اقتصاديا الاكتفاء الذتي قيام الدولة والمجتمع بسد حاجتهم من الانتاج القومي تحقيقا للاستقلال الاقتصادي ، اي بجعل الحاجات مرهونة بالادارة الداخلية للافراد وليس بأرادة القوى السياسية والاقتصادية في الخارج ففي ذلك امكانية مادية لتطويع اي انبعاث ومحاصرته وتذويبه . فالاصل هنا هو تخصص كل فرد في نوع الانتاج الذي تتوفر له قيمة اكبر اي الذي يكلفه اقل نفقه نسبية ولديه اعلى خبرة ومقدرة فيه من غيره ، لان ذلك يؤدي الى ان يصبح الانتاج حدا اقصى والنفقة حدا ادنى مع تنوع في انتاج السلع والخدمات لنيل اكبر قسط من الحرية والتأثير ، ولعل دراسة نموذج اشتراكية اقتصاد السوق ، او السوق الاشتراكي في الصين عندما تجاوزت القوالب الايدلوجية نحو التقدم بانبعاث اقتصاد يجمع بين حسنات التجربة الاشتراكية والتجربة الرأسمالية خير دليل ذلك[١٧].

[16] فؤاد مرسي- المصدر السابق . كذلك انظر - ميخائيل غورباتشوف – المصدر السابق .
[17] د.عدنان مناتي – المصدر السابق .

المحافظة على الرأسمال الاجتماعي :

محاربة الجريمة المنظمة والبطالة والمخدرات والافراط بالعنف بين التطرف والتطرف المضاد وتجاوز الصراعات الاثنية والمذهبية ليست مساعل سياسية او امنية فحسب بل هي مسائل حيوية ومهمة متعلقة بالمحافظة على الطاقة البشرية النتجة للعلم والعمل وهي محافظة على ادوات تغيير صياغة الطبيعة للصالح العام والخاص ومحافظة ايضا على الايدي العاملة والخيرة والالية التي تملك القدرة العظيمة لتحويل المجتمع من طبقات واصناف متنافرة الى كتلة حيوية مترابطة عضويا بقوانين العلم والعمل والخبرة والتخصص والتكامل اي البعض يكمل البعض وبذلك نحصل على ترسيخ الهوية الاجتماعية الموحدة والمواطنة السليمة[18] التي تخلف ذلك التوازن المطلوب لحماية الارض وسيادة الدولةوحقوق الافراد وحرياتهم وعيشهم الكريم نحو مجتمع الرفاهية والوفرة .

الديمقراطية وقوانين الانبعاث :

الانتخاب وحق الرأي والتعبير والمجتمع المدني وحرية الصحافة وتشكيل الاحزاب كلها مسميات تفقد معانيها بدون اهداف لتحقيق غايات عليا للامم والشعوب وبدون مفردات معنوية ومادية لايمكن لهذه المسميات ان تحقق الغايات العليا ، لننظر الى الديمقراطيات الشعبية في الكتلة الاشتراكية التي انهارت مع نهاية القرن العشرين ، ماذا حققت لشعوبها ولننظر الى التجارب الديمقراطية في دول العالم الثالث ، بل لننظر ايضا لشعوب اوربا الغربية واليابان والولايات المتحدة الامريكية، ماذا كانت تعني الديمقراطية بدون المضمون السياسي والاجتماعي والاقتصادي للتطور التكنولوجي[19]. ومن هنا نجد ان البناء الديمقراطي لايمكنه الصمود والصعود بدون مقومات النهوض العلمي والعملي وقيم التنظيم والادارة والتصميم والتماسك والتعاون والسلوك السوي التي توفرها جميعا عناصر الانبعاث ولنأخذ امثلة على ذلك :

---

18 د.عبد الراضي ابراهيم محمد – دراسات في فلسفة التربية المعاصرة- دار الفكر العربي-٢٠٠٢ ص٤٩

19 صموئيل هنتنكتون – صدام الحضارات – الدار الجماهيرية – بنغازي ١٩٩٩

اليابان:

والتخصص وشكلت اليابان قانونا حياتيا ملموسا استمد قيم الانبعاث فيه من نهضتها المشهودة منذ عام ١٨٦٨ الكل يعلم ان هذه الجزر المعزولة والمنقطعة والمعرضة للبراكين والاهتزازات ولاتوجد فيهاثروات طبيعية وتعرضت لضربات ذرية ساحقة ، لو بقيت اليابان متخلفة لغاية اليوم لعذرها الجميع للظروف الموضوعية اعلاه ، بيد انالصدمة رتبت انبعاثا[20] قيما صوب النهوض ساعده في ذلك ما تطرحه الديمقراطية من حرية الابداع[21].

المانيا :

لايختلف حال المانيا في الجوهر عن حال اليابان فهي الاخرى تعرضت لحروب مدمرة واحتلال ، ورهن اقتصادها بغرامات التعويضات حتى عقد التسعينات من القرن الماضي وتم تقسيمها الى قسمين متناقضين غلبي وشرقي كل منهما يسعى لتدمير الاخر[22]، وماكانت النتيجة النهائية ، وحدة الجزئين وظهور المانيا الموحدة كدولة صناعية وغنية تأخذ حضورها المؤثر والفاعل في البيئة الاقليمية والدولية ، فهل حصل هذا فقط بفضل الديمقراطية والمساعدات الدولية الرأسمالية لها فترة الصراع مابين المعسكرين الشرقي والغربي (الحرب الباردة) لم ان هناك قانونا انبعاثيا اخر تماسك الشعب الالماني حوله ليصل الى ما وصل اليه .

الصين

الدولة ذات المليار نسمة المترامية الاطراف المتخلفة قبل عقود عديدة والتي اصبحت الان من اكبر الدول المصدرة للسلع والخدمات والتي تحقق فائضا تجاريا على اعرق دول العالم الصناعية فهل كانت الشيوعية خلف ذلك وهي التي انتقدتها وجاء نهوضها بعد هذا النقد العملي[23] ام الديمقراطية وهي التي لم تجرب قوانين الديمفراطية الليبرالية الغربية بعد ، انه قانون الانبعاث القيمي بأستلهام القيم الحضارية وطرحها بطريقة عصرية ، ومن هنا نقول ان الانبعاث قد ساعد قواعد واسس الديمقراطية ولكنه

---

20 موريس ج ديكنز – تأريخ العلم والتكنولوجيا – ترجمة اسامة امين – الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة.
21 مسعود القاهر- النهضة اليابانية المعاصرة- المستقبل العربي-العدد٣٢٦السنة٢٠٠٦ص١٤٢ .
22 كولن باون و بيتر موني – من الحرب الباردة حتى الوفاق – دار الشروق للنشر – عمان ١٩٨٣
23 احمد زايد – سايكولوجية العلاقات بين الجماعات – عالم المعرفة ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦

ليس مرهونا بها لانه نابع من خصائص الطاقة الروحية والمعنوية والقيمية والعقائدية للشعوب تدفعهم الى هدفية تحقق الغايات العليا للشعوب وتتجاوز مخاطر :ـ

١- الانفجار في معدل الزيادة السكانية بفضل التطور الهائل للوعي الصحي والتربوي والتغذية البشرية .

٢- محدودية الموارد الطبيعية والاولية نسبة الى الزيادة السكانية[٢٤].

٣- المخاطر البيئية المتزايدة بفعل الاستخامات الذرية ومخلفات الثورة الصناعية التصحر والانحباس الحراري.

٤- الانعكاسات السياسية والثقافية والاجتماعية لظاهرة تفوق مجتمعات على مجتمعات اخرى متخلفة ، الامر الذي يرتب رهن مواردها وامنها ومستقبل اجيالها بيد المجتمعات الاكثر تفوقا

الانبعاث وصراع الحضارات :

يقول صموئيل هنتنكتون في كتابه (صدام الحضارات) (في سنة ١٩١٩ جلس وودرو ويلسون ، لويد جورج ، جورج كليمنصو كمسيطرين فعليا على العالم ، سيما هم جالسون في باريس ، استطاعو تقرير اي من الدول ستوجد واي منها لا ، وما هي الدول الجديدة التي سيتم خلقها وكيف ستكون حدودها ومن سيحكمها وكيف سيقسم الشرق الاوسط او مناطق اخرى من العالم بين الدول المنتصرة ، كما كانوا يقررون حول التدخل العسكري في روسيا والامتيازات الاقتصادية التي ستأخذ من الصين ، ليس هناك عدد صغير من رؤساء الدول يستطيع ان يكون قادرا على ممارسة سلطة مشابهة الى درجة ان ليس هنالك اي مجموعة مكونة من ثلاثة رؤساء دول غربية تكون قادرة على تقسيم العالم)[٢٥]. حصل هذا المتغير بسبب الانبعاث القيمي والثقافي للعديد من شعوب العالم والحقيقة ان الغرب سيبقى الحضارة الاكثر قوة محتفظا بحالة جيدة وهو يدخل العقود المبكرة من القرن الحادي والعشرين وبأمكانه امتلاك الريادة في البحث العلمي وتنمية المهارات وتطوير المقدرات والتجديد المستمر في التقنية المدنية والعسكرية والهيمنة على مصادر القوة والموارد ،

[24] د.مجيد حميد عارف ـ شعوب العالم الثالث على ابواب القرن ٢١ ـ دراسات عربية ـ العدد ٦|٥ لسنة ١٩٩٠.
[25] صموئيل هنتنكتون ـ المصدر السابق .

وتتصاعد هذه الهيمنة وعودتها الى ماكانت عليه فترة بداية القرن العشرين وبقاء شعار صدام الحضارات او تتنازل وتنحسر هذه الهيمنة وتتراجع الى الحدود التي ترجح بروز شعار تفاعل الحضارات وتعاونها ، كل ذلك مرهون بعمليات الانبعاث الحقيقية في امم وشعوب القارة الاسيوية والافريقية والامريكية اللاتينية .

الخاتمة

المؤرخون من ابن خلدون والفارابي وعصر التنوير عند بيكون ومونتسيكيو وراتسل والكثير غيرهم على مرور الامم والشعوب في عهود ركود ونكوص ، وتعرضوا الى دراسة اسباب هذه الدورة الحضارية التي تتناوب بين التخلف والتقدم ثم الرقي الحضاري والعودة الى التراجع والانتكاس وعزوها الى عوامل سياسية وثقافية واقتصادية وذاتية موضوعية ، بيد اننا اذا ما امعنا التحليل في طروحات المفكرين وسجلات التأريخ نجد ان النهوض او العودة الى النهوض كانت تتم بفعل هذه العوامل المنظورة وبفعل عوامل غير منظورة ولكنها دافعة وحيوية متصلة بمفاهيم الارادة والحب والاصرار والتضحية والتعاون والاخلاص واحترام الوقت والتكامل مع الاخرين والشعور بالمسؤولية وتحمل نتائجها والمبادرة والابداع ، كلها مفردات لمفهوم اوسع واعمق هو (الانبعاث) الذي يجعل من تلك الكتل والقطع البشرية المعقدة التركيب والصعبة التنظيم قطعة واحدة قابلة للتحرك بذكاء وفاعلية صوب الاهداف المتفق عليها، وقد جسد مفهوم الانبعاث الحقيقي معادلة تخص الشعوب النامية او المتخلفة او ما اطلق عليها بشعوب دول الجنوب (كن او لاتكون) Be or not to be.

المصالح المشتركة.. والمصالحة الانسانية

المدرس المساعد
رعد قاسم صالح(*)

المقدمة

لقد جربت البشرية في تاريخها الانساني الطويل العديد من محاولات تنظيم الاستقرار للجماعات الانسانية صوب اشباع حاجاتها الضرورية بتشكيل نظم وظيفية متخصصة قائمه على تحقيق مصالح فئوية وطبقيه ونخبوية ولكنها لم تعرف الاستقرار ذلك المقوم الاعتباري الخارق لتحقيق التقدم ، وفشلت تجارب صراع القوى وفشلت تجارب الطبقية الدولية النمطية وفشلت العرقية والمذهبية الضاغطتان لصهر الاعراق والمذاهب الاخرى في ثقافة سائدة وقواعد مصالح مسيطر عليها ، وبقيت ثقافة المصالح المشتركة التي خاطبت الفرد وحاجاته الضرورية والمشروعة خارج أطر الهوية الانتمائية العرقية والمذهبية والسياسية ((كحقل مغناطيسي)) لاستقطاب الجميع نحو أسس وتقاليد واعراف ثابتة من النظام الاسري والقرابي مرورا" بالنظام الاقتصادي والتعليمي والصحي والامني والعقائدي حتى النظام السياسي المشرف العام على فاعليات الانظمة الفرعية ، ناهيك عن تطابق المصالح المشتركه البعيده عن ذلك التطرف المادي في الاتجاه الامبريقي مع منظومات الاخلاق الحميدة والقيم وجوهر الدين والعقائد وطبيعة خصائص المصالح المشتركة في ترتيب التماسك والتكامل الاجتماعيين.

١- المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم ((واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى إن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا"))[1] صدق الله العظيم . والرشد هنا التقويم صوب استدامة التصرف بما يخدم المجتمع والفرد في إطار المفهوم الأخلاقي والعقائدي ، وقال رسول الله محمد ((ص)) ((إن ابغض الرجال إلى الله الألد الخصيم)) لانه يربك الجماعة عند توجهها نحو التعاون والتكامل.

(*)كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية.
[1] الآية الكريمة (٢٤) من سورة الكهف

وقال ((ص)) ايضا" ((لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا" ولا يحل لمسلم إن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام)) والغائية من هذا لدفع التمركز من اجل الاستقرار والتقدم وتحقيق الحقوق والمصالح المشروعة للفرد والجماعة لإنتاج قوة الحضور ، وفي هذا الصدد نستذكر كلمات الإمام علي (كرمه الله وجه) (أرضكم قريبة من الماء ، بعيده من السماء خفة عقولكم وسفهت لحومكم فانتم عرضه لنابل واكلة لاكل ، وفريسة لصائل))[2] بما تحمله من معاني تؤكد الاهميه المجتمعية للتوافق والتصالح .

فالمضمون المادي للتدبر والتوافق هو بناء قواعدا" للمصالحة المشتركة استدلت إليها المجتمعات الانسانية منذ ان اهتدت إلى أهمية التنظيم الهدفي لشؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية قبل الاف السنين وما تعبير العقد الاجتماعي والحقوق المدنية والسياسية والتكامل الاجتماعي والعيش السلمي والديمقراطيات الا استجابات ثقافية وسياسية واقتصاديه لهذه الاهمية ، التي عالجت مشاكل البناء المجتمعي social structure بما يضمه من نظم institutions متساندة بالضرورة لحل جميع المعوقات لمتطلبات الاستقرار social stability فالمصالح المشتركة هي الضامنة لتساند النظام التعليمي مع النظام الصحي والنظام الامني مع النظام الاقتصادي مع النظام السياسي تساندا" وظيفيا" functional interdependence لاشباع حاجات الافراد والجماعات المشروعة ، والمشروعة هنا الاقرار القانوني والقيمي المتفق عليه البعيد عن ذلك التطرف والانحراف الذي يرتب منافع اوسع لكتلة بشرية من استحقاق كتله اخرى في اشباع الحاجات الضرورية[3].

المصالح وثقافة الحاجات الضرورية:

ان الميل المتبادل مابين الرجل والمرأة رتب حاجة الزواج واستجابة الجماعة لهذه الحاجة في ثقافة تنظيم الاسرة من الزواج وتربية الاطفال والميراث وحقوق الاطفال والزوجة... الخ من النظام الاسري الذي اعتمد كأساس للنظام الاجتماعي العام.

---

[2] محمد عبده , نهج البلاغة للإملم علي "كرم الله وجهه" ص(٦٧)

[3] انظر: نظرية تاركوت بلسورنز حول المدرسة الوظيفية ـد.عادل مختار الهواري ـعلم الاجتماع منظور اجتماعي نقدي ـ فاس(١٩٧٩)

وحاجة الفرد الى المأوى والسكينة جاءت الاستجابة الى ثقافة السكن الفردي والسكن الجماعي وتنظيم العلاقات الاجتماعية وحاجة الفرد والجماعة الى الاطمئنان والامن جاءت الاستجابة الى ثقافات الامن الجماعي والفردي.

وحيث ان ميزة الانسان ككائن اجتماعي وسياسي الى التقدم والتطور والتكييف العقلي مع البيئة المحيطية جاءت حاجته الى التعليم فكانت الاستجابة في ثقافات التعليم والاعداد والتنشئه ليستلم رحم المجتمع الوليد السليم الذي خرج من رحم امه ، وهكذا في النظام الصحي ونظام النقل والمواصلات والنظام الاقتصادي المعبر عن ثقافة الاستجابة لحاجة الفرد للعمل والارتزاق والادخار والاستثمار وتبادل السلع والخدمات . وفوق كل هذه الانظمه احتاج الافراد والجماعات الى الاشراف العام على هذه الانظمة وتقييمها وتقويمها بالتفاعل المشترك جاءت الاستجابة للثقافة السياسية للنظام السياسي والسلطة السياسية . فالاساس الفكري المادي لكل هذه الانظمة يعود الى ضرورة التنظيم لاشباع حاجات الافراد[4].

المصالح المشتركه والفكر الديمقراطي:

جوهر الفكر الديمقراطي قائم على التداول السلمي للسلطة من اجل تحقيق مبدأ كفأة السلطة والقانون بمقياس كمية الالم بالنسبة لكمية السرور للمواطن ، وهذا معناه ان السلطه المطلوبة والقانون المطلوب والادارة المطلوبة تتجلى في القدرة لجلب كميه من السرور تفوق كميه الالم الموجودة[5] ومضامين السرور تكمن في حقوق ومصالح الفرد:

- الحق في العمل المفيد
- الحق في السكن اللائق والزواج الملائم
- الحق في التداوي المطلوب
- الحق في الامن
- الحق في الملبس الكريم
- الحق في التعليم النافع
- الحق في التعبير عن الذات

[4] د.قباري محمد اسماعيل – علم الاجتماع الثقافي – منشأة المعارف – الاسكندريه ص(٤٢)
[5] ادوارد- بيرنز – افكار في صراع – دار الادب – بيروت ص(٥٦)

- الحق في الغذاء الروحي والفكري الحرين
- الحق في الضمان المستقبلي للعائله وللاولاد
- الحق في المشاركة السياسية والقضائية والرقابية

هذه الحقوق وجدها الافراد والجماعات في الفكر الديمقراطي والتي رتبت ذلـك الـرواج العـالمي والانتشار السياسي[٦] ولهذا أيـدت اكثريـة المجتمعـات الـسياسية الانـسانية جميـع الاعلانـات Declarations والمبـادئ principles والقواعـد Rulles والتوصـيات Recommendations والاتفاقات الدوليـة National conventions والمعاهـدات الدوليـة National Treaties التـي صدرت بعد الاعلان العالمي لحقوق الانسان كانون الاول ١٩٤٨ من المنظمات الدوليـة والاقليميـة لانها تضمنت المضمون المادي والاعتباري للمصالح في هذه الحقوق المعلنة[٧].

المضمون السوسيولوجي للمصالح المشتركه:

إن تطبيق قواعد المصالح المشتركة المتفق عليها تؤدي إلى :

- التكامل الاجتماعي Integration sociale

أي انسجام مكونات المجتمع بتناغم لبلوغ الغايات العليا المشتركة بعد ان تلعـب المنـافع المشروعة دورا" مهما" مع العقائد والبيئة النفسية والسياسية المحيطية في تكييف الافـراد والجماعات بطريقة تؤدي الى تكوين مجتمع منظم والتكييف المقصود هنا هو الاشـتراط بفعالية بالمناشيط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

- تكامل الشخصية Personality intergrction

بعد ان تحقق النفس منافعها لاشباع حاجاتها الضرورية تتجه الى انساق افعالها مع افعال الشخصيات الاخرى خارج مؤثرات الفروق الفردية في الميول والرغبات والخيـارات التي ستنظم الديمقراطية ساحات نشاطها ، والتكامل هذا يخلق الدينامية فـي المجتمـع نحـو الاستقرار ثم التقدم ثم التطور ثم الرقي الحضاري[٨] بشرط الابتعاد عن التحمور حـول نـسق العرق او الطائفة المحمل بثقافة التعصب التي تهمش مصالح فريق لحساب فريق اخـر ، وان الاقتراب من التمحور حول نسق التفاوض والتحاور والقوه في ثقافـة التـسامح التـي تقـر

---

[6] باسيل يوسف – دبلوماسية حقوق الانسان – بيت الحكمه – بغداد – (٢٠٠٢)ص(٧)

[7] انظر: د. عبد العالي دبله – الدوله / رؤية ساسيولوجيه دار الفجر(٢٠٠٤)م ص ص (٣٨-٣٩)

[8] انظر:دينكن ميشيل – معجم علم الاجتماع – ترجمة احسان محمد الحسن-دار الرشيد-بغداد – المقدمه ص ص(٦-٧)

المصالح الضرورية والمشروعة للجميع وتخلق قواعد لبناء شخصية Basic personality structure معياريه تسامحيه تسود المجتمع ، وبالعكس ففي غياب قوه ثقافة التسامح والشخصية التسامحية المعيارية سيؤدي ذلك الى :

حالات الاغتراب Alienation ، الاغتراب السياسي والاغتراب الاجتماعي والثقافي لان المدلول المادي الاعتباري لاندماج الفرد مع الجماعة غير متوفر الامر الذي يرتب اللجوء الى الهجرة خارج البيئة المحيطية او البقاء مع الانعزال او التمرد مع استخدام العنف لان مبدأ الواقع Reality principle يقر اصطدام البيئة النفسية للفرد والجماعة في حالات تكرار غياب اشباع الحاجات الضرورية لكليهما ، ناهيك عن فقدان فرص التأهيل Rehabilitation وتصدع الهرم الاجتماعي بغياب الطبقة الوسطى وانتشار الجهل والمرض والجريمة والفساد واشكال الانحراف الخلقي والاداري ، وتعجز الادوار والمراكز الاجتماعية الوظيفية او تلك المتعلقة بالنخبة او الصفوة او ما يطلق عليهم بأهل العقل والحكمة من العمل بفاعلية وسلامه[9].

المصالح المشتركة والجماعة السياسية :

اكد ار.ثرف بنتلي رائد النظرية السلوكية السياسية على ان الجماعة السياسية هي طريقة تصرف يشترك فيها عدد كبير من الناس والمصلحة على انها نشاط الجماعة ينظر اليها من زاوية هدف[10] وتصور كل حكم على انه ظاهره من مصالح الجماعات التي تتكون وتتحد وتضغط وتتدافع وتتنافس وتتكيف لمحاوله توسيع صراعاتها[11] بل واعتبر بعض المفكرون حتى الوظائف القضائية والتشريعية كلها انعكاسات لمصالح الجماعات فهي تنسيق قانوني لها[12] وان نشاط موظفي الدولة في كافة مفاصلها هو استجابة للافراد عن طريق العالم السايكولوجي لمتطلباتهم الذي يحيط بهم وينعكس في سلوكهم ، فلا مكان للانسان الاجتماعي المنعزل عن الجماعة في مصالحهم المشتركة المشروعة ولا يوجد انسان يمكنه ان يتصرف ككائن اجتماعي وسياسي ويحقق حقيقة وجوده بدون تحقيق مصالحه المشروعة، فليست هذه قوانين منسلخة عن تاريخ البشريه فقد اقرتها جميع الدراسات الاثنوغرافية "Ethnography علم وصف الشعوب" حيث نجد ان شعور الفرد المنتمي للجماعة

---

[9] انظر: وول ديوارنت – قصة الفلسفه – مكتبة المعارف –بيروت (١٩٧٩) ص (٥٥٨)

[10] انظر: جان جاك شافليه – تاريخ الفكر السياسي من الدوله المدينه الى الدوله القوميه – المؤسسه الجامعيه للنشر – بيروت (١٩٧٩) ص (١٠)

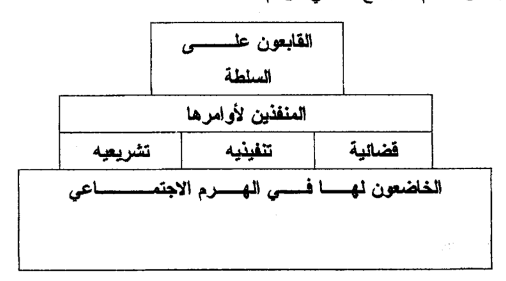
[11] ادوار بيرنز – م.س.ذ ص(١٥)

[12] انظر:ادوار س.بانفليد – السلوك الحضاري والمواطنه – ترجمة سمير عزت نصار – دار النسر للنشر –عمان (١٩٩٥) ص(١٥)

السياسية مطمئن في داخله عندما يرى ان اشباع حاجاته ومستلزماته ياخذ منحنيات افقيه وعاموديه بالتعاون مع الاخرين بصوره سليمة سواء كانت كما يريد او كما تقرها القوانين والقواعد الجمعيه بما يفرز معايير للجماعة السياسية حيث يجد الفرد حاجته اليها كما يحتاجها الاخرون فتحركهم المصالح والمنافع من خلال كل او بعض طموحاتهم لتحقيق اهداف الجماعة السياسية"[١٣].

المصالح المشتركة والسلطة السياسية:

اذا كانت السلطة من اشكال القوه التي تنتج السيطرة والهيمنة لقوى داخليه على حساب الاضعف الاخرى ، او كانت القوه المادية والمعنوية التي تسيطر على توجيهه جهود الافراد العاملين في المؤسسات تحت امرتها نحو تحقيق الاهداف العامة والخاصة التي تصبو اليها قيادة السلطة فهذا يقودنا الى انموذج السلطة الاستبدادية او السلطة الشمولية او الطبقية او الفئوية فكل المصالح ذائبة في تعابيرها والتي لاتعرف استقرارا" يرتب التقدم والنمو بسبب ديمومة الصراع وديمومة متغيرات موازين القوى حيث يتم استنزاف جميع قوى المجتمع ولاتعطي مجالا" لتحقيق الحقوق والمصالح وفي المقابل هنالك النهج الديمقراطي الانساني الذي ينتج علاقة تفاعليه ديناميه ذات مصالح مشتركه مقننه وملازمه لمنظومة الاخلاق الحميدة والمساواة وهي قواعد متفق عليها تكون مستقرات في الذهنيات تضمن مصالح القابعين على السلطة ومصالح المنفذين لاوامرهم ومصالح الخاضعين لها بشكل متلاصق ومتلاحم يعكس تلاحم المجتمع كما في الرسم ادناه:



[13] انظر:اريك فروم – تشريح النزعه التدميريه – عرض منشور في مجلة العربي العدد (٥٧٠) لسنة (٢٠٠٦) ص(١٨٩)

المصالح المشتركة والسلطة الاجتماعية:

لم تكن مقولة دور كايم القائمة على التفرقة بين نمطين أو شكلين من التضامن الاجتماعي الأول قسري (تسلطي) فوقي فيه استغلال طبقة لطبقة أخرى ولطبقات أخرى مع تعارض المصالح وفروق كبيره في مستويات المعيشة تدفع المتضررين دائما" الى التمرد والعنف وكسر الأوامر والتوجيهات كما سنحت ألفرصه لذلك[١٤]، والشكل الثاني من التضامن الاجتماعي ايجابي عضوي اعتمد على الحداثة وتكافأ الفرص التي راعت توزيعا" جديدا" للمصالح قلل من فروق مستويات المعيشة وحدة الصراعات للقوى الاجتماعية وأصبحت السلطة الاجتماعية غير محصورة بيد أرباب العمل ومالكي وسائل الإنتاج والمال والإعلام والضيعات أو أهل المراكز والأدوار الاجتماعية الكبيرة والمؤثرة بل تجدها في تجمع شرائح المجتمع كل لمرجعه المهني وتصنيفه الاجتماعي لما يشكله هذا المرجع من دفاع وحماية مصالح من يمثلهم ، فالجهة التي تملك حق التمثيل عن العمال أو عن الطفل و المرأة أو عن ألعجزه والمرضى أو عن الطلاب والمتقاعدين والمزارعين سيكون لها حضورا" فاعلا" يرتقي إلى مستوى السلطة الاجتماعية البعيدة عن أشكال الحماية المتخصصة لعرق محدد أو مذهب محدد أو سلاله محدده رغم قوة الاحتفاظ بالقيم العقائدية الجمالية الانسانيه وهنا نختلف مع دور كايم في هذا وفي تجاهله لأهمية النظام القرابي الآلي ولا يجوز أن تحل المصالح المشتركة محل النظام القرابي في اتجاه امبريقي نفعي كما هو الحال في المجتمعات الغربية التي تعاني من تصدع في رأسمال الاجتماعي بسبب ابتعاد النظام القرابي الكبير عن منظومة القيم والعقائد لان المصالح المشتركة في العائلة التي هي عمود السلطة الاجتماعية المستمدة من سلطة الأب قائمه على ضخ مصالح قيمه روحيه تهذب سلوك وتصرف الفرد للاستعداد للعيش مع الجماعة.

المصالح المشتركة والجانب الاقتصادي:

إن الاندفاع العقلاني في مضامين التكنولوجية الحديثة من ناحية الإعداد البشري لها واستيعابها في تطبيقاتها العملية يرتب فرصا" كثيرة لامتصاص المقدرات والكفاءات المتنوعة

---

[14] انظر:حامد عبدالسلام زهران – علم النفس الاجتماعي – عالم الكتب – القاهره –(١٩٧٧) ص(٢٧٤)

ويخلق مجتمع الرفاهية والوفرة الأمر الذي يساعد على تقليص الفوارق الطبقية وتنافر الجماعات بسبب العوز والفاقة ,وينقل المجتمع من حالة الركود الاقتصادي والصراعات المادية الى حالة الحركة والاستقطاب نحو الإبداع من اجل تطوير مستويات المعيشة ، فالمضمون الاجتماعي للتكنولوجيا الحديثة اثر بشكل ايجابي في تجارب الشعوب الصناعية من ناحية تقليص مساحات الفقر والجهل والمرض هذا الثالوث المرعب والمسبب في الكثير من حالات الصراع والتصادم وغياب الاستقرار السياسي حين يعتقد البعض على إيجاد حلولا" أخرى يسعى إلى تحقيقها بواسطة القوه والعنف مما يرتب رد فعل للأخريين في اتجاه معاكس وهكذا دواليب حتى يتم احتواء المجتمع المتفكك من قبل مجتمع اخر اكثر تفوقا" فالمجتمع الضعيف دائما" يكون اسيرا" للمجتمعات المتفوقة اقتصاديا" حيث نجد إن القوى الاقتصادية هي الدافع الرئيسي وراء الأهداف السياسية والمجتمعية في عالم القرن الحادي والعشرين ، عالم العلم والعمل حين تقدما على عوامل الايدلوجيه والسياسية والجيش واستطاعا تقليص أهمية الموقع والمساحة والكثافة العددية[١٥]. والمؤسسات الاقتصادية العقيمة.

الاتجاه الامبريقي الاقتصادي:

إن التطرف في السلوكية النفعية هي أساس المشروع الرأسمالي الامبريقي الموسوم بالتصاعد مع تصاعد الرأسمالية المتأثرة بالدافعية والبرغمائيه والغائية المادية على حسب فاعلية منظومة العقائد والأخلاق في تماسك وبناء مجتمع .

فالفلسفة الذراعية التي جعلت من المصلحة والمنفعة اسبقيه على الوعي المجتمعي والحافز الفكري والسياسي في الربح المحسوس والحفاظ عليه وتجاهل خسائر الآخرين حولت الكثير من القوى والجماعات الاجتماعية إلى مشاريع رأسماليه امبريقيه تنحسر مع الوقت في زاوية الماده فقط وتتصارع مع مصالح الآخرين ثم تكبو وتسقط لانها دخلت في الغائية الميكافيليه التي بررت كل وسيله ما دامت في النهاية تحقق فائدة ما وبذلك يتم نسف كل قواعد وأسس المصالح المشتركة ويمهد الطريق لصراعات تستنزف القوى الاجتماعية مع فقدان الامكانيه اللازمة لإنتاج دولة عصريه متينة التنظيم وسلطة تحقيق الرضاء العام.

---

[15] فرانيس فوكاياما – التصدع العظيم – ترجمة حسين كبه – بيت الحكمه (٢٠٠٤) ص(١٥٦)

المصالح المشتركة والشخصية العقلية :

الشخصية هي مجموعة العناصر والمميزات البايلوجيه والسايكلوجيه والاجتماعية التي تمييز سلوك الفرد عن بقية الافراد الاخرين ، ولعل تعريف العالم النفساني الأمريكي "كيرت ليون" للشخصية بأنها حصيلة التوازن بين السلوك والبيئة هو الأقرب إلى موضوع بحثنا هذا[16] لانه ينطبق مع ارتباط معيارية المصالح المشتركة التي ينتجها المجتمع الساعي للتماسك مع الشخصية العقلية المطلوبة خاصة في المجتمعات المختلطة plural society القائمة على استحالة إرضاء الأفراد في مقاييس مختلفة لكل طائفة أو عرق أو فئة ينتمي إليها الفرد ، حتى لو جيء بسلطة متينة التنظيم وقوية السيطرة والهيمنة فهي لاستطيع احتواء جميع الأفراد من مختلف الأعراق والمذاهب كما تفعل المصالح المشتركة المشروعة .

بيد إن الفرد ذو الشخصية الاجتراريه Autisme[17] التي تعامل في الطب النفسي إلى أسلوب من التفكير والسلوك القائمين على إحلال الواقع النفسي محلَ الواقع المادي حيث تقوم عندهم المشاعر الوجدانية والذاتية مقام الوقائع الماديه والواقعية الزمانيه والمكانية والصلات والتفاعلات في الاتصال الفردي والأناسي النابع عنهم. فمثل هذه الشخصيات تربك قواعد المصالح المشتركة المتفق عليها في تطرفها في مسائل الخمول والسكون او الرفض والعنف ومطالب العزلة وأراء احتكار الحقيقة والمنهج الصائب دون الآخرين ، والمسألة برمتها تتعلق بعمليات التربية والإعداد والتنشئة للدولة والمجتمع .

---

[16] عادل طاهر ـ الاسس الفلسفة للعلمانيه ـ دار الساقي ـ بيروت (١٩٩٨) ص ص(٣٧٨-٣٧٩)

[17] د.ابراهيم مذكور ـ معجم العلوم الاجتماعيه ـ الهيئه المصريه للكتاب ـ الاسكندريه (١٩٧٥) ص(١٢)

الخاتمة :

لعبت المصالح المشتركة الدور المهم في عمليات تقارب ثم تعاقد واندماج الجماعات والكتل الاناسيه نحو المجتمع الكامل المستقر الساعي صوب التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فهي كانت ولم تزل تمثل "الحقل المغناطيسي" لاستقطاب الأفراد والجماعات لتشكل منهم كتلة حيوية بشرط إن تكون عمليات الاستقطاب قائمه على سد الحاجات المشروعة للفرد والجماعة ، وما جوهر جميع التطبيقات السياسية والاجتماعية للفكر الديمقراطي إلا تلبيه لهذه الحاجات التي تعبر عنها بالمصالح المشروعة وان صيغت بمضامين حقوق الإنسان ، الحريات الفردية والعامة ، الصالح الخاص وتوافقه مع الصالح العام ... الخ.

الإرهاب وأثره على الشخصية العراقية

الباحث النفسي المختص
علي محمد الشويلي(*)

المقدمة

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م، استخدمت كلمة الأرهاب في مختلف الكتابات والأحاديث والخطب، وفي كثير من الندوات والمؤتمرات التي تعقد على مدار العام في المؤسسات والهيئات المحلية والأقليمية والدولية، حيث وصفت جماعة هنا وجماعة هناك بانها أرهابية، ومن المؤسف جداً أن تعقد هذه الدول وهذه المنظمات والهيئات الندوات والحوارات وتعلن الحرب على الارهاب قبل أن تتفق على معنى واحد او تعريف واحد على ما هو الارهاب وبماذا يُعرف؟ الارهاب امتد الآن ليشمل أغلب بقع العالم وان أخطار هذه الظاهره تجاوزت تخريب الممتلكات وأزهاق الارواح لتشمل فيما بعد أخطاراً جمة ذات تأثير أجتماعي ونفسي وتنموي وهنا تكمن مشكلة بحثنا.

الأهمية:

يعد الارهاب ظاهرة معقدة ومتشابكة تشترك في بروزها في المجتمع جملة من العوامل والأسباب، حيث تتداخل العوامل الشخصية والنفسية مع الثقافية والسياسية والأقتصادية لتشكل ظاهرة الارهاب التي تحقق أهدافها بممارسة العنف والقتل وتحسم خلافاتها بالغاء الآخر واقصاء دوره من الوجود، فلابد لنا من فهم آليات التطرف والارهاب، ومتى تظهر ومتى تختفي؟ وكيف تنشق وتتألف؟ وكيف تظهر؟ وكيف تتشكل؟ وكيف يُجند افرادها؟ وهنا تبرز أهمية بحثنا هذا وهو أن أغلب المجندين كانوا من الشبان والشباب الصغار، قد يكون البعض منهم طلبة جامعة، والبعض الآخر أساتذة

(*) باحث مختص.

جامعات، او من الكوادر المثقفة، وهذا يعني الدمار لهذه المجتمعات اذا وصل خيط العنكبوت إلى هذه الشرائح الهامة.

الإرهاب في اللغة:

تشتق كلمة ارهاب من الفعل (أرهب) حيث يقال أرهب فلانا : أي خوفه وفزعه وهو المعنى نفسه الذي يدل عليه الفعل (رهب) اما الفعل المجرد من المادة نفسها وهو (رهب) يرهب رهبة ورهيبا ورهبا فيعني خاف ، فيقال : رهب الشيء رهبا ورهبة ، أي خافه والرهبة الخوف والفزع .كذلك يقال ترهب الرجل اذ صار راهبا يخشى الله والراهب هو المتعبد في الصومعه .

تعريف الارهاب:

حاولت المنظمات الدولية كالامم المتحدة تحديد مفهوم الفعل الارهابي من منطلق ان الارهاب هو شكل من اشكال العنف المنظم بحيث اصبح هناك اتفاق عالمي على الكثير من صور الاعمال الارهابية مثل الاغتيال والتعذيب واختطاف الرهائن تفجير القنابل والعبوات الناسفة واختطاف السيارات وتفخيخها وتفجيرها، وكذلك تلغيم الرسائل وارسالها للاهداف التي خطط الارهابيون بها.

فالارهاب:

هو اداة او وسيلة لتحقيق الاهداف السياسية سواء كانت لمواجهة داخلية بين السلطة السياسية وجماعة معارضة لها، او كانت المواجهة خارجية بين الدول.

فالارهاب: هو نمط من استخدام القوة في الصراعات لارغام دولة او جماعة على اتخاذ قرار او تعديله او تحويره مما يؤثر في حرية القرار السياسي لدى الخصوم .

والارهاب:

باختصار هو عبارة عن العمليات المادية او المعنوية التي تحوي نوعاً من القهر للآخرين بغية تحقيق غاية معينة، ومن اهم اصناف الارهاب هو ارهاب الدولة، ومن اوضح صوره واشدها بشاعة الارهاب الذي مارسه اليهود في فلسطين وما مارسه الغرب في كل من البوسنة والهرسك وكوسوفو، واخيرا ما يمارس الان على شعبنا

واهلنا واخواننا في العراق وافغانستان من قبل امريكا وادواتها من الارهـــابيين الــذين ينفذون مخططاتها الارهابية والذي يعده الاسلام من اشد الارهاب خطرا علـــى الامـــن والسلام الذي يجب مواجهته بغية الدفاع عن النفس.

مدخل لتحليل السلوك الارهابي

اولا: مدخل تعدد العوامل:

ينطلق هذا المدخل من رؤية السلوك الارهابي نتيجة عوامل متعددة منها: (العوامل النفسية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والاجتماعية)، ولان الارهاب متعدد الاسباب فان تحليله من وجهة نظر فردية او من مدخل فردي يعتبر تبسيطا للظاهرة الارهابيـــة واخراجها من محاورها العلمية.

ان اسباب الثورات والعنف السياسي على مستوى العالم تكمن في الصراع العرقي والصراع الديني والخلاف الايديولوجي والفقر والبطالة والضغوط الناتجة من تحـــديث المجتمع بعجالة وعدم العدالة السياسية ونمو جماعات الثورة وضعف الحكومات وعـــدم الثقة بالسلطة السياسية والصراع بين المفكرين السياسيين.

ثانيا: المدخل السياسي:

ينطلق هذا المدخل في تحليل الارهاب لعوامل دولية وعوامـــل محليـــة، وينطلـــق التحليل من رؤية الارهاب كنتاج لفكر منحرف من خلال قيادات فكرية تحرك المشاعر نحو السلوك الارهابي، ويجب ان نفرق بين الجذور الطبيعية التي تشجع الارهابين على وضع الخطط الارهابية وتجعل السلوك الارهابي عامل جـــذب لممارســـته مـــن قبـــل الاشخاص، ومن الحالات المباشرة التي تدفع الافراد الى سلوك الارهاب والعنف هـــي التحضير السريع ونظام استخدام الطائرات او أي وسيلة نقل اخرى ونظام الاتـــصالات المتطور والذي يسمح بالاتصال السريع بين المنظمات الارهابية كـــ (الانترنت).

ثالثا: المدخل التنظيمي:

هو المدخل الذي ينطلق من رؤية الارهابين باغتباره سلوكا عقلانيا تستخدمه الجماعة بشكل جماعي وليس سلوكا فرديا، ان الارهاب سلوك منظم ومخطط لـه من قبل جماعة ما، ومن خلال تحليل السلوك الارهابي فاننا نصل الى نتيجة معينة وهي: ان الارهاب لا يمارس من قبل الاشخاص وانما يمارس من خلال سلوك جماعي منطلق من قناعة مشتركة بين افراد المجموعة الارهابية.

رابعا: الارهاب كنتاج عوامل فسيولوجية بدنية:

يقوم هذا المدخل باخذ البعد الفسيولوجي لتحليل اسباب الارهاب، حيث ان الجسم تحت الضغط يفرز مادة الادرينالين Norepihepnivne وهي عبارة عن مركب ينتج بواسطة الغدد الكظرية ونهايات الأعصاب السمبثاوية، ويرتبط بالاستجابات الحيوية عند الاستعداد للهرب او القتال، فعندما يكون الشخص تحت الضغط فان ردود فعله نتيجة افراز الغدد تدفعه اما الى القتال واما الى الهرب من الموقف الضاغط، فعلماء الفزيولوجيا يؤكدون بان الكثير من السلوك الارهابي يعود الى خلل في هرمونات معينة والتي تنتج تفاعلات تدفع الفرد الى القتال تحت الضغوط التي لا يستطيع التعامل معها او التحكم فيها.

خامسا: الارهاب كما يراه علماء النفس:

هناك الكثير من النظريات العلمية النفسية التي فسّرت ظاهرة العدوان والعنف والتي تتولد منها ظاهرة الارهاب منها:

١) مدرسة التحليل النفسي : وأهم نظرياتها:

أ ـ منظور فرويد: إن من أولى الخطوات في الفكر الفرويدي حول ظاهرة العدوان كسلوك هي مناقشة العدم والوجود ؛ إن ظهور فكرة الثاناتوس (Thanatos) أو غريزة الموت عند فرويد أطرت فكرة أنّ الكائن راكضٌ نحو العدم وأنّ الإنسان من بين الإحياء الأخرى وُلد ليموت ، فهو إنما ينشأ لينشأ للعدم ، وإنّ الإنسان راكضٌ نحو

النهاية، إذن فالموت ـ كغريزة وحسب التنظير الفرويدي ـ يُعجّل في الكائن التهاوي والهروب إلى الإمام.

فرويد ارجع العدوان إلى قوةٍ فطريةٍ هي ما اسماها بغريزة الموت (العيسوي، ١٩٩٩، ٣٦٥). ويمكن تلخيص آراء فرويد الأخيرة في قوله بوجود قطبين غريزيين هما إيروس (Eros) وثاناتوس (Thanatos)، أي غريزتي الحياة والموت، أو الليبيدو والعدوان ، وتمثل الحياة والموت القوى التي تكمن وراء غريزتي الجنس والعدوان ، وهي بهذا تمثل الميول البايلوجية لدى الكائن بصفةٍ عامة . وبالنسبة لغريزة الحياة أو (إيروس) فإنها تمثل الدوافع التي تعمل على الربط والمحافظة والبناء والتوحد لدى الإنسان وهي تُشير إلى ميل الجزئيات إلى إعادة التوحد كي ترتبط ببعضها البعض وتعود إلى حالة سابقة من الاتحاد كما يحدث في حالة التناسل الجنسي ، وعلى النقيض من هذا تقوم غريزة الموت أو (ثاناتوس) ، وهي تمثل ميل الكائنات وخلاياها للعودة إلى حالة من اللاحياة ، وفي مثل هذه الأحوال فإن السلوك لا يتجه نحو خفض التوتر عن طريق اللذة ، وإنما يتجه نحو الصفرالمطلق ، ولما كانت الغاية النهائية لكل المواد البايلوجية ـ باستثناء الخلية الجنسية ـ هي العودة إلى حالة من اللاحياة ، فمن المعتقد أن غريزة الموت تمثل القوى المسيطرة . أما رأي (فرويد) في الجريمة فقد أرجعها إلى شعور المجرم بالذنب على المستوى اللاشعوري ولديه رغبة لا تقاوم لإرتكاب الجريمة ، بل إن ارتكاب الجريمة قد يكمن ورائه رغبة لا شعورية في تلقي العقاب والدخول إلى السجن ولذلك كان هناك الذين يستهدفون الجريمة ويسعون إليها.

ب ـ أدلر : حاول أدلر ـ وهو من رفاق فرويد والمختلفين معه ـ أن يؤكد إمكانية ظهور العدوان والجنس كحالتين منفصلتين مع احتمال تلازمهما في وقت ما . وحاول كذلك أن يؤكد كون العدوان غريزة يعتورها الإخفاق أو النجاح في الظهور تبعاً للظروف المحيطة . إنه يعتبر العدوان في النفس البشرية من الموروثات الفطرية الذي ـ إنْ اخفق أو نشأ بشكل مخطوء ـ يؤدي بالفرد إلى اختلال كيانه وتدهوره ، وعليه فالتطبيقات السريرية والميدانية في مسيرة الفرد بشكل عدواني هي إنفعال غريزي

للعدوان الموروث على قاعدة (الكفاح من أجل التفوق) كما وُرد في الأوراق الأخيرة لكتابات أدلر ، وإن كان للجنس أن يشكل قوة عدوانية فله ذلك ولكن ضمن الانفعال النهائي لظاهرة العدوان الغريزي.

العدوان عند أدلر هو أي مظهر لإرادة القوة .

ج ــ ميلاني كلاين : هنا نجد (ميلاني كلاين) تحاول أن تؤشرحقيقتين في هذا المضمار:

الحقيقة الأولى: أن للإنسان غريزة عدوان موروثة.

الحقيقة الثانية: دور القلق وصعوبة البيئة في زيادة انفعال هذه الغريزة بالشكل الذي قد يجعل منها مثار تعثر وتحول مُؤثر في حياة الفرد اللاحقة؛ مما حدا لها إلى تأكيد تحسين ظروف النشأة الأولى بغية خفض درجة ظهور الغريزة العدوانية إلى حدٍّ لا تُؤثر في الفرد ولا يُؤثر بها على المحيط تأثيراً يؤدي إلى فصلها عنه وشلّهِ كعضو فاعل في مجتمعه . وتقول: وسواءٌ لدينا اعتبار العدوان مفصولاً عن الجنس أولاً؛ وحتى ظهور العدوانية الجنسية أو الجنس بشكل عدواني أو معبراً عنه بصيغة عدوان ذكوري تجاه استسلاح أنثوي؛ لا يعني ذلك بالضرورة ترابط العدوان والجنس غريزياً ، فقد تكون غريزة الجنس في حاجةٍ إلى العنف كواحد من معالم ظهورها وتجسدها، ومع ذلك تبقى حالة الفصل بين هذين السلوكيين ــ العنف والجنس ــ قائمة (إبراهيم ،أ، ١٩٨٧، ١٨).

د ــ إرك بيرنا : يقرر هذا الباحث أنَّ كُلاً منا في داخلهِ ثلاثة وجوه للتعامل طِبقاً لثلاثِ شخصياتٍ تتوفر في كل فرد في آن واحد.

وهذهِ الشخصيات هي:

(١) شخصية النضج الأبوي.

(٢) شخصية النضج المعتاد السوي.

(٣) شخصية الطفل.

وإننا في تعاملنا اليومي نتقلب في تقمص هذه الشخصيات تبعاً للظروف التي تمر بنا، ففي موقفٍ مُعينٍ قد نُمارس سمات وتصرفات شخصية أبوية فنتبنى دور الأبوّة والنُصح والإرشاد ، وفي موقف آخر قد نُمارس دور الشخصية المُتعادلة المُتناظرة مع المُقابل فنعتبر الطرف الآخر مُعادلاً لإمكاناتنا ونستطيع معه التواصل الايجابي المستمر، ولكن قد نتصرف بحدود شخصية طفلية في موقفٍ آخر. ونستطيع إحداث خصام واستعداء أي فرد بتغير صيغة التعامل معه، فعندما نتعامل مع شخص قريب منا في العمر والمستوى الثقافي بصيغة الأب المُهيمن المُقلّل لدورهِ فإنَّ هذا كفيل بإحداث استثارة له وإثارة عدوانيته، إذن يعزو(إرك بيرنا) ظاهرة العدوان إلى طبيعة ممارستنا لهذه الوجوه الثلاثة.

هـ ـ **إبراهامسون:** يُقدم هذا الباحث محاولة رياضية لتفسير السلوك العدواني، إذ يفترض وجود قانونين يحكُمان هذا السلوك ، ويُشير القانون الأول: أنَّ السلوك العدواني يتكون من عوامل مُتداخلة بنسقٍ سببي مُعين وهي تختلف كمياً ونوعياً بين كل حالة وأخرى ولهذا فالسبب يصبح هنا مفهوماً نسبياً ، فالوراثة مثلاً تُقرر ماذا يستطيع الفرد أنْ يفعل وان البيئة تُقرر كيف يمكنه أن يفعل ذلك وأنَّ السلوك العدواني يحدث عند تحقق عدد من الشروط مثل تعرض بعض الاتجاهات اللااجتماعية إلى بعض التأثيرات البيئية الخارجية التي تُحفز الفرد إلى ارتكاب السلوك العدواني وحين يكون لدى الفرد دوافع لا شعورية قوية تدفعهُ إلى طلب العقاب لشعورهِ العميق بالذنب وحين يكون السلوك الإجرامي تعبيراً غير مباشر عن نزعاتٍ عدوانيةٍ مكبوتة نتيجة صراع داخلي يجري بين العقل الواعي والباطن.

أما القانون الثاني: فيفترض أن الفعل العدواني يتكون من عامل الميول والنزعات العدوانية مُضافاً إليه عامل الظرف الكلي مقسوماً على المقاومة

$$\text{الفعل العدواني} = \frac{\text{الميول والنزعات العدوانية} + \text{الظرف الكلي}}{\text{المقاومة}}$$

أي أن الفعل العدواني هو حصيلة عجز مقاومة الفرد عن صد الاتجاهات العدوانية التي قد تجد الظرف المناسب للتعبير عنها.

و- ريدل: فسّر السلوك العدواني بقصور الذات وعدم قدرتها على التكيف من خلال انعدام مقدراتها على تحمل الإحباط ومقاومة الإغراء وعجزها عن مواجهة خبرات الماضي المؤلمة. فالفرد العدواني يلجأ إلى السلوك العدواني بصورة مستمرة هروباً من مواجهة القلق، فالعدوان هو انعكاس لشعور الفرد بالذنب بعجزه عن إرضاء نفسه من خلال طرائق مقبولة لذا فإن اللجوء للعنف يصبح استجابة لإشباع لذّة وقتية لا يمكن مقاومتها.

ز- رايش: أما (رايش) الذي خالف فرويد في تأكيده على أولوية غريزة الموت فهو يقول: بأنه لم يجد في أبحاثه العيادية رغبة في الموت أو غريزة الموت كغريزة أولية، وهو يرى إنّ العدوانية وغريزة التدمير إنما تهدف إلى الحفاظ على الحياة، وكل نوع من أنواع التدمير هو رد فعل الفرد على رفض إشباع الحاجة الجنسية؛ فالكبت الجنسي يترك العدوانية حُرة تنطلق في سادية تبحث عن لذّتها ، ففقدان الهدف الحقيقي من الحب يولد السادية التي تنبع من انعدام إمكانية الإشباع الجنسي عن طريق الحب إذ كلما قلت القدرة على الإشباع الجنسي زادت السادية والعكس بالعكس.

٢- المنظور السلوكي : يفترض هذا المنظور إنّ السلوك ناتج عن البيئة وبخاصة الأحداث المتعلقة بالتعزيز والعقوبة .

والسلوك العدواني بوصفه سلوكاً مثل بقية أنواع السلوك الأخرى إنما هو سلوك إجرائي ، بمعنى انه يدوم بالتعزيزات الناتجة من البيئة ، فالاستجابة العدوانية يُمكن أنْ يحصل الفرد منها على تعزيزات متمثلة في (نقود ، القضاء على عدو ، ...الخ) لقد اجمع السلوكيون إنّ أنماط السلوك العدواني إنما يتم تعلُمها بنفس طريقة تعلُم أنماط السلوك العادية ، فالبيئة التي تُشجع العدوان وتُثيبهُ تُساهم في نمو هذا السلوك ، وقد ثبت من الكثير من الدراسات إنّ آباء الجانحين كانوا يُشجعون أبناءهم على العدوان. أما

في حالة عدم اكتساب الفرد من سلوكهِ (عدواناً أم سوياً) شيئاً فان هذا السلوك سيتضاءل وينّمحي.

فرضية الاحباط ــ العدوان :

من النظريات السلوكية المهمة الأخرى التي فسرت العدوان نظرية (دولارد و ميلر) أو ما يسمى بفرضية (الإحباط ــ العدوان) ، فقد رأى (دولارد وميلر) أن العدوان إنما يأتي كرد فعل للإحباط الذي يتعرض له الفرد من البيئة الخارجية التي يعيش فيها والإحباط إنما هو (إعاقة الفرد عن تحقيق وانجاز أهدافه)، ووفقاً لهذا القول فإن الإحباط يحدث حالة دافعية معينة تُمثل استثارة تنتج في آخر الأمر الفعل أو الفكر العدواني.

أما (ميلر) فقد فسّرَ الاستجابة العدوانية للإحباط على أنها ضمن بمجموعة استجابات، فالإحباط قد يُؤدي إلى العدوان أو قد لا يُؤدي بحسب الظروفَ التي يحصل فيها، لقد أُجريت دراسات عدة وبحوث كثيرة لإثبات هذه الفرضية وقد خرجت النتائج ما بين مؤيدٍ ورافض.

٣ــ نظرية التعلم الاجتماعي:

يمثل هذه النظرية (باندورا، والترز، جين، ايدموندز)، وتؤكد هذه النظرية إنَّ خبرات التعلم الاجتماعي تُؤدي دوراً حاسماً في تطوير وتحوير سلوك كل فرد، ومُوقفُها من السلوك البشري يُدعى بالتفاعل بين العوامل المختلفة، أي إنَّ السلوك ليس مُحصلة أو إنتاج قوى داخلية بمفردها، ولا قوى بيئية بمفردها، بل هو نتيجة تداخلات مُعقدة بين عمليات داخلية ومُثيرات بيئية. في ضوء نظرية التعلم الاجتماعي أوالتعلم بالمُلاحظة افترض (باندورا) و(روس ١٩٦٣)، إنَّ الأطفال يتعلمون السلوك العدواني عن طريق ملاحظة (نماذج عدوانية) عند والديهم أو مُدرسيهم أو أصدقائهم ، ومنْ خلال أفلام التلفزيون والسينما والقصص التي يقرؤونها والحكايات التي يسمعونها، حيث يحصلون إما على نماذج السلوك العدواني التي يقلدونها أو يحصلون على

المعلومات التي تُمكنهم من الاعتداء على أنفسهم أو على غيرهم. ومما تقدم يمكن تلخيص وجهة نظرية التعلم الاجتماعي بالنقاط التالية:

أ ــ موقفها من السلوك البشري يُدعى بالتفاعل بين العوامل المختلفة (قوى داخلية وقوى خارجية).

ب ــ تُؤكد على التعلم من خلال الملاحظة.

ج- أنَّ العدائية يتم تعلُمها من خلال ملاحظة نماذج عدائية في الحياة اليومية ومن الأشخاص المُحيطين بالفرد.

د- يُعد الوالدان والأقران ووسائل الإعلام المُختلفة قنوات مُهمة لتعلم الاتجاهات العدائية.

٤ــ المنظور الظواهري:

تنطلق هذه المدرسة من دراسة التجربة الذاتية للإنسان في تفاعلهِ مع الآخرين، فالعنف هو نتاج مأزق علائقي أما التدمير والقتل فهو كارثة علائقية تُصيب الذات في نفس الوقت الذي تنّصبُ فيه على الآخر وتُنهيه. والعدوانية هي طريقة مُعينة للدخول في علاقة مع الآخر، فالتحولات الذاتية التي تحصل للمعتدي والتحولات التي تُصيب علاقته بالآخرين هي تحولات لا يمكن دونها الاعتداء على الآخرين، فليس هُناك عنفٌ اعتباطي أو بدائي كما قد يتصور البعض، فالعنف هو وليد عملية تغيير بطئ تقضي على عواطف الحب والمُشاركة ليُحلَّ مكانها العنف.

٥- المنظور المعرفي:

العدوان في المنظور المعرفي يُفسر من خلال ميل المُعتدي إلى تفسير أسباب عدوانه بعمليات فكرية ومعرفية خاطئة، إذ تبين من مقابلة مجرمين أنهم يُعانون من الإخفاق في مُشاركة الآخرين وجدانياً فضلاً عن إدراكهم لأنفسهم كضحايا وعدم قدرتهم على اتخاذ القرارات المسؤولة، وإخفاقهم في ضبط طاقاتهم مما يُفضي بهم إلى الاندفاعية، وهذا الاندفاع نحو العدوان يُمكن عدهِ إخفاقاً في توليد استجابات بديلة.

٦- المنظور النفسي الواقعي:

المدرسة النفسية الواقعية لم تخرج كلياً عن إطار التحليل النفسي بعدم إغفالها لتأثير اللاشعور في سلوك الكائن ، وهذه المدرسة لا تنظر إلى المجرم كونهُ إنساناً مريضاً بل هو إنسان لا يختلف عن غيرهِ من أسوياء الناس، إذ إنه لم يثبت علمياً إنَّ جميع المجرمين مُصابون بأمراض عضوية أو نفسية، والفكرة الأساسية لهذهِ المدرسة هي الأولوية في تحديد العوامل المُفضية للإجرام، فهذهِ المدرسة لا تهمل اثر العوامل البايلوجية أو الاجتماعية ولكنها تُعطي الأولوية للعامل النفسي على العامل العضوي والاجتماعي، وهي لا تغفل الجانب اللاشعوري بالمعنى الذي حدده فرويد) أي بمعنى العلاقات والنزعات بين مكونات النفس الشعورية، ولقد استخلص أنصار هذهِ المدرسة نتيجتين مهمتين:

أولاهما: أنَّ البحث في تفسير الظاهرة الإجرامية يجب أنْ يقتصر علَى المجرمين الحقيقيين ، أي المجرمين غير المرضى من الذين يمتلكون تكويناً عضوياً ونفسياً لا يختلف عن الأسوياء فهؤلاء همُ المجرمون الحقيقيون.

ثانيهما: نجد أنَّ سلوك هؤلاء المجرمين مصدرهُ في العقلية غير المُتكيفة اجتماعياً أو ما أطلقوا عليها (العقلية اللاإجتماعية) والتي تنشأ عنها الاضطرابات النفسية، ولا ينشأ عدم التكيف الاجتماعي من العوامل النفسية فقط، وإنما يُساهم فيه التكوين العضوي للفرد وتجاربه الشخصية وخبراته منذ مولده فضلاً عن البيئة الاجتماعية.

٧- نظرية بص (Buss):

يرى (بص) إنَّ العدائية تتكون نتيجة للعقوبات التي يفرضها المجتمع على الشخص ، وتتضمن الرغبة في إيذاء الآخرين، فالخبرات التي يتلقاها في مراحل حياته هي التي تُحدد شخصيته، وإذا كانت هذه الخبرات مبنية على الأذى والحرمان فأنها تترك آثاراً ضارة في شخصيته. ومن الممكن أنْ تتراكم المُعاناة خلال الطفولة لتُشدّد من الإحباطات في المستقبل وبالتالي فأن الإثارة للعدوان تنمو مع كل إحباط إلى أنْ

تقود بصورة نهائية إلى العنف ، وملخص العدائية عند (بص) تتمدد بسبعة مجالات هي:

أ- الهجوم: ويعني الإيذاء الجسدي ضد الآخرين المُتضمن القيام بمُنازعات مع الآخرين دون مُحاولة تحطيم الأشياء.

ب- العدوان غير المباشر: ونعني به مهاجمة الضحية بصورة غير مباشرة أو بوسائل منحرفة مثل ثورة الغضب والثرثرة الحقودة والغمز واللمز وتحطيم الأشياء.

جـ - العدوان اللفظي: وهو العدوان الذي يتم التعبير عنه بأسلوب ومحتوى الكلام حيث يتضمن هذا الأسلوب المُناقشة العصبية، الشتم، الصراخ، أما المحتوى فيتضمن التهديد وإظهار الشخص لنفسه بكونه أكثر خطورة.

د- السلبية: وهو السلوك الضدي الموجه عادة ضد السلطة ويشمل رفض التعاون وعدم الالتزام بالقوانين والأعراف.

و- الاستياء : ويُقصد به الغيرة وكُره الآخرين الناتجة من الشعور بسوء المعاملة الواقعية والخيالية من العالم المحيط بالفرد.

ز- الشك : ونقصد به عدم الثقة بالآخرين والحذر من التعامل معهم.

اركان الارهاب:

استناداً للواقع الذي نعيشه وحصيلة الدراسات لاكاديمية التي تناولت موضوع الارهاب يمكن القول ان للارهاب مجموعة من الاركان الاساسية وهي:

١- العمل الارهابي هو عملٌ من اعمال العنف، اما التهديد بالعنف فيدخل في باب الردع، وبعض منه يمكن ان يدخل في خانة الارهاب.

٢- العمل الارهابي هو عمل منظم، وبذلك يتم استبعاد معظم اعمال العنف العفوي من عداد اصناف الارهاب.

٣- ينطوي العمل الارهابي على مضامين واهداف سياسية اوعقائدية اواجتماعية اوثقافية، وبذلك يمكن استبعاد اعمال الارهاب ذات المقاصد الذاتية والتي تدخل في عداد الجرائم العادية.

٤- يتسم العمل الارهابي بالطابع الرمزي، اي انه يحمل رسالة الى فئة او جماعة او مجتمع او دولة، متجاوزاً بذلك الضحية المباشرة او الهدف المباشر للعمل الارهابي، بهدف خلق تاثير نفسي معين لدى الخصم كالشعور بالخوف والذعر وعدم الامان.

ولذلك يمكن القول ان الارهاب ظاهرة تختلف عن المقاومة، لان المقاومة لها شروطها وظروفها الخاصة، وما جاء به مؤتمر (باندونغ) للدول الافريقية والآسيوية لعام (١٩٥٥) الذي اشار الى الاعتراف بحق تقرير المصير وتاييد حرية واستقلال الشعوب، وكذلك قرار الامم المتحدة رقم (١٥١٤) في (١٩٦٠/١٢/١٤) الخاص بمنح الاستقلال للشعوب والاقاليم المستعمرة، وكذلك القرار رقم(٢٦٢٥) الصادر في (١٩٧٠/١٢/٢٤) الذي اقر مبدأ حق الشعوب بتقرير مصيرها، وقد تاخذ المقاومة اشكالاً متنوعة منها:

أ- المقاومة المدنية: التي تقوم على اساس استخدام تقنيات ووسائلَ تهدف الى شل قدرة الخصم ومواجهة سلطته واهدافه باستخدام سلطة رديفة لاعنفية تنطلق وتستند على الراي العام والالتفاف حول القضية (مقاومة لاعنفية).

ب- المقاومة المسلحة: وهي التي تستند على المقاومة المدنية وتتكامل معها، حيث تبدأ بعمليات محددة وتنتهي بجيش من المقاومة يُتمم عملية التحرير (اي تهديد امن المحتل وتحطيم معنوياته).

الآثار النفسية للارهاب على الشخصية العراقية: ان من اهم افرازات العدو الامريكي على الشعب العراقي هي:

١- ظهور امراض نفسية واضطرابات سلوكية ظهرت على شكل تناول المشروبات الكحولية والاكثار من التدخين وتعاطي الادوية المهدئة والمنومة.

٢- تناول المخدرات.

٣- ممارسة السلوك غير السوي كالعدوانية تجاه الآخرين والعصبية الزائدة

٤- اهمال العمل والواجبات الشخصية والتهرب من تبعات المسؤولية الاسرية.

٥- اضطراب في النوم وكثرة الاحلام المزعجة وعدم الشعور بالراحة، والشعور الدائم بالارهاق والقلق والضيق والتشوش في الفكر والشرود الذهني.

٦- التشتت في الانتباه والنسيان والانشغال الفكري في الارهاب.

٧- واعراض مرضية مثل الصداع والمغص وصعوبة في التفس وكثرة التقيؤ والتبول اللاارادي وانعدام الشهية للطعام.

٨- لقد اكد الباحثون على ظهور احساسات بآلام وهمية في حال مشاهدة الاشخاص الذين يتالمون جراء اصاباتهم في العمليات الارهابية.

مقاومة الارهاب:

في الوقت الحاضر يتطلب تفاعل جميع افراد المجتمع لمقاومة جميع اشكال الارهاب، ذلك ان أي جهاز أمن لا يستطيع ان يتولى مكافحة الجريمة ومنع ارتكابها بمفرده مهما بلغ من القدرة والكفاءة دون ان يكون هناك نوع من انواع التعاون بين جهاز الامن في المجتمع وبين المواطنين على اختلاف انتماءاتهم وتخصصاتهم وقدراتهم، وان هنالك عدة ادوار يستطيع ان يقوم بها المواطن وذلك من خلال التبليغ عن الجرائم والادلاء بالشهادة على وقوع الجرائم ومقاطعة المجرم واطاعة القوانين والانظمة والاسهام في القبض على الجناة.

معالجة الارهاب:

١. معالجة الارهاب لا تتم بمضاعفة قمع الراي والراي الاخر وانفاق المزيد من الثروات على تسليح قوات مكافحة الارهاب باحدث معدات القتال؛ بل الوقوف على الاسباب الحقيقية ومعالجة الامر بالحكمة والموضوعية.

٢. في وطننا العربي بصورة عامة وعراقنا الحبيب بصورة خاصة لا يمكن ان ينتهي العنف الا بقيام البدائل الديمقراطية التي ترتكز على المؤسسات الدستورية التي تحترم المواطن وتشاركه القرار وترفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتقلل الفوارق الطبيعية وتحل السلام الاجتماعي.

٣. اعادة النظر في تراثنا العربي الاسلامي بما يضمن قيم التعددية السياسية، والحرية الفكرية.
٤. مبادرة الحكومات بعلاج المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها الشباب علاجا جذريا وتوفير فرص العمل والقضاء على البطالة.
٥. الايمان باهمية الحوار لكونه الركيزة المهمة في النظام الديمقراطي والاعتراف بحق الآخر في التعبير عن رايه ووجهة نظره.

الاستنتاجات والتوصيات:

١. ان أي دراسة او استراتيجية لمقاومة الارهاب والعنف والتطرف لا تاخذ المواطن في الحسبان، سوف تكون ناقصة العناصر، وقد لا يكتسب لها النجاح في تقويم السلوك الارهابي المتمثل بجرائم الارهاب وجرائم العنف.
٢. على المختصين في العلوم النفسية والاجتماعية وخصوصا في مجال العنف والارهاب بذل المزيد من الجهود للخروج باطر نظرية قادرة على تفسير الظواهر الاجرامية المتمثلة في الارهاب والعنف.
٣. تفعيل دور المؤسسات (مؤسسات المجتمع المدني) المختلفة ليصبح لها دور فعال ومهم لمواجهة هذه الجهات الارهابية وليس الاقتصار على اجهزة الدولة وحدها في الساحة.
٤. ان يكون هناك اهتمام كبير من قبل الدولة لقطاعات الشباب باعتبارهم الشريحة المثقفة والمهمة في المجتمع، لذلك من الضروري جدا توفير المنتديات ومراكز الشباب ومقاهي الانترنت وصالات الالعاب الكمبيوترية وتوفير فرص العمل والسفرات العلمية والترفيهية من اجل احتواء هؤلاء الشباب وعدم اعطائهم الفرصة للتفكير باعمال تؤدي بحياتهم وحياة اخوانهم.

المصادر:

١- القرآن الكريم
٢- بن كثير (الحافظ عماد الدين ابو الفداء) ١٩٨٧ ،تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت ط ١
٣- ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) ١٩٥٥ لسان العرب ، المجلد الاول ، دار المعرفة ، بيروت لبنان
٤- البعلبكي ،مشير ، ١٩٩٧ ، المورد ، قاموس عربي انكليزي . دار العلم للملايين . ط ٣١
٥- التل ، احمد يوسف . ١٩٩٨ ، الارهاب في العالمين العربي والغربي ، عمان الاردن ، ط١
٦- عز الدين ، احمد جلال . ١٩٨٦ الارهاب والعنف السياسي كتاب الحرية ،العدد ١٠ دار الحرية للصحافة والطبع والنشر
٧- Compiled Py Joyco M.hawkins ،Oxford Univebol 1981 Dictionary ، Press Oxford . ،Oxford . Univer sity
٨- اليوسف ، عبد الله بن عبد العزيز ، ٢٠٠٦ الانساق الجتماعيه ودورها في مقاومة الارهاب والتطرف ، جامعة نايف العربية للعلوم الامنية ، السعودية
٩- العدل ، باتسر ، ٢٠٠٦ ، انترنت
١٠- إبراهيم ، ريكان ، (١٩٨١) ،(أ)، النفس والعدوان ، ط١، بغداد ، دار الشؤون الثقافية .
العيسوي، عبد الرحمن ، (١٩٩٩) ، علم نفس الشواذ والصحة النفسية ، بيروت ، دار الراتب الجامعية.
١١- الدوري، عدنان ، (١٩٨٥) ، جناح الأحداث : المشكلة والسبب ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل.
١٢- سكنر ، ب . ف ، (١٩٨٠) ، تكنلوجيا السلوك الإنساني ، ترجمة : عبد القادر يوسف ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٣٢) ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .
١٣- مرسي ، كمال إبراهيم ، (١٩٨٥) ، سايكلوجية العدوان ، مجلة العلوم الاجتماعي ، المجلد (١٣) ، العدد الثاني.
١٤- صالح ، قاسم حسين ، (١٩٨٨) ، الشخصية بين التنظير والقياس ، بغداد ، مطبعة التعليم العالي .
١٥- حمزة ، فرحان محمد ، (١٩٩٤) ، العدائية لدى طلبة الجامعة المقبولين والمرفوضين اجتماعياً ، جامعة بغداد، كلية الآداب ، رسالة ماجستير غير منشورة .
١٦- القهوجي ، علي عبد القادر ، (١٩٨٤) ، علم الإجرام والعقاب ، بيروت ، الدار الجامعية .
١٧- هول ، ك و ج ليتزري ، (١٩٧١) ، نظريات الشخصية ، ترجمة : فرح احمد وآخرون ، القاهرة ، النهضة المصرية للنشر .

الـكتاب : العلاقات الايرانية – الاوروبية (الابعاد وملفات الخلاف)

اسم الكاتب : سهيلة عبد الانيس محمد
جهة النشر : مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
سنة النشر : ٢٠٠٧

المدرس المساعد
سعد سلوم(*)

صدر عن مركز الامارت للدراسات والبحوث الاستراتيجية- الامارات العربية المتحدة العدد ١٢٦ من سلسلة دراسات استراتيجة تحت عنوان العلاقات الايرانية – الاوروبية الابعاد وملفات الخلاف للباحثة سهيلة عبد الانيس محمد.

تأتي اهمية هذه الدراسة من ان لجمهورية ايران الاسلامية ثقلها الإقليمي والدولي، سواء بموقعها الاستراتيجي أو إمكاناتها السياسية والبشرية والاقتصادية في الماضي والحاضر، ولها علاقاتها الدولية والإقليمية ولها استراتيجيتها الساعية لان تكون قوة إقليمية يعمل لها حساب عند التخطيط لتأمين أمن المنطقة، وهذا ما يجعلها تصطدم بقوى إقليمية ودولية .

وعلى الرغم من الضغوط الأميركية على الدول الاوروبية، استطاعت بعض دولها أن تحافظ على علاقاتها مع إيران، ومن جهتها دعمت إيران هذا الموقف رغبة منها في الحفاظ على علاقاتها مع دول المجموعة الأوروبية وزادت ظروف ومتغيرات بداية عقد التسعينات من القرن المنصرم من ذلك ، فانهيار نظام القطبية الثنائية وتفرد الولايات المتحدة بزعامة عالم ما بعد الحرب الباردة ، لاسيما بعد انتهاء حرب الخليج الثانية ، التي مثلت مرحلة بداية جديدة بوجود عسكري أميركي مباشر ومكثف في منطقة الخليج العربي ، الى ذلك كان الاحتلال العسكري الامريكي للعراق عام ٢٠٠٣ البداية الحقيقية لاحداث التغيير في موازين القوى في المنطقة ، فبعد ان كان العراق وايران يمثلان نقطة التوازن في المنطقة ، انفردت ايران وكثفت جهودها لكي تكون الدولة ذات الزعامة المطلقة في خليجٍ لم تعد فيه دولةٌ تخلو من وجود عسكري او احتلال الا ايران. الأمر الذي دفع الطرفين إلى تكثيف الجهود لتنمية علاقاتهما حفاظاً على مصالحهما في المنطقة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وجدت أوروبا نفسها عامل توازن مهم في المنطقة بين كلٍ من روسيا والولايات المتحدة.

(*) كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية.

من هنا سعت الدراسة الاجابة عن مجموعه من الاسئلة المثـارة بخـصوص العلاقـات الايرانية الاوربية منها ما طبيعة العلاقات الايرانية الاوروبية وما ابعادها وما المتغيـرات الدوليـة والاقليمية المؤثرة في هذه العلاقة وما هي اوجه الخلاف والمعوقات التي تحول دون تطورها وعلى هذا اشتملت الدراسة على ثلاثه محاور مهد محورها الاول لموضوع الدراسة باسـتعراض اهميـة ايران الجيوستراتيجة بالنسبة لاوروبا وماهية الرؤية الاوروبية لامن الخليج امـا المحـور الثـاني فنصرف الى دراسة الابعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية للعلاقة بين الطرفين وعـالج المحـور لثالث ملفات الخلاف في هذه العلاقة وهي البرنامج النووي الايراني والارهاب والتسوية في الـشرق الاوسط وملف الحريات وحقوق الانسان.

أما عن الاهمية الجيوستراتيجة لايران بالنسبة لاوروبا فإن الباحثة تشير الى كون ايـران- بالنسبة الى اوروبا- نقطه توازن في المنطقه وسببا من اسباب استقرارها وهي في الوقت نفسه تمثل اكبر عوامل التهديد المحتمل لامن اوروبا ، لذلك فان اوربا تنظر بحساسية الى موقع ايران ودورها الاقليمي والدولي . تشير الدراسة هنا الى انه اذا كانت الدوافع الاقتصادية ولاسيما الـدافع النفطـي والاسواق عاملا مهما في توجه اوربا نحو ايران فان هناك عاملين مهمين اخرين يمـثلان المرتكـز الجيوستراتيجي لايران في المدرك الاوربي : العامل الاول هو أن أوروبا وبعد نهاية الحرب الباردة وهيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي بدأت تسعى نحو التأسيس والترويج لنظام دولي متعـدد الاقطاب تكون هي أقطابه، ولذلك فهي تنظر إلى إيران علي أنها الدولة الوحيدة في الشرق الاوسـط الخارجة عن النفوذ الاميركي ، لذلك فان اوربا تحاول من خـلال علاقاتهـا بـايران ذات القـدرة الاقتصادية ان تخلق مجالا اقتصاديا يمثل احد مظاهر التعددية القطبية ووسـيلة لمناهـضة النفـوذ الاميركي وبذلك تمثل اهمية جيو ستراتيجة لاوربا.

اما العامل الثاني فهو سعي ايران المستمر لزيادة تحركاتها وانشطتها على المستويين الدولي والاقليمي في القارة الاسيوية وتطلعاتها لأن تصبح مركزاً لعدة تكتلات اقتصادية وإبراز مكانتها في المنطقة المحيطة بها ودورها القيادي مع القوى الأخرى مثل روسيا وتركيا والصين والهنـد، وفـي الربط بين الجنوب الآسيوي والشمال الاوروبي، ولذلك بدأت بطرح مـشاريع اقتـصادية أو إحيـاء مشاريع قديمة تحاول من خلالها مد أذرعها إلى داخل القارة الآسيوية ومد جسور العلاقة مع الإتحاد الاوروبي وقد وعت ايران هذه الاهمية لموقعها ومواردها النفطية وفقا للمدرك الاوربي واسـتطاعت توظيفه في اكثر من موقف واول المواقف كان كسر الحصار الاقتصادي الـذي فرضـته الولايـات

المتحدة ضدها منتصف التسعينات والثاني فقد كان هدفه سحب البساط من تحت اقدام الولايات المتحدة من خلال تحميل الاتحاد الاوربي مسولية متابعه المشكلات المتعلقة بالبرانامج النووي الايراني .

وعن الرؤية الاوروبية لامن الخليج تشير الباحثة الى ان منطقة الخليج العربي كانت وما تزال إحدى اكثر المناطق الساخنة في العالم، فهي منطقة تجذب نتيجة لأهميتها الجيوبولوتيكية اهتمام القوى الرئيسة والفاعلة في النظام الدولي وهنا يمكن تشخيص التصور الاوروبي لأمن الخليج. إذ يأتي أمن الخليج بالنسبة لدول الإتحاد الاوروبي بالمرتبة الثالثة بعد الأمن في دول اوروبا الغربية والوسطى، ثم الأمن على امتداد الطرف الجنوبي للقارة في إقليم المتوسط. فدول الإتحاد الاوروبي ترى أن أمن الخليج هي مسؤولية دوله بالدرجة الأولى فهي مسؤولة عن أمنه.

رغم اختلاف الرؤى الاوروبية حول أمن الخليج إلا أنها تتفق على ضرورة الإعتراف بأهمية الدور الإيراني في تحقيق أمن المنطقة. فإيران دولة مهمة بالنسبة لاوروبا وذات نفوذ قوي، وإن محاولة استبعادها وتحجيم دورها في المنطقة (كما تسعى الولايات المتحدة لتحقيقه) يعد حسب الرؤية الاوروبية بمثابة دعوة لإثارة العداء ضدها وعلى أثر ذلك تصل الباحثة إلى استنتاج مفاده ان الرؤية الاوروبية لأمن الخليج تختلف عن الرؤية الاميركية له، فاوروبا تدعو إلى يكون امن الخليج مسؤولية جميع الدول المطلة عليه، وتدعو إلى ضبط الصراعات وايجاد حلول لمشكلاتها السياسية والإقتصادية. وحل مشاكل المنطقة السياسية والحدودية بالطرق السلمية والارتكان إلى القانون الدولي والأمم المتحدة. وعلى أية حال فالواقع يشير إلى أن اوروبا ستستمر في دور المساعد والمساند للولايات المتحدة الاميركية في المنطقة، طالما تشابكت المصالح الاوروبية- الاميركية. رغم تفاوتها بعض الشيء، في ما يخص إيران والعراق. وتعيد الباحثة أسباب ذلك الى- الثقل العسكري الاميركي في المنطقة . عدم وجود نظرة اوروبية مشتركة تجاه مسألة الأمن في الخليج. - عجز الاتحاد عن بلورة سياسة مستقلة عن الإستراتيجية الاميركية.

وعن ابعاد العلاقة تحدد الباحثة ثلاثة ابعاد لتتبع هذه العلاقة وهي البعد السياسي الذي توكد فيه بالقول ان المتتبع لتطور العلاقات الإيرانية- الاوروبية يلاحظ أنها اتسمت في بعض الاحيان بالتوتر الا ان ذلك لم يمنع سعي الطرفين على تجاوز نقاط الخلاف والحفاظ على علاقات متوازنة، إذ أن كل طرف بحاجة إلى الطرف الآخر في الضغط على الخارج ، وحقيقة الأمر أن هذه العلاقة قائمة على الإنتقادات والإتهامات الموجهة من كل طرف للطرف الآخر، وهي على هذا الأساس علاقة تبعية قوية ومتبادلة تجعل من إيران المصدرالدولي (بعد دول مجلس التعاون الخليجي) للطاقة الأكثر أهمية بالنسبة لاوروبا، وزادت هذه الأهمية بشكل ملحوظ بعد الاحتلال الاميركي للعراق

٢٠٠٣ اذ فقدت اوروبا حليفها في المنطقة البعيد عن النفوذ الأميركي، وهذا بدوره جعل إيران الدولة الوحيدة في المنطقة التي تتمتع بقدر عال من الاستقلالية والقدرة على مواجهة الضغوط الاميركية، من ثم تجعل الاوروبيين الشريك التجاري الأكثر أهمية بالنسبة لها. وهذا ما عكس حاجة الإتحاد الأوروبي إلى صورة الحوار الإنتقادي، والذي حاولت اوروبا من خلاله تغطية الضغوط الأميركية وهنا تحدد الباحثة جملة من الدوافع الاوروبية لتطوير هذه العلاقة ومنها:

- تغير لهجة الخطاب السياسي الإيراني (بعد وفاة الخميني ١٩٨٩) وتحوله باتجاه البحث عن بديل عن النهج الثوري باعتماد (سياسة براغماتية) قادها هاشمي رفسنجاني.
- سعي الاتحاد الاوروبي إلى لعب دور محوري على مسرح العلاقات الدولية بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي ومحاولة اوروبا التخلص من الرؤية الاميركية ازاءها والقائمة على معاملة اوروبا كقزم سياسي وعسكري، وطفلة بحاجة إلى حماية أميركية.
- سيطرة الولايات المتحدة على الخليج العربي بأكمله (بعد احتلال العراق) (باستثناء إيران) وعليه فان إيران باتت تشكل المنفذ الوحيد لاوروبا في الخليج.

وعن الدوافع الايرانية

- رغبة إيران في الابتعاد عن مواقف الماضي في السياسة الخارجية الجامدة والانعزالية و الاتجاه نحو مواقف أكثر وداً وترحيباً وشمولاً ومن ثم تحسين صورتها في أنظار العالم.
- محاولة إيران الخروج من العزلة الدولية التي فرضتها عليها الولايات المتحدة من خلال سياسة الاحتواء التي سبقها ومنذ قيام الثورة ١٩٧٩ حظر اقتصادي.
- ان تفكك الاتحاد السوفييتي جعل إيران تواجه تحديات كان أولها انها فقدت القدرة على توظيف الخلاف الأيديولوجي بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي لصالحها، ذلك ان إيران كانت سابقاً في ظل الاستقطاب الثنائي في موضع يسمح لها في آن واحد استغلال القلق الاميركي بازاء الخطر السوفيتي في الشرق عامة وفي الجنوب خاصة.

وعلى هذا اتجهت إيران ولتعويض فقدان تعاونها الاقتصادي مع الاتحاد السوفيتي(السابق) في البحث عن بديل اقتصادي قوي، مستغلة في نفس الوقت ظروف حرب الخليج الثانية مواكدة انها ستمضي في طريق الاستفادة من الخارج وتحسين العلاقة معه وكان بروز الاتحاد الاوروبي كأكبر منافس اقتصادي للولايات المتحدة ، وقد شكلت المصالح المشتركة بين الطرفين الدافع الأساس لتطوير هذه العلاقة لكون المجموعة الأوروبية مثلت ولفترة طويلة الشريك التجاري الأكثر أهمية بالنسبة لإيران ، وإيران من الدول التي تسعى إلى توسيع التعاون مع أوروبا اذ أنها كغيرها ترى ان

العصر هو عصر التكتلات الاقتصادية الكبيرة إضافة إلى ان الهدف الذي تسعى الـى تحقيقـه هـو الارتباط بأكبر تكتل اقتصادي في العالم، وبالتالي فان الانضمام إلى هذا التكتل عن طريق التعـاون يعود عليها بالمنافع التكنولوجية والمالية والمعلوماتية وجلب الاستثمارات الأجنبية من اوروبا ومـن خارجها وهذا ما تناولته الباحثة في محور معالجتها للبعد الاقتصادي . محددة هنـا دوافـع الاتحـاد الاوربي للتطوير علاقاتها الاقتصادية مع ايران ومنها:

- بروز الأهمية الاقتصادية لإيران على اثر قيام الثورة ١٩٧٩ إذ تضاعفت أسعار النفط إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه
- الإمكانية الجيو-اقتصادية المتزايدة لإيران، بعد الحرب الباردة، فبانفـصال الجمهوريـات الإسلامية (آسيا الوسطى)، أصبحت إيران مرشحة لان تصبح (قطباً) تتشابك حوله مصالح شعوب ودول الشركات النفطية العظمى. اذ لم تعد إيران دولة مصدرة لنفطها فحسب، وانما دولة قد تكون مستقبلاً مصدرة لنفط غيرها، لاسيما نفط بحـر قـزوين، نظـراً لموقعهـا الجغرافي
- كبر حجم المغانم الاقتصادية التي حصلت عليها دول الاتحاد الأوروبي من علاقاتهـا مـع إيران من خلال عقد صفقات تجارية وبمبالغ ضخمة والاسـتفادة مـن غيـاب الـشركات الأميركية من الاستثمار في إيران.

وفي البعد العسكري للعلاقة تشير الباحثة بالقول ان دول المجموعة الاوروبية ساهمت إلـى جانب الولايات المتحدة في بناء ترسانة الشاه العسكرية. الا ان الحال تغيـر بعـد اعـلان الثـورة الإسلامية ١٩٧٩، بسبب الموقف الاوروبي والأميركي من الثورة، فاتجهت إيـران إلـئ الاعتمـاد وبشكل مركز على اقتناء السلاح السوفييتي لتعويض النقص الحاصل في ترسانتها على اثر العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة عليها. الا ان ذلك لم يمنع من قيام علاقات عسكرية سرية، حتى مع الولايات وهنا يمكن إيجاز أهم الدوافع الإيرانية في تطوير علاقاتهـا العـسكرية مـع دول المجموعة الأوروبية منذ بداية عقد التسعينات.

- ضعف القدرة الإيرانية على تحديث سلاحها بسبب الحظر الاميركي المفروض عليها منـذ نهاية عهد الشاه. الأمر الذي أدى إلى إحداث انقطاع في التواصل مع أجيال كاملة للأسلحة، وعليه نجد أن إيران سعت من وراء تطوير علاقاتها العـسكرية مـع دول اوروبـا إلـى الحصول على التقنية والتكنولوجيا الحديثة التي افتقدتها منذ نهاية السبعينات.

- محاولة إيران تعزيز امكاناتها العسكرية وتعويض ما دمرته حرب الثمان سنوات، ومواكبة التطور العسكري العراقي الأمر الذي خلق حالة من عدم التوازن بين الطرفين.وقد زادت احداث مابعد ٢٠٠٣ من الاندفاع الايراني نحو تحسين قدراتها العسكرية.

وعن ملفات الخلافات اشارت الباحثة بالقول انه بقدر ما كان هناك قواسم مشتركة ونقاط اتفاق، ومواقف سياسية متطابقة، هناك نقاط اختلاف وتباعد بين الرؤيتين الاوروبية والإيرانية في:

- الإصرار الإيراني على الاستمرار في تطوير برنامجها النووي.
- ملفات وقضايا حقوق الإنسان والديمقراطية في إيران.
- الموقف الإيراني من التسوية السلمية في الشرق الأوسط.
- استمرار الدعم الإيراني للإرهاب

ان إيران سعت ومازالت جاهدة في سبيل تطوير برنامجها النووي برغم الضغوط الدولية عليها، وترد أسباب هذا الاندفاع إلى جملة من الدوافع التي يمكن إيجازها بالآتي.

برغم ذلك فان أزمة الملف النووي الإيراني تجددت في حزيران ٢٠٠٤ ، عندما تبنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية قراراً أكدت فيه عدم تقديم إيران العون الكافي لفرق التفتيش الدولية، بناءاً على طلب قدمته دول الاتحاد الاوروبي ولاسيما (فرنسا و ألمانيا وبريطانيا) وطالبوا بتعليق أنشطتها الخاصة بتخصيب اليورانيوم وطالبت إيران تقديم الدعم الكافي للوكالة الدولية للطاقة الذرية لانجاز مهمتها، وهددت بأن يقدم ملفها النووي إلى مجلس الأمن الذي ربما سيفرض عقوبات اقتصادية على إيران وبهذا تتحقق المطامح الأميركية تجاه إيران وطالبت إيران بحقوقها قبل الموافقة على عمليات التفتيش المفاجئ في الحصول على رفع القيود عن التكنولوجيا النووية واستمرارا في المباحثات بين الطرفين توصل الطرفان في باريس ١٤ تشرين ثاني ٢٠٠٤ الى اتفاق تضمن التزام طهران بالوقف التام لكافة الانشطة الخاصة بدورة الوقود النووي وطيلة فترة المفاوضات التي سيتم اجرائها بين الطرفين ، على ذلك اقر مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية في ٢٢ من نفس الشهر البيان الأيراني_الاوروبي .

في المقابل احتوى الاتفاق على مكافات اوروبية مغرية ، كتعهد دول الترويكا بتقديم الدعم التكنولوجي للمساعي الايرانية الرامية الى تطوير قدراتها النووية السلمية في مجال انتاج الطاقة والعمل على تزويد ايران بالمعدات التكنولوجية اللازمة لبناء مفاعل نووي سلمي يعمل بالماء الخفيف لتوليد الطاقة الكهربائية ، الى جانب تامين احتياجات ايران من الوقود والطاقة اللازمين لمحطاتها والعمل على عدم احالة الملف النووي الى مجلس الامن شريطة التزام ايران بتعهداتها وتعهد دول

الاتحاد لايران لانهاء عزلتها الدولية السياسية والاقتصادية عن العالم الغربي ومساعدتها للانـضمام الى منظمة التجارة الدولية في المقابل طالبت طهران دول الترويكا بضرورة تحديد جـدول زمنـي لبدء المفاوضات التجارية بينهما ، إلا أن الممثل الاعلى للسياسة الخارجية الاوروبية" خافيرسولانا " أكد(ان التزام طهران بالاتفاق يعد شرطاً من شروط عديدة وضعتها الدول الاوروبية) ومنها :

- تحسين ملفها الخاص بحقوق الانسان .
- التخلي عن معاداة اسرائيل .
- ايقاف استخدام طهران لنفوذها داخل العراق وابداء قسط ملائم من التعاون البناء.
- تقديم الدعم الكافي لمكافحة الارهاب

وهنا لابد من الإشارة إلى انه يجب التفريق بين مواقف دول الاتحاد الاوروبي من الملـف النووي الإيراني ككتلة واحدة و الدول الاوروبية منفردة، فالأول وان بدى متشدداً تجاه إيران كما في موقف بريطانيا المؤيد للموقف الاميركي والقاضي بالوقف الكامل لانشطتها، الا ان بعض دوله تتفهم موقف إيران جيداً وتعي طبيعة علاقاتها المتوترة مع واشنطن ومحاولات الأخيرة المتكررة لاستغلال هذا التوتر وهذ ما يتمثل بالموقف الفرنسي والالماني ، فالموقف الفرنسي اتسم دائما بالاستقلالية عن الموقف الاميركي ويميل الى احتفاظ طهران بالحد الادنى من التكنلوجيا النووية و بالقدر الذي لايتيح لها امتلاك اسلحة نووية مع وجود رقابة دائمة على منشاتها النووية ويدفعها في ذلـك الرغبـة فـي الحفاظ على استثمارتها في ايران وعدم رغبتها في تكرار خسارتها لاستثمارتها فـي العـراق. امـا الموقف الالماني فهو يقف في نقطة الوسط بين تاييد بريطانيا للولايات المتحدة واسـتقلالية القـرار الفرنسي ، اخذا بنظر الاعتبار عقود العمل والاستثمارات الالمانية لدى ايران التـي تحتـل مرتبـة متقدمة عالميا في احتياطي النفط والغاز. ومع ذلك فالاتحاد الاوروبي لم ينجـرف وراء المحـاولات الأميركية المتكررة لعزل إيران واحتفظ لنفسه بسياسة محايدة واستراتيجية منفصلة تقوم على النظـر بموضوعية للعلاقات مع إيران، وهذا ما انعكس على موقف الاتحاد الاوروبي من المسائل الإيرانيـة بشكل عام.

وتاتي أزمة الملف النووي الإيراني في الوقت الراهن في طليعة القضايا الدولية التي يشترك فيها عدة أطراف (الولايات المتحدة الأميركية- الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA- الأمم المتحدة والاتحاد الاوروبي وإيران نفسها) وهي تفرض نفسها بقوة كواقع سياسي لا مفر منه، وهي تمثل في نفس الوقت تحديات كبيرة للجمهورية الإسلامية التي ستسعى الى الخروج منهـا بأفـضل النتـائج

السياسية، ومع ذلك فالكرة مازالت في الملعب الإيراني، ويعتمد مصير إيران على اتخاذ قرار حيال مراعاة المصالح الاستراتيجية لها. وعن الارهاب تشير الباحثة.

بالقول ان تداعيات أحداث الحادي عشر من أيلول في الولايات المتحدة تركت انعكاساتها الواضحة على مسار العلاقات الدولية ومن بينها العلاقات الإيرانية- الاوروبية، إذ ان الدعوة الأميركية لتشكيل تحالف دولي لمحاربة الإرهاب، بما في ذلك الدول الداعمة له بنظر الولايات المتحدة، ولدت استقطاباً دولياً مؤيداً للدعوة الأميركية أو مضاداً لها في بعض الأحيان، لاسيما ان الولايات المتحدة قد صنفت العالم ألى دول مع التحالف المناهض للإرهاب بالمفهوم الأميركي والغربي أو ضده.

وبما ان أغلب دول الاتحاد الاوروبي ان لم تكن جميعها كانت مؤيدة وداعمة للتحالف ضد الإرهاب، فان التأييد الاوروبي للتحالف ضد الإرهاب، كانت له انعكاساته على علاقة دول الاتحاد الاوروبي مع دول تصنفها الولايات المتحدة بالدول الراعية أو الداعمة له كإيران.([i]) وقد وضعت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة العديد من الدلائل التي تؤكد مساندة إيران ودعمها للجماعات الارهابية.

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول انه في ظل استمرار الهيمنة الأميركية واستمرار إيران في سياستها الداعمة للإرهاب، جعل موقفها أمام دول الاتحاد الاوروبي محرجاً، أو في الأقل يشكل أحد عوامل التردد في تطوير العلاقة معها ومع ما شهدته السياسة الإيرانية من مراجعة لمواقفها وسياستها المتعلقة بالإرهاب يرى المحللون انها ستؤدي إلى تحسن نوعي في صورتها الدولية، ولاسيما أمام الدول الاوروبية، اذ لاقى هذا التغير استجابة اوروبية واضحة لتطوير علاقاته معها، وبذلك استطاعت إيران من تغيير صورتها (ولو جزئياً) تلك التي ابتدات بالرهائن الأميركان ١٩٧٩ وترسخت من خلال العديد من العمليات الإرهابية في لبنان والخليج العربي، والتي أعطت حينها قناعة تامة عن دور إيران في ممارسة ودعم الإرهاب الدولي.

وعن موقف ايران من التسوية في الشرق الاوسط.

ترى إيران القضية الفلسطينية قضية مبدئية تهم الأمة الإسلامية برمتها، وعلى هذا اتخذت إيران موقفاً حاسماً من تلك القضية وطريقة حلها، وكذلك من المحاولات التي جرت وتجري بهذا الشأن وجاء هذا الموقف مبدئياً على أساس انه "لا ناقش في المبادئ" (اذ كان هناك نقاش بين الأطراف في ما يتعلق بالفروع، فلا يمكن اطلاقاً النقاش في الأصول "أي المبادئ" إذ ان سلامة ارض الإسلام من العدوان اللاإسلامي قضية مبدئية، اذ لا نقاش فيها، كما ان عودة الحق إلى

أصحابه أمر واجب لا مناص من تحقيقه) ، وبناءاً على هذا جاء الموقف الإيراني من التسوية في الشرق الأوسط معبراً عن رفض كل ما يتعارض واعتقادها بالمبادئ. وهنا لابد من تأكيد حقيقة هي ان إيران لا ترفض السلام، لو كان سلاماً حقيقياً.

ومن هنا يمكن القول ان النصف الثاني من التسعينات شهد تطوراً واضحاً في الموقف الإيراني من عملية التسوية اذ تبنى المتشددون موقفاً رافضاً للتسوية الا انهم في نفس الوقت أكدوا التزامهم بعدم تخريبها وهو ذات الموقف الذي يتبناه الاصلاحيونان استمرار الرفض الإيراني للتسوية قد يسبب لها أزمة مع الدول الاوروبية، التي تجد في التسوية الساحة التي تؤكد فيها ذاتها في مجالات السياسة والأمن والاقتصاد، بالشكل الذي يجعلها اللاعب الدولي الفاعل، بما يتناسب وحجمها الاقتصادي والسياسي من جهة، وإيران التي تسعى لتطوير علاقاتها معها من جهة اخرى ، ولأن دول الاتحاد تؤيد اتفاقيات التسوية وبشكل كبير مما يدفع الولايات المتحدة وإسرائيل دعوة دول الاتحاد بضرورة تقليص علاقاتها مع إيران.

وعن مسألة الحريات وحقوق الإنسان

تولي الدول الاوروبية أهمية كبرى لها، وتعدها استجابة لقيم إنسانية ولمبدأ الديمقراطية، وتطالب بمزيد من الحريات والديمقراطية لكافة دول العالم. وبما ان موضوعة حقوق الإنسان مثلت عنصراً مهماً في الخطاب الايديولوجي في النظام العالمي الجديد، وان كان ليس من مبتكراته، وانما كانت جزء من مكاسب نضالات الإنسانية، التي بفضلها كرست مواثيق الأمم ودساتير الشعوب. سعت اوروبا لإرساء سبل احترام حقوق الإنسان في الشرق الأوسط عموماً وفي إيران خصوصاً وحددت لذلك جملة من النقاط لتحقيقها ومنها، ومن الجدير بالذكر ان المسبب المباشر في ازدياد حدة التوتر بين إيران ودول الاتحاد الاوروبي يرجع الى موضوع حقوق الإنسان، الذي أثير بعد ارتفاع حدة المشاحنات والتوترات التي عبرت عنها مظاهرات الطلبة في طهران عام ١٩٩٩ الأمر الذي دفع دول الاتحاد الاوروبي إلى زيادة الضغوط على إيران بضرورة إدخال إصلاحات سياسية تقلل من حالة الاحتقان الداخلي وتسمح بمزيد من الحريات والانفتاح، وبحسب الباحثة ستظل أزمة الملف النووي في طليعة قضايا الخلاف بين الطرفين، الإيراني والأوروبي، السؤال يتركز حول : هل يستمر الأوروبيون على المسافة السابقة ذاتها من المحاولات الأميركية لعزل إيران، إن لم نقل؛ مهاجمتها عسكرياً في قابل الأيام؟.

Mustansiriya Of Higher Education
and Scientific Research

Al- Mustansiriyah University
College of political Science

The International and Political Journal

ISSN = 1991 - 8984